

ر. م. ماکیشور  
شارلزیپیج

# المجتمع

ترجمة  
الدكتور علي احمد عيسى



الجمعة

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

# المجتمع

تأليف

ر.م. ماكيثرو شارلز هوبلج

ترجمه

الدكتور علي احمد عيسى

مع مقدمة تحليلية بقلم المترجم

مكتبة الطبع والنشر  
مكتبة النهضة المصرية  
أصاحبا حسن يوسف محمد وأخواتها  
٩ شارع عدل إمامة

هذه الترجمة مرخص بها ، وقد قامت مؤسسة فرانكلين  
للطباعة والنشر بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق .

This is an authorized translation of "SOCIETY,  
AN INTRODUCTORY ANALYSIS by R. M.  
MacIver and Charles H. Page. Copyright, 1937, by  
Robert M. MacIver ; 1949, by Robert M. MacIver and  
Charles H. Page. Published by Rinehart and Com-  
pany, Inc.

# محتويات الكتاب

صفحة

مقدمة المترجم

كلمة عن علم الاجتماع بالذات . . . . . ٣

## الكتاب الاول

تقديم

الباب الأول : مدخل الى المجتمع

كلمة استهلالية . . . . . ٩

## الفصل الأول : المفاهيم الاولى

- لغة علم الاجتماع . . . . . ١١

- المجتمع . . . . . ١٦

- الجماعة المحلية . . . . . ٢٣

- الروابط . . . . . ٢٩

- النظم . . . . . ٣٥

- العادات الجمعية ومظاهر السلوك العام ، والآداب العامة .

## الفصل الثاني : المصالح والمواقف

- المواقف والحياة الاجتماعية . . . . . ٥١

- المواقف الارتباطية والانفصالية . . . . . ٥٧

- الدراسة الاحصائية للمواقف . . . . . ٦٣

- أنواع المصلحة في الحياة الاجتماعية . . . . . ٧١

- المواقف والمصالح من حيث كونها بواعث . . . . . ٧٧

## الفصل الثالث : الفرد والمجتمع

- المقصود بقولنا الانسان حيوان اجتماعي . . . . . ٨٧

- الفردية والمجتمع . . . . . ١٠٣

- « الثقافة » والشخصية . . . . . ١١٥

- التعاون والتنازع . . . . . ١٣٠

## الباب الثاني : المجتمع والبيئة

كلمة استهلالية . . . . . ١٤٩

## الفصل الرابع : البيئة وانحياة

- ١٥١ . . . . . - البيئة والتوافق
- ١٦٤ . . . . . - دراسة الوراثة والبيئة
- ١٩٢ . . . . . - عدم امكان الفصل بين الوراثة والبيئة

## الفصل الخامس : الجغرافيا والانسان

- ١٩٩ . . . . . - الجغرافيا والحياة الاجتماعية
- ٢٢١ . . . . . - الأرض والسكان

## الفصل السادس : البيئة الشاملة وسد الحاجات

- ٢٣٥ . . . . . - البيئة والتراث الاجتماعى
- ٢٤٤ . . . . . - عملية الانسجام المطرد مع البيئة الشاملة

## الكتاب الثانى

### التركيب الاجتماعى

## الباب الأول : القوى المؤيدة لقواعد السلوك والعادات الجمعية

- ٢٧١ . . . . . - كلمة استهلالية

## الفصل السابع : الآداب العامة والضبط الاجتماعى

- ٢٧٣ . . . . . - قواعد السلوك والجزاءات فى الحياة الاجتماعية
- ٢٨٣ . . . . . - العمليات المطردة والوسائل المؤدية الى استمرار الآداب العامة
- ٣٠٧ . . . . . - القهر والنظام الاجتماعى
- ٣٢٠ . . . . . - الضبط الاجتماعى فى الجماعات المحلية الفاضلة ( أرتوبيا )

## الفصل الثامن : قواعد السلوك الكبرى

- ٣٢٩ . . . . . - مقدمة : قواعد السلوك ودراستها
- ٣٣٣ . . . . . - الدين ومقاييس السلوك
- ٣٤٦ . . . . . - العادة الجمعية والقانون
- ٣٥٩ . . . . . - العادة المستحدثة والعادة الجمعية ( المتأصلة )

## الفصل التاسع : قواعد السلوك والحياة الفردية

- ٣٧٥ . . . . . - العادة الجمعية والعادة الفردية
- ٣٩٠ . . . . . - الفرد فى مواجهة الآداب العامة
- ٤٠٢ . . . . . - قواعد السلوك والحكم الفردى : مشكلة الحرية الخلقية

## المشتركون في هذا الكتاب

المؤلف : — روبرت موريسون ماكيفر .

— ولد في ستورنوي باسكتلندا في ١٧ أبريل ١٨٨٢ .

— حصل على الماجستير من أدنبرة عام ١٩٠٣ وعلى بكالوريوس الآداب من اكسفورد عام ١٩٠٧ وعلى الدكتوراه عام ١٩١٥ ونال عدة درجات علمية رفيعة من جامعات كولومبيا وهارفارد وپرنتون وييل . وشغل كراسى علم السياسة وعلم الاجتماع والفلسفة السياسية في عدة جامعات أمريكية وزميل بالجمعية الملكية البريطانية .

— أستاذ كرسى الفلسفة السياسية والاجتماعية بجامعة كولومبيا .

— من مؤلفاته بالانجليزية : الجماعة المحلية ، ومبادئ العلم الاجتماعى ، والدولة الحديثة ، والمجتمع تركيبه وتغيراته ، والعلية الاجتماعية ، المجتمع والعمال في عالم متغير ، وحرية الفكر الاكاديمى في زماننا .

المؤلف : — تشارلز هنط يدچ .

— ولد في توناواندا بنيويورك في ١٢ أبريل سنة ١٩٠٩ .

— حصل على درجة بكالوريوس الآداب من الينوى عام ١٩٣١ ودكتوراه الاجتماع من جامعة كولومبيا عام ١٩٣٩ وشغل كرسى الاجتماع والاثروبولوجيا في بعض الجامعات الأمريكية ويربط في تدريسه بين علم الاجتماع والاثروبولوجيا .

— أستاذ كرسى الاجتماع بكلية سميث .

— من مؤلفاته بالانجليزية : النظام الطبقي ، والحرية والضبط الاجتماعى : والمجتمع .

المترجم : — على أحمد عيسى .

— ولد فى الاسكندرية بمصر فى ١١ أغسطس سنة ١٩٠٦ .

— حصل على ليسانس الآداب عام ١٩٣٤ وماجستير الاجتماع عام ١٩٣٧ من جامعة القاهرة ودبلوم فى التربية ودبلوم الدراسات العليا الاجتماعية من جامعة باريس عام ١٩٣٩ ومعادلة بكالوريوس العلوم عام ١٩٤٧ ودكتوراه الفلسفة فى العلوم من جامعة اكسفورد عام ١٩٥٠ ، ويربط فى تدريسه بين علم الاجتماع والاثروبولوجيا ، وهو زميل بالمعهد الملكى الاثروبولوجى لبريطانيا العظمى وايرلندا ، وعضو لجنة فحص جوائز الدولة للعلوم الاجتماعية لعام ١٩٥٦ ورئيس معهد العلوم الاجتماعية بجامعة الاسكندرية .

— أستاذ كرسى الاجتماع بجامعة الاسكندرية .

— من مؤلفاته بالانجليزية : النظام القروى فى غربى الدلتا ، وطرق البحث فى علم الاجتماع المقارن ، دراسة نقدية للنظريات والأبحاث العقلية ، وضع العلوم الاجتماعية وتدريسها فى مصر ، وبالفرنسية : عادات وتقاليد الزواج فى ناحية قايل مركز دمنهور ، وبالعربية : الاثروبولوجيا ( تحت الطبع ) .

مصمم الغلاف : — عبد الفتاح محمد هيكل .

الأستاذ بكلية الفنون التطبيقية .

# مقدمة تحليلية

بقلم

الدكتور علي أحمد عيسى

يعد الأستاذ ج. د. ه. كول G.D.H. Cole من أبرز الكتاب المعاصرين في النظرية الاجتماعية وهو وإن كان أميل الى التخصص في علم السياسة إلا أنه استطاع بكتاباته العميقة أن يخدم النظرية الاجتماعية أكثر من بعض الاجتماعيين أنفسهم . وسنحاول أن نتخذ من نص له جاء في كتابه عن النظرية الاجتماعية نقطة البداية في نقدنا لكتاب ماكيفر وييج . أما لماذا فضلنا أن نبدأ بأراء الأستاذ كول ، فلأن من طبيعة كل من البحث العلمي والنقد العلمي أن يكون «تفضيليا» eclectic في النظريات والفروض الموجهة التي يعتمدان عليها فيما عدا البحث الذي يجري لغايات تطبيقية وعملية (١) حيث نجد الغاية المحددة التي لا سبيل الى تفضيل سواها هي نقطة الارتكاز عند الباحث .

ذكر كول (٢) أن المعنيين بالنظريات الاجتماعية منصفون عن استخدام المصطلحات وطريقة البحث المناسبة لمادتهم الى محاولة التعبير عن وقائع الحياة الاجتماعية وما يسودها من قيم باصطلاحات متبعة في نظريات أو علوم أخرى . ويمضى فيقول انهم يفسرون المجتمع على نمط العلوم الطبيعية « الفيزيائية » بأنه « ميكانيزم » ويفسرونه على نمط علم الحياة بأنه « كائن عضوى » وعلى نمط العلوم العقلية أو الفلسفية « كشخص

Cf. Taylor, F. S., *Concerning Science* (London, Macdonald & Co., (١)

1949), p. 57.

Cole, G.D.H., *Social Theory* (London, 1923), p. 13.

(٢)

معنوى « وفي بعض الأحيان يفسرونه على النمط الدينى تفسيراً يميل الى الخلط بينه وبين فكرة « الله » .

وفي اعتقادنا أن هناك ما يسوغ انصراف الاجتماعيين عن الجدول المنهجى واللفظى حول المصطلحات الى شرح وقائع العلم الذى يخدمونه ؛ فقد سبق أن شغلهم هذا الجدل فى أوائل القرن العشرين حتى أوشك أن يحول دون تقدم علم الاجتماع ، ولقد ظن فى وقت من الأوقات أن مبعث جدلهم المنهجى واللفظى قلة ما لديهم من مادة <sup>(١)</sup> . ومن الناحية المنهجية ليس هناك ما يمنع من تعدد المداخل الى علم الاجتماع نظراً لأن مؤسسيه قد تلقوا تدريبهم الأول فى علوم أخرى فيزيقية أو حيوية أو فلسفية <sup>(٢)</sup> . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن طبيعة المجتمع نفسه تقبل النظر اليه من زوايا مختلفة ، ومن ثمة لم يكن هناك ما يمنع من التجاء الاجتماعيين الى أكثر من تفسير على النحو الذى أشار اليه كول دون أن يكون هذا الاجراء منافياً للاتجاهات الميثودولوجية الصحيحة . ولزيادة الاقتناع بهذا الاتجاه ربما أمكن أن نكتفى بالإشارة الى أن أى كائن عضوى حى تدخل فى درسه تفسيرات أخرى عدا التفسير البيولوجى كالتفسير الفيزيقي والعقلي مثلاً . وعلى ذلك فلا ينبغي أن تقف الألفاظ بأى حال عقبة فى سبيل تقدم العلم . وعلى الأخص اذا عرفنا أن اللغة كانت ولا تزال وستظل أبداً أقل درجة وفى المحل الثانى بالنسبة للفكر وأنها الى حد كبير تشبه التصرف العملى اذا قيس بالمثل الأعلى الذى

---

•Cf. Fortes, M., *The Dynamics of Clanship Among the Tallensi* (London, (١)

•O. U. P., 1945), Foreword, p. ix.

•Cf. Issa, Aly A., *The Teaching and Position of Social Sciences in Egypt* (٢)

(Cairo, Librairie des Lettres, 1956), pp. 12 and 23.

لنشده لتصرفاتنا<sup>(١)</sup> ، وفوق ذلك فاننا في حاجة دائما لشرح معنى المصطلحات التي نستخدمها في كل بحث علمي نقوم به وعلى الأخص في ميدان العلوم الاجتماعية نظرا الى أن معظمها مستمد من لغة الحياة العملية<sup>(٢)</sup> وعلاقتنا التي هي موضوع علم الاجتماع . ولأن الكلمة كأي كائن حي يطرأ عليها كثير من التغير وقد تتحول آخر الأمر الى صوت أو مجرد نغم أجوف<sup>(٣)</sup> . ومن أمثلة الجدل العقيم في العلوم الاجتماعية تلك المناقشات التي لا تنتهي حول الاصطلاح « كلتور » - الثقافة - Culture وهل لمعتبره مرادفا للاصطلاح « الحضارة » Civilization كما فعل ا.ب. تيلور E.B. Tylor وعدد من المشتغلين بالعلوم الاجتماعية أو مختلفا عنه كما فعل غيرهم<sup>(٤)</sup> .

وفي ضوء ما تقدم نرى أن ماكيفر R.M. MacIver قد غلب عليه الاتجاه الفيزيقي في كتابه الأول<sup>(٥)</sup> ( دون اشتراك س . ه . بيج C.H. Page معه ) .

ونحن نراه هو وبيج Page في الكتاب الذي تقدم له يعمدان الى تكييف الظواهر الاجتماعية وتفسيرها من ناحية العناية بالميكانيزم ، وهو

Montague, F.C., *The Limits of Individual Liberty* ( London, Rivingtons, (١) 1885), pp. 64-65.

Bvans-Pritchard, E.E., *Social Anthropology* ( London, Cohen & West, (٢) 1951), p. 2.

Montague, F.C., *Ibid.* (٣)

(٤) وقد أدى الامر الى أن نجد أحد الاجتماعيين العراقيين وقد ضاق ذرعا بالثقافة أو الحضارة كترجمة للاصطلاح قد عربه بقوله الكلثور أو القلتور وبالنطق الالساني لكلمة Kultur . هذا ما عرفته من الرميل العراقي الدكتور عبد الجليل الطاهر أستاذ علم الاجتماع في بغداد .

*Society: A Textbook of Sociology* ( New York, Rinehart, Inc., April, (٥) 1937, ninth printing, January, 1947).

أحد الاتجاهين اللذين تميل اليهما المدرسة الأنثروبولوجية البريطانية بزعامة رادكليف براون في الوقت الحاضر . ولا ينبغي أن نظن أن هذه المدرسة تختلف عن المدرسة الاجتماعية الفرنسية بزعامة دوركايم . وقد فطن الكتاب الأمريكيان قبل سواهم الى هذه الحقيقة ونذكر منهم هانكنز الذي اعتبر دوركايم وليفى برول وموس وغيرهما من أعضاء مدرسته أنثروبولوجيين<sup>(١)</sup> . وروبرت لوى الذى أشار اليه رادكليف براون رغم كونه بريطانيا وأنثروبولوجيا باعتبار أنه سوسيولوجي وأدرجه تحت المدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع لشدة اتصاله بالفكر الفرنسى<sup>(٢)</sup> . وإذا كان هناك من فارق بين المدرستين فهو ما ذكره رادكليف براون من أنه بالرغم من أن الاجتماعيين الفرنسيين كانوا سابقين في العمل على تقدم النظريات الاجتماعية فانهم — فيما عدا محاولات محدودة قام بها كل من دوتيه Doutté ورنيه مونييه René Maunier في شمالى أفريقيا لم يظهروا كما يتضح من منهجهم أى ميل قوى نحو الدراسة التجريبية على المجتمعات الانسانية<sup>(٣)</sup> .

والدليل على أن ماكيفر وييج يهتمان « بالميكانيزم » كثرة الاشارة الى المجتمعات الكاملة المدروسة في جهات مختلفة من العالمين البدائي والمتحضر واعتمادهما عليهما في الوصول الى نظريتهما . والمقصود بدراسة ميكانيزم المجتمع أمران : الأول الدراسة الفيزيائية والثانى — بشرط تحقق الدراسة التكاملية وهو ما اشتهرت به المدرسة

---

Hankins, F.H. *An Introduction to the Study of Society* (New York, (١)  
Macmillan, 1929), p. 526.

Lowie, R.H., *The History of Ethnological Theory* (New York, Rinehart (٢)  
& Co., 1938), p. 231.

Radcliffe-Brown, A.R., *The Present Position of Anthropological Studies* (٣)  
(London, Spottiswoode, 1939), p. 18.

الأنثروبولوجية البريطانية - هو الدراسة الوظيفية Functional التي تعين على تفسير الظواهر المختلفة في داخل المجتمع الواحد . ويرى رادكليف براون أنها تعنى بالمشكلة ذات الزمن المحدود synchronic أى التى تختص بدراسة مجتمع معين فى فترة محدودة من تاريخه (١) . ويغلب على ماكيفر ويبج بعد ذلك الاتجاه نحو الدراسة المقارنة للمجتمعات الانسانية وهما يتفقان هنا مع الاتجاه الثانى الذى تميل اليه المدرسة الأنثروبولوجية البريطانية . وقد عبر عنه رادكليف براون بأنه المشكلة الداخلة عبر الزمن أو diachronic أى التى تختص بالمقارنة بين مجتمعين درسا فى زمانين مختلفين (٢) . والذى يجعل الكتاب الذى نحن بصددته متفقا مع وجهة النظر العلمية وصوله الى تعميمات أقيمت على الدراسة المقارنة . وهذه التعميمات القائمة على جمع الوقائع وفرض الفروض وتحقيقها ثم دحضها أو تعديلها أو اقرارها فى ضوء وقائع جديدة أكثر تعقيدا تمثل الاتجاه الذى يتبعه رادكليف براون وتلاميذه فى الوقت الحاضر (٣) . ولهذا السبب يتقبل المشتغلون بالاجتماع والأنثروبولوجيا فى الجزر البريطانية هذا الكتاب ويعتبرونه مرجعا رئيسيا لمادتهم .

ومن الممكن ألا ينشأ تعارض بين دراسة ماكيفر ويبج لميكانيزم المجتمعات وبين النظر اليها ككائنات عضوية لأن طبيعة المجتمع كما ذكرنا من قبل تقبل النظر اليه من أكثر من زاوية . وعلى سبيل المثال نشير الى أن المدرسة الأنثروبولوجية البريطانية تنظر الى المجتمع وهى تدرس الميكانيزم الذى يسير عليه نظرة طبيعية ثم تبحث عن وظائف عناصر الثقافة التى يتألف منها المجتمع نظرة فسيولوجية ، حيوية ، مدخلة فى

Op. cit., p. 21. (١)

Ibid. (٢)

Op. cit. p. 19 (٣)

الاعتبار التكامل الاجتماعي social integration على نمط التكامل القائم في الأجسام الحية وعلى أساس توقف العناصر بعضها على بعض، وعملها المشترك لصيانة وجودها المتناسق<sup>(١)</sup>. وربما كان دور كايم أول من أشار إلى العلاقة بين الحياة والتركيب أو البنيان بطريقة تؤكد أن هذه العلاقة أقوى في المجتمع منها في الكائن الحي<sup>(٢)</sup>.

أما موضوع العقل الجمعي الذي أسرف فيه دور كايم<sup>(٣)</sup> ومضمونه اعتبار المجتمع شخصا معنويا له تصرفاته وأحكامه على الأفراد ، فقد أخذ به المؤلفان أخذا معتدلا ولم يتناولاه إلا في معرض الكلام عن الزمر أو الجماعات الصغيرة ولكنهما على أية حال لم يضعاه في المكان الأول بين العوامل المؤثرة في الحياة الاجتماعية . ونلاحظ أن تحليلهما لما يتعرض له الفرد من الزام يعتمد على عملية غرس الأفكار في الفرد منذ الطفولة ، ويسميانه indoctrination process والباعث عليها في نظرنا اجتماعي والمقصد فردي وفي عدد قليل من الحالات يركز كل من الباعث والمقصد على أساس فردي . وتؤدي عملية غرس الأفكار في نهاية الأمر إلى خلق نوع الشخصية الرئيسية Basic Personality Type التي تميز المجتمع بوجه عام . وقد بلغ من اهتمام الاجتماعيين بهذه العملية وتائجها أن جعلوا عمليات غرس الأفكار في مرحلة الطفولة أهم موضوع

---

Op. cit., p. ١٣ (١)

Durkheim, E., *Les Règles de la Méthode Sociologique*, Paris, 1895, English (٢) trans., *The Rules of Sociological Method*, by Sarah A. Solway and John H. Mueller (Glencoe, Illinois. The Free Press, 1938), p. ١٣ n. 4, his *Division du Travail Social* (Paris, troisième édition, 1911), p. ١١.

See, for example, op. cit., Durkheim, *The Rules of Sociological Method*, (٣) author's Preface to second edition, pp. lv and lvi.

للدروس لفهم المجتمع الذى تجرى فيه هذه العمليات<sup>(١)</sup> . وتقودنا هذه النقطة الى الرجوع الى جبريل تارد Gabriel Tarde وباجوت Bagehot وغيرهما ممن وجدوا فى التقليد والفردية تفسيراً للظواهر الاجتماعية<sup>(٢)</sup> . وهذا اتجاه يعضده الآن فريق من المشتغلين بالاجتماع والاثروبولوجيا الاجتماعية نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ماكيفر وبيج فى كتابهما الذى تقدم له وجنسبرج M. Ginsberg<sup>(٣)</sup> و ساير E. Sapir<sup>(٤)</sup> وفورتيس M. Fortes<sup>(٥)</sup> .

وما يشير اليه كول فى مستهل هذه المقدمة من تفسير المجتمع على النمط الدينى تفسيراً يميل الى الخلط بينه وبين فكرة الله ، فمرجه — فيما يبدو لنا — الفكرة المتداولة فى علمى التاريخ والاجتماع عن التفسير الروحى للحياة الاجتماعية وتقوم على تصور فلسفى للوجود Weltanschauung يعود بنا الى ما قبل الوصول الى فكرة الله حينما عرفت البشرية الأرواح كأول عامل يفسر أحداث الوجود<sup>(٦)</sup> .

---

Cf. Nadel, S.F., *The Foundations of Social Anthropology* (London, (١) Cohen & West, 1951), p. 406.

Barnes, H.E., 'The Social and Political Theory of Gabriel Tarde,' (٢) Chap. XXV, in Barnes, H.E. (editor), *An Introduction to the History of Sociology* (The University of Chicago Press, Chicago, Illinois, 1948), pp. 471 ff.

In his *Sociology* (London, O.U.P., 1934 reprinted in 1949), pp. (٣) 28-128, and *The Psychology of Society* (London, Methuen & Co., sixth edition 1944), p. iv, and 'Psycho-analysis and Sociology', in *Politics and Letters* (London), Nos. 2 and 3, 1947, pp. 74 ff.

See his various articles in the *Ency. of the Social Sciences*. (٤)

In his *Dynamics of Clanship Among the Tallensi* (London, O. U. P., (٥) 1945), p. 142.

Cf. Evans-Fritchard, E.E., 'The Intellectualist (English) Interpretation of Magic', in *Bulletin of the Faculty of Arts, Egyptian University, Cairo*, Vol. I, Part II, Dec. 1933, p. 291.

ولا نستطيع اغفال هذه النظرية عندما تتأمل طريقة الحكم عند قدماء المصريين والشرقيين حيث لعبت القوة السحرية الكامنة في الحاكم دورا هاما في استقرار الحكم <sup>(١)</sup> ، أو عندما نحلل النظام الاجتماعي في كثير من المجتمعات الافريقية المعاصرة مثل الأزاندي حيث نجد الاعتقاد في العين الشريرة وفيما فوق الطبيعة أساس الحياة الاجتماعية والسياسية معاً. وأن إلههم مبوري Mbori لا يزال مجرد فكرة غامضة وهو في نظرهم خلق الكون وتخلي عنه . أما ما يجري من أحداث بعد ذلك فمرده الى الأرواح، يؤيد ذلك ايفانز بريتشارد <sup>(٢)</sup> وما دوناه في مذكراتنا الخاصة عند زيارتنا لهم في عام ١٩٥٥ .

وأكبر الظن أن رادكليف براون يشير من طرف خفي الى التأثير الروحي في تنظيم المجتمع حينما يتحدث عن تكامل عناصر الثقافة في داخله تكاملاً عضوياً بحيث يؤدي الى حياة اجتماعية مستوية <sup>(٣)</sup> ، اذ هو لم يشرح لنا كيف يتم هذا الاستواء الا أن يكون من تلقاء نفسه وبطريقة ما. والرأى عند كثيرين من علماء الاجتماع أن هناك ثلاثة نظم اجتماعية أوجدتها المجتمعات منذ القدم من تلقاء نفسه أيضاً ، ولا بد من وجودها في كل المجتمعات الانسانية لضمان استقرارها واستمرارها وهي الدين والملكية العامة والزواج <sup>(٤)</sup> . واذا تطور المجتمع دخل العامل الفردي في خلق نظم اجتماعية أكثر ملاءمة له هي الملكية الخاصة والأسرة والكنيسة والمدرسة والحكومة الديمقراطية <sup>(٥)</sup> .

(١) Childe, V.G., *History* (London, Cobbett Press, 1947), p. 37.

(٢) Evans-Pritchard, E.E., *Witchcraft, Oracles and Magic Among the Azande* (Oxford, At the Clarendon Press, 1937), pp. 441-2.

(٣) Radcliffe-Brown, op. cit., p. ١3

(٤) Hankins, F.H., op. cit., p. 450

(٥) *ibid.*

والى جانب ذلك يتفق عدد من أبرز المفكرين فى مسائل الاجتماع والتاريخ من أمثال أفلاطون وأرسطو والرواقين والقديس أوجستين والقديس توما الأكوينى وكانت وجون ستیورات مل وكونت وت. هـ. جرين T.H. Green على أن الكون الذى نعيش فيه نظام الهى وأن ما قد يوجد من خير فى الوجود انما ينسجم مع هذا النظام وما قد يوجد من شر إنما يتعارض معه<sup>(١)</sup>. وقد حاول ر. ه. تونى R.H. Tawney أستاذ التاريخ الاقتصادى فى جامعة لندن أن يربط بين الدين والسلوك، ومن أمثلة ذلك ربطه بين البروتستانتية ونشأة الرأسمالية باعتبار أن أخلاقيات هذا المذهب الدينى وما تحث عليه من حرص وادخار تؤدي الى الرأسمالية عند المخلصين من معتقيه . ومع صحة هذا الرأى فى بعض الحالات الا أنه قد لقي معارضة لعدم امكان تعميمه على النحو الذى شاءه صاحبه ، فقد ثبت أن الرأسمالية وجدت فى التاريخ القديم من قبل أن تظهر البروتستانتية المسيحية ، كما اتضح من تاريخ بلد كاليابان فى أواخر القرن التاسع عشر أنه قد أمكن لكل من الرأسمالية والبروتستانتية أن تنمو دون قيام الأخرى بجانبها<sup>(٢)</sup> . ولما كانت المعتقدات وعلى الأخص الروحية سواء أكانت سحرية أم دينية عاملا هاما فى توجيه السلوك ان لم تكن عاملا مشتركا بصفة دائمة مع غيره من العوامل باعتبار أن ما من فعل يتم الا وقد سبقته فكرة فقد وجدنا مدرسة اجتماعية بأسرها وهى المدرسة الأنثروبولوجية البريطانية تنفذ من طريق المعتقدات الى فهم المجتمعات الانسانية . وهذا اتجاه سديد لم يقم بعد أى دليل ينقضه.

(١) Cf. Toynbee, A.J., *A Study of History* (London, O.U.P. 1947), A bridge-  
ment of vols. I-VI by D.C. Somervell, p. 432.

(٢) *His Religion and the Rise of Capitalism* (A Penguin book), 1948.

أو يقلل من أهميته . ولم يغفل ماكيفر وييج العناية بهذا الطريق في مؤلفهما (١) .

\*\*\*

هذه النواحي التي قدمناها في ضوء النظرية الاجتماعية قد عالجها المؤلفان بطريقة مرضية كما أوضحنا — وان كانت لنا مآخذ على الكتاب فيمكن أن نحصرها فيما يلي :

١ — حسن جدا أن يفرد المؤلفان الفصل الأول للمفاهيم الأولية التي أرادا أن يوضحاها منذ البداية حتى لا تستغل مدلولاتها على القارئ الأمريكى أو الأوروبى . ولكن ظهر جليا أن هذا الفصل أدى الى عكس المقصود به تماما . فقد لاحظنا أن الاصطلاحات Society Group Community تشير في الفصل الأول الى مدلولات متباينة ولكنها تستخدم في الفصول التالية وعلى الأخص في الفصل الثالث عن « الفرد والمجتمع » كترادفات . وكان يمكن أن يشار الى ذلك في التعاريف المقدمة في الفصل الأول . على أن التصرف الأوفق في نظرنا كان يمكن أن يكون من طريق اضافة قائمة في ذيل الكتاب تشتمل على الكلمات المحتاجة الى شرح يساعد في فهم النصوص بما أن مصطلحات علم الاجتماع غير متفق عليها تماما ولدينا مثال طيب لما كان ينبغي أن يفعله المؤلفان في هذا الشأن عند شابل Chapple وكون Coon (٢) حيث خصصا الملحق الثانى في كتابهما لشرح معانى المصطلحات المستخدمة في كتابهما .

٢ — ما دام الكتاب معنيا بالمقارنة أو التجريب في علم الاجتماع فكان ينبغي أن يسهل المؤلفان مهمة القارئ بتعيين مواقع المجتمعات التي ورد

(١) MacIver, R.M., and Page, C.H., op. cit., p. 583.

(٢) في كتابهما, Henry Holt & Col, *Principles of Anthropology* (New York, October, 1947)

ذكرها بين دفتى الكتاب اما من طريق خريطة للعالم توضح عليها المواقع الجغرافية لهذه المجتمعات على نحو ما فعل شابيل وكون أيضا في كتابهما المشار اليه ، أو ريموند فيرث Raymond Firth<sup>(١)</sup> ، أو على الأقل من طريق تقديم قائمة في أول الكتاب بأسماء المجتمعات مع تحديد موقع كل منها تجاه اسمه كما فعل هو كارت Hocart<sup>(٢)</sup> .

٣ - يعاني الكتاب نقصا ملحوظا في توضيح طرق البحث في علم الاجتماع فلا يتعرض لهذا الموضوع الا في سطور معدودة مع تنوع هذه الطرق من احصائية ووصفية ومقابلات interviews واستجواب ومشاهدة وتجربة ورسم وتصوير وقراءة وثائق وتدوين مذكرات واستخدام آلات حاسبة وكاتبة ومسجلة . وكان يمكن أن يتوسع المؤلفان في شرح هذه الطرق كلها أو بعضها لحاجة طلاب الاجتماع الماسة اليها . ان الفكرة السائدة عند أكثر المشتغلين بعلم الاجتماع أن الجماعة المحلية التي يعيش فيها الطالب أو الباحث هي معمله الاجتماعي ، وان كنا نرى أنه أقدر على البحث في مجتمع بعيد منفصل عنه حيث يمكنه أن يرى الوقائع وهي خارج نفسه . والاتجاه الحديث الآن أن يتلقى الباحث تدريجه الأول في المجتمع والثاني المكمل له في معمل الاجتماع في كليته أو معمله العلمي<sup>(٣)</sup> وهو معمل تتوافر فيه الوسائل الموضحة في أول هذه الفقرة ومزود بالحجرات لحلقات البحث وحجرات المقابلة والمكتبة ، وفيه يتكون الطلاب ، وعلى الأخص المشتغلون بالرسائل العلمية ، كما تنعقد الجلسات الكلينيكية لحل المشاكل الاجتماعية المختلفة بحضور ممثلين للعلوم التي

---

(١) في مؤلفه *Human Types*

(٢) في كتابه *The Progress of Man*

(٣) Cf. Bogardus, B.S., *Sociology* (New York, 1949), pp. 579-582.

يأخذ كل منها بطرف من علم الاجتماع مثل علم النفس الاجتماعي والطب الاجتماعي وعلم السياسة والجغرافيا على أن يدير هذه الاجتماعات والندوات داخل العمل شخص متخصص في علم الاجتماع كما يذهب بوجاردوس<sup>(١)</sup> ، وهو أمر طبيعي حتى يكون حلقة الاتصال بين فروع العلوم الاجتماعية وذلك على النحو المتبع في حل إحدى المشاكل الطبية مثلا بحضور الطبيب والاختصاصي النفسي واختصاصي رعاية الطفل<sup>(٢)</sup> ، وهذا ما نتمنى أن يتحقق في معاهدنا المصرية إذ أن الدراسة النظرية الغالصة أو تكليف طلاب المدارس والكليات جمع البيانات من الأحياء السكنية المتخلفة مثل وصف المنزل وطول نوافذه وعرضها لا يمكن أن نضفه بأنه تدريب سوسيولوجي . إن التدريب الذي نطمح أن يحصل عليه طلابنا ينجصر في الاجتماع بعدة زملاء والتعاون معا في حل مشكلة محددة بعد فحصها من جوانبها المتعددة ، وهذا أمر يتطلب ثقافة عالية وخبرة بالحياة ومراعاة متواصلة<sup>(٣)</sup> . وأين هذا من مجرد القراءة والانطواء على النفس . لقد انتهى العهد الذي يحل فيه الاجتماعى مشكلاته بمفرده<sup>(٤)</sup> .

---

Op. cit., p. 564. (١)

Ibid (٢)

Op. cit., p. 579. (٣)

Op. cit., p. 566. (٤)

## شكر وتقدير

يقدر المؤلفان أعظم التقدير الاقتراحات التي تفضل بها الأساتذة والطلاب أثناء اعداد هذا الكتاب . وانا لمدينان بالشكر الى بروفيسور كنجزلى ديفز من جامعة كولامبيا ، وبروفيسور جلاديس برايسون من كلية سميث ، وبروفيسور ويلبرت أ . مور من جامعة برينستون ، وبروفيسور روبرت أ . كوتاك من جامعة لويشيل على ما قدموا من معاونة كريمة بتعليقاتهم على تبويبنا للكتاب وعلى طريقنا في عرض فصوله . وكذلك الى السيد مورو بيرجر من جامعة كولامبيا ، وبروفيسور جونك . تيرلويل من كلية المدينة في نيويورك ، وبروفيسور الزا سيولا والآنسة مارى الن بيتس من كلية سميث ، الذين أسعفونا بعونهم فيما يتصل ببعض نواحي مباحث الكتاب . وقد حاولنا أن نضمنه عددا من آراء هؤلاء السادة جميعا وعلى الأخص بعض ما تفضل به كل من بروفيسور ديفز وبروفيسور كوتاك . ونحن نأسف للظروف التي لم تسمح لنا بالافادة من جميع الآراء الايجابية التي قدمت لنا .

وغنى عن البيان أن مسئولية هذا الكتاب تقع كاملة على عاتق المؤلفين . ويود أصغرنا في السن أن يعرب عن عرفانه لجميل زوجته ، ليونورا بيچ ، وجميل والدته ، لورا هنط بيچ لقبولهما أن يتحملا مشقة الاستماع الى قراءة ما كانت تنتهى كتابته من الفصول أولا فأولا . وهذا فضل منهما تقبله المؤلفان بمزيد الارتياح . وقد تولى كل من ليونورا بيچ

ودونالد ماكينر العمل الجوهري ولكن الآلى والخالى من التسلية المتعلق  
باعداد المخطوطة للنشر .

ولا يفوتنا أن نسجل كذلك شكرنا الذى لاحد له لآلاف الطلبة فى  
جامعة كولامبيا وكلية بارنارد وكلية المدينة فى نيويورك وكلية سميث ،  
الذين كانوا يعلموننا حينما كنا نحاول أن نعلمهم .

## كلمة عن علم الاجتماع بالذات

مازلنا في بعض الأحيان نصادف من يعيدنا الى الوراء بجذله ليسألنا: ما عسى أن تكون حقيقة علم الاجتماع ؟ ولا يمكن أن يفيد السائل شيئا من سؤاله هذا اذا كان كل الجهد الذى يبذله لمعرفة ميدان جديد عليه قاصرا على مجرد القاء سؤال يتكون من بضع كلمات . ان علم الاجتماع ميدان مقرر للبحث العلمى ، ولا سبيل لمن يريد أن يلم بعلم من العلوم الا أن يشرع في تعلمه . وها نحن أولاء نقدم هذا الكتاب للمقبلين على دراسة المجتمع لعله أن يكون عوناً لهم في تفهم ظواهره .

وقد يكفى هنا أن نقول ان علم الاجتماع يعنى بالعلاقات الاجتماعية . ونحن نطلق على هذه الشبكة من العلاقات الكلمة الاصطلاحية : **المجتمع** . ولا علم سوى علم الاجتماع يركز اهتمامه في هذا الموضوع . وتدرس الاثروبولوجيا الثقافية الانسان (وعلى الأخص الانسان البدائي) متناولة مجمل نشاطه وانتاجه . وبقدر اهتمامه بفنونه ووسائله المادية وأساطيره وخرافاته تهتم كذلك بنظمه الاجتماعية . ويدرس علم الاقتصاد الانسان كساع وراء جمع الثروة أو متصرف فيها بالانفاق ، كما يدرس العلة بين الثروة « مقيسة بالنقود » وبين الرفاهية . ويوجه علم التاريخ عنايته لدراسة سجل حياة الانسان ، مرتباً أحداثها الهامة ترتيباً زمنياً . ويدرس علم النفس الانسان من حيث كونه فرداً ذا سلوك أو — اذا أردنا أن نستخدم التعبير الذى يفضلُه البعض — بدرس العلاقة المتبادلة بين الكائن العضوى والهيئة التى يستجيب لمقتضياتها وعلى ذلك فعلم النفس

الاجتماعى يعتبر فرعاً من علم النفس يختص بكيفيات انفعال الفرد ازاء احوال المجتمع الذى يعيش فيه . وعلم الاجتماع وحده هو الذى يدرس العلاقات الاجتماعية ذاتها أو المجتمع نفسه . وليس بين هذه العلوم التى ذكرناها علم واحد يتحد مع علم الاجتماع فى غايته . ومن الملاحظ أن كل علم من العلوم الاجتماعية يتميز عن الآخر بالموضوع الذى يتخذه محورا لاهتمامه ، ونحن لا نظن أن العلوم الاجتماعية قد قسمت فيما بينها مناطق الحقائق الواقعية التى يتعين عليها دراستها . فما يميز أحد هذه العلوم من غيره سوى الناحية التى اختار أن يوجه اليها اهتمامه .

ونحن من حيث كوننا اجتماعيين نهتم اذن بالعلاقات الاجتماعية ، لا لأنها اقتصادية أو سياسية أو دينية ، ولكن لأنها فى الوقت نفسه اجتماعية . ولتوضيح هذه النقطة نقول انه اذا التقى شخصان فى سوق من الأسواق فإن من الخطأ اعتبارهما مجرد « شخصين » تربطهما رابطة اقتصادية « انهما فى الواقع فردان من الناس مقدمان على علاقات ليست اقتصادية فحسب فحياة الانسان متعددة الجوانب منها جانب اقتصادى وجانب قانونى وجانب اجتماعى وجانب دينى وهكذا ، الا أن الجانب الاجتماعى يمتزج بهذه الجوانب جميعا . ومهما دخل الشخص فى علاقة من أى نوع مع آخر فانه قبل كل شئ انسان يواجه انسانا . وكلاهما اجتماعى بالقطرة وما المجتمع الا هذه الخلاصة أو النمط المعقد أشد التعقيد ، الدائم التغير والذى يتكون من مجمل هذه العلاقات التى تقوم بين الناس .

وعلى ذلك فمن أهم الأشياء أن نحدد موضوعنا وألا نتحرف عنه . وعلى الأخص يجب ألا يعزب عن بالنا أننا حينما نقدم على دراسة المجتمع لا نحاول أن ندرس كل ما يحدث « فى المجتمع » أو كل ما ينتج عن

الأحوال الاجتماعية ، لأن هذا الكل يشمل مظاهر النشاط الانساني . ولا سبيل لمعرفتها الا بالعلوم الانسانية جميعا . اننا سنهتم في كتابنا هذا بموضوع الثقافة ، لا لذاتها ، وانما لما تلقيه من ضوء على العلاقات الاجتماعية . أى اننا سوف لا ندرس الدين مثلا من حيث هو دين ، ولا الفن من حيث هو فن ، ولا الاختراع من حيث هو كذلك . وما لم نحدد موضوعا ما نتخذه غاية للبحث ونحرص على ألا نجيد عنه فاننا سنضل طريقنا في خضم الظواهر التي ستعترضنا وهذا الخطر كثيرا ما يتهدد طالب علم الاجتماع ، والطريقة الوحيدة لتجنبه تنحصر في أن نوجه كل اهتمامنا الى العلاقات الاجتماعية نفسها .

واذا كانت العلاقات الاجتماعية هي الموضوع الذى استقر عليه عزمنا آخر الأمر فان علينا أن نفصل بين الأشكال المميزة لهذه العلاقات وأنواعها ، وكيفية تكون أنماطها . ان من واجبنا أن نرقب أسلوبها في التعارض والالتقاء . وأن نوضح ما تشيده من لسق صغيرة أو كبيرة وينبغى أن تتبع مدى استعدادها للاستجابة للأحوال المتغيرة ، والمطالب المتغيرة ، والحاجات المتغيرة . وليس يكفى أن نكون وصفيين بل يلزمنا أن نعنى بالتحليل الى جانب الوصف . واذا كان هذا الكتاب يهتم بالتحليل الاجتماعي أكثر مما يفعل معظم ما ألف من المداخل لعلم الاجتماع فان مرد ذلك الى أننا نعتقد أن مثل هذا التحليل هو أول مستلزمات الدراسة الحكيمة للمجتمع .

و . م . م . مكفير

يناير ١٩٤٩ .

شارلز ه . بيچ



# الكتاب الأول

## تقديم

الباب الأول :

مدخل إلى المجتمع



## كلمة استهلالية

يرى كل فرد أو عضو في المجتمع أنه في نظر نفسه حجة في شئون المجتمع على نحو ما — فإن مشاركته في الحياة الاجتماعية تتطلب في حقيقة الأمر بعض المعرفة بها . وتعتبر اللغة التي يستخدمها يوميا والتي تستقيم بها الحياة في المجتمع جزءا من هذه المعرفة ، فالاصطلاحات مثل « جماعة محلية » ( كأهل البلد في الريف ) و « الرابطة » ( التي تجمع شمل بعض الأفراد لمصالح مشتركة بينهم ) و « النظام السائد » ( أو سلو البلد كما يقول العوام في مصر ) — بل والمجتمع نفسه ، لا تعتبر بأى حال من الأحوال أدوات تعبير موقوفة على العلم المعنى بدراسة المجتمع وحده . ومع ذلك فإن هذا العلم يواجه من وقت لآخر المهمة الشاقة، المتعلقة بتحويل المتداول من الألفاظ المختلفة المعانى الى اصطلاحات عملية وتحديد مدلولاتها تحديدا دقيقا . ولا يختلف علم الاجتماع عن أى علم آخر أو فرع من فروع المعرفة من حيث أن له ثبت اصطلاحاته الخاصة . ويقتضى الأمر من طالب الاجتماع اذن ، أن يروض نفسه ، كتمرين مبدئى، على أن يفهم ويتعلم استخدام بعض المفاهيم الأولية التي تعتبر أساسية في ميدان دراسته .

ويترتب على ذلك أن نعرف في الفصل الأول الاصطلاحات الأصلية التي لا غنى عنها في التحليل السوسولوجى وأن نمضى في الفصل الثانى الى بيان بعض الفروق بين المفاهيم ذات الصبغة الميكولوجية ، والتي تعد جوهرية في دراسة الظواهر الاجتماعية . وأهم هذه الفروق لخدمة

غرضنا الفرق بين المصالح وبين المواقف من جهة وبين الشبه وبين  
المشاركة في التقسيمات الداخلية للمصالح من جهة أخرى .

وباعداد أنفسنا على هذا النحو ، نهجم في الفصل الثالث هجوما أوليا  
على المشكلة الأساسية التي اهتم الناس بأن يعالجوها في كل العصور  
— حتى قبل أن توجد مادة اسمها علم الاجتماع بزمان طويل — ألا وهي  
مشكلة الفرد والوحدة الاجتماعية كما تتجلى في السؤالين التاليين :  
ما معنى أن يكون الفرد عضوا في جماعة محلية أو في زمرة ؟ وما طبيعة  
الصلة التي تربطنا بأقراننا ؟ وقد يكون من الممكن أن نمضي في دراستنا  
للمجتمع دون التعرض لهذه المشكلة ، إلا أن المجتمع سيعنى شيئا  
كثيرا لنا ، ودرسته ستكون أكثر جدوى لو تأملنا طبيعة المشكلة وحاولنا  
أن نجد لأنفسنا حلا لها .

# الفصل الأول

## المفاهيم الأولية

### لغة علم الاجتماع

لغة الحياة اليومية : نحن نستخدم في محادثاتنا اليومية اصطلاحات مثل « المجتمع » و « الجماعة المحلية » و « الجمع » أو « الحشد » و « النظام السائد » و « العادة الجمعية » وما شابهها ، وهذه الاصطلاحات نفسها هي التي سنستخدمها في هذا الكتاب ، من أوله الى آخره . فلماذا إذن ، نواجه القارئ بهذا الفصل التمهيدى عن الاصطلاحات ؟

وأسباب ذلك تتصل بطبيعة اللغة ومطالب العلم ، ونحن في محادثاتنا اليومية لا نفسر ، وفي أكثر الأحيان لا نحتاج لأن نفسر مقدما ما نعنيه بالاصطلاحات من أمثال جماعة محلية أو جمع من الناس ، فإذا سمعنا أحدهم مثلا يذكر هذا الاصطلاح : « الجماعة المحلية » فإننا نعرفه بوجه عام من سياق الكلام الجزئية الخاصة المقصودة به . وقد يكون المتكلم قاصدا بهذا الاصطلاح المدينة الأصلية التي ينتمى إليها أو الجالية الإيطالية في قرية جرينتش ، أو زمرة خاصة من المواطنين على الصلاة في مسجد أو كنيسة . وأكثر من ذلك قد يقصد بالاصطلاح الأمة التي ينسب إليها . ولكننا في العادة لانجد مشقة في ادراك المعنى المقصود ما دمنا نعرف الموضوع الذى يتركز الكلام حوله . وكذلك اذا ذكر المتحدث الاصطلاح « جمع » أو « حشد » فقد نكون متاكدين بوجه

عام من أنه يشير الى الحشد المتزاحم في الصباح وقت ذهاب الموظفين والتجار والعمال والطلبة الى أعمالهم ، لا الى « الجمع المحتشد لمشاهدة مباراة رياضية » أو « الجمع الملتئم في منزل أحد الناس بمناسبة حفل » . ان كلا من هذه العبارات يشير الى نوع مختلف كل الاختلاف من الظواهر الاجتماعية . ولكن سياق الحديث هو الذى يرشدنا الى المعنى الوحيد المقصود . وبعبارة أخرى نعرف مدلول الكلمات اذا عرفنا الظروف المحيطة بها ، كما يقول المشتغلون بعلم المعانى .

واذا لم يساعد سياق الكلام على توضيح المعانى فان لفتنا اليومية تكون عرضة لأن تتحول الى مجرد أصوات عادية ، وأن تفقد وظيفتها كوسيلة لا تتقال الأفكار بين الناس . كما أكد ستيوارت تشيس وآخرون <sup>(١)</sup> تأكيداً كافياً ، غالباً ما تحظى الكلمات الكبيرة بالاستخدام على نطاق واسع ، ولكنها لا تبلغ الا درجة محدودة من حيث دقة معانيها ، كما نشاهد عند محترفي الخطابة والمشتغلين بالدعاية ومحررى الصحف . ومن المهم منذ البداية أن نوضح الكلمات الكبيرة في علم الاجتماع وأن نحدد معانيها بالدقة .

لغة علم الاجتماع : لا يسعنا ونحن ننفذ الى دراسة المجتمع أن نرضى بالاستمرار في استخدام نفس الاصطلاحات بمعان مختلفة . كذلك ليس فى متناول أيدينا سياق محادثاتنا اليومية حتى يمكن أن نستدل بها على الموضوعات التى يشير اليها كلامنا . اننا كمشتغلين بعلم الاجتماع نهتم بالظواهر الاجتماعية بالطريقة التى يهتم بها المشتغلون بعلم النباتات بكل ما تنبته الأرض . ونحن نهتم بأن ننمى ونستخدم مفهومات تتميز بكونها

(١) أنظر مثلاً : S. Chase, *The Tyranny of Words* (New York, 1938).

S. I. Hayakawa, *Language in Action* (New York, 1947).

دقيقة من حيث المعنى ، وعامة من حيث تطبيقها . ان لغة علم الاجتماع مجردة كلغة أى علم آخر . ومفهوماتها المفيدة هى من أسماء الجنس ، اذا شئنا أن نوضح الفكرة بأحد تعبيرات المناطقه .

فمثلا عندما نتحدث كسوسيولوجيين عن « الجماعة المحلية » انما نشير الى شكل من أشكال النظام الاجتماعى يمكن أن نميزه عن غيره . وبهنا أن نبحت خصائصه المشتركة وأن نصف أنواعه المتعددة . واذا انتقلنا الى الجمع فليس الذى يعيننا مجرد هذا الجمع أو ذاك ، أو أن نكتفى بوصف جمع خاص من الناس فى زمان خاص . ان عالم الاجتماع يسعى لفهم الجمع الغفير من الناس كمركب من مركبات العلاقات الاجتماعية ، لكى يبرز ، على سبيل المثال ، وجوه التباين بين تصرفات الناس فى حشد من الأفراد وبين تصرفاتهم فى زمر من أنواع أخرى .

وعلى ذلك فينبغى أن يكون لاصطلاحاتنا معان واضحة ووحيدة ودقيقة رغم كونها من اصطلاحات الحياة اليومية وتستخدم تبعاً لذلك للكثير المتعدد من الأغراض . هذه هى نقطة البداية فى بحثنا هذا . ومن البديهي أن وفاء معنى مفهوماتنا ، ومدى قابليتها للانطلاق ، وغناها بمضمونها ، مسائل لا بد أن تختلف تبعاً لخبرة كل منا ومراته . وأما اذا أقبلنا معاً على دراسة موضوع اجتماعى أو تحليله ، فإن الواجب يقتضينا ، عندما نستخدم كلمة أو عبارة ما أن نتفق على أن ندل عليها وأن نشير اليها فى الذهن ، على أساس أنها ترمز لشيء واحد . وهذه ضرورة حتمية بالنسبة للاصطلاحات الأولية ، وهى الكلمات الأساسية فى دراستنا .

**معنوية الظواهر الاجتماعية :** الى جانب ما يلاحظ من أن اصطلاحات علم الاجتماع هى — الى حد كبير — مأخوذة من لغتنا اليومية ، مخالفة فى ذلك كثيراً من اصطلاحات العلوم الطبيعية ، فإن هناك سبباً آخر

بالإضافة الى ماذكرنا فى القسم السابق يضطرننا الى أن نعنى عناية خاصة بالتعارف . هذا السبب هو أن الظواهر التى نعالجها فى دراسة المجتمع ليست فى الأغلب أشياء خارجية يمكن أن نلمسها بأيدينا ، ولا مفردات من هذه الأشياء يمكن أن نلمسها لتتحقق من كونها مباشرة عن طريق الحواس . اننا لا نستطيع أن نرى ولا أن نلمس العلاقات الاجتماعية أو الأنظمة الاجتماعية . وكذلك النظم السائدة ، لا يمكن أن نفحصها بأيدينا والعادات الجمعية يتعذر أن نزنها فى ميزان من أحد هذه الموازين المستخدمة فى المحال التجارية . وبالمثل يقصر الميكروسكوب (١) والسبكتروسكوب (٢) وأى جهاز آخر من هذا النوع عن مساعدة حواسنا فى فهم الظواهر الاجتماعية ونحن لانستطيع أن نعزل هذه الظواهر بعضها عن بعض على نحو ما تفعل فى الدراسة العملية . وان معملنا هو بالضرورة هذا العالم الذى تجرى فى داخل نطاقه حياتنا المعيشية اليومية ، الذى يحتم علينا أن نستكشفه . ويجب أن نتجه دائما الى عالم الأحداث اليومية الانسانية لنحصل منه على مادة للأبحاث التى نجريها فى علم الاجتماع (٣) .

ونحن اذ نشير الى المعنوية التى تتميز بها ظواهر اجتماعية معينة علينا أن نحترس من الظن أن هذه الظواهر — تبعا لذلك — ليست ذات حقيقة واقعة . وسوف لا تتعرض فى هذا الكتاب للمجدل الفلسفى القديم

---

(١) جهاز يستعين بعدسة أو أكثر لتكبير الأشياء الصغيرة الحجم جدا والمتناهية فى الصغر — المترجم

(٢) جهاز لتحليل الضوء — المترجم

(٣) يشير المؤلفان بهذه العبارة الهامة الى أن علم الاجتماع يعنى بالحاضر ويدع الأحداث الانسانية الماضية لمادة التاريخ . وفى هذا يتفق ماكفير وبيج مع مالىنوسكى وراى دكليف براون وهما من اعلام الانثروبولوجية الاجتماعية الذين يرون هذا الرأى — المترجم

حول ما هو حقيقى وما ليس بحقيقى ، وكل ما نريد أن يستقر في أذهاننا أن كون العلاقات الاجتماعية والأنظمة الاجتماعية لا تخضع للرؤية أو اللمس أو الوزن بطريقة مباشرة لايعنى إطلاقا أن تكون هذه الظواهر قليلة الأهمية في الحياة الاجتماعية . والا فمن ينكر أهمية العلاقات التي نسميها « الحب » أو « الكراهية » أو « التعاون » أو « الصراع » بالنسبة للوجود الانساني ؟ أو منذ الذى يجادل في الدور الخطير الذى تلعبه نظم كنظم الدولة و « الطبقة الاجتماعية » و « مؤسسة العمل الكبيرة » و « الأسرة » في حياة الناس ؟ ان فهم هذه الظواهر وما يماثلها يتطلب أن يكون تفوذا الى موضوعاتها قائما على اصطلاحات أساسية متفق عليها .

**تطبيق مفهومات علم الاجتماع واختبارها :** من البديهي أن ممارسة الشيء لا تؤدي بالضرورة الى بلوغ درجة الكمال ، ولكنها حتما تساعد في تنمية المهارة . وهذا بالضبط هو الموقف بالنسبة للعلم الذى نحن بصدد دراسته . فلا ينبغي لطالب الاجتماع أن يقصر استخدام مفهومات علمه على أوقات الاجتماعات الرسمية في قاعات البحث أو في ساعة الدرس ، تلك الاجتماعات التي قد ينساها الطالب بمجرد انتهائها . لقد قلنا ان معمل علم الاجتماع هو عالم الحياة اليومية المعيشية . وان كلامنا يكون جزءا من هذا العالم ، وعليه اذا كان راغبا في زيادة فهمه له ، أن يفتن الى مدى امكان تطبيق اللغة التي اختيرت لتحليله ومقدار فقه هذه اللغة للقيام بهذه المهمة . ومن الممكن أن تبدو مفهومات علم الاجتماع كمادة معتمة بلاشك اذا لم تستخدم . ولانظن أن هناك تجربة عقلية يمكن أن تكون أوفر جزاء من الدراسة المنظمة للحياة الاجتماعية التي نحن جزء منها .

وتنحصر مهمتنا الأولى اذن في بسط اصطلاحاتنا الأولية في بيان تمهيدى موجز حول الموضوعات التي تعنيها هذه الاصطلاحات . ونحن

اذ تفعل ذلك يجب أن نذكر أنه لا يوجد في علم الاجتماع الحديث الآخذ في النحو أية سلطة متفق عليها ، سواء آكأت هذه السلطة من خلق تقليد علمي أم غيره ، لها حق فرض اصطلاحات موحدة . نعم ان لدينا في الوقت الحاضر معجما لعلم الاجتماع <sup>(١)</sup> سيجده الطالب مفيدا كمرجع يستعين به من وقت لآخر . غير أن التعاريف التي ترد في المعاجم ليست تفسيرات . كذلك لا ينتهى التحقيق السوسيولوجى بالتفهم المنطقى للرموز اللغوية . وبعبارة أخرى أن الغاية من دراستنا ليست سبر المفهومات في ذاتها . بيد أننا اذا كونا في أنفسنا عادة المحافظة على أن يكون للشئ الذى تتكرر الاشارة اليه نفس المعنى حينما نستخدم المفهومات الأساسية فاننا بذلك نكون قد ملكنا زمام أهم أداة للتحليل السوسيولوجى .

## المجتمع

المقصود بقولنا المجتمع : لا شك أن أول اصطلاحاتنا وأعمها هو المجتمع بالذات . ان الكائنات الاجتماعية أو الناس ، فطروا على أنه يعبروا عن طبيعتهم بأن يخلقوا ، وأن يدأبوا على أن يخلقوا ، نظاما من شأنه أن يوجه سلوكهم وأن يضبطه بوسائل لا حصر لها . ووظيفة هذا النظام ، وهو المجتمع ، أن يطلق نشاط الناس وفي الوقت نفسه يحدد منه . أنه يضع لهم مقاييس للسلوك عليهم أن يتبعوها وأن يحافظوا عليها . ومهما دلنا تاريخ الانسان على ما ينطوى عليه هذا النظام من قصص واستبداد ، فانه شرط ضرورى لأسباب الحياة . ان المجتمع نسق مكون من العرف المتنوع والاجراءات المرسومة ، ومن السلطة والمونة المتبادلة . ومن كثير من التجمعات والأقسام ، وشتى وجوه ضبط السلوك الانسانى .

AL. P. Fairchild, ed., Dictionary of Sociology. (New York, 1944).

(١)

والحريات . هذا النسق المعقد الدائم التغير يسمى المجتمع . انه نسيج العلاقات الاجتماعية . وأخص صفات المجتمع أنه لا يثبت على حال .

**الشرط النفسى للعلاقات الاجتماعية :** قلنا ما معناه أن المجتمع هو النمط المتغير للعلاقات الاجتماعية . فما الذى نقصده أولا بالعلاقة الاجتماعية ؟ يمكن أن نجيب على هذا السؤال ببيان التعامل القائم بين ما هو اجتماعى وما هو فيزيقى . فهناك مثلا علاقة بين الآلة الكاتبة والمكتب ، أو بين الأرض والشمس ، أو الدخان والنار ، أو عنصرين من العناصر الكيموية . ان كل واحد من هذه الأشياء متأثر بوجود شئ آخر . غير أن العلاقة التى تربطهما ليست اجتماعية . ولكى تكون كذلك لابد من الشرط النفسى ، وهذا لا وجود له فى جميع هذه الحالات التى أشرنا إليها . فالآلة الكاتبة والمكتب ليسا بأى معنى عقلى منتبهين كل منهما الى وجود الآخر . ان علاقتهما ليست بأى حال محدودة بالادراك المتبادل . وبدون تحقق ذلك لا توجد علاقة اجتماعية ، وبالتالي ينعدم الشرط اللازم لقيام المجتمع . ان المجتمع لا يوجد الا حيثما تسلك الكائنات الاجتماعية فيما بينها سلوكا يعينه ادراك كل منهما للآخر . ونحن نطلق على العلاقات التى تحدد بهذه الكيفية الاسم العريض « العلاقات الاجتماعية » .

**نطاق العلاقات الاجتماعية :** تمتاز العلاقات الاجتماعية بالتنوع ، كما يتصف المجتمع بالتعدد . وما علاقات الناخب بالمرشح السياسى ، أو الأم بطفلها ، أو العامل بصاحب العمل ، أو الصديق بالصديق ، الا أمثلة قليلة من أنواع العلاقات الاجتماعية . ان عمومية المفهوم « اجتماعى » تتأكد اذا لاحظنا ما نستخدمه لغتنا من اصطلاحات لا عد لها تقريبا للإشارة الى أنواع العلاقات الاجتماعية الكثيرة القائمة بين الناس ، فنحن نسمى بعضها

« علاقات اقتصادية » وبعضها « شخصية » ، وبعضها « غير شخصية » ،  
وبعضها الآخر « ودية » أو « عدائية » وهكذا . ولكن تعتبر هذه  
العلاقات كلها « اجتماعية » ما دامت تقوم على هذا الادراك المتبادل الذى  
سبقت الإشارة اليه .

ومن بين هذه العلاقات ما يعبر عن نزاع فحسب ، أو عن عدااء مطلق ،  
كالحالة القائمة بين جيشين متحاربين . فالجيوش وهى فى ميادين القتال  
لا تظن الى شىء الا لوجود القوى التى تحاربها والتى توجه ما يصدر  
عنها من نشاط ، وهذه العلاقة التى تربط الجيوش المتحاربة بعضها ببعض  
علاقة « اجتماعية » . ومع ذلك فان معظم العلاقات الاجتماعية تتضمن  
مبدأ لا نجده فى هذا المثل الذى نستمد من الجيوش ، وهذا المبدأ هو  
فكرة الجماعة أو الانتماء معا الى هيئة واحدة . ونحن كاجتماعيين ندرس  
كلا من البواعث التى تجمع بين الناس والتى تفرق بينهم على حد سواء .  
واذا لم توجد فكرة الجماعة وانعدمت العلاقات التعاونية بين الناس فمن  
المحال أن توجد تشق اجتماعية ، وبالتالي لا يكون هناك مجتمع  
ولا مجتمعات — ولا يبقى عمليا موضوع للاجتماعيين لكى يدرسوه ،  
واذن فالعلاقات التى يتركز حولها اهتمام علم الاجتماع هى تلك التى  
تقوم على الادراك المتبادل والاحساس بوجود شىء ما أو عقيدة ما يشترك  
فيها أفراد الجماعة كلهم .

المجتمع لا يعنى بالضرورة المجتمع الانسانى : يتضح من هذه العبارة  
أن المجتمع اصطلاح لا يقتصر على الآدميين اذ هناك مجتمعات حيوانية  
مختلفة . فمن المعلوم أن تلاميذ المدارس يعرفون النظم الاجتماعية العجيبة  
القائمة فى عالم الحشرات كالنمل والنحل والزناير . ولقد طالما قيل انه  
حينما توجد الحياة يوجد المجتمع ، لأن الحياة معناها الوراثة ، والحياة

تنشأ فيما نعلم من وجود حياة أخرى ، وهذا لا يمنع من أن يكون الإدراك الاجتماعي — اذا وجد في أحط طبقات الأحياء — غامضا كل الغموض ، وأن يكون الاتصال الاجتماعي عابرا الى حد كبير في أغلب الأحيان . وتوجد حياة اجتماعية واضحة المعالم على الأقل بين الحيوانات العليا ، ناتجة عن حاجات طبائعها والشروط التي بدونها لا يتحقق استمرار نوعها . وكما أوضحنا في الظروف السابقة يجوز أن يقوم المجتمع أيضا بين حيوانات من أنواع مختلفة ، كما هي الحال بين الرجل والحصان أو الكلب ، أو مثلا ، بين الغنم والكلب الذي يحرسها . ونحن نوجه اهتمامنا في هذا الكتاب الى المجتمع الذي يقوم بين أفراد النوع الانساني .

**انطواء المجتمع على فكرتي المشابهة والمخالفة :** يتردد كثيرا في المراجع العلمية أن الأسرة ، على صورة ما ، كانت المجتمع الانساني الأول . وأنه لحق مؤكد أن العلاقة الجنسية نوع أولى وجوهري من أنواع العلاقات الاجتماعية . ومن الواضح أن هذه العلاقة تتضمن كلا من المشابهة والمخالفة في الأشخاص الذين يرتبطون بها . وهذا ما يحدث بالفعل في المجتمع مهما تعددت مظاهره .

ان المشابهة والمخالفة عكسان منطقيان ولكن الفروق بينهما في ميدان علم الاجتماع وعلم النفس تبدو في مظاهر موضوعية متصل بعضها ببعض . وفي الحق أن فهمنا لأحديهما ، ولتكن المشابهة ، يتوقف على فهمنا لعلاقتها بالأخرى ، أي المخالفة <sup>(١)</sup> . والآن فلنبحث كيف يوجد هذان العكسان المنطقيان في المجتمع ،

(١) يلاحظ تيرمان أرنولد أن قولنا « فوق » لا يعنى شيئا الا من حيث صلته بعكسه المنطقي وهو « تحت » ، أنظر :

*The Folklore of Capitalism* (New York, 1937), Chap. VII.

ان الادراك المتبادل لفكرة الانتماء معا الى الجماعة لا يمكن أن يتحقق ، وبالتالي ينعدم المجتمع اذا لم توجد المشابهة أو فكرة المشابهة بين أفرادهِ . ان المجتمع لا يقوم الا بين أولئك الذين يشبه بعضهم بعضا الى حد ما في الجسم والعقل ، والذين هم داخل نطاق جيرة متقاربة ، أو لديهم من الذكاء ما يكفي لتقدير فكرة المجتمع . والمجتمع — كما يذهب ف.هـ. جد نجر — يقوم على « الحس النوعي » . وفي المجتمع القديم ، وكذلك بين بعض « معاصرينا البدائيين » تنصب فكرة المشابهة على القرابة العائلية ، أو بعبارة أخرى صلات الدم الحقيقية أو التصنيفية<sup>(١)</sup> . وقد اتسع مدلول المشابهة الاجتماعية في المجتمعات الحديثة . الا أن التصور الأساسي للمشابهة كما ربطها الرجل البدائي بأقاربه لا يزال مقترنا بمبدأ شامل للتآلف وهو القومية . واذا قدر لمبدأ الصراع من أجل خلق عالم موحد أن ينتصر فإن هذا العالم لا بد أن يركز على المشابهة الأساسية بين أفراد الجنس البشري بأسره .

وعلى عكس ما سبق يعتمد المجتمع على المخالفة كما يعتمد على المشابهة . ولو كان الناس جميعا متشابهين تماما ، ومتشابهين فحسب ، فلربما تضاءلت علاقتهم الاجتماعية حتى تصبح كعلاقات النمل أو النحل . ففي مثل هذه الحالة يقل الأخذ والعطاء ولا يكون هناك الا النزر اليسير من الأحاسيس المتبادلة . والمساهمة بقدر تافه في سعادة الغير . وما لاحظناه فيما تقدم عن العلاقة الجنسية من انطباق على الحق موجود بأشكال

(١) نقصد بالصلات التصنيفية التقليد المألوف بين أكثر البدائيين بتلقيب صنف من الرجال بالآب ، وصنف آخر بالخال ، دون أن يكونوا آباء أو أخوالا حقيقيين ، انما هم في حكم الحقيقيين . ومن المعروف أن هذا التقليد متبع على نطاق ضيق في المجتمعات المتحضرة حيث يخاطب الطفل كثيرين بقوله عمي أو uncle دون أن يكون أحدهم منهم عمه الحقيقي .

مختلفة في جميع النسق الاجتماعية . انها تشتمل على علاقات تكمل فيها الأشياء المخالفة بعضها بعضا . ويقع فيها التبادل ؛ اذ أن من سمة المجتمع أن يسعى كل عضو من أعضائه للحصول على شيء ما واعطاء شيء ما في مقابل ما يحصل عليه . هذا أساسا هو ما يحدث بالفعل مهما كان النسق الاجتماعي « استغلاليا » أو « طفيليا » أو « غير عادل » ويلعب رب الأسرة المستبد ذو النفوذ دورا يقوم على الأخذ والعطاء في نطاق الأسرة . وتعمل نفس الشيء الطائفة المقلدة الحاكمة في داخل الطبقة الاجتماعية . انما ندأب على التذكير بما يصدر عن المخالفة من دور التبادل والتكامل في جميع أنماط العلاقات الاجتماعية .

وطبيعي أن تكون هناك أنواع متباينة للمخالفة ، فالأسرة تقوم على الفروق البيولوجية بين نوع الذكر ونوع الأنثى . وهناك فروق طبيعية أخرى تتعلق بالمهارة والكفاية والمصلحة الشخصية . وتتكاثر الفروق فوق ذلك في العمليات الاطرادية للتخصص في أنواع العمل المختلفة وهذه الفروق سواء أكانت طبيعية أم نامية مع الفرد خلال حياته تظهر بشكل واضح في المجتمع في تقسيم العمل الاجتماعي .

تبعية المخالفة للمشابهة في المجتمع : ان تقسيم العمل في المجتمع هو في الحقيقة تعاون قبل أن يكون انقساماً وذلك لأنه من حيث ان للناس حاجات متشابهة فانهم يجتمعون لأداء وظائف متباينة فيما بينها . والرغبة المتشابهة للربح قد تؤدي الى أن يكون بعض الناس شركة تجارية مثلا . كما أن الرغبة المشتركة في حب الشيء الواحد والحياة المنزلية هما في الغالب الأساس الذي تبنى عليه الأسر والحاجات المتشابهة للناس هي بالضرورة سابقة في الترتيب الزمني على التباين الموجود في النظام الاجتماعي .

ان الدور الذي تلعبه المخالفة والمشابهة معا — وتقصد المشابهة الأولى

والمخالفة الثانوية — في التركيب الاجتماعي سيظهر جليا عندما نعالج كيفية نمو المجتمع .

الانسان كحيوان اجتماعي : ما زال علينا أن نوضح هذه الصفة الأساسية للانسان ، وهى أساسية لدرجة أنها أهم من فكرة المشابهة التى يركز عليها كل مجتمع . وقد عبر أرسطو عن هذه الصفة حينما قال ان الانسان حيوان اجتماعي <sup>(١)</sup> . وقد سجل الانسان أدلة على نظراته للمجتمع منذ بداية تسجيله لفكرة ضمنها أنه ليس من الخير للانسان أن يعيش وحيدا . ان الانسان يعتمد على المجتمع لحمايته ، وراحته ، وغذائه ، وتربيته ، وأدواته ، وفرصه ، والخدمات المحددة العديدة التى يقدمها له المجتمع — ان المجتمع يتدخل حتى فى مضمون أفكاره وأحلامه وآماله بل فى كثير من أمراض عقله وجسمه . ان مجرد مولده فى المجتمع يصحب معه فكرة حاجته المطلقة الى المجتمع نفسه .

فلا عجب اذن لو رأينا فى الحبس الانفرادى أشد ما يخيف الانسان من العقوبات ، لأنه يحول دون اشباع هذه الحاجة الأساسية . ومهما ادعى بعض الناس أنهم مستقلون فان الحقيقة أنه لا وجود لانسان يستطيع أن يعيش دون حاجة الى المجتمع . وحينما يقطع الناس ما بينه وبين المجتمع من أواصر يظن أنه يستطيع أن يجد مجتمعا آخر فى اتصاله بالله أو « بالطبيعة » ، وبعبارة أخرى تسيطر عليه فكرة تدفعه بلا محالة الى نوع من عقاب النفس . فاذا لم يصب بالجنون فى أول الأمر أصيب به فى النهاية . وذلك لأن الانسانية الطبيعية تستلزم العلاقات الاجتماعية حتى يمكن للناس أن يحتملوا الحياة .

---

(١) ويضيف أرسطو الى ذلك اضافة ذات مغزى بقوله أن الشخص الذى يعجز عن أن يساهم بنصيب فى الحياة المشتركة اما أن يكون دون الانسانية أو فوقها ، وعلى حد تعبيره اما أن يكون وحشا أو ألها .

## الجماعة المحلية

**تعريف الجماعة المحلية :** ان ثاني مفهوماتنا الاولى هو الجماعة المحلية . ولنبداً بضرب الأمثلة : انه الاصطلاح الذي نطلقه في الوقت الحاضر على جماعة من الناس تعمّر مكانا لأول مرة ، أو على قرية أو مدينة أو أمة بأسرها . وحيثما عاش معا أعضاء أية زمرة من الناس ، سواء آكانت هذه الزمرة صغيرة أم كبيرة ، بحيث يشتركون لا في هذه المصلحة الخاصة أو تلك ، بل في الأحوال الأساسية للحياة المشتركة ، فاننا نسمي هذه الزمرة جماعة محلية . والسمة المميزة للجماعة المحلية أن المرء يمكنه أن يجيا حياته كلها في داخلها . والمرء مثلاً لا يستطيع أن يجيا حياته كاملة في داخل مؤسسة تجارية أو في داخل كنيسة بينما يستطيع أن يفعل ذلك في داخل قبيلة أو مدينة . وعلى ذلك فالصفة الأساسية للجماعة المحلية هي أن كل علاقات الفرد الاجتماعية يمكن أن توجد في داخلها .

**الجماعات المحلية لا تحتاج لان تكون مستكفية بذاتها :** ان بعض الجماعات المحلية تحتوى على كل ما تحتاج اليه ومستقلة عن غيرها . ونحن نجد أحيانا بين الشعوب البدائية جماعات محلية لا يزيد عدد أفرادها عن مائة نفس ، مثل قبائل يوروك في كاليفورنيا التي تعتبر منعزلة تقريبا انعزالا تاما . ولكن الجماعات المحلية الحديثة بما في ذلك الجماعات الكبيرة أقل استكفاء بذاتها بكثير . ومن الخصائص الكبرى لجماعتنا المحلية الحديثة والكبيرة الحجم أنها تقوم على التبادل الاقتصادي من جهة وعلى الارتباط السياسى المتبادل مع غيرها والآخذ في الازدياد من جهة أخرى .

وقد نعيش في عاصمة كبيرة ، ومع ذلك نظل أعضاء في جماعة محلية صغيرة جدا لأن مصالحنا محددة بحدود مساحة ضيقة . أو قد نجيا في

قرية ومع ذلك ننتهى الى جماعة محلية من الاتساع بحيث تشمل المنطقة المتأثرة بحضارتنا أو بحضارة أكثر اتساعا وليس لجماعة محلية متمدنة حوائط حولها لتفصل بينها وبين غيرها فصلا تاما مهما حاول حكام أية أمة أن يقيموا « ستارا حديديا » حولها . والمشاهد أن الجماعات المحلية موجودة فى داخل جماعات محلية أكبر منها . فالمدينة تقوم فى داخل اقليم، والاقليم فى داخل أمة ، والأمة فى داخل الجماعة العالمية التى ربما كانت آخذة فى النمو فى الوقت الحاضر .

**أسس الجماعة المحلية :** الجماعة المحلية اذن عبارة عن مساحة أو مكان للحياة الاجتماعية تتميز بدرجة من الترابط الاجتماعى . وأسس الجماعة المحلية هى الدائرة المكانية وعاطفة الجماعة .

١ - **الدائرة المكانية :** تشغل الجماعة المحلية دائما مساحة من الأرض ، وحتى جماعات الرحل ومجموعات الفجر مثلا لها محل اقامة تعيش فيه وان كان عرضة للتغير والاستبدال . وأعضاء هذه الجماعات يحتلون معا فى أى وقت نجدهم فيه مكانا محددا على سطح الأرض ، ومعظم الجماعات المحلية مستقرة حاليا وتستمد من أحوال دائرتها المكانية رابطة تضامن قوية ، ولقد ضعفت الى حد ما هذه الرابطة المحلية فى العالم الحديث بسبب انتشار وسائل المواصلات وهذا واضح بصفة خاصة فى تغفل أنماط الحياة السائدة بالمدن فى البيئات الريفية . الا أن اتساع وسائل المواصلات هو فى ذاته لازم لجماعة أكبر فى الحجم ولكنها ما تزال محلية .

ان أهمية مفهوم الجماعة المحلية ترجع الى حد كبير الى كون هذا النوع من الجماعات يعزز العلاقة بين الترابط الاجتماعى والمنطقة الجغرافية وتكشف هذه العلاقة بسهولة فى أمثلة مع نوع قرى الاسكيمو أو المدن

الواقعة على الحدود أو الجماعات المحلية شبه المنعزلة الموجودة في كوريك الفرنسية . ومهما أدخلت المدنية الحديثة من تغييرات في العلاقة بين الصلات الاجتماعية القوية وبين محل الإقامة الاقليمي فإن الصفة الأساسية للدائرة المكانية كأداة للتحكم في تصنيفات المجتمع لم تتفوق عليها حتى الآن وسيلة أخرى لتحقيق هذا الغرض (١) .

٢ - عاطفة الجماعة المحلية : تطالعنا اليوم ظاهرة لم نجد لها مثيلاً في المجتمعات البدائية ، هي شغل الناس لمناطق محلية معينة مجرد من الترابط الاجتماعي الذي لا بد منه لكي يشعروا بشخصية الجماعة المحلية . خذ مثلاً سكان أحد الأحياء أو الأقسام في مدينة كبيرة ممن قد يعوزهم القدر الكافي من الاتصال فيما بينهم أو المصالح المشتركة حتى يمكن أن يستقر في نفوسهم وعى الوحدة المكانية . ومثل هذه الجيرة أبعد ما تكون عن الجماعة المحلية لأنها لا تنطوي على الاحساس بالانتماء معاً الى موضوع ما — انها بعبارة أخرى تفتقر الى عاطفة الجماعة المحلية . ويكفى أن نؤكد أن الدائرة المكانية رغم كونها شرطاً ضرورياً لقيام هذه الجماعة فانها لا تؤدي وحدها الى خلقها . ونحن نكرر ما قلناه من أن الجماعة المحلية مجال للحياة المشتركة . ولا بد أن تقترن الحياة المشتركة بأدراك من يحيوها ، انهم يشاركون غيرهم في طريقة الحياة ، كما يشاركونهم في الأرض التي يعيشون عليها .

أمثلة وحالات لجماعات محلية مشكوك في وضعها : ان في وسعنا بسهولة أن نتحقق من أن مدينة صغيرة أو عاصمة أو أمة كبيرة أو قبيلة بدائية ، كلها جماعات محلية . وقد يقضى أعضاء كل واحدة منها حياتهم بأكملها في داخل جماعته الخاصة ، لأنها بمثابة مجال للحياة المشتركة .

---

A. A. Goldenweiser, Early Civilization (New York, 1929), Chap. XII. (١)

ومع ذلك فالحدود الفاصلة بين الجماعات المحلية في العالم الحديث ليست حدودا دقيقة . والواقع أن به حالات لجماعات مشكوك في وضعها ، ولهذا تضعب مسألة تعيين هذه الحدود في أمثلة من النوع الذى نبسطه فيما يلى وان كانت هذه المسألة ليست بذات بال :

١ — أيمكن أن نطلق على دير للرهبان أو الراهبات ، أو على سجن مثلا ، اسم جماعة محلية بالمعنى الذى اصطلحنا عليه ؟ ونحن نعلم أن هذه المؤسسات تقوم على مساحة أرضية . وهى فى الحقيقة مجالات لممارسة الحياة الاجتماعية فى داخل نطاقها . كثير من الناس يضمنون على هذه الجهات بأن يرفعوها الى مكانة الجماعة المحلية استنادا الى أن وظائف النازلين بها محدودة المدى ، بطبيعة الجماعة المحلية وامكانياتها . ولهذا السبب نميل الى الاجابة عن هذا السؤال بالايجاب .

٢ — أيمكن أن نطلق الاسم « جماعات محلية » على زمر المهاجرين المقيمين فى قلب المدن الأمريكية الكبيرة والمستمسكين بعاداتهم الجمعية الخاصة وبلغاتهم الأولى ؟ واننا نرى أن لدى هذه الزمر الشروط اللازم توافرها فى الجماعة المحلية . ولقد ظلما درسها السوسيولوجيون بقصد تحليل هذا النمط الثابت والمتكرر فى الحياة الأمريكية <sup>(١)</sup> .

٣ — أيمكن أن نسمى جماعة محلية ، الطائفة الاجتماعية المقفلة التى يستبعد أعضاؤها زملاءهم فى المواطنة من الاشتراك فى العلاقات الاجتماعية الخصوصية ؟ هذه حالة المناسب فيها أن يكون الجواب بالنفى . اذ للتمشى مع تعريفنا السابق يتحتم على الزمرة التى تتألف منها الجماعة

---

P.V. Young, *The Pilgrims of Russian Town* (Chicago, 1932); B.B. Wessell, (١)

*An Ethnic Survey of Woonsocket, Rhode Island*, (Chicago, 1931);

W. L. Warner and Leo Srole, *The Social Systems of American Ethnic Groups*

(New York, 1945).

المحلية أن تحتل دائرة مكانية معينة . وسنرى أن الطائفة الاجتماعية المتقلبة ذات ترابط اجتماعى بالتأكيد ، إلا أنها تحتاج الى الأساس الاقليمى .

**انتشار الحضارة والجماعة العالمية :** تنتمى الجماعة المحلية المستكفية بذاتها استكفاء تاما الى العالم البدائى . وأما فى العالم الحديث فأقرب الأشياء لها يتمثل فى جماعة الأمة فى داخل نطاق حدود الدولة الواحدة . وهذا ما يحدث بصفة خاصة عندما تسعى الدولة الى « تنسيق » حياة الأمة كلها ، كما فعلته ألمانيا الاشتراكية القومية ، أو كما تفعل روسيا السوفيتية باقامة نظام اقتصادى يختلف كل الاختلاف عن النظم الاقتصادية المتبعة فى غيرها من البلاد . إلا أن ألمانيا النازية لم تكن أبدا مستكفية بذاتها ، وكذا الاتحاد السوفيتى ، كما يشهد بذلك مصدرو الآلات الثقيلة الأمريكيون . ان الحضارة الحديثة ، كما نعلم ، تطلق من القوى ما يحطم أى استكفاء ذاتى لدى الجماعات المحلية ، كبيرة كانت أم صغيرة .

وهذه القوى بعضها تكنولوجياى ، كتحسين وسائل المواصلات والنقل ، وبعضها اقتصادى كالحاجة الى الأسواق والمجالات الرحبة للتبادل الاقتصادى الذى تستلزمه عمليات اطراد الانتاج الصناعى ، وبعضها الآخر ثقافى ما دامت أفكار أى بلد وفنونه وعلومه عرضة لا محالة لأن تنقلها أجنحة المدنية الى البلاد الأخرى ، مهما أقيم فى طريقها من حواجز ايدولوجية ونظم سياسية مؤقتة . وازاء هذه القوى جميعا لا يمكن أن تبقى هناك « أسرار » قومية ، ذرية أو غير ذرية ، بصفة دائمة .

وبالتأكيد أن العالم الواحد الذى بحث وندل ويلكى <sup>(١)</sup> موضوعه

---

(١) يشير المؤلفان هنا الى كتاب Wendell L. Willkie, (One World, (London, 1943 وفى رأينا أنه تقرير صحفى بارع عن حالة دول الحلفاء وميادين القتال فى الحرب العالمية الثانية ، إلا أن قيمة الكتاب العلمية مشكوك فيها - المترجم

أخذ في التكون منذ قرون . ونحن تقترب الآن من مرحلة في تقدم  
الانسانية خالية من الجماعات المحلية المستكفية بذاتها ، من أى حجم  
الهمم الا اذا توسعنا في حدود الجماعة المحلية بحيث تشمل الأرض وما  
عليها . وما الجهود المبذولة في الوقت الحاضر للارتقاء بالهيئات السياسية  
العالمية الا متفقة مع اتجاه المدنية الى الزحف الى كل مكان . وفي رأينا  
أن الأعمال المضادة التي يدأب البعض على القيام بها لتقويض الوحدة  
العالمية تنطوي على ارتكاز لحقائق الامتداد الطبيعي للجماعة المحلية .

**الجماعات المحلية الكبيرة والصغيرة :** لقد لاحظنا امتداد الجماعة  
المحلية عبر التاريخ حتى بلغت الحجم الذي يجعل منها أمة ، وربما وسعت  
العالم . وهذا لا يمنع من وجود جماعات محلية صغيرة لا تزال باقية  
ومتخلفة عن الجماعة الكبيرة في الدرجة . ولا تقضى الأمة ولا الجماعة  
العالمية على القرية أو الجيرة وان كان من الممكن أن يصيبها التغير .  
ونحن كمتدنيين نحتاج الى الجماعات المحلية الصغيرة والكبيرة على حد  
سواء . فالجماعة المحلية الكبيرة تمدنا بالفرص والاستقرار وتنظم  
اقتصادياتنا ، كما تبث دائما على تزويدنا بثقافة أغنى وأكثر تنوعا .  
وليست الجماعة المحلية الصغيرة عديمة القيمة على كل حال ففيها نجد  
لذاتنا الخاصة الشديدة القرب إلينا ، ومن جهة أخرى تمدنا الجماعة  
الكبيرة بالطمأنينة والحماية وفكرة الوطنية كما تدفعنا أحيانا الى الحرب ،  
وتمدنا بالانتاج الصناعي الحديث كالسيارات وأجهزة الراديو . ونحن  
نجد في حدود الجماعة الصغيرة الأصدقاء ونستمتع بصداقتهم كما نتمتع  
بأحاديث القيل والقال والمنافسات الصريحة بين الأفراد والتباهى بالانتساب  
الى المكان والبيئة المحلية . ومن هذا نستخلص أن كلا من الجماعة  
الصغيرة والجماعة الكبيرة لازمان لعملية اطراد الحياة الكاملة .

وستعرض لنا الفرصة فيما بعد لتحليل النواحي المختلفة للجماعة.

المحلية (١) . ان مدلول الاصطلاح « جماعية محلية » سيكون أكثر وضوحا حينما نوازته بالاصطلاح المضاد له والتالى من حيث كونه مفهوما رئيسيا ، وهو الرابطة ( والجمع روابط ) .

الروابط كوسائل لبلوغ الأغراض : هناك ثلاث طرق يتبعها الناس لتحقيق أغراضهم . الأولى أن يعملوا مستقلين ، بأن يحاول كل فرد أن يسلك سبيله دون أن يفكر فى أقرانه أو فى أعمالهم ، ومع أن هذه الطريقة تبدو مرغوبا فيها فانها غير اجتماعية وقاصرة ما دامت تطبق وسط أفراد آخرين تربطنا بهم وسائل العيش . والطريقة الثانية أن يحقق الناس أغراضهم فى الحياة من طريق الصراع بعضهم مع بعض ، بأن يحاول كل منهم أن يغتصب من الآخرين ما يرى أنه ذو قيمة كبيرة بالنسبة له . الا أن هذه الطريقة اذا لم تكن منظمة بالقانون تعتبر غير مؤكدة ومضیعة للوقت والجهد ، كما تتعارض مع بقاء المجتمع واستمراره . نعم ، ان الصراع ، كما سنرى فيما بعد ، من المقومات الثابتة للحياة الاجتماعية ولكنه فى الأغلب كالمنافسة الاقتصادية محدد ومنظم اجتماعيا . وأخيرا قد يسعى الناس لتحقيق أغراضهم متضامنين ، على أساس تعاوى ، بحيث يساهم كل منهم بدرجة وبطريقة ما فى تحقيق أغراض أقرانه .

وهذه الطريقة الأخيرة ، أى التعاوى ، قد تكون تلقائية كمد يد المساعدة الى أحد الغرباء ، وقد تكون عرضية كما قد تحددها عادات الجماعة المحلية كما هى الحال بين الفلاحين الذين يعاونون جيرانهم فى زمن الحصاد . ومن جهة أخرى قد تنظم احدى الزمر نفسها بقصد تحقيق مصالح أفرادها مجتمعين . وعندما يحدث ذلك ينشأ ما يسمى بالرابطة .

ونحن نعرف الرابطة بأنها زمرة من الناس تكونت لتحقيق مصلحة أو مصالح مشتركة .

**الرابطة والجماعة المحلية :** يستنتج من تعريفنا الذى ذكرناه آنفا أن الرابطة ليست جماعة محلية ولكنها هيئة قائمة فى داخل الجماعة المحلية . والجماعة المحلية شئ أكثر من الهيئات الخاصة التى تنشأ فى داخلها . ويمكن أن نوازن فى هذا المقام مثلا بين المحل التجارى أو الكنيسة أو النادى وبين القرية أو المدينة أو الأمة . وفيما يتعلق بالمحل التجارى أو الكنيسة أو النادى يمكننا أن نتساءل : لماذا يوجد كل منها وما معناها ؟ ويمكننا أن نجيب على تساؤلنا بالرجوع الى المصالح التى دعت لقيامها . ولكن اذا سألنا عن سبب وجود الجماعات المحلية لا يمكننا أن نحصل على مثل هذا الجواب المحدد . ( وقد نستطيع أن نسأل : لم تقوم جماعة محلية كمدينة ما فى المكان الذى تقع فيه الا أن هذا سؤال مختلف ) .

وهناك تضاد آخر بين الجماعة المحلية والرابطة يتكشف بتأمل ناحية المصلحة فى الروابط ، ونظرا الى أن الرابطة تكون لأغراض خاصة ، لتحقيق مصالح معينة ، فاننا ننتسب اليها بسبب هذه المصالح فحسب . اننا ننتسب الى النادى الرياضى لأغراض تجديد نشاطنا الجثمانى أو للرياضة ولكننا نشترك فى محل تجارى لكسب معاشنا أو للحصول على ربح مادى أو الى ناد اجتماعى للاستمتاع بالزمانة ، ان للعضوية فى الرابطة معنى محدودا . وفى الحق أن الرابطة قد تستولى على كل مشاعرنا وكذلك قد تكون المصالح التى تسعى الرابطة الى تحقيقها أكثر اتساعا من المعلن رسميا أو مختلفة عنه . ولكننا ننتسب الى الروابط بسبب المصالح المعينة التى نحصل عليها . ويترتب على ذلك أن تنشأ روابط متعددة فى داخل الجماعة المحلية وأن يكون من الجائز للفرد أن ينتسب

الى كثير منها . ومثلا كان المعروف أن المغفور له الرئيس بتر ، مدير جامعة كولومبيا كان عضوا في عشرين ناديا ، الى جانب عشرات من الروابط (١) .

وقد تصير الروابط جماعات محلية ، على الأقل بصفة مؤقتة ، ومثال ذلك شركات التجارة المعروفة في القرن السابع عشر التي اتخذت لها مقار بعيدة عن بلادها وأصبحت جماعات محلية من جميع الوجوه ، أو الوحدات العسكرية التي اضطرها الظروف الى أن تتحول الى جماعات محلية فترة من الزمن (٢) .

وهناك حالات لهيئات يقع تشكيلها بين الجماعة المحلية والرابطة مثل أديرة الرهبان وأديرة الراهبات والسجون التي ناقشناها في القسم السابق . والنظامان الاجتماعيان الرئيسيان اللذان قد يدوان واقعين على الحدود الفاصلة بين الروابط والجماعات المحلية هنا الأسرة والدولة . وسنعالجهما بالتفصيل فيما بعد ، غير أن كلا منها يحتاج الى تعليق موجز في هذا البحث التمهيدى المتصل بالمفاهيم الأولية .

الأسرة كرابطة : لوحظ أن للأسرة في بعض اشكالها — وعلى الأخص في بعض المجتمعات البدائية والريفية بمعنى الكلمة — كثيرا من صفات الجماعة المحلية ، ففي هذه الحالات يكدح الناس ويلعبون بل يتعبدون في

---

(١) أنظر W. F. Ogburn and M.F. Nimkoff, *Sociology* (Boston, 1940), pp. 258-260 .

(٢) أنظر C. H. Page, "Bureaucracy's Other Face" *"Social Forces"*, XXV (Oct., 1946), 88-94.

ويمكن للقارىء أن يقارن حياة وحدة الجيش المصري التي حوصرت في الفالوجة في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ والتي تحولت الى جماعة محلية مستكملة الشرائط — المترجم

الأغلب في داخل حظيرة الأسرة . ان الأسرة تحدد الى حد كبير حياة أعضائها ان لم تضع القواعد لكل صغيرة وكبيرة فيها .

ومع ذلك فالأسرة في المجتمع الحديث ، كما في الحضارات المفقدة تصبح رابطة بلا منازع ، وذلك فيما يختص بالبالغين من أعضائها ، وذلك لأنها بالنسبة الى الأطراف الأصلية المتعاقدة فيها تعتبر رابطة مؤسسة بصفة خاصة لتحقيق أغراض معينة . وهذه المصالح هامة جدا لكنها مع ذلك محدودة . ان وظائف الأسرة تزداد انكماشاً وتحديدا كلما ازداد تقسيم العمل الاجتماعي . وسنعالج هذه العنصرية المطردة المظهر في فصل لاحق .

والأسرة ، حتى في أكثر المجتمعات تعقيدا ، تعتبر أكثر من رابطة بالنسبة للأحياء المترايدين فيها . وبالنسبة للطفل تأخذ الأسرة مظهر الجماعة المحلية التمهيدية التي تعدّه الى الجماعة المحلية الكبرى . وهي تتحول — بالنسبة له على درجات لا يصل اليها ادراكه — الى رابطة ذات مصالح عنيفة في غالب الأمر ، الا أنها محدودة . ويترك الطفل الأسرة بعد ذلك ، حينما ينمو ليكون أسرة جديدة .

**الدولة كرابطة :** كثيرا ما يحدث خلط بين الدولة والجماعة المحلية . والدولة في واقع الأمر شكل من أشكال النظام الاجتماعي ، ولا تمثل الجماعة المحلية من جميع نواحيها . ونحن نميز مثلاً بين الدولة وبين الكنيسة ، وبين النظام السياسي والنظام الديني ، والخلط بين الجماعة المحلية والدولة يزداد باستخدامنا لأي من الاصطلاحين ليعني الآخر . وعلى ذلك فالمعبرة « الولايات المتحدة » تشير اما الى الدولة القومية مع جهازها الحكومي واما الى الجماعة القومية الكبرى التي تحكمها .

ومن المهم جدا ، لكي نفهم التركيب الاجتماعي وبالذات تطور هذا التركيب ، أن ندرك ما تحتويه الدولة من صفات الرابطة . ان الدولة

قوة بعيدة المدى من نوع خاص ، ولكنها مع ذلك قوة . وقد تزعم  
لنفسها سلطة مطلقة أو شكلا اشتراكيا ، معتبرة نفسها صاحبة حق في  
السيطرة على كل نواحي الحياة الانسانية . وحتى اذا تحقق هذا الذي  
تطالب به لنفسها تحققا كاملا — وهذا ما لن يحدث أبدا — فان الدولة  
لن تصبح جماعة محلية ، بل رابطة تسيطر على الجماعة المحلية .

ان كل الناس هم حتما وبالتأكيد مواطنون بالدولة . ولكنهم أيضا  
أعضاء في أسر وفي كنائس وفي أندية ، وهم أصدقاء تربطهم بغيرهم  
روابط الصداقة أو محبون يعشقون أفرادا من الجنس الآخر ، أو علماء  
أو عمال أو فنانون يجتمعون بمن على شاكلتهم . ومهما كان دور المواطن  
خافلا بالمعاني ، فانه واحد من أدوار كثيرة يلعبها الفرد ككائن اجتماعي .

ويجب أن ندرك أن الدولة تختلف من نواح هامة عن جميع الروابط  
الأخرى . وسنناقش فيما بعد خصائص الدولة وقصورها والمصالح التي  
تسعى إليها <sup>(١)</sup> . ويجب أن يستقر في أذهاننا — حتى تتناول هذا  
الموضوع — أن الدولة كشكل من أشكال النظام الاجتماعي هي كرابطة  
مثل الكنيسة أو المحل التجاري أو النادي .

الروابط كقوى تعمل بالنيابة عن الأفراد وصفتها التضامنية : تعتبر  
الروابط وسائل أو قوى يستطيع أعضاؤها من طريقها أن يسعوا الى  
تحقيق مصالحهم المتشابهة والمشاركة . ومثل هذه الهيئات تعمل بالضرورة  
بوكالات لا من طريق زعمائها فحسب ، ولكن من طريق أعضاء مجالس  
إدارتها وموظفيها أو ممثليها .

وقد يحكم الموظفون أو أعضاء المجالس هذه الهيئات الى درجة  
تصبح معها مصالح الأغلبية تابعة لهؤلاء ، وحيشا وجد نظام اجتماعي

(١) انظر الفصل الثامن عشر .

وجدت مشاكل الحكم البيروقراطى والحرية البيروقراطية . وقد تكون السيطرة فى أيدى الأعضاء . وعلى أى الحالين تعمل الرابطة من طريق وكلاء مسئولين عنها وأمامها . وهذا الأمر يكسب الرابطة صفة مميزة لها ، كما يعطيها مركزها القانونى الخاص بها .

وليس للرابطة فى واقع الأمر مصالح ليست هى مصالح بعض أعضائها أو كلهم . ولكن لها أساليب للعمل تعتبر من لواحقها من حيث كونها رابطة . فقد تكون لها ممتلكات ليست مجرد مجموع ممتلكات أفرادها ، وقد تكون لها أرصدة لا يستطيع الأعضاء أن يوزعوها بين أنفسهم كلما استمروا ذلك . ان للرابطة حقوقا والتزامات وسلطات مخولة لها ومسئوليات لا يستطيع أعضاء الرابطة أن يمارسوها بصفقتهم أفرادا . فالمرافق العامة واتحادات العمال والأحزاب السياسية والأندية والكنائس لها ، كنتيجة لنظامها ووظائفها ، واجبات معينة وامتيازات خاصة من حيث انها مجموعات من الناس . وبهذا المعنى ، وتبعا للأساليب الخاصة للرابطة تعتبر هذه ذات صفة جمعية . وحينما تستقر أوضاع الرابطة قانونا وتصبح واجبات الرابطة وامتيازاتها قانونية تسمى فى الاصطلاح القانونى هيئة ذات شخصية معنوية .

استخدامنا للاصطلاح « زمرة » : نحن نقصد بالزمرة أية مجموعة من الكائنات الاجتماعية يدخل أفرادها بعضهم مع بعض فى علاقات اجتماعية مميزة لكل منهم . والزمرة اذن — كما تفهمها — تنطوى على علاقات متبادلة بين أعضائها . وقد عرفنا الرابطة كزمرة من الناس كونها أعضاؤها عامدين لتحقيق مصلحة خاصة . ووصف الرابطة بأنها مكونة عمدا يعيننا على أن نفرق بين الروابط وبين غيرها من الزمر الاجتماعية . وتوجد — كما سنرى — أشكال وأنواع كثيرة من الزمر الاجتماعية مثل

« الطبقة » ، والجمع ، والزمر الأولية ، والثانوية ، والزمر القائمة على علاقات  
« الجيرة المباشرة » ، والزمر الكبرى .

ولكن الطبقة الاجتماعية مثلاً ليست « رابطة » ، حكمها في ذلك حكم  
الجماعة المحلية . وتعتبر روابط الهيئات التي تقوم على أسس طبقية  
كالأحزاب السياسية ، ولكن الطبقة نفسها ليست زمرة تكونت عدا  
لتسمى وراء أغراض معينة أو لتؤدي وظائف محددة . كذلك لا تعتبر  
رابطة الأسرة التي نسميها جميعاً أو حشداً من الناس ، ولو أن بعض  
الجموع قد تصير روابط على الأقل بصفة مؤقتة ( وبذا تفقد صفة  
الجموع ) إذا أعيد تكوينها لتحقيق مصالح معينة .

### النظم السائدة

تعريف النظم السائدة بأنها الأشكال المقررة لأساليب العمل أو  
« السلوك في الحياة الاجتماعية » : من المؤلف في بعض الأحيان أن نشير إلى  
أي شيء اتفق عليه اجتماعياً بأنه « نظام سائد » . واستخدام الكلمة بهذا  
المعنى العريض قد أوضحته مثلاً أبحاث هـ . أ . بارنز الشاملة <sup>(١)</sup> ، والتي  
يصف فيها النظم الاجتماعية السائدة بأنها « التركيب الاجتماعي والآلة  
التي من خلالها ينظم المجتمع الإنساني ، كما يوجه وينفذ وجوه النشاط  
المتعددة المطلوبة لأشباع الحاجات الإنسانية » <sup>(٢)</sup> . واستناداً إلى هذا  
المعنى تعتبر الأسرة والدولة نظاماً سائداً غير مختلف في ذلك عن الزواج  
والحكومة . وستكون لدينا فكرة أوضح عن التركيب الاجتماعي إذا  
ميزنا بين النظم السائدة والروابط . وفي هذا الكتاب سنقصد دائماً

(١) أنظر : H. E. Barnes, *Social Institutions* (New York, 1942).

(٢) نفس المصدر - ص ٢٩ .

بالنظم الأشكال المقررة وأساليب العمل والسلوك الذى يتميز به نشاط الزمر (١) .

**النظم السائدة والروابط :** حينما ينشئ الناس الروابط يتختم عليهم أن يضعوا القواعد وأساليب العمل اللازمة لإنجاز الأعمال الخاصة بالمجموع ولتنظيم علاقة الأعضاء بعضهم ببعض . وتعتبر أساليب العمل هذه نظما سائدة . ولكل رابطة نظمها السائدة الخاصة بها والتي تتلاءم مع مصلحتها الذاتية . فلكنيسة مثلا حفلاتها الدينية وأساليب عباداتها وطقوسها . ومن النظم السائدة لحياة الأسرة الزواج ، وهو نظام قصد به تحديد علاقة العشرة ، وللأسرة أيضا نظام الحياة البيئية ونظام طعامها المشترك وغير ذلك . وتسود فى الدولة كذلك نظم خاصة بها كنظام الحكومة التى تمثلها ونظم الاجراءات التشريعية . وتمدنا الخريطة التوضيحية رقم (١) بأمثلة أخرى .

ونحن ننتهى الى روابط لا الى نظم سائدة . ويحدث أحيانا خلط بين النظام السائد والرابطة نظرا لأن أي من الاصطلاحين قد يستخدم للدلالة على الاصطلاح الآخر . ولا توجد صعوبة اذا قررنا وفقا لتعريفنا أن الكنيسة رابطة وأن الاتصال بالله من النظم السائدة فى الكنيسة وأن اتحاد العمال رابطة وأن المساومة الجماعية نظام سائد فيها ، وأن الأسرة رابطة كما أن الزواج المونوجامى ( زواج الرجل الواحد من المرأة الواحدة ) نظام سائد فيها . ولكن ماذا نسمى المستشفى والبرلمان والسجون والكلية أو المعهد العلمى ؟ اننا حينما نتحدث عن أحد المستشفيات قد ينصرف تفكيرنا الى بناء لرعاية المرضى ، أو الى أداة للخدمة الطبية ، أو مؤسسة عامة

---

Compare W.H. Hamilton's interpretation "Institution", *Encyclopaedia* (١) of the Social Sciences (New York, 1935), VIII, 84-89.

أو خاصة لسد حاجات اجتماعية معينة . وبعبارة أخرى تفكر فيها كنظام . من هذه الأنظمة السائدة والمألوفة لنا التي أشرنا إليها . وقد ننظر للمستشفى على أنه هيئة من الأطباء والمرضات والخدم ، وبعبارة أخرى يكون المستشفى في هذه الحالة رابطة . وهذا يوحي إلينا بالفتاح الصغير الذي يمكن أن يساعدنا على إيجاد جواب لسؤالنا . ولزيادة هذه النقطة وضوحا نقول اننا اذا كنا نتحدث أو تفكر في زمرة منظمة ، فاننا نتحدث عن رابطة ، واذا كنا نشير الى شكل من أشكال القواعد أو الاجراءات فاننا نقصد النظام السائد . واذا كانت الرابطة تشير الى العضوية فان النظام السائد يرمى الى الأسلوب أو الطريقة التي تؤدي بها الأعمال . واذا نظرنا الى كلية كهيئة من المدرسين والطلبة فانما نكون قد اخترنا أن ننظر إليها كرابطة ، واما اذا نظرنا إليها كأداء للتعليم فانما نكون قد اخترنا أن ننظر إليها كواحد من تلك الأنظم السائدة المقررة . ونحن لا ننتهي الى النظم كنظام الزواج أو نظام الملكية أو النظم التي تزج بالناس في السجون ، وانما ننتهي الى الأسرة ، والى الدولة ، وفي بعض الأحيان الى السجون اذا صدر عنا ما يستلزم هذه العقوبة .

**النظم والجماعة المحلية :** ينبغي أن نلاحظ أن هناك نظما قررتها الجماعة المحلية مثل تلك التي تضعها « الروابط » . مثال ذلك الأعياد والحفلات التي تقام لمناسبات هامة ، وأساليب الترفيه والتسلية . أنظر الى مجتمعنا الحضري وما اصطلح الناس عليه فيه من قواعد منظمة لاعطاء « المواعيد » ، أو الطريقة التي تتبعها الأسر والأفراد في الذهاب الى دور السينما أو الاستماع الى الراديو . وهذه الاجراءات المعبرة عن هذه الرغبات هي على التحقيق جزء من الأساليب العلمية المتبعة في أغلب الأحيان في داخل

الروابط . وهكذا يتم ترتيب المقابلات بين طلبة الكليات الجامعية أو تنظيم الاستماع الى الراديو في داخل أسرة . ومثل هذه القواعد لا تضعها الروابط ولا هي مقصورة عليها .

ولا تنتج نظم الجماعات المحلية ، بعكس كثير من نظم الروابط ، عن تقرير واع متعمد لها . انها — على حد تعبير سمنر المشهور والمميز — متفق عليها أكثر مما هي قوانين مصنوعة <sup>(١)</sup> . وستتاح لنا الفرصة في آخر الأمر الى أن نصل الى النتيجة الآتية : وهي أن جميع النظم سواء أكانت صادرة عن الجماعات أم عن الروابط تصبح متفقا عليها . « وحتى في حالة ما اذا كان النظام السائد قد وضع عمدا فلن تكون كيفية وضعه محددة ، كما لا يمكن أن يكون مشكوكا في كنهه » <sup>(٢)</sup> .

طرق دراسة النظم السائدة : لقد شغل الباحثون أنفسهم منذ قرون بالتحليل التفصيلي لأساليب السلوك المتبعة في المجتمعات . وقد اتبعوا لبحث هذا الموضوع ثلاث وسائل ، اما منفردة واما مجتمعة .

١ - التحليل التساريحي : وقد لجأ اليه الباحثون لتتبع النظام الواحد السائد خلال الزمن . فمثلا كثيرا ما نبحث من وجهة النظر هذه نشأة الديمقراطية النيابية وتطور الزواج المونوجامى ( أو زواج الرجل الواحد من المرأة الواحدة ) والمشروعات الرأسمالية . ومهما كانت مثل هذه الدراسات مجدية فانها تواجه الصعوبة الناشئة عن قيام طبيعة النظم على كونها متفقا عليها . وان البحث في أصولها وفي أية أصول أخرى جهد لا ينتهى الى شيء .

(١) أنظر : W. G. Sumner, *Folkways*, (Boston, 1907), P. 54

(٢) أنظر Hamilton ، نفس المصدر ، ص ٨٤ .

٢ - التحليل المقارن : وهذا يتضمن دراسة نظم مفردة في مجتمعات أو طبقات مختلفة في المجتمع الواحد . وبهذه الطريقة درست أشكال الزواج وأنماط العلاقات بين الجنسين وطرق التصرف في الممتلكات ، وأساليب تربية الأطفال . ويعتبر كتاب أرسطو في السياسة ، المبني على دساتير ١٥٨ مدينة يونانية مثالا مشهورا ومبتكرا للدراسة المقارنة . وقد لجأت الأبحاث الأثروبولوجية خاصة الى هذه الطريقة . ومثل الدراسات التي قام بها كل من وسترمارك وبريفولت في مجال الزواج ، وحديشا السيدتان روث بيندكت ومارجريت ميد ، تعتبر في غاية الأهمية لطلاب البحث في الأنواع المختلفة للنظم السائدة (١) .

٣ - العلاقات بين النظم السائدة : من الممكن دراسة النظم السائدة من ناحية كينيات اتصالها بعضها ببعض في المجتمع . وهذه الطريقة التي تعنى أولا وقبل كل شيء بالعلاقات الوظيفية المتبادلة (٢) ..

---

(١) E. Westermarck, *The History of Human Marriage* ( London, 1921 ) ;

R. Briffault, *The Mothers* (New York, 1927); R. Benedict, *Patterns of Culture*

(New York, 1934); M. Mead, *Sex and Temperament in Three Primitive Societies*

(New York, 1935).

( المؤلفان )

ويمكن أن نضيف مرجعين هامين جدا للدراسة المقارنة من هذا النوع هما :

A. R. Radcliffe-Brown, *The Social Organization of Australian Tribes*

(Oceania Monographs No. 1, Melbourne, 1931); M. Fortes and E. E. Evans-

Pritchard (Editors), *African Political Systems* (O.U.P., London, 1940).

(٢) المقصود بالعلاقات الوظيفية في لغة العلم حدوث واقعتين أو أكثر في وقت واحد بحيث تكون بينهما علاقات عليية مثل سقوط الأجسام على الأرض ووجود علاقة وظيفية تبعا لذلك بين الأجسام وبين جاذبية الأرض .

- المترجم

كثيرا ما تحوى تحليلات تاريخية كما تستخدم فى أغلب الأحيان الدراسة المقارنة للنظم السائدة أو توحى بها . وسنهتم فى كتابنا هذا بالعلاقات المتبادلة بين النظم نظرا لأن أيا منها لا يعمل منطقيا على نفسه انطواء تاما . ولنختار مثلا واحدا للتدليل على ما نقول ، فالدراسة الواقعية للزواج تشتمل بالضرورة على العلاقات المعروفة بين الزواج نفسه وعدد من النظم السائدة كالنظم القانونية ونظم الملكية ونظم القرابة والنظم الدينية وغيرها . وهناك تحذير لابد منه فى هذه المناقشة الموجزة لدراسة النظم السائدة ، فان هذه القواعد المقررة لأساليب العمل هى منهاج تتبعها زمر من الناس . وسواء أكافئ وسائل رسمية وضعتها الروابط أو أنماطا غير رسمية نمت فى الجماعة المحلية فان النظم السائدة فى الحياة العملية لابد أن تلازم حتى أولئك الذين يتبعون هواهم فى سلوكهم ، وعلى ذلك فالبحث فى واقع الحياة الاجتماعية يتضمن دائما الإشارة الى كل من النظم الانسانية السائدة والزمر الانسانية وعلى ذلك فاذا كان اهتمامنا منصبا على النظم السائدة بمعناه الذى شرحناه فانه يجب أن يتركز حول أساليب السلوك نفسها .

**النظم السائدة والمصالح :** توجد نظم سائدة معينة فى روابط متعددة الأنواع مثل الدخول لأول مرة فى العضوية وانتخاب الإداريين وفرض نوع من الرياسة . وهناك نظم أخرى تختص بهذا النوع أو ذاك من الروابط ، وهذه تتوقف طبيعتها على طبيعة المصلحة الخاصة التى تسعى الرابطة الى تحقيقها .

وتتمثل العلاقة بين الروابط والنظم السائدة والمصالح في البيان التوضيحي رقم (١) .

| البيان التوضيحي رقم ١                                  |                                                                   |                             |
|--------------------------------------------------------|-------------------------------------------------------------------|-----------------------------|
| الروابط والنظم السائدة والمصالح                        |                                                                   |                             |
| المصالح الخصوصية                                       | النظم السائدة المميزة لها                                         | الروابط                     |
| العلاقة الجنسية والبيت والأبوة                         | الزواج والبيت وقواعد الميراث                                      | الأسرة .. ...               |
| التعلم والاعداد لمهنة معينة                            | نظم المحاضرات والامتحانات وقواعد الحصول على الدرجة الجامعية       | الكلية الجامعية             |
| الأرباح                                                | نظام إمساك الدفاتر ونظام العضوية أو الشركة والمساهمة في رأس المال | العمل التجارى               |
| الحفاظة على العمل أو الوظيفة ونسبة الأجور وأحوال العمل | المساومة الإجماعية والاضراب عن العمل وحماية العمال للاضراب        | اتحاد العمال أو النقابة ... |
| الإيمان الدينى                                         | العقيدة والاتصال الروحى وأشكال التعبد                             | الكنيسة . ...               |
| تولى الحكم والسلطة والسياسة الحكومية                   | الترشيحات للبرلمان والنظام الحزبى والأهداف الحزبية                | الحزب السياسى               |
| الإدارة العامة لضمان انتظام الحياة الاجتماعية          | الدستور والقوانين وأشكال الحكومة                                  | الدولة .. ...               |

العادات الجمعية ومظاهر السلوك العام والآداب العامة :

طبيعة العادات الجمعية : لا يرجى للنظم السائدة والروابط أى انتظام بمعنى الكلمة الا اذا ارتكزت واعتمدت على مركب معتد من صنوف مختلفة من العرف وأساليب السلوك . ولذا توجد في كل مجتمع طرق

متفق عليها لتناول الطعام واجراء المحادثة والالتقاء في الحفلات وطلب يد الفتيات لزواج واعداد الصغار للحياة والعناية بالمسنين ، مما لا نهاية له تقريبا وتسمى طرق التصرف التى يقرها المجموع بالعادةات الجمعية أو عادات المجتمع .

ونحن نسير وفق عادات مجتمعنا بلا وعى منا ، بمعنى من المعانى . وذلك لأن هذه العادات جزء أصيل فى حياتنا الجمعية ، وهى أصيلة جدا فى الحقيقة لدرجة أننا كثيرا ما نخطئ بتوهمنا أن عاداتنا الجمعية الخاصة تمثل خير الوسائل للقيام بهذا العمل أو ذاك أو نزعهم أن عاداتنا الجمعية تتفق والطبيعة الانسانية نفسها . وهذا الأمر يثير مشاكل سنغنى بها عناية تامة فى بعض الفصول التالية (١) .

**التمييز بين النظام السائد وبين العادة الجمعية :** الفرق بين العرف الاجتماعى أو العادة الجمعية من جهة وبين النظام السائد من جهة أخرى فى حقيقة الأمر فرق فى الدرجة وينطوى النظام السائد على ما يتضمنه من فكرة الرضا الأصرح من جانب المجتمع .. وقد تسمى حفلة الزواج نظاما سائدا ولكن كثيرا من طرق الخطوبة يحسن أن تسمى عادات جمعية . والزواج نفسه نظام سائد وليس بعادة جمعية . وللنظم اشارات خارجية وعلامات تدل على رضا عامة الناس لا تحتاج اليها العادات الجمعية من حيث هى كذلك . ونحن نسمع أحيانا ما مؤداه أن نظمنا السائدة معرضة لما يقوضها من أساسها ، ولكن هذا الزعم لا ينطبق إلا نادرا على عاداتنا الجمعية .

وهذا يوحى الينا بفرق آخر . فالاصطلاح « نظام سائد » يؤكد فكرة العامل غير الشخصى فى العلاقات الاجتماعية . وحينما نتحدث عن

---

(١) انظر الكتاب الثانى ، الباب الاول .

العادات الجمعية يكون ذهننا متجها نحو مظاهر السلوك العام الذى يتبعه الناس لأداء عمل ما مجتمعين ، خلال اتصالاتهم الشخصية . ولكن حينما نتحدث عن النظم السائدة نكون أميل الى التفكير فى أساليب الضبط الاجتماعى التى ترتد الى ما وراء العلاقات الشخصية . وهذه الأساليب هى الرابطة التى تصل الماضى بالحاضر كما تصل الحاضر بالمستقبل وتربط بين الناس وبين أسلافهم وآلهم ومن انحدروا منهم ، وعلى ذلك نحن لا نهتم اهتماما كبيرا بتغير العادات الجمعية المتعلقة بالخطوبة أو الأزياء أو قضاء وقت الفراغ وانما نهتم بما هو أعمق منها . ويمكن أن تتصور مقدار الأذى والاضطراب الذى يصيب بعض الناس نتيجة لكل ما يبدو أنه تهديد لنظام « الملكية » أو نظام « الزواج » أو نظام العمل الحر ، وجميعها من النظم السائدة التى تتفرع عنها النظم الكبرى السياسية والاقتصادية والدينية .

**مظاهر السلوك العام :** يتبع الناس عادات جمعية ويخضع سلوكهم للقواعد التى تفرضها النظم السائدة . ونحن فى حاجة الى اصطلاح يضى بكل هذه الأغراض ، أى مظاهر العرف التى أوجدها المجتمع . والاسم الذى صار منطبقا عليها هو « مظاهر السلوك العام » أو « مقاييس السلوك »<sup>(١)</sup> . وقد أصبح استعمال هذين الاصطلاحين عاديا فى كتاب و.ج. سمنر الموسوم « مظاهر السلوك العام » وقد استخدم اصطلاح « مظاهر السلوك العام » بمعنى شامل جدا . وفيما يلى عبارات سمنر :

« انها تشبه نتائج القوى الطبيعية التى يستخدمها الناس دون وعى منهم ، أو هى تقابل مظاهر السلوك الغريزية عند الحيوان وتنمو مع التجربة ، وتبلغ أعلى درجاتها بتلاؤمها مع مصلحة مطلوبة ، وتنتقل من

(١) Folkways, or mores كما ورد بالنص الاصل - المترجم

جيل الى جيل دون شذوذ أو انحراف في الأسلوب ، وهى مع ذلك قابلة للتغير لتتفق مع الظروف الجديدة ، في نطاق نفس الأساليب المحددة ، ودون تعقل أو بحث في الأسباب التى تدعو للتغير . ومن هذا نستنتج أن حياة الناس جميعا في جميع العصور ومراحل الثقافة المختلفة تسيطر عليها أولا وقبل كل شئ مجموعة من مظاهر السلوك العام انحدرت للحاضر منذ القدم عن الأجناس الأولى ، متفقة في ذلك مع أساليب السلوك العام عند أنواع الحيوان الأخرى ولم يتغير فيها الا ظاهرها نتيجة للفلسفة الانسانية والأخلاق والديانات أو نتيجة لتفكير ممتاز (١) .

وعلى ذلك فمظاهر السلوك العام هى كل ما هو مؤيد ومقبول من أساليب السلوك في المجتمع ، وتشتمل على ما تواضع عليه الناس من آداب وتقاليد ، وبايجاز كل أساليب السلوك التى تكونت ولا تزال آخذة في التكون عند الناس ليهتدوا بها في معاشهم . وانها تختلف بالطبع من مجتمع الى آخر ومن عصر الى عصر ، فمثلا ارتداء الرجال لرباط الرقبة في مجتمعنا ما هو الا أسلوب من أساليب السلوك العام المتعلقة بالتزين ، وبنفس الطريقة نفس استخدام النجريتو في القلين للمبرد في تزيين أسنانهم .

**الآداب العامة كمنظمة للسلوك :** اذا نظرنا لمظاهر السلوك العام لا من حيث كونها معايير للسلوك وانما كأدوات تنظيمية ، فاننا نتصورها في هذه الحالة كآداب عامة . فكل عرف اجتماعي ، وكل مظهر من مظاهر السلوك العام ، هو بدرجة ما وسيلة للضبط الاجتماعي ، وحتى أبسط قواعد السلوك أو آتفه مظاهر التقاليد تصاحبها فكرة كونها السلوك

From *Folkways* by William Graham Sumner, Used by permission of (١) the publishers, Ginn and Company. See also W. G. Sumner and A. G. Keller, *The Science of Society* (New Haven, 1927), I, 20.

الأمثل . ومن ثم لا ينبغي أن نظن أن الآداب العامة شيء يختلف من مظاهر السلوك العام . انها في الحقيقة آداب سلوك عام تظهر بمظهر أدوات للضبط الاجتماعي . انها تعبر عن مستويات الزمرة وما تراه هذه من تصرفات ملائمة وسليمة ، ومؤدية لسعادة المجموع .

ويرى سمنر أن التمييز يحصل أحيانا بين مظاهر السلوك العام والآداب العامة . وذلك على أساس أن مظاهر السلوك العام حينما تضاف اليها معاني رفاهية المجموع ومستويات الخير والشر فانها تتحول الى آداب عامة . فارتداء الملابس من طراز معين مثلا يمثل فكرة المطابقة لمظاهر السلوك العام ، بينما ارتداء الملابس في ذاتها يفرض الآداب العامة . ولزيادة التوضيح نقول انه توجد درجات للقهر على فعل الشيء ودرجات لمطابقته العامة — ولم يحدث أن كان الضبط الاجتماعي ضغطا منتظما ومتساويا مهما كان مصدره . ولكن منذ الذي ينكر الضغط المنظم الذي يصدر حتى عن أبسط مظاهر السلوك العام في مجتمعنا ، مثل تناول الطبق الحلو في نهاية وجبة الطعام بدلا من حدوث ذلك في أوله ؟ اننا ننظر الى آداب المجتمع العامة ممثلة في مظاهر العرف كقوى كبيرة للضغط على الناس .

ان الآداب العامة تمثل صفة الحياة في الزمرة أو الجماعة المحلية ، ومهمتها الضبط الاجتماعي لأعضاء المجتمع ، سواء أكان هذا الضبط مشعورا به أم غير مشعور به ، وهذه الآداب العامة اما أن تفرض أنواعا معينة من السلوك أو أن تمنعها ، واذا كانت وظيفتها المنع فانها تعرف باسم تابو أو المحظورات . ولما كانت المجتمعات تختلف فيما بينها من حيث السلوك المسموح به والمحظور فما لا شك فيه أن كل مجتمع يتميز بمفردات سلوكه التي تعتبر ذات تأثير دائم على وحدته . انها

تعمل باستمرار على الحد من حرية الفرد لكي ينسجم مع المجموع . وهى التى تؤدى الى اطرء الشخص أو تأنيبه على أعماله منذ الطفولة حتى السن المتقدمة ، أو بعبارة أخرى التصديق على أعماله المتمشية مع الآداب العامة واستنكار أعماله المضادة لها . والشخص غير المنسجم هو الذى يخالف بعض الآداب العامة « لا كلها » والشخص الهازل هو الذى يهون أحيانا من شأنها ، ولكن السوسيولوجى هو الذى يفهم وظائفها ودلالاتها بالنسبة لحياة الانسان .

**تنوع الآداب العامة :** ليست الآداب العامة نتيجة لابتكار يدل على الفطنة والذكاء أو بعد النظر . ولا شك أنها الى حد ما تقوم على التجربة الاجتماعية للزمرة . ولكن على المرء أن يتأمل الآداب المتعارضة للوحدات الاجتماعية المختلفة لكي يتحقق من أن الصدفة والأحداث العرضية تلعب أيضا دورا كبيرا فى خلقها . ففى بعض المجتمعات يكشف الناس رؤوسهم كعلامة لافظهار الاحترام ، وفى مجتمع آخر يكشفون أقدامهم للسبب نفسه . وبعض المجتمعات يمنع زواج أعضائه من خارجها ، والبعض الآخر يشجع على الزواج من الخارج وهناك مجتمعات تكره زواج الأرامل ، وغيرها توصى به . وأكثر من ذلك أن بعض المجتمعات لديها قيود شديدة على المسائل الجنسية بالنسبة للمتزوجين وليس لديها قيود مماثلة بالنسبة لغير المتزوجين ، وقد نرى العكس فى مجتمع آخر . ومن الممكن أن نسوق أمثلة لا حصر لها على هذه المتناقضات <sup>(١)</sup> . وفى الواقع أن قليلا جدا من مظاهر السلوك محظور بصفة عامة فى العالم كله ، وقد يكون زنا الأم والابن معا هو السلوك الوحيد المحظور فى جميع المجتمعات الانسانية . وهذا التنوع الضخم فى الآداب العامة كما نلاحظه من مجتمع

(١) هناك أمثلة متعددة على هذه المسائل فى كتاب :

W. I. Thomas, *Primitive Behavior* (New York, 1937).

الى آخر أو من زمرة الى أخرى يعتبر في ذاته تحذيرا كافيا لطالب  
الاجتماع لكي يجاهد في سبيل وقوفه موقفا محايدا عندما يدرسها وذلك  
لخدمة الحقيقة العلمية .

**الآداب العامة وصفاتها المحافظة :** ينظر المجتمع الى الآداب العامة  
التي يسير عليها على أنها « سليمة » . ومن بين أسباب ذلك أنها تسجل  
مقدارا كبيرا من تجارب المجتمع — وعلى الأخص التجارب التي غمرها  
النسيان — ولكنها على أية حال تجارب وجهتها الظروف الحسنة أو  
السيئة توجيهها يجعلها تطيب في نظر المجتمع . ( أنظر مثلا الى المحظورات  
التي تحول دون تناول أنواع جيدة ووفيرة من الطعام عند بعض الشعوب ،  
أو الى تعاوننا للعلاج العلمي والمنطقي للأمراض التناسلية ) . هذه تجارب  
تحولت الى تقاليد ثابتة ، أفسدتها المصالح الوهمية ، وقواءها الخوف  
أو الاشتمزاز من الشيء الذي نهجه بسبب عدم محاولتنا له من قبل .  
وعلى ذلك فالآداب العامة تعتبر بوجه عام من عوامل المحافظة على الأفكار  
القديمة وبالطبع يصيب الاخفاق أكثر المحاولات القانونية لتغيير الآداب  
العامة ، كما هي الحال بالنسبة لقوانين منع تعاطي المشروبات الروحية  
في الولايات المتحدة الأمريكية .

ومن جهة أخرى فإن الآداب العامة لها مظهر الثبات الخادع ، فهي  
تتغير تغيرا محسوسا من عصر الى عصر . ويمكن لاثبات ذلك أن تقارن  
بين مدى النشاط الذي كان مسموحا به للمرأة منذ ثلاثة أجيال وبين  
نشاطها المسموح لها به اليوم . وفي بعض الأحيان نجد بعض العناصر  
الهامة للآداب العامة تنقلب رأسا على عقب خلال تغير اجتماعي شامل ،  
وان كانت الآداب العامة ، كما يؤكد سمنر ، تبقى رغم التغيرات الفجائية  
التي تستلزمها نظم الحكم .

الآداب العامة والحياة الاجتماعية : يمكن أن نختم هذا الفصل التمهيدي ببيان موجز يتعلق بالوظائف العامة التي تؤديها الآداب في الحياة الاجتماعية ، والأسباب التي تجعل طالب الاجتماع يهتم دائما بدراسة :

١ — ان الآداب العامة تجدد كثيرا من سلوك الفرد . انها الجهاز الأمر الناهي في المجتمعات ، ومهمته الضغط على كل عضو في المجتمع . ووظيفة الآداب العامة هذه ستعينا بصفة خاصة حينما ندرس تعقيد قواعد السلوك الاجتماعي وتنوعها في مجتمعنا المعاصر .

٢ — تعمل الآداب العامة على ادماج الفرد في المجموع . فاذا كانت الآداب العامة تمارس الضغط على الفرد ، من جهة ، لكي يتمشى مع أساليب مجتمعة ، أو طبقته الاجتماعية ، أو نوعه ، ذكرا كان أم أنثى ، فان الفرد ، من جهة أخرى ، يكسب اندماجه مع أقرانه من هذا الطريق . وبهذه الكيفية يحفظ الروابط الاجتماعية التي لا بد منها للمعيشة الهائلة .

٣ — وأخيرا فان الآداب العامة تعتبر ، بعد تأمل ما عداها ، الوسيلة الكبرى لحماية التضامن الاجتماعي — ولكل وحدة اجتماعية آدابها العامة ، فهناك آداب للذكور ، وأخرى للإناث ، وللأعمار المختلفة ، كذا ، أن هناك آدابا لجميع الطبقات والزمير من الأسرة حتى الأمة وبما يليها . وتسعى كل مجموعة من الآداب العامة الخاصة بكل وحدة من هذه الوحدات للمحافظة على تضامن المجموع وتماسكه . وكل زمرة تتوق الى زيادة تضامنها تسعى الى أن تقوى تأثير الآداب العامة في أعضائها الزمرة .

ولما كانت الآداب العامة تنوع تنوعا كبيرا وتتناقض فيما بينها في المجتمعات المختلفة فان قوتها تضعف في المجتمعات الكبيرة الحجم حيث تتعدد الزمر في داخلها . وعلى العكس من ذلك تكون الآداب العامة

أشد قهرا وأكثر تماسكا وقدرة على الضم والتوحيد في الجماعات المحلية الزراعية منها في المدن . فضلا عن ذلك فإن الآداب العامة المتشعبة في المراكز الحضرية تواجه الفرد كثيرا بأنواع من السلوك المتضارب لكي يختار منها .

وتصبح الآداب العامة أكثر تخصصا كلما تطور المجتمع . انها تبدو كسلسلة من قواعد السلوك الخاصة والعادات الجمعية والعادات المستحدثة والقوانين والأوامر الدينية والتعاليم الثقافية . وسرى أن هذه العناصر الداخلة في الآداب العامة تجعل سيطرتها أكثر مرونة ، كما تدعوها الى أن تمد التجربة الاجتماعية لكل شخص بالوسائل اللازمة للأفصاح عن نفسها أفصاحا أتم (١) .

---

(١) مثال ذلك الرجل الذي تلزمه بيئته الدينية بأن يلبس العمامة فإذا تخلى عنها ولبس القبعة يوما ما أمكنه أن يحتج بأنه حصل على ثقافة أوروبية لا تجعله يتحرج من لبسها .



## الفصل الثاني

### المصالح والمواقف

#### المواقف والحياة الاجتماعية

ظواهر اجتماعية وظواهر سيكولوجية : سنوجه اهتمامنا في هذا الفصل الى الظواهر السيكولوجية ، أى المتعلقة بالفرد . ومع أننا معنيون بالعلاقات الاجتماعية الا أننا سنحول التفاتنا من العلاقات نفسها الى من تشملهم هذه العلاقات . ونحن حينما ندرس طبيعة الأفراد من حيث كونهم كائنات ذات سلوك ، أو ماهية الوعي الفردي التى تترجم نفسها من طريق العلاقات الاجتماعية ، فاننا نفكر من وجهة النظر السيكولوجية . وحينما ندرس العلاقات نفسها يكون تفكيرنا من وجهة النظر الاجتماعية ( السوسيولوجية ) . وعلم النفس وعلم الاجتماع كلاهما يدرسان جوانب مختلفة لحقيقة واقعة لا تقبل التجزئة . فالأفراد لا يمكن أن نفهمهم وهم منفصلون عن علاقاتهم بعضهم ببعض . والعلاقات يتعذر علينا أن نفهمها وهى منفصلة عن الوحدات أو الأطراف التى تنتهى عندها . وهذا يجعلنا طلاب علم نفس — بالإضافة الى علمنا — حينما ندرس المجتمع . ويؤكد علماء النفس أنفسهم باستمرار ، أنهم يصبحون طلاب اجتماع بطريقة آلية حينما يدرسون سيكولوجية الأفراد . وهذا التداخل الحادث في هذه الدراسات ينتهى بنا الى أن نقرر أن الفرق بين علم النفس وعلم الاجتماع فرق في الجانب الذى نهتم به أكثر من غيره في الحقيقة الاجتماعية الواقعة .

ويهتم الاجتماعى أول ما يهتم بالأسلوب الذى يتبعه الأفراد الواعون فى علاقاتهم بعضهم ببعض . ومعلوم أن عوالم كثيرة تكمن وراء وجدان الفرد كعالم البواعث النفسية والعصبية للسلوك ، وفسولوجيا الاحساس والادراك ، والعمليات الوراثية المطردة ، ووظائف الغدد . الا أن الاجتماعى لا يهتم بكل هذه المسائل الا من حيث القائها الضوء على المشاكل الخاصة التى يبحثها — وهى مشاكل السلوك المشعور به ، وهذا السلوك الواعى — كما يمكن أن نسميه — يصحبه دائما نشاط عصبى وعضلى معا . ونحن اذا وقفنا عند هذه النقطة فى دراستنا لما أمكن أن نتقدم تقدما محسوسا فى تفسير العمليات الاطرادية للشعور أو الوجدان. أنظر الى طالب الموسيقى وهو يستعين بمعرفة فسيولوجيا الأذن والمخ فى الوقت الذى يهتم فيه أولا بالموسيقى ذاتها ، وان طالب الاجتماع يستخدم نفس الأسلوب فهو يستعين بمعرفة الخلايا العصبية ولواحقها ولكن همه الأول منصب على تحليل العلاقات الاجتماعية .

وستكون خطبتنا فى هذا الفصل أن نفيد من نتائج دراسات علم النفس كلما سنحت المناسبة ، وأول ما يلفت نظرنا من هذه النتائج ويعتبر ذا أهمية خاصة فى التحليل الاجتماعى ، مسألة التمييز بين المصالح والمواقف .

العلاقة بين المصالح والمواقف علاقة تضاييف (١) : أنظر الى الاصطلاحات التى تتكون منها القائمتان الآتيتان :

|                      |                     |
|----------------------|---------------------|
| الخوف — العدو        | التباهى — الأسرة    |
| الحب — الصديق        | العطف — ضحية الحادث |
| المفاجأة — الاستكشاف | التوقير — الله      |

(١) المقصود بعلاقة التضاييف عند المناطقة العلاقة الاقترانية أو الوظيفة كالعلاقة بين رطوبة الطقس ومرض الروماتيزم أو العلاقة بين البطالة والاجرام .

— المترجم

تجد أن القائمة اليمنى تشير الى مواقف والقائمة اليسرى الى مصالح . وجميع المواقف تدل على رد فعل ذاتى ، أو حالات وجدانية يحس بها الفرد فى داخل نفسه ، ولها علاقة بأشياء خارجية . وتدل القائمة الثانية على هذه الأشياء الخارجية . وعلى ذلك فإذا ذكرنا الحب أو الخوف فإنما نشير الى موقف من المواقف ، وإذا ذكرنا الصديق أو العدو فإنما نشير الى مصلحة من المصالح .

وتتضمن العلاقات الاجتماعية دائما كلا من المواقف والمصالح التى تربط بها ، ويترتب على ذلك وجوب شمول التعريف الكامل للعلاقات الاجتماعية كلا المواقف والمصالح . فإذا قلنا مثلا ان أحد الأشخاص « خائف » وجب علينا أن نوضح السبب الذى من أجله يعتبر خوفه استجابة له . فقد يكون خائفا من ثعبان ، أو من الشرطة ، أو من التشهير به ، أو من اعتلال الصحة ، كما أنه من الجائز أن يكون خائفا من نزواته الخاصة . وبالعكس اذا قلنا ان أحد الأشخاص يتركز اهتمامه ، أو تتجه مصالحه ، نحو القانون ، أو الدين ، أو النساء ، وجب علينا أن نوضح المواقف التى تتلاءم مع هذه المصالح . فكل من اللص والشرطى ورجل القانون له مصلحة فى القانون . وبديهي أن مواقفهم ازاءه مختلفة . والدين يحظى بأن يجد فيه كل من الملحد والمؤمن مصلحة قوية ، فالأول مصلحة الهدم والثانى مصلحة العبادة . ومن يجدون مصلحة فى التقرب الى النساء اما أن يكونوا من المعجبين بهن أو الذين يعلنون كرههم لهن . وعلى ذلك فدراسة حقيقة السلوك العقلى تتطلب معرفة كل من المصلحة الموضوعية والموقف الذاتى . وان وصفنا للمصالح بأنها موضوعات المواقف الذاتية لا يعنى بالطبع أن هذه الموضوعات تكون بالضرورة وقائع مادية أو خارجية . فمصالح الانسان هى الأمور التى يوجه اليها انتباهه . وهى تتراوح بين ما هو مادى من الظواهر مثل

المعاول والتربة الزراعية والطقس ، الى المعتقدات الروحية والأساطير والنظريات العلمية . خذ مثلاً اهتمام المؤلفين أو مصلحتهما المباشرة في النقطة التي يعالجانها الآن ، وهى تعريف المفهومات التى يحتاج اليها الباحث لتحليل الحقيقة الاجتماعية الواقعة . هذه الحقيقة التى تقوم على ما هو مادى وما هو غير مادى .

كيف تنمو المواقف : يتضح الدور الذى تلعبه المواقف فى الحياة الاجتماعية عندما نبحث نموها الاطرادى فى حياة الفرد . فالطفل الصغير يتصرف كما لو كان مركز عالمه الصغير الذى يعيش فيه ويحسه ، وحينئذ يبدأ فى تقويم الأشياء يفعل ذلك أول الأمر لمجرد البحث عن صفاتها من حيث كونها تجلب له اللذة أو الألم . وهو لا ينظر الى غيره من الناس على أنهم أشخاص ولا يربط نفسه بهم بصفاتهم كذلك .

ولا يرى الطفل فى ثدى أمه وزجاجة اللبن والأيدى التى تعنى به ، والسرير الذى ينام عليه ، والمرية ، وعربته ، والكلمات المتداولة بين الكبار ، والضوضاء ، والنور ، والظلام ، الا أشياء ترتطم بوجوده وتخدمه . ومعنى هذا أن موقفه ازاءها موقف الذى يعتبر نفسه مركز الأشياء أو مقياسها جميعاً (١) .

ويتعلم الطفل خلال نموه العقلى كيف يميز بين الأشخاص والأشياء . ويصبح من اللحظة التى يستطيع فيها ذلك قادراً على ممارسة العلاقات الاجتماعية ، اذ يرى فى نفسه أنه مرتبط بغيره من الناس ويشعر أن من المتعذر عليه أن يفلت منهم . فيميز بين أهله وأقرانه وبين غيرهم ، ويحدد

(١) أنظر بخصوص مركزية النفس فى موقف الطفل :

Jean Piaget, "Intellectual Evolution." in *Science and Man* Ruth N. Anshen, ed., (New York, 1942), pp.409-422 and *The Moral Judgment of the Child* (Eng.Q tr., New York, 1932).

لنفسه المسافة الاجتماعية بينه وبين والديه وأخوته وزملائه في اللعب وفي المدرسة ، حتى يبلغ دوائر أكثر اتساعاً من الدوائر التي تضم هؤلاء . وعندما يتعود أن يقول « نحن » لا مجرد « أنا » متميزاً بذلك عن حيوان مركزي النفس كالقط مثلاً تكون هذه نقطة البداية في تنشئته الاجتماعية .

ويلي ذلك أن يحيط الطفل أقرب الناس إليه بهالة من العظمة ، فأمه اللطف النساء جميعاً ، وأبوه أحكم الرجال كلهم ، ومدرسته أفضل المدارس قاطبة . وبذلك تنشأ في نفسه مواقف موجهة نحو فئات كبيرة من الناس ، تؤيد حبه لعشيرته أو قبيلته ، أو جنسه البشري أو أمته أو طبقته الاجتماعية . وهذا هو السبب الذي يجعل التعصب الاجتماعي عند الناس متأصلاً فيهم ويؤدي إلى أن يقاوموا بشدة كل تغير . ويجب أن نذكر أنهم قد تعلموا وتشكلوا بطريقة خاصة خلال أطراد عملية تنشئتهم الاجتماعية مع ما تتميز به من بقاء عند الإنسان دون سواه من بين سائر الحيوان . وكما تربي التنشئة الاجتماعية عند كثير من الناس عدم التسامح والتعصب ، تخلق في غيرهم عكس هذه الصفات — التسامح وحسن الفهم .

**المواقف والعلاقات الاجتماعية :** يتحتم لأسباب علمية أن نميز بين صنفين من المواقف من حيث عملها على جمع شمل الأفراد أو تشتيتهم ، وعلى حد تعبير البعض ، لو نظرنا من خلال العدسة الاجتماعية إلى هذا البحر المتلاطم من العلاقات الانسانية لوجدنا أنها تنقسم إلى قسمين : أنماط للتباعد ، وأنماط للتقارب <sup>(١)</sup> ، يؤيد هذه الفكرة أن بعض المواقف تدعو في حقيقة أمرها إلى التقارب نحو من توجه إليهم ، والبعض الآخر يدعو إلى التباعد . فالحب يعمل على التقارب ، والخوف والاشمئزاز

(١) أنظر : L. von Wiese, *Systematic Sociology* ( H. Becker, ed., New

York, 1932 ), p. 39.

يدعوان الى التباعد . والكره يفصل بين الناس اجتماعياً ان لم يكن جسدياً ، كما أن العطف يقرب بين الناس . وقد يتحد من امتلات نفوسهم بالحسد وعدم الثقة لا لشيء الا ليقاوموا معا من هم موضع حسدهم أو عدم ثقتهم .

١ - **المواقف والعلاقات الشخصية :** تنطوي كل علاقة اجتماعية في الحقيقة على نوع من الانسجام أو التوفيق بين المواقف من جانب أولئك الذين يقيمون بين أنفسهم هذه العلاقة . وأنواع هذا التوفيق من الكثرة كأنواع الظروف التي تربط بين الناس . فالتودد مثلاً قد يصادف تودداً أو عدم اكتراث أو عداوة . وصفتا الاعتداء والاذعان تكونان موقفين يكمل أحدهما الآخر ، وكثيراً ما يظهران في العلاقات الاجتماعية ، مثال ذلك التهيج الجنسي عن طريق الاذعان للألم أو عن طريق القسوة والايذاء ، اذا أردنا أن نتحدث بلغة علم النفس حتى لو استخدمنا اصطلاحاً واحداً للدلالة على موقفين لشخصين يدخلان في علاقة واحدة قد يكون أحد الموقفين مكمل الموقف الآخر لا شبيهاً به . فحب الوالد لابنه مثلاً يخالف ويكمل في نفس الوقت حب الابن لوالده . وعلى ذلك فالحب والكره والخوف وما إليها هي في الحقيقة اصطلاحات يشير كل منها الى أنواع كثيرة من المواقف التي تظهر في علاقات الأفراد أو علاقات الزمر .

٢ - **المواقف والعلاقات بين الزمر :** هناك حركة دائمة للانسجام أو التوفيق بين المواقف وذلك في العلاقات التي تقوم بين الأفراد . ومع ذلك فهناك ميل في كل زمرة لتحقيق المواقف المتشابهة أو الوحدة نحو المصالح المتعلقة بالزمرة ككل لا كأفراد ، والمشهد أن المواقف تستجيب استجابة قوية للايحاء الضخم الذي هو جزء من النظم التعليمية العامة والخاصة الشائعة في كل المجتمعات . أنظر مثلاً الى التغيرات غير العادية

التي طرأت على المواقف القومية عند الإيطاليين والألمان نتيجة للنظامين  
 الفاشي والنازي ، أو التغيرات الكبرى التي ألمت بالمواقف الأمريكية  
 إزاء الشعبين الألماني والياباني خلال الحرب العالمية الثانية ، وقد حدث  
 أن شعوبا برمتها تحولت فجأة الى توقيير أو احتقار رموز كانت تنظر اليها  
 فيما مضى بغير اكتراث ، مثل الصليب المعقوف ، وشارات الفاشستية ،  
 والمطرقة والمنجل ، والشمس الصاعدة ، وكذلك « ميثاق الأطلنطي » .  
 ونحن نجد الزمر في كل مكان ؛ زمرا قبلية ومحلية وسلالية وقومية وعائلية  
 وطبقية — لها مواقف خاصة بها وتربط هذه المواقف برموز معينة .  
 وتنشأ هذه المواقف الى حد ما عن ظروف اجتماعية عامة ، وهي تعتمد  
 الى درجة معينة على قوة المذاهب الجديدة وسيطرتها على الأفراد .  
 وتحصل المواقف على التأييد اللازم لها ، كما تحظى بالدوام ، في نطاق  
 الآداب العامة للزمرة <sup>(١)</sup> . ولا شك أن هذه المواقف ذات أهمية حيوية  
 بالنسبة للطلاب الذي يقدم على دراسة حقائق الحياة الاجتماعية .

## المواقف الارتباطية والانفصالية

بعض الصعوبات التي تواجهنا في تقسيم المواقف : قبل أن تفكر في  
 أى تقسيم للمواقف من أجل استخدامه في الدراسة السوسولوجية  
 ينبغي أن نذكر بعض الصعوبات في هذا السبيل . ان المواقف في واقع

(١) أنظر في تحليل الرموز والمواقف :

H. D. Lasswell, *Politics. Who Gets What, When, How* (New York, 1936), Chapas. II and IX; for an excellent discussion of racial beliefs in America, G. Myrdal, *An American Dilemma* (New York, 1944), vol. I Chap. 4; and for a lively and sound popular discussion of the subject, M. Halsey, *Color Blind* (New York, 1946), for extensive illustrative, *One America* (F. J. Brown and J. S. Roucek, eds., New York, 1946).

الأمر طرق للوعى أو الإدراك الاجتماعى تتميز بأنها غير مشعور بها ومعقدة ومتغيرة . ويطرأ عليها التعديل باستمرار تبعاً لتعلمنا وتفكيرنا ولصحتنا وظروفنا التى تحيط بنا . وحينما ننسب موقفاً معيناً إلى شخص معين لا يمكننا أن نحكم على حقيقة هذا الموقف إلا من علامات خارجية كالنظرات والإشارات والكلمات . هذه العلامات تدلنا إما على الخوف أو الحب أو الشفقة والعطف ، ولكن حينما نطلق على الموقف هذه التسمية لا نبلغ درجة الكمال فى وصف حقيقة شعور الشخص الذى يتخذ الموقف المعين . وكل ما نفعله فى هذه الحالة أننا نحكم على أن الموقف كما بدا لنا هو الموقف السائد ، أو على الأقل الموقف المشاهد عند الشخص . وكما يعدونا فن العلاج النفسى كثيراً ما تؤدى أحكام غير المتخصصين فى هذه المسألة إلى الخطأ .

وتتداخل الاصطلاحات التى نستخدمها للدلالة على حالات الشعور والمواقف تداخلاً شديداً فيما بينها . ولنتأمل مثلاً الفرق بين « الاحترام » و « التقدير » و « الإعجاب » . إن المعانى العقلية لمثل هذه الاصطلاحات ينغمر بعضها فى بعض . وكل قصصى يعرف قصور الاصطلاحات للدلالة على الخلجات السيكولوجية ، وهذا ما ينبغى أن يلاحظه الاجتماعيون .

أنظر مثلاً المواقف التى تبدو على طرفى تقيض ، مثل الحب والكراهة . فقد لاحظ الناس منذ القدم أنهما من الممكن أن يتحداً فى موقف واحد يثير الارتباط نحو شخص واحد أو شئ بعينه . وقد توسع علم النفس الفرويدى فى العصر الحديث فى هذه الملاحظة إذ يعالجها باسم مبدأ التناقض الوجدانى . فالحب والكراهة ، والحزن العميق وعواطف المرح المتأججة ، والولاء المخلص والصدود — هذه المواقف وأمثالها مما يبدو متناقضاً نراها فى أكثر الأحيان متداخل بعضها فى بعض . وهذه الحالة

تخلق عقدة ، أو في الغالب مشكلة مستعصية بالنسبة للفرد الذي يشعر أنه في حيرة بسبب هذا التناقض الوجداني ، وكذلك بالنسبة للباحث في علم النفس الفردى . وهناك صعوبة أخرى في التقسيم . ان الموقف الذي نسعى الى تحديده باسم معين هو في أكثر الأحيان متنوع وغير ثابت ، شأنه شأن اللون الذي نراه من خلال أضواء متغيرة ، وليس الموقف شيئاً ثابتاً ثباتاً محكماً عند الفرد . انه تقويم متغير على الدوام . وبعبارة أخرى انه طريقة للنظر الى الأشخاص والأشياء ، الغرض منها تحديد قيمة أولئك وتلك من حيث الصلات التي تربطنا بهم وبها .

**تقسيمات المواقف :** ان المواقف ، كما رأينا جد معقدة ، وجد مختلطة ، وجد متنوعة ، وجد متصلة بالفرد لدرجة أن أى تقسيم لها سيصبح حتماً ، كما يقول المناطقة ، تقسيماً مصطنعاً ، وليس في الامكان الحصول على تقسيمات كاملة لها . وبعبارة أخرى أن تقسيمنا ينبغي أن يتوقف على غرضنا من اجرائه . وسيجد القارئ أننا نعالج المواقف في البين التوضيحي رقم ٢ من وجهة نظر اجتماعية أكثر منها سيكولوجية ، أى مهتمين بفئات من المواقف كثيراً ما ثبت أنها ذات قيمة وحاسمة بالنسبة للعلاقات بين الناس .

وقد اقتضى الأمر أن نوزع المواقف على ثلاثة أعمدة تبعا لوظيفتها من حيث تعطيل العلاقات أو تقييدها أو انعاشها . وسنطلق على هذه المواقف الأوصاف . انفصالية ومقيدة وارتباطية ، كما سنقسم الأعمدة أفقياً ثلاثة أقسام ، تبعا لمضمونها ، متصلة بعلاقات الأشخاص المتأثرين بها ، من احساس بالضعة أو احساس بالسمو أو خلوها من مثل هذه الأحاسيس .

ونحن تقدم هذا التقسيم على سبيل المثال لا على سبيل الحصر .

ومع ذلك سيجد الطالب أنه لو تناول في دراسته للعلاقات الاجتماعية مسألة التمييز بين مواقف الارتباط ومواقف الانفصال ، أو بين سمو والضعة ، فستكون مهمته يسيرة . وذلك لأن المواقف التي نفرقنا أو تجمعنا ، والتي تضيء علينا أحاسيس سمو أو الضعة ذات أهمية كبرى ، بالنسبة للعلاقات بين الأفراد أو بين الزمر .

### البيان التوضيحي رقم ٢ :

#### **تقسيمات المواقف** ( بالنسبة لمواقف الأشخاص من أشخاص آخر )

أولاً — مواقف تنطوي على احساس فعلى بالضعة :

| <u>مواقف انفعالية</u> | <u>مواقف مقيدة</u> | <u>مواقف ارتباطية</u> |
|-----------------------|--------------------|-----------------------|
| الرعب                 | الرهبة             | العرفان بالجميل       |
| الخوف                 | التوقير            | الحجارة               |
| الفرع                 | التعبد             | الرغبة في التقليد (١) |
| الحسد                 | الولاء             | عبادة البطل           |
| الخفر                 | الاحتقار           |                       |
|                       | الانصياع (١)       |                       |
|                       | المصاحبة للخدمة    |                       |
|                       | الأدب              |                       |
|                       | التماعى (٢)        |                       |

ثانياً — مواقف تنطوى على احساس فعلى بالسمو :

|             |             |             |
|-------------|-------------|-------------|
| الاشمئزاز   | التباهى     | الاشفاق (٤) |
| المقت       | المناصرة    | حماية الغير |
| التقزز      | التسامح (٣) |             |
| الاحتقار    | الحلم       |             |
| الازدراء    |             |             |
| الترفع      |             |             |
| الغطرسة     |             |             |
| عدم التسامح |             |             |
| الصلاف      |             |             |

ثالثاً — مواقف تنطوى على احساس بالحيدة ولا علاقة لها بمستويات الضعة أو سمو :

|           |            |          |
|-----------|------------|----------|
| الكره     | المنافسة   | العطف    |
| الاعراض   | المسابقة   | الحبة    |
| الجلفاء   | الغيرة (٥) | الثقة    |
| عدم الثقة |            | الحنان   |
| الريبة    |            | الحب     |
| الضعفينة  |            | التودد   |
| الحقد     |            | الركة    |
| القسوة    |            | المجاملة |
|           |            | المساعدة |

١ - فضلنا أن نقول الرغبة في التقليد لا التقليد ، والانصياع لا الخضوع ، اذ أن الاصطلاح الأول في الحالين يدل على الموقف ، والاصطلاح الثاني يشير الى عملية اطراذية . لكن لا يوجد غالبا الا اصطلاح واحد لوصف الموقف والعملية الاطراذية .

٢ - تعالى أو النظر الى الناس من عل لا يشجع على خلق العلاقة الاجتماعية . وبالعكس يؤدي احترام الناس الى تنمية هذه العلاقة . وقد أدرجنا هذا الموقف بين الفئة رقم ١ على أساس أنه بينما يتضمن أحاسيس الضعة والسو معا فان احساس الضعة هو الغالب فيه .

٣ - نحن لا نقصد التسامح بمعنى تفتح الذهن وسعة العقل ، وانما الموقف الذى يلزم عملية التسامح مع الغير .

٤ - ربما بدا من الأنسب ادراج الاشفاق فى عامود المواقف المقيدة . ولكن وضعنا اياها حيث هى الآن يرجع الى أنها كثيرا ما تتصل بمواقف الرعاية نحو الآخرين . وبديهي أن الاشفاق فى حد ذاته كاشفاقنا على صديق أصابه مكروه ، خلو من معنى الرعاية .

٥ - قد يبدو من الأنسب ادراج الغيرة فى القسم الأول من الأقسام الأفقية . من حيث انها متصلة اتصالا وثيقا جدا بالأحاسيس بالضعفة — بالرغم من أن من الجائز أن تدخل الغيرة فى الاحساس بالضعفة الا أن موقف الشخص الغيران لا يشتمل بالضرورة على هذا الاحساس .

## الدراسة الإحصائية للمواقف

« قياس » المواقف : تخصص مراجع علم الاجتماع جزءا ليس بالقليل من مادتها عن المواقف لموضوع امكان « قياسها » (١) . وقد اصطنع كتاب كثيرون في السنوات الأخيرة مقاييس صممت بحيث يمكنها أن تقيس بطرق معينة مواقف الناس من الكنيسة ، ومن الزنوج ، ومن تحديد النسل ، ومن هيئة الأمم المتحدة وهلم جرا . ومن حيث ان هذه المحاولات تبين بشكل واضح مسألة اخضاع الظواهر النفسية للدراسة الكمية ، فقد رأينا من الأصوب أن نعلق على هذا الموضوع بإيجاز ليعلم الطالب بهذه المسألة الجدلية المألوفة في علم الاجتماع .

سبق أن أشرنا الى أن المواقف ان هي الا الأساليب المعقدة والمتغيرة للوعى . انها تعبيرات أو نواح من مجموع شخصية الكائن الاجتماعى . ولهذا السبب ليس من السهل على الباحث أن يدرك صفاتها من مظاهرها الخارجية . وكما يعرف عقلاء الطلبة من تجاربهم في الجامعة يدل وصفهم لأحد الأساتذة بأنه « متلاطف » معهم على واحد من عدة أحاسيس عميقة

---

(١) وسبيل ذلك للرد الإيجابى على هذا السؤال ، انظر مثلا :

L. L. Thurstone and B. J. Chave, *The Measurement of Attitudes* (Chicago, 1929); Read Bain, "Theory and Measurement of Attitudes and Opinions", *Psychological Bulletin*, XXVII (1930), 357-379; G. A. Lundberg, *Social Research* (New York, 1942), Chap. VIII,

ومن النقاد المتزئنين الذين ليسوا ضد فكرة القياس ، انظر :

Clifford Kirkpatrick, "Assumptions and Methods in Attitude Measurements", *American Sociological Review*, I (1936), 75-88; R. T. La Pierre, "The Sociological Significance of Measurable Attitudes", *Ibid.*, (1938), 175-182.

وكموجز لكل ما كتب حول الموضوع انظر :

Daniel Day, "Methods in Attitude Research", *Ibid.*, V (1940), 395-410.

ينطبق عليها هذا الوصف . ومن أجل هذا تنشأ الحاجة لدراسة المواقف دراسة دقيقة قبل أن نحاول تطبيق المقاييس عليها لقياسها .  
يواجه من يرغبون في قياس المواقف مشكلة أولية من نوع آخر .  
ما الذى عليهم أن يقيسوه في المواقف ؟ نحن في الواقع لا نقيس الأشياء ،  
وانما نواحي عديدة للأشياء . ولا نقيس الموائد ، وانما أطوالها وارتفاعاتها  
وأوزانها . ولا نقيس الشمس ، وانما اشعاعها وحركتها الظاهرة وحجمها .  
وفي ضوء هذه المعلومات عن القياس في الظواهر الطبيعية تتساءل عما  
عسى أن تكون هذه النواحي التي يراد قياسها في أجد المواقف . وللجواب  
على ذلك نقول إن الذين يرغبون في قياس المواقف يفكرون في درجة  
استحسان الفرد أو استهجانة لشيء ما . انهم يفكرون في حدة موقفه من  
هذا الشيء (١) .

اننا نتشكك كل التشكك في امكان القياس ، بأي معنى رياضي ،  
أو بدرجات الاستحسان والاستهجان ، أو الميل أو الكراهية (٢) . واذا  
أردت الدقة ، فبوجه عام لا يحصل من يقيسون المواقف إلا على تسجيلات  
لها ناقصة المعنى ، فقولنا التوقير والاعجاب والاحترام وما شابه ذلك ،  
يستبدل بتعبيرات مبسطة لمجرد الإشارة الى الاستحسان أو الاستهجان  
تجاه شيء ما . ومع ذلك ينبغي أن نلقى السؤال الآتي : أيمكن أن تكون  
للشيء دلالة نفسها بالنسبة للأشخاص العديدين الذين يقفون منه موقفا

---

(١) لدينا في الوقت الحاضر مقاييس للمواقف من ابتكار اثنين من  
الباحثين قاما بتصميمها بمهارة فائقة لقياس درجات الحدة ابتداء من خط  
الصفر . أنظر :

Louis Guttman and E. A. Suchman, "Intensity and Zero Point for Attitude  
Analysis," *American Sociological Review*, XII (1947), 56-67.

(٢) أنظر مثلا : R. M. MacIver, *Society: A Textbook of Sociology* (New  
York, 1937), pp. 26-27.

معينا ؟ وبعبارة أخرى هل « الديمقراطية » أو « الدين » أو « تحديد النسل » أو « النظام الحكومى » تعنى عند الناس جميعا نفس الشيء ؟ وإذا كان الجواب بالسلب فإن المقياس المبتكر يعجز عن تصوير درجات حدة الموقف المتفاوتة بتفاوت الأشخاص .

ومهما يكن من شيء فإن مقاييس المواقف تساعدنا في فرز الاستحسان والاستهجان والحب والكره كمواقف لأفراد فريق من الناس ازاء شيء من الأشياء في وقت معين . وذلك بدرجات أو مراتب <sup>(١)</sup> . ( والمفهوم أن المراتب هي درجات الاستحسان أو الاستهجان عند كل فرد في الفريق وليس العقدة الكاملة للموقف ) . ومثل هذه المقاييس اذا وضعت بعناية وطبقت بما تقتضيه من خبرة ، فإنها غالبا ما تمدنا بالمعلومات المفيدة عن التيارات الاجتماعية . وعلى ذلك فمواقف المشتريين في الأسواق من المنتجات المتنوعة ومستمعى الاذاعة من برامجها المختلفة ، وطلبة الجامعة من الشؤون العامة والمحلية في الحياة اليومية وما شابه ذلك ، هذه المواقف جميعا تعطى درجات أو مراتب ذات مغزى من طريق المقاييس التى نتحدث عنها وما على شاكلتها من وسائل احصائية <sup>(٢)</sup> . وان الاهتمام بهذه المقاييس واستخدامها من قبل رجال الصناعة والمعلنين عن أجهزة الراديو وغيرهم لدليلان على الفائدة العملية لتحويل استجابات الأفراد الشفوية والتحريرية الى مراتب أو درجات للانفعالات النفسية نحو الأشياء الخارجية . غير

---

(١) أنظر مناقشة ممتازة في موضوع منطق القياس أو اعطاء المراتب

عند :

M. R. Cohen and E. Nagel, *An Introduction to Logic and Scientific Method* (New York, 1934), Chap. XV.

(٢) أنظر مثلا :

P. F. Lazarsfeld, *The Technique of Marketing Research*, (New York, 1937) and *Radio and The Printed Page* (New York, 1940); G. Murphy and R. Likert, *Public Opinion and the Individual* (New York, 1938).

أن هذا لا يدعونا لموافقة هذا الفريق من الاجتماعيين والسيكولوجيين. الذى يعتبر الاستجابات مساوية أو ترمز رمزا كافيا لعقدة الموقف كله .

وتصور لنا الحرب العالمية الثانية كلا من فائدة « قياس » المواقف وقصوره . فقد تبين لجيش الولايات المتحدة أن مشاكله المتعلقة بالمياسة العسكرية والادارة قد أمكن حلها حلا موقفا بوساطة متخصصى العلوم الاجتماعية المدربين على طرق البحث الاحصائى . اذ استطاع هؤلاء المتخصصون ، من طريق الأجوبة الشفوية على أسئلتهم الدقيقة الصياغة ، من جانب « عينات » من الجنود ، أن يحصلوا بوسيلة سريعة جدا على عدة مستويات للاتصالات الأولى ازاء أنواع المعدات الحربية الجديدة التى يطلب من الجنود استخدامها ، أو الملابس العسكرية التى توزع عليهم ، أو رأيهم فى المدنيين بالبلاد المحتلة . ولا جدال فى الأهمية العملية لمثل هذه البيانات عند القيادة العليا للجيش — وان كنا لا نعلم على وجه التحديد مدى استفادة الجيش منها ومن جهة أننا نقطن لفائدة علمنا أن ٨٠٪ مثلا من جنود أحد الجيوش « يعارضون بشدة » نوعا جديدا من السلاح ، أو أن ٧٠٪ من هذا الجيش « لا يرحبون كثيرا » بحذاء شتوى ممتاز ، أو أن ٤٠٪ من الجنود يرون أن النساء الألمانيات « أحب الى القلب » من النساء الفرنسيات <sup>(١)</sup> . ولكن من جهة أخرى ينبغى أن نؤكد أن مثل هذه المعلومات لا تروى لنا اطلاقا القصة كاملة ، وذلك بإبلاغنا انفعالات هؤلاء الجنود نحو الموضوعات التى وقفوا منها هذه المواقف . ان مقاييس المواقف لا يمكن أن تمدنا بالفهم الكامل لعقد المواقف ، ذلك الفهم الذى نحصل عليه من طريق احدى عيادات فن العلاج

(١) هذه كلها أمثلة وهمية ، ولكنها تمثل نوع المعلومات التى يسعى للحصول عليها متخصصو العلوم الاجتماعية لخدمة الجيش .

النفسى ، أو مقال بقلم صحفى مرهف الحس ، أو حتى من طريق رسم كاريكاتورى بريشة واحد مثل بل مولدن<sup>(١)</sup> فى الولايات المتحدة .

تسجيل الراى العام : وربما كانت أفضل طريقة لتوضيح الأساليب الإحصائية المتبعة فى دراسة درجات حدة الموقف ، هى الرجوع الى التسجيلات المتعددة التى أجراها الباحثون لمعرفة حقيقة الراى العام فى المسائل المختلفة التى تشغل الأذهان<sup>(٢)</sup> . وفى الولايات المتحدة الأمريكية تهرع الصحف والمجلات ورجال السياسة أنفسهم وكذلك المتنبئون بالأحداث السياسية الى عينات لمواقف الجمهور الأمريكى التى يتولى تسجيلها جالوب وروبر وكثيرون غيرهما . هؤلاء الباحثون يمدوننا بصورة رأى الجمهور فى هذا الشأن أو ذاك ، من طريق حصولهم على أجوبة شفوية من أجزاء مختارة من السكان . وقد استطاعت التسجيلات السياسية فى مناسبات كثيرة أن تتنبأ بما سيقع فى الميدان السياسى ، وعلى الأخص ما ستسفر عنه نتائج الانتخابات ، مع التسليم بنسبة ضئيلة جدا للخطأ فى التقدير . غير أن هذه التسجيلات ما زالت بعيدة عن أن توصف بأنها صحيحة من كل وجه . وبالرغم من تقدم أساليب القياس منذ اخفاق الاختبار الذى منيت به مجلة Literary Digest عند قياسها اتجاهات الراى العام بمناسبة انتخاب رئيس جمهورية الولايات المتحدة فى سنة ١٩٣٦ ، فإن الخطأ التام الذى انتهت اليه جميع التنبؤات المتعلقة بانتخابات الرئاسة سنة ١٩٤٨ قطعت بشكل يلفت النظر بعدم كفاية الوسائل المتبعة حاليا لجمع عينات ممن يسألون من الأشخاص .

---

(١) أنظر : Up Front (Cleveland and New York, 1945)

(٢) يمكن لمن يرغب فى الاطلاع على بحث واف فى هذا الموضوع بقلم شخص ذى دراية ، أن يرجع الى :

G. Gallups and S. F. Roen, *The Pulse of Democracy* (New York, 1940).

ومن المسلم به فيما يتعلق بالأصوات التي تتوقع الحصول عليها في القياس ، أن الاستفتاء يمثل عملية انتخابات غير رسمية . فالأفراد يسألون بطريقة ما عن الشخص الذي يتوقعون اعطائه أصواتهم . أو بعبارة أخرى يطلب منهم أن يتنبأوا بمسلكهم بشأن حادث محدد قبل وقوعه . وعلى ذلك فالاستفتاءات تستهدف معرفة مدى ما ستحصل عليه الأحزاب السياسية من تأييد أو معارضة هي ومرشحوها — كما يستدل على ذلك من تقويم الردود على هذه الاستفتاءات . والحقيقة أن كل هذا واضح ، إلا أن الشيء الذي لا يبدو واضحا ألبتة من كشوف الاستفتاءات هو المواقف السياسية من حيث طبيعتها الدقيقة والعناصر التي تتكون منها ومبلغ حدتها الحقيقية . وتتطلب هذه المشاكل تحليلا من النوع الذي يكتمل في الواقع بمعرفة عدد الأصوات . وهو على كل حال تحليل يتقصى الحقيقة الاجتماعية بكيفية أعمق مما يستطيع مجرد الإحصاء العددي لهذه الأصوات .

وفي العادة يحتاج الأمر لتحرى رأى الناس في موضوعات كثيرة غير الانتخابات . فالأمريكيون قد يتعرضون لاستفتاءات فردية مثل : ما الطبقة الاجتماعية التي تضع نفسك فيها ؟ هل تفضل أن تكون موظفا بالحكومة أو بعمل حر ؟ ماذا ترى في فرصك الاقتصادية ، أهى حسنة أم رديئة ؟ كيف تبدو الفرص المتاحة لأطفالك ، أهى من نوع الفرص التي أتاحت لك في طفولتك أم تختلف عنها ؟ وهلم جرا <sup>(١)</sup> . ونحن نعلم

(١) أنظر :

“The People of The U.S.A. — A Self-Portrait”, *Fortune* (Feb., 1940).  
A. W. Kornhauser, “Analysis of ‘Class’ Structure of Contemporary American Society — Psychological Base of Class Divisions”, in *Industrial Conflict: A Psychological Interpretation* G. W. Hartmann and Newcomb, eds., New York, (1939), pp. 199-264.

— اذا شئنا التعبير بالمتوسطات — أن الفرد الأمريكى بوجه عام يعتبر نفسه منتما الى «الطبقة المتوسطة» ويصف الفرص المهيأة لتقدمه بأنها « طيبة » كما يعتقد أن مصالح أصحاب الأعمال ومصالح العمال والمستخدمين متحدة في جوهرها ، وهكذا .

ويدفعنا هذا النوع من الاستفتاء بشأن المواقف خطوة واسعة الى الأمام في سبيل فهم النمط العام — أو المرتفعات والمنخفضات التي تتخلل بعض مركبات المواقف . ومع ذلك فنحن عندما نواجه مشكلة مركب معقد من مركبات المواقف كراى الأمريكىين في «الطبقة الاجتماعية» — وهى مشكلة سيتختم علينا مواجهتها في الصفحات التالية من هذا الكتاب — نجد أننا لا يمكننا أن نكتفى بالأجوبة الشفوية التي تصدر عن الأفراد ردا على قوائم الأسئلة . وذلك لأن المواقف ما هي الا تعبيرات عن شخصيات انسانية كاملة ، أو تقويمات للكائن الاجتماعى في مجموعته ، وهى كالشخصية ذاتها يجب أن تفهم على أنها جزء من نمط العلاقات القائمة بين الناس .

## أنواع المصالحة في الحياة الاجتماعية

سبق أن أوضحنا في هذا الفصل أن جميع العلاقات الاجتماعية تتضمن مواقف ذاتية ومصالح موضوعية على السواء . والآن كل تجربة اجتماعية تمر بالانسان يمكن أن ينظر اليها على أنها علاقة ، أو تفاعل ، بين الشخص الذى تمر به التجربة ، أو الذات المنفصلة وموضوع العلاقة ، أو المصلحة . ( ومفهوم أن المصلحة تكون في الغالب عبارة عن شخص أو عدة أشخاص ) . فإذا كانت التجارب الاجتماعية تنطوى دائما على انسجام بين المواقف والمصالح بالنسبة لشخصين أو أكثر ، فمن المهم أن نعالج أنواع المصلحة ذات الدلالة القوية في الحياة الاجتماعية .

**المصالح المتشابهة والمشاركة :** في مناقشاتنا للمواقف اعتبرنا التمييز بين كونها ارتباطية أو انفصالية أساسا لتقسيمها الاجتماعي. وهناك أساس آخر للغرض نفسه لا يقل أهمية عنه وهو التمييز بين المصالح المتشابهة والمشاركة . وهذا التمييز الأخير عرضة لكثير من الاضطراب ينشأ بعضه من الغموض اللفظي . فنحن نقول مثلا ان للناس قدرات مشتركة ، أو عادات مشتركة ، حينما نعنى ما نقول بالدقة ويكون كلامنا مطابقا للواقع تماما . واذا كان بين الناس أشياء متشابهة فالشبه في هذه الحالة شيء موجود عند كل فرد على حدة ، يحتفظ به لنفسه وأما الأشياء المشتركة بين الناس فهي تلك التي يملكونها أو تكون لهم كجماعة فيفيدون منها بالتساوي دون أن يقتسموها . ولتطبيق هذه المعانى نقول ان التقديرات الممتازة التي يحصل عليها طلاب العلم في كليات الجامعة تمثل المصالح المتشابهة ، أما مايسهم به الطلاب من نشاط في داخل الكليات فهو عمل يقومون به بالاشتراك . ولزيادة هذه النقطة تأكيدا نقول ان الشبيه غالبا ما يكون مصدرا لمصلحة مشتركة ، كما يحدث على سبيل المثال في حالة اثنين من رجال الأعمال قد تدفعهما المصلحة المتشابهة في الربح الى تكوين شركة تصبح ملكا مشتركا لهما يصح أن يتخذا منه مصدرا مشتركا للتفاخر . ومن بين العمليات الاطرادية في المجتمع كما سنرى فيما بعد تلك التي تقع أثناء تحول المصالح المتشابهة الى مصالح مشتركة . وكثيرون منا اليوم يطمنون لو أمكن للمصالح المتشابهة عند الأمم الكبرى ، من حيث اقرار السلام ، أن تكون مصدرا لنمو مصالح دولية مشتركة بمعنى الكلمة .

وتشير المصلحة المشتركة كمفهوم من مفهومات علم الاجتماع الى فرق أساسى بين المصالح والمواقف . فالمواقف كما لاحظنا ، يمكن أن تكون متناسقة ، ولكنها لا يمكن أن تكون مشتركة بالمعنى الذى نقصده

عند الحاق هذه الصفة بالمصالح . ولا يستطيع أفراد كثيرون أن يتخذوا  
معا موقفا مشتركا من أى شىء الا اذا جاز أن يحسوا بالألم احساسا  
مشتركا ، وهذا غير ممكن . أما الشىء الممكن فهو أن تصيهم آلام  
متشابهة وأن تكون لهم مواقف متشابهة من الألم ، وذلك لأن الاصابة  
تتعلق دائما بالفرد . ولكن الأفراد الكثرين يمكن أن تكون لهم مصالح  
مشتركة بالضبط كما يمكن أن تكون لهم ممتلكات مشتركة . ويوجد  
شكلان رئيسيان للمصلحة المشتركة أو المقتسمة يحتاجان الى أن نذكرهما  
هنا بصفة خاصة : —

١ — الانتماء الى زمرة اجتماعية : يمثل الشكل الأول بالاخلاص  
الى « الزمرة المحيطة بالشخص » .

وحينما يشعر الأفراد أنهم داخلون في اتحاد شامل لا تنقسم عراه  
مع أقرانهم فان المصلحة المشتركة تظهر في هذه الحالة . وحينا يفكر  
الناس في أنهم ينتمون حقا الى أسرة أو مدينة أو أمة أو الى فريق رياضى  
أو جماعة من الأصدقاء فانهم يسهمون في مصلحة مشتركة مع غيرهم .  
وهذا الاحساس بالارتباط مع وحدة من الأشخاص يوجد بدرجات  
متفاوتة ويبدو في أشكال مختلفة في الزمر الاجتماعية المختلفة الأنواع —  
كالجماعات المحلية والروابط والطبقات الاجتماعية والطوائف المقفلة في  
الزمر الأولية والثانوية على السواء . وهذا الاحساس من خصائص الحياة  
الجمعية التى ستهنا الاشارة اليها من وقت لآخر في هذا الكتاب .

ونستطيع الآن أن نقرر تفسيراً أكثر وضوحاً ما قلناه في أول هذا  
الفصل ، وهو أن عدم التسامح والتعصب يمكن أن ترجعها الى نفس  
العمليات الاطرادية الخاصة بالتنشئة الاجتماعية والتى من طبيعتها أن  
تؤدى لظهور ضديهما — التسامح والفهم . والانسان ينشأ كمضو في .

زمرة لا بد أن تكون في أول الأمر زمرة قريية — كالأسرة أو الأقارب — وبعد ذلك يصبح عضوا في زمرة أكثر اتساعا كالجماعة المحلية والطبقة الاجتماعية والزمرة البشرية والأمة . وفي الوقت الذي يتعلم فيه كيف ينتمى الى إحدى الزمر يتعلم أيضا كيف يتعد عن زمرة أخرى . وهو يقسم الناس الى فريقين : فريق « نحن » وفريق « هم » أو بعبارة أخرى « الزمرة المحيطة بالشخص » و « الزمرة الخارجة عن الشخص » (١) . ان اخلاصه الى « نحن » من السهل أن يتحول الى كراهية أو عداوة الى « هم » وان تفاخره بـ « نحن » يقويه احتقاره لـ « هم » وعلى ذلك فالتعصب للزمرة ينمو على أكثر من نطاق واحد من الانتماء ، من الأسرة حتى الأمة ، وربما الى « الجنس البشرى » — أى « الجنس » الذى ننتمى نحن اليه .

وهنا نواجه إحدى المشاكل الكبرى التى تتميز بها الحضارة الحديثة — هذه الحضارة قد أصبحت متضمنة عدة عناصر ، وعناصرها — الزمر الداخلة فى الأمة ، والأمم أصبحت نفسها متقاربة — كل أولئك أجزاء من الحضارة يتوقف بعضها على بعض توقفا حيويا ، ومع ذلك فان الزمر العديدة الداخلة فى الأمة — كالزمر البشرية ، والزمر الثقافية ، والزمر التى تقوم على المصالح — كثيرا ما تودى باتحاد المجموع ورفاهيته بسبب ما بينها من توتر وخلاف . وفيما يتعلق بالأمم المختلفة من حيث كونها أجزاء فى هذا العالم نلاحظ أنها بعجزها عن أن ترفع مصلحتها المشتركة فوق مصالحها المنفصلة ، وبسبب الغيرة القائمة بينها ، قد أصبحت خطرا داهما يهدد استمرار حضارتنا نفسها . ان ما نحتاج اليه يوضح انما هو توجيه جديد لتنشئتنا الاجتماعية بحيث يمتنع اخلاصنا للزمرة أو للأمة عن أن يتضمن العداء لعضويتنا فى مجتمع أكبر وأشمل .

W. C. Sumner, *Folkways* (Boston, 1907), pp. 11-16.

(١) انظر :

٢ - الانتماء الى هدف عام وغاية نبيلة : ان ما يظهره الناس من اهتمام بالعلم ، أو الفن ، أو الدين ، أو التقاليد ، أو الفلسفة ، أو الرياضة ، يمثل الشكل الثانى للمصلحة المشتركة . ويرز هذا الشكل بوضوح حينما يستشار عند الناس حب الاستطلاع أو التحمس أو الاخلاص على أى نحو . ولا بد أن تدعو أسباب من أى نوع ، كالتشاعر مذهب دينى ، أو عقيدة سياسية ، أو مصلحة ملحة فى أمر من الأمور كمقاومة اجراء التشريع والتجارب العلمية على الكائنات الحية أو قانون منع بيع المشروبات الكحولية ، لا بد أن تدعو مثل هذه الأسباب الناس للسعى وراء أهداف معينة أو أهداف مشتركة .

ويترب على ذلك أن يصبح العلم بالنسبة للعالم مصلحة مشتركة ما دام يفكر فيه كهدف يستحق التضحية من أجله ، أو ما دام يتابع البحث فى علمه لمجرد التكسب لضمان العيش ، أو للحصول على مركز فى المجتمع ، وكما توضح بجلاء حياة كل من روجر بيكون وجاليليو ومدام كورى وزوجها ، تدعو المصلحة المشتركة فى البحث عن الحقيقة الى بذل الجهد فى البحث العلمى <sup>(١)</sup> . وبالطبع يعمل العلماء على كسب

(١) بيثن F. W. Tausaig فى كتابه الموسوم : *Inventors and Money* (New York, 1913) - ان المخترعين كالمشتغلين بالعلم والبحث ، لا يحسبهم فى القيام بعملهم مطمح فى ربح ماذى وانما يدفعهم الى العمل لذة الكشف العلمى وحدها ، كما يظهر من السعادة التى يحصلون عليها بسبب توفيقهم فى الاختراع ، ومن عنايتهم بالاختراعات عديمة الفائدة أو غير المربحة ، وكذلك من الصعوبات التى يلاقونها فى وضع اختراعاتهم موضع التنفيذ . وحتى اديسون ، الرجل الذى كان مستريحا من الناحية المالية ، فقد بذل كل ثروته فى مخاطرة تتعلق بالبحث عن المصابيح فى بطن الأرض ، فى نيوجيرسى ، أسفرت عن منشآت هندسية كبيرة ولكن المخاطرة فشلت فشلا محققا . وعندما سمع أن مجموع خسائره فى هذا المشروع قد بلغت أربعة ملايين دولار عقب على ذلك بقوله : حسنا ، لقد ذهب كل شئ ولكننا تمتعنا بوقت طيب للغاية أنفقناه فى خير الوجوه .

قوتهم والتمتع بمركز محترم في المجتمع . ولكن عندما يكون كل اهتمام الفرد بالعلم مرده الى الدولارات التي يكسبها أو التشريف الذي يفتقد عليه فانه يكون عالما من الصنف الرديء . وفي هذه الحالة ، التي يمكننا أن نضرب عليها عدة أمثلة دون صعوبة ، يفتر هذا العالم الى المصلحة المشتركة التي تجعل للعلم قيمته في ذاته كما تكون غالبا القوة الدافعة للخدمة انسانية عامة تؤدي كاملة غير منقوصة .

**شيوع المصلحة الشخصية في الحياة الاجتماعية :** تختلط في كل النشاط الانساني على وجه التقريب المصالح الشخصية مع المصالح المشتركة والمتشابهة . فمما لا يمكن تلافيه سعى الناس وراء مصالحهم الخاصة . ومما لا يمكن تلافيه أيضا أن نجدهم يحسون بالقيم الذاتية للزمر التي ينتسبون اليها والأهداف العامة والغايات النبيلة التي يعملون من أجلها . ويظهرنا فحص هذا السلوك الاجتماعي نفسه على هذين النوعين من المصالح وهما يعلمان في وقت واحد بدرجات متفاوتة .

واذا كانت جميع مصالحنا شخصية فما كان للمجتمع أن يستقر ، وإذا كان الناس الذين حولنا مجرد وسائل لتحقيق مطامعنا فاننا لا يمكن أن نكون مع كائنات اجتماعية . وفي هذه الحالة لا تسندنا مظاهر الحب والصداقة والعطف العائلي والاخلاص للزمرة بل تتخلى عنا من حيث كونها مصادر التنشئة الاجتماعية للأفراد . ويترتب على ذلك ألا نحفظ بأية علاقة مع غيرنا من الناس اذا لم تكن تخدم أنانيتنا فحسب . وطبيعي أن ينجم عن ذلك استحالة قيام الجماعة المحلية أو الحياة الاجتماعية في أية صورة من الصور .

وقد سبق أن أشرنا في هذا الفصل الى أشد المواقف تبكيرا في الظهور عند الطفل تتركز تركزا تاما فيما يبدو حول نفسه . ولكن يجب ألا نفترض

ظهور مركزية النفس قبل المصالح المشتركة وذلك عندما ندرس النمو التاريخي للانسان الاجتماعى . ويقال أحيانا ان القوى الدافعة الأصلية عند الانسان هي قوى المحافظة على النفس والتعبير عن النفس — ولكن الانسان الاجتماعى كما يبدو فى كل جيل يعتبر فى وقت واحد مركزا حول نفسه وحول الجماعة المحيطة به ، وهذان العنصران يشيع أحدهما فى الآخر فى كل ما يتعلق بأحوال الانسان وأفعاله أن يعيش لنفسه كما يعيش للزمرة التى هو منها . انه يحيا من أجل نفسه ومن أجل الأهداف الكبيرة العزيزة عليه . ومهما رجعنا الى الماضى السحيق ، الى المراحل الأولى للحياة الانسانية نجد نفس العنصرين بالاهتمام بالنفس والاهتمام بالغير<sup>(١)</sup> . ودراسة هذين العنصرين والتفاعل القائم بينهما مهمة فى تحليل الحقيقة الاجتماعية الواقعة .

## المواقف والمصالح من حيث كونها بواعث

البحث عن البواعث : نحن نسعى دائما لكشف البواعث الكامنة خلف السلوك الظاهر لأقربائنا . ونحن نحاول أن نعرف بكل الوسائل الباعث الذى يقصر عملا غير متوقع صدر بصفة خاصة عن شخص نعرفه . ونحن نعرف أن رجل المباحث الجنائية يبحث بين من يصح أن يشتبه فيهم بأن تكون لديهم بواعث لاقتراف الجريمة ولا بد للقاضى وهيئة المحكمين من أن يتحرروا عن الباعث عليها ، وذلك لأن كل اعتداء خارجى على النفس ، ولنفترض أنه القتل ، يعتبر من الوجهة القانونية جريمة من أكثر من نوع واحد من الجرائم وربما لا يعتبر جريمة على الإطلاق ، تبعا للباعث الذى

(١) يرى بعض علماء التحليل النفسى المعاصرين أن المعنى الكامل للنفس ، وهو المستحيل تحقيقه بوجه عام فى مجتمعنا الحديث ، يشير بالضرورة الى علاقة متناقضة بين المصالح الفردية ومصالح الزمرة الاجتماعية .

أنظر مثلا : Erich Fromm, *Escape from Freedom* (New York, 1914).

أدى إليه ، وفي مجالات التاريخ وتراجم الحياة يحدث على نطاق واسع البحث عن البواعث الكامنة وراء ما صدر من أعمال من يؤرخ أو يترجم لهم . وكلنا يدرك المجهود الذى يبذله القصصى أو المؤلف المسرحى للتغلغل فى أعماق الشخصيات التى يقدمونها بغية معرفة البواعث التى تفسر سلوكها .

ولعلنا تتساءل : وما معنى هذا البحث الذى لا ينتهى عن البواعث ؟ فمن جهة يعتبر سلوكنا الخارجى تعبيرا عن مواقفنا ومصالحنا ، وبالتالي نحاول أن نتقصى العوامل العميقة لسلوك الآخرين . ومن جهة أخرى نحن نفترض بوجه عام ، رغم أن هذا الافتراض كثيرا ما يتضمن تبسيطا أكثر مما يجب للحقيقة ، أنه يوجد فى هذا المركب الذى يتكون من مواقف الفرد ومصالحه عامل أو عدة عوامل سائدة تفسر سلوكه فى ظروف معينة مثل هذا العامل السائد نسميه باعثا . وفى بعض الأحيان ينصب اهتمامنا على ناحية الموقف ، مثل ما يحدث حينما ننسب فعلا ما للجسد أو الغيرة أو الخوف ، وفى أحيان أخرى نهتم بناحية المصلحة ، مثل الذى يحدث حينما نقول أن الباعث على فعل ما كان المال أو المحافظة على المكانة . وكما رأينا يتضمن كل سلوك اجتماعى المواقف والمصالح معا .

واذن فالبواعث هى الدوافع المؤثرة فى العمل والكامنة وراء أعمالنا ، أو بعبارة أخرى وراء الستار . ونحن عندما نبحث عن البواعث قد نتعرض إلى أن ننزل إلى أعماق النفس الواعية أو العقل الباطن أو اللاوعى . وقد نبحث عن الباعث المباشر خلف السلوك الظاهر ، كالذى يحدث حينما ننسب نشاطا معيناً ، مثل الذهاب إلى الكنيسة ، إلى الرغبة فى أن ينظر الناس إلى الفرد نظرة احترام . أو إلى مستلزمات الحياة فى المجتمع ، أو ربما إلى اعتبارات تتعلق بالتجارة أو إلى التعبد . وقد نبحث عن البواعث

وراء الأفكار المرتبطة بالعمل الظاهر كما هي الحال عندما نرجع موقفا من مواقف الاحترام الى اعترافنا فيما بيننا وبين أنفسنا بقيمة الشخص الذى نحترمه أو بما أدى من أعمال جليلة ، أو بقبولنا أن يكون ذا سلطة علينا ، كما قد نرجع الاحترام الى رغبة منا فى تحسين علاقتنا بالشخص الذى نحترمه . وربما تغلغلنا فى العقل الباطن بقليل من الأمل فى نجاح مسعانا لنستكشف الدوافع الخفية ، تلك الدوافع أو الميول التى تجد منفذا للتعبير عن نفسها من خلال نشاطنا الواعى بكيفيات مختلفة . وتتعدد أساليب التحقيق العلمى لتفسير هذه الأنواع المتباينة من البواعث .

**أنواع النظريات المختلفة للبواعث الانسانية :** سوف لا نحاول فى الأمثلة التالية أن نقدم تفاصيل النظريات التامة التحقيق للكتاب الذين سنشير اليهم . وبالأحرى سينصب اهتمامنا على أن نمكن الطالب من أن يرى بعض وجهات النظر التى سنشير اليها من وقت الى آخر خلال هذا الكتاب ، وذلك لكى يلمس بنفسه صعوبة مشكلة البواعث الانسانية والدروب المختلفة التى سلكها الباحثون فى حلها .

**١ - البواعث الاقتصادية :** لقد كان من تأثير نشأة العمل الحر الرأسمالى وما صاحبه من ترتيب أحوال النظام الاجتماعى ترتيبا جديدا أن أولى المفكرون أهمية العامل الاقتصادى فى الشؤون الانسانية عناية كبيرة . ومنذ قرن ونصف قرن من الزمان صور لنا آدم سميث وآخرون « انسانا اقتصاديا » تسيره أولا وقبل كل شئ مصالح قائمة على الحد الأقصى من الفائدة الاقتصادية . واذا أنعمنا النظر فى الدور الكبير الذى لعبته التغيرات الاقتصادية فى المدة التى تلت قيام الرأسمالية فسوف لا ندهش اذا رأينا كتابا عديدين يكتبون بالباعث الاقتصادى كأهم

البواعث المحركة لسلوك الفرد ، وفي الوقت نفسه يعتبرون الباعث الرئيسى للتغير التاريخى نفسه . وهذا الرأى فى البواعث يميز مثلاً كتابات ألكسندر هاملتون فى سلسلة *Federalist* المشهورة ، وهو ليس أقل وضوحاً فى أبحاث المؤرخين المحدثين من أمثال تشالز ا . بيرد (١) .

وأكثر المحاولات تعقداً وحيوية لكشف البواعث الاقتصادية الكامنة قد تأثرت بكتابات كارل ماركس وأتباعه . ولم يكن ماركس نفسه مهتماً اهتماماً كبيراً بمشكلة الباعث الفردى ، وإنما كان تحليله للصراع الطبقي يتضمن تصويراً للأفراد الذين كانت تتكون منهم طبقة البورجوازية المتملكة وطبقة العمال الكادحة باعتبار أنهما ستعرضان آخر الأمر للتأثر ببواعث تعارض المصالح الاقتصادية . ومن هذه الوجهة تصبح أشكال الحياة السياسية والدينية والاجتماعية «غير الاقتصادية» التركيب الاجتماعى الظاهر والذى يفسر بتعقب بواعثه فى المصالح المادية والموضوعية الكامنة فيها . وهذا المنفذ التحليلى كما سنؤكد فيما بعد هو كما يرى أصحابه لا يبدو أن يكون فى حقيقة الأمر وسيلة نفسر بها العمليات التاريخية المطردة ، لا السلوك الفردى . ومع ذلك فإن التوكيد الماركسى للوظيفة الأساسية للمصالح الاقتصادية قد دعا كتاباً عديدين لتفسير المواقف التى لا تتماشى مع المصالح الاقتصادية كما عرفها ماركس ، وذلك بوصفها بأنها «تسويغات عقلية كاذبة» أو «وجهات نظر خاطئة» (٢) .

---

(١) أنظر مثلاً :

Charles A. Beard, *The Economic Basis of Politics* (New York, 1934).

(٢) أنظر مثلاً :

B. Freedman, "Stimulus and Response in Economic Behavior", in *Industrial Conflict: A Psychological Interpretation*, pp. 265-279.

ولينظر القارىء Fromm نفس المصدر ، ص ٢٩٦ إذا شاء نقداً قيماً لما يسميه وجهة النظر الماركسية الكاذبة .

وأمثال هؤلاء الكتاب يبحثون عن المفتاح الذى يوصلهم الى السلوك  
الانسانى فى التركيب الاقتصادى للمجتمع .

٢ - العناصر الدائمة للطبيعة الانسانية من حيث كونها بواعث :

يفسر كثيرون منذ قرون سلوك الانسان بأن ينسبوه الى « الطبيعة  
الانسانية » — أو الى هذا الشيء العجيب الذى لا يتغير ويبقى دائما كما  
هو فى عالم يتغير فيه كل شيء عداه . مثل هذه الوسيلة للتفسير ظلت  
طريقة ملائمة لأولئك الذين بحثوا وما زالوا يبحثون فى البواعث الكامنة  
لأعمال الانسان . وهذه الوسيلة لا تزال طريقة ملائمة ، وإن كانت نادرا  
، ما تفصح عن شيء لهؤلاء الكتاب المحدثين ، من أمثال مكدوجل (١)  
الذى يسلم بوجود أربع ، أو ست ، أو عشرين « غريزة » بمثابة القوى  
الأساسية التى تفسر الوجوه المتعددة لنشاط الانسان . وبينما أخفقت طريقة  
التفسير الغريزى فى السنوات الحديثة نظرا للمرونة الهائلة التى يتصف  
بها الكائن الاجتماعى كما كشف عن ذلك علم النفس الحديث وعلم  
الاجتماع ، فإن الأحوال الدائمة للطبيعة الانسانية لا تزال أساسا افتراضيا  
للحاجات والدوافع ، وهذه الحاجات تتراوح بين المستلزمات الفسيولوجية  
والمخلفات المادية ، وبين مطالب الحب والمودة التى تخلقها الحياة الاجتماعية  
نفسها . ولقد أقام حديثا علماء النفس والاجتماع والاثروبولوجيا نظريات  
مستفيضة كلفتهم جهدا كبيرا ، بشأن تحليل المقصود بالحاجات أو  
« التحركات » الباعثة على سلوك الأفراد خلال تأثيرهم بالحياة الاجتماعية

(١) أنظر مثلا :

W. McDougall, *An Introduction to Social Psychology* (Boston, 1918), Chap-  
II and III.

أو تأثيرهم فيها (١) . وسنهتم ببعض هذه النظريات في الفصل التالي .

وربما كانت أشهر المحاولات التي قام بها علماء الاجتماع لمعالجة مشكلة البواعث الانسانية هي محاولة فلوريدو باريتو (٢) . ويرى باريتو أن السلوك الانساني شيء مستمد في حقيقته من بعض عناصر الطبيعة الانسانية التي يسميها « البواقى » . وهو يقسم البواقى ستة أقسام رئيسية هي : البواقى المجمعمة ( أو القوة العقلية التي تربط الأشياء بعضها ببعض أو تفكر فيها بتجميعها معا ) ، والبواقى التي تحفز الزمرة الاجتماعية على الصمود والبقاء ( أو الميول المحافظة ) ، وبواقى التعبير عن النفس ، وبواقى التآلف ، وبواقى الكمال الفردي ، وأخيرا بواقى الجنسية (٣) . وهي جميعا ، فيما يرى باريتو البواعث الفعلية على سلوك الانسان ولكنها مطبوسة بضروب كثيرة من التفكير المختل والتفسيرات المضللة التي يسميها « الأصول » والأصول هي مظاهر احساس الكائن الانساني

#### (١) نمثلا في علم النفس :

A. H. Maslow, "A Theory of Human Motivation, in *Twentieth Century Psychology* (P. L. Harriman, ed., New York, 1946), pp. 22-48.

#### وفي علم الاجتماع :

R. S. Lynd, *Knowledge for What?* (Princeton, 1939), pp. 193-197.

#### وفي الاثنربولوجيا الاجتماعية أو علم الاجتماع المقارن :

B. Malinowski, *A Scientific Theory of Culture and Other Essays* (Chapel Hill, 1944, pp. 75-131.

#### (٢) أنظر :

Vilfredo Pareto, *The Mind and Society* (*Trattato di Sociologia Generale*, A. Livingston, ed., New York, 1935).

#### وللنظرات النقدية لباريتو أنظر :

*Journal of Social Philosophy*, I (1955), Nos. 1 and 3; B. Faris, *The Nature of Human Nature* (New York, 1937), pp. 190-210.

*The Mind and Society*, II, 888 ff.

(٣)

بالجوع نحو التفكير وتقف بينه وبين الحقائق الواقعية لطبيعته كنوع من حجاب من المنطق الكاذب .

وليس هنا محل فحص الجدل المستفيض الذى يدافع به باريتو عن نظريته . ولكن قد يحق لنا أن نشير الى ما تضمنته نظريته من زعم لم نجد له تسويغا حينما قال ان بعض أنواع البواعث ( أو البواقى ) حقيقى أو أساسى على حين أن البعض الآخر مجرد أصول ، بما فيها البواعث الأكثر مثالية ، تغلب عليها السطحية والمظهرية . ان الآلاف من الأمثلة والتوضيحات التى قدمها تثير فى الغالب التفكير والانتباه . فمثلا يلاحظ فى كثير من الأحوال أن رجل السياسة القوى يناشد ناخبه اعطاء أصواتهم بتذكيرهم بالخدمات الوطنية الجليلة التى أداها الى أمتهم المجيدة التى ينتسبون اليها ، مثل هذا الرجل لا يعبر عن عواطفه الحقيقية ولكنه يستخدم هذا الكلام لكى يبلغ أغراضا معينة . غير أن للقصة جانبا آخر ، فما الذى دعا هذا السياسى الى أن يخاطب الناس بمثل هذه الألفاظ ؟ ان السبب فى ذلك يرجع الى أنه يعرف أن مستمعيه يستجيبون لمثل هذه العواطف وما لم يكن جمهوره مستعدا للاهتياج بالبواعث المثالية لما كان من الفائدة مطلقا أن تستخدم مثل هذه الأساليب معهم . وفى وسعنا أن نضرب أمثلة لا حصر لها لنظهر أن الانسان يتأثر بهذه الطريقة — كما أن هناك أمثلة عديدة يمكن أن تدل على أنه عرضة لبواعث مخالفة .

٣ - علم تحليل النفس والبواعث : يعتبر تفسير البواعث الذى يقدمه علم التحليل النفسى ، كما جاء فى كتابات فرويد وأتباعه <sup>(١)</sup> ،

(١) أنظر :

*The Basic Writings of Sigmund Freud* (A. A. Brill), trans. and ed., New York, 1938.

أنظر أيضا مقالا وصفيا قصيرا بقلم

H. M. Kellen, "Psychoanalysis." *Encyclopaedia of the Social Sciences* (New York, 1935), XII, 580-588.

ترجمة لنوع التحليل الذى ذكرناه توا . وفيما يرى فرويد أن ما يفعله الطبيب أو المحلل النفسى من سبر لأغوار الشخصية الانسانية ، يقوم على فكرة أن هناك عناصر دائمة للطبيعة الانسانية تعد بمثابة القوى الرئيسية الدافعة للسلوك . ولقد سمي هذه القوى الباطنية « غرائز » ايروس والموت — أو بعبارة أخرى غرائز الحياة الجنسية وتدمير النفس — وقد رأهما يتنازعا فيما بينهما وفى نفس الوقت اعتبرهما أساسا لتكوين الشخصية والسلوك الانسانى .

وعلى ذلك ينظر صاحب وجهة النظر التحليلية النفسية الى ما يعتقد الفرد من أن هذا الباعث أو ذاك الذى يسيره فى الحياة ما هو فى الغالب الا مجرد تسمية تخفى وراءها البواعث الحقيقية على ما يأتى من أعمال . ويجد المحللون النفسيون أدلة على أن «العقد النفسية» و«التثبيتات» (١) تنمو فى سن مبكرة عند الفرد كما يلاحظون أنها مؤيدة بالطقوس والنواهي الشائعة فى المجتمعات البدائية . وهم يرون أن هذه العقد النفسية تعمل بنشاط فى العقل الباطن وتبدو فى أشكال رمزية تبرز عند النوم فى الأحلام وأثناء النهار خلال الهواجس ، وفى ما يصيبنا من نسيان وكل ما يصدر عنا من أخطاء لفظية .

ونعتقد أن هذا البيان الموجز قد شرح بقدر الامكان حقيقة الكتابات النظرية المستفيضة ومجموع المشاهدات التى أجريت على المرضى مما دوته مدرسة فرويد ، وان كان لم يوفها كل ما تستحقه من تقدير . وكل الذى أردناه توضيح أهدافها .

---

(١) ترجمنا الاصطلاح Fixation بالتثبيت متأثرين فى ذلك بالاستاذ الدكتور أحمد عزت راجح . أنظر المعجم الانجليزى العربى فى ذيل كتابه : أصول علم النفس — الطبعة الاولى . الاسكندرية ١٩٥٣ ، حيث شرح التثبيت بأنه التشبث بأساليب سلوكية بدائية .

ونحن نلاحظ أن المحللين النفسيين يحاولون استكشاف البواعث اللاشعورية الكامنة وراء أفعالنا . وأن بحثهم لا ينتهي الى أعماق التنظيمات الداخلية لجسم الانسان . وأن تفسيراتهم للأحلام والعادات البدائية وتاريخ حياة الأفراد البالغين تشتمل على استنتاجات غير يقينية هاجمها ولا يزال يهاجمها علماء النفس والأثروبولوجيا . وأن كان الذين ينكرون ما في استكشافات المحللين النفسيين من حق قليل عددهم . ومهما يكن من شيء فإن هذا الحق ما هو الا جزء من النسيج للسلوك الاجتماعي الذي يمتد أحد طرفيه ليشمل الانسان ككائن عضوى وطرفه الآخر الى المجتمع نفسه . ان الناس في حقيقة الأمر تدفعهم الى العمل بواعث متعددة . وقد قيد الدوافع الجنسية أو « الرغبة في الموت » في تفسير بعض جواب سلوكهم ، ولكن كما سنرى في الفصل التالي لا مفر ، اذا أردنا أن نحصل على نظرية كاملة لهذا المركب الشامل لكل وجوه نشاط الانسان ، من أن نفهم أولا المجتمع الذي هو جزء منه .

تعتقد الباعث : لا شك أن النظريات التي أوجزنا الإشارة اليها فيما تقدم تكشف لنا عن رغبة الانسان في أن يسوغ البواعث تسويفا عمليا ، أو بعبارة أخرى يخضعها للتأثر بالبيئة الاجتماعية . ونحن ككائنات اجتماعية مهياؤون لأن نختار أسبابا اجتماعية وجيهة لسلوكنا ، وأن تقدمها لغيرنا ولأنفسنا على اعتبار أنها الحجج التي نستند اليها في أعمالنا وتصرفاتنا . ونحن نكون عادات بقصد اخفاء بواعث تافهة أو مصدرها الأنانية تحت أسماء براقة ، مثل الواجب والشرف والمبادئ والوطنية . انا نحتاج الى أن يكون لنا مركز محترم في نظر الآخرين وفي نظر أنفسنا وهذا هو السبب الذي من أجله نسوغ سلوكنا تسويفا عقليا ، وهذا عمل من أسهل ما يكون ومن شأنه الاقناع — بالنسبة لأنفسنا على الأقل — اذ أنه من الصعب دائما أن تفصل العوامل الكثيرة التي تحدد

سلوكنا بعضها عن بعض . والمؤرخون من أمثال بيرد وروبينسون (١) ، والمفكرون السياسيون من مدرسة مكيا فيلى ، وعلماء الاجتماع من أمثال باريتو ، والمحللون النفسيون أشباه فرويد قد أدوا التنبهات الكافية بسعيهم لاتجاه خطة التسويغ العقلى الذى يكشف الغطاء عن القوى الخفية المحركة للتاريخ وينابيع السلوك الداخلية . ويتولى القصصيون أداء نفس الرسالة — بحماسة ظاهرة ، ويشاركونهم فى ذلك كتاب التراجيم ، واليوم نشهد نفس الاتجاه عند منتجى الأفلام ومؤلفى تمثيلات الاذاعة ، وجميع هؤلاء يقدمون لنا انتاجا ليفصح عن البواعث الخفية للشخصيات التى عنوا بعرضها على الجماهير .

ومع كل ذلك فان مثل هذه التفسيرات عرضة الى تبسيط مضاد لما يحاول المنتجون المشار اليهم أن يقنعونا به . فهناك دائما الخطر الذى يحدث من تبسيطنا لبواعث السلوك ، سواء آكافت البواعث كبيرة أم تافهة ، غيرية أم أنائية . ان بواعث السلوك فى الحقيقة معقدة تعقيد شخصية الانسان نفسها . ويكتشف علم الطب فى كل عام الكثير من التعقيدات الغريبة فى تكويننا العضوى . ولقد طرح هذا العلم جانبا نظرية بقراط ومؤداها أن الكائن العضوى يشتمل على مجرد الدم والبلغم والصفراء . والأمر كذلك بالنسبة للشخصية — فكلما عرف العلم مزيدا من تركيبها ووظائفها أمكننا أن نلم بكيفية تعقيدها . ولزيادة هذه النقطة وضوحا نقول ان كثيرا من الفروض الشائعة الخطأ يتم تصحيحها بواسطة التسويغات العقلية السطحية — غير أن هذه بدورها تعييبها السطحية التى تنسب الى الباعث بساطة فى غير محلها . ويذهب روبينسون الى أنه من الممكن أن يكتب تاريخ للفلسفة والآلهيات يدور حول الأمزجة المنحرفة

(١) أنظر :

J. H. Robinson, The Mind in the Making (New York, 1921).

والكبرياء المجروح وأحاسيس الكراهية ، ومثل هذا التاريخ يعد أكثر فائدة لطلاب العلم من الطرق المألوفة في معالجته <sup>(١)</sup> . نعم قد يكون أكثر فائدة ولكن ربما كان أبعد من أن يكون جانبا من زاوية واحدة مع ما يترتب على ذلك من تضليل .

وليس في مباحث العلوم ما هو أشد تعقدا من فهم البواعث فهما كاملا ، لأن هذا العمل يتطلب منا أن نفقت عناصر الطبيعة الانسانية ونكشف خباياها — مع علمنا بأن هذه الطبيعة الانسانية لا تتكرر مظاهرها تماما من شخص الى آخر نظرا لأن مجموعة التجارب التي تمر بحياة كل فرد على حدة فريدة في بابها رغم أنها في نفس الوقت تمثل الخصائص الانسانية العامة . ومن هذه الناحية لا تكون مهمة السوسيولوجى أو عالم الاجتماع أقل خطورة من مهمة كل من المؤرخ الذى يسعى لتفسير أحداث معينة أو جزئيات التاريخ أو مهمة المعالج النفسانى الذى يتقصى بواعث السلوك عند هذا الشخص أو ذاك . وذلك لأن اهتمام السوسيولوجى موجه أولا وقبل كل شىء الى الظواهر الجمعية حيث نجد مجموعات من الناس يتصرفون بكميافيات متشابهة أو يستمسكون بنظم سائدة مشتركة . فاذا لاحظنا مثلا نفس الاشارات والعلامات الخارجية مستخدمة بوساطة عدد كبير من الناس أو متكررة في مناسبات كثيرة يمكننا أن نستنتج وجود نظم سائدة ونحن مستوثقون من ذلك . وان خطأنا ليقبل نوعا ما في قراءة البواعث التى تسير الحشد من الناس أو « الجمهور » عن خطئنا في قراءة بواعث سلوك أحد الأفراد . وهذا موضوع سنرجع اليه فيما بعد ، على أن يسبقه البحث فى العلاقة الأساسية فى الدراسة السوسيولوجية « الاجتماعية » — وهى العلاقة بين الفرد والمجتمع .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤٥ .



## الفصل الثالث

### الفرد والمجتمع

المقصود بقولنا إن الإنسان حيوان اجتماعي

المسألة الأساسية في علم الاجتماع : ذكرنا في الفصل الأول الذي قدمنا فيه الاصطلاحات الأولية للتحليل الاجتماعي أن طبيعة الانسان الاجتماعية هي أهم صفاته . وقبل أن نمضي في معالجة زوايا المجتمع ونواحيه المختلفة ينبغي أن نبث عن الطريق القويم الذي يحسن أن نسلكه لحل هذه المشكلة التي تعتبر أخطر ما يقدم إلينا علم الاجتماع من مشاكل .

ولنبداً بالأسئلة الآتية : بأي معنى من المعاني يعتبر الانسان حيواناً اجتماعياً ؟ وبأي معنى من المعاني ننتمي الى المجتمع ؟ وكذلك بأي معنى من المعاني ينتمي المجتمع إلينا ؟ وما طبيعة توقف حياتنا عليه ؟ وكيف نفسر وحدة المجموع التي ترتبط بها حيوات الأفراد ؟ هذه الأسئلة تمثل جوانب مختلفة لمسألة أساسية واحدة — هي علاقة وحدة المجموع ، أو الفرد بالمجموع وبالنسق الاجتماعي . هذه المسألة هي نقطة البداية وملئقي الأبحاث السوسيولوجية والى حد كبير يقاس مدى نجاح البحث الاجتماعي بما يقدمه من حل لمشكلة العلاقة بين الفرد والمجتمع . وعلى ذلك فليس بمستغرب أن العقل البشري سعى لمعرفة الأجوبة على ما قدمنا من أسئلة بشأن هذه المشكلة من قبل أن يصاغ الاصطلاح

علم « الاجتماع » بزمان طويل . ولقد كان هناك جوابان متعارضان لعباء دورا كبيرا في تاريخ الفكر الاجتماعي الغربي ، وهما نظرية العقد الاجتماعي ونظرية « الكائن العضوي الاجتماعي » . وقد يخدمنا النظر بإيجاز في هاتين النظريتين من ناحية ازالة بعض الفروض الخاطئة المتعلقة بالفرد والمجتمع الشامل الذي هو جزء منه .

مدخلان يتميز كل منهما بأنه من زاوية واحدة : ذهب كتاب كثيرون خلال عدة قرون الى الأخذ بكل من النظريتين الآتيتين عن العلاقة بين الفرد والمجتمع . وهاتان النظريتان كثيرا ما نصادفهما اليوم في الفكر الشعبي . — أو « سوسيولوجيا الهواة » — التي ينسبها الى أقراننا من المواطنين . والمطلوب من طالب الاجتماع اذن أن يحاول فهم النظريتين وأن يعرض ما فيهما من وجوه النقص .

١ - نظرية التعاقد مع المجتمع : منذ القرن الخامس قبل الميلاد على الأقل نظر فلاسفة عديدون الى المجتمع كنظام يقوم على مجموعة من الناس لتحقيق غاية معينة ، وفيما يرى البعض مثل توماس هوبز<sup>(١)</sup> في القرن السابع عشر ، ما المجتمع الا وسيلة لحماية الناس من نتائج طبائعهم الجامحة . ورأى الآخرون أن المجتمع ابتكار مصطنع لتحقيق الاقتصاد المتبادل ونادى بهذا الرأي آدم سميث وأتباعه في فلسفتهم الاقتصادية . وبالكيفية نفسها نادى الفرديون في القرن الثامن عشر بأن الانسان « ولد حرا ومساويا لغيره » في المرحلة التي عاش فيها على الفطرة ، وان ما أبرمه من عقد اجتماعي لم يكن الا لسد الحاجات الاجتماعية المتعلقة بانتظام الحياة في المجتمع وب حمايته . وتنظر كل هذه النظريات الى المجتمع كما لو كان قائما على نوع من التعاقد الحقيقي فيما بين الأفراد أنفسهم

(١) انظر كتابه : Thomas Hobbes, Leviathan, Chape. XIII and XVII.

أو بين الشعب والحكومة . وهذا الرأي قد استخدم في تأييد « حماية » الفرد من « المجتمع » كما استخدم في بعض الأحيان للعرض العكسي . يقصد تعزيز دور التنظيم السياسى فى المجتمع (١) .

وقد كان هناك اعتقاد مؤداه أن المجتمع اختراع مصطنع ، غير أن هذا الاعتقاد قد فقد قوته وتأثيره ، وهو على كل حال لم يخف تماما . أنظر مثلا بعض النقد المتداول الموجه للتخطيط الحكومى فى هذا الميدان أو ذاك ، هذا النقد المستند الى القول بأن التخطيط وسيلة مصطنعة « تعرض للخطر الانتظام الطبيعى » للحياة . أو تأمل الحنين المؤلم الذى يشعر به بعض الأشخاص الى العودة للأساليب الطبيعية — هذه الأساليب المفترض وجودها قبل أن يقيم الانسان هذا المجتمع المتعب . وعلى هذا النحو نرى بعض النزوات الشائعة فى السنوات الحديثة تدعو للتوصية بتناول أغذية من غير الطعام المطهو أو تعدد مزايا العرى ، وبذا تردد تصورات القرن الثامن عشر المتعلقة بدولة الانسان الشعرية السابقة على العهد الاجتماعى . أو لاحظ كذلك ميل الكثيرين فى الوقت الحاضر الى أن يوجهوا « اللوم » الى المجتمع الحديث « المصطنع » بسبب ظاهرة هبوط نسبة المواليد — وهذه مشكلة سنتناولها بالبحث فيما بعد فى هذا الكتاب . ويستطيع القارئ أن يذكر أمثلة عديدة لما يشيع من آراء مبنية على — أو متضمنة — النظرية القائلة بأن المجتمع شئ قد استحدثه بعض الناس فى وقت ما وسهروا على قيامه .

وهناك أسباب وجيهة تدعونا الى رفض هذه النظرية . وذلك لأنها تقوم على زعم خاطئ مؤداه أن الناس هم أناس ، أو يستطيعون أن

---

(١) أنظر : G. D. H. Cole's Introduction to *The Social Contract and Discourses* :

by Jean Jacques Rousseau (London, 1913).

يكونوا أناساً ، خارج حظيرة المجتمع أو منفصلين عنه . وهذه النظرية تتضمن أن الناس هم أفراد من قبل أن « يدخلوا » في المجتمع ، وأنهم يقيمون حياة اجتماعية منتظمة لحماية ممتلكاتهم أو حقوقهم أو حياتهم . أو لأي غرض آخر يستحسنونه . هذا الزعم الباطل فقط عندما نغض النظر عن مسألة عدم انفصال الفرد والمجتمع أحدهما عن الآخر . وليس لأحدهما على أية حال أسبقية على الآخر في تاريخ التطور الانساني .

## ٢ - النظرية العضوية للمجتمع : يتحتم علينا أن نتجنب الخطأ

المقابل لما انزلت فيه أصحاب نظرية العقد الاجتماعي . وهذا الخطأ متضمن في الرأي الذي يعتبر المجتمع ( أو أى جزء منه كالأمة ) نوعاً من الكائن العضوى . هذا الرأي الذى هو على الأقل قديم قدم فكرة العقد الاجتماعي . ينظر الى المجتمع كنسق بيولوجى ، أو كائن عضوى أكبر ، يشبه في تركيبه ووظائفه وفي وحدة أجزائه جسم الانسان أو الفرد ويتعرض لقوانين مشابهة في نموه ونضوجه واضمحلاله . ان خلايا المجتمع هي الأفراد ، وأعضاؤه ونسقه هي الروابط والنظم السائدة . وهذه النظرية في صورتها الدقيقة لا تفرق بين تركيبات المجتمع أو تنظيماته وبين الأعضاء والنسق البيولوجية . ويبالغ بعض الكتاب حينما يعينون في المجتمع الأجزاء التي تقابل المخ والرئتين والأطراف في الكائن العضوى <sup>(١)</sup> . وهناك اجتماعيون عضويون أقل تطرفاً مثل الرائد السوسيولوجى

---

(١) يقول بذلك عالم الاجتماع الروسى نوفيكو وعالم السياسة الالمانى بلونتشلى . أنظر لتفرعات هذه النظرية :

F. W. Coker, *Organismic Theories of the State* (New York, 1910) and P. Sorokin  
(*Contemporary Social Theories*) (New York, 1928), pp. 200 ff.

وأنظر لتخيلات القرون الوسطى حول هذا الموضوع :

• Otto v. Gierke, *Political Theories of the Middle Age* (F. W. Maitland, tr.,  
Cambridge, 1900), pp. 103 ff.

أوجست كونت ، ممن وجهوا اهتمامهم لكى يوضحوا أن وحدة المجتمع ومساهمة الأفراد فيه كل بعمله فى داخله أمور يجب أن تتصورها كما تتصور الكائن العضوى . كما أن هناك آخرين يحاولون البرهنة على أن المجتمع يمر بالعمليات الاطرادية العضوية وهى المولد والشباب والنضوج والشيخوخة والوفاة (١) .

ومن النظريات المتصلة اتصالا وثيقا بالاتجاه العضوى تلك التى تقول ان المجتمع ينبغى أن تتفكر فيه لا من حيث كونه جسما أكبر وانما من حيث كونه عقلا شاملا . وهذه النظرية أيضا قديمة وحديثة معا — سبق التعبير عنها مثلا عند أفلاطون فى كتابه الجمهورية ، وعند مدرسة هيجل للفلسفة السياسية وأيدها علماء النفس من أمثال وليم مكدوجل ، الذى يتحدث عن « العقل الجمعى » (٢) كحقيقة واقعة . ولا يشير هذا الرأى أية مشاكل اذا لم يتعد معناه أن الجمع من الناس يضى على نفسه بعض الخصائص المميزة لأعضائه بوجه عام — أو اذا اقتصر مدلوله مثلا على أن هناك مواقف معينة يعتبر الانجليز والأمريكان والروس عرضة لاتخاذها، غير أن أصحاب هذه النظرية يعنون شيئا أكثر من ذلك . انهم يصرون

---

(١) لمناقشة هذا الرأى وآراء أخرى مشابهة بوساطة أحد علماء الاجتماع الذين تشير كتاباتهم المطولة الى توضيح نظرية شبه عضوية ، انظر :

P. Sorokin, "Sociocultural Dynamics and Evolutionism", in *Twentieth Century Sociology* (G. Gurvitch and W. E. Moore, eds., New York, 1945, pp. 96-120.

ونضيف الى ما ذكره المؤلفان فى هذا الشأن ما اشار اليه ابن خلدون فى مقدمته تحت عنوان : فصل فى أن الدولة لها اعمار طبيعية كما للأشخاص — المترجم —

(٢) أنظر : Plato, *Republic*, Book II; B. Bosanquet, *Philosophical Theory of the State* (London, 1920), Chap. VII; W. McDougall, *The Group Mind* (Cambridge, 1920), esp. Chap. I.

على أن المجتمع نفسه عبارة عن عقل ، وبعبارة أصح هو عقل مشترك بالنسبة لأعضاء المجتمع بالسوية بينهم .

إن تشبيه المجتمع بالكائن العضوى أو بالعقل يشترك مع نظرية العقد الاجتماعى من حيث أنه يجد بين المفكرين المعاصرين المختلفين من يأخذ به كما نلاحظ فى كتاب أوزوولد شبنجلر<sup>(١)</sup> الضخم الذى يزعم فيه المؤلف أن المجتمعات تمر بمراحل العضوية من المولد الى الوفاة . وكما نقرأ فى المذاهب الرسمية للحكومات الاشتراكية ، مثل النازية والفاشية ، التى تعتبر الشعب « كأم رؤوم » ، الفرد مجرد مظهر من مظاهرها وينبغى أن يكرس لها كل حياته . ومن المؤلفين بيننا أن ننظر أحيانا الى المجتمعات . نظرتنا الى الأشخاص فنقول مثلا « ان العجلترا تتحول نحو اليسارية » أو « أن أمريكا قد بلغت غاية نضوجها » أو « ان الالمانية تدمر نفسها » أو « ان عقلية الصين ( أو الهند أو روسيا أو فرنسا ) تدق على فهمنا » ، مثل هذه الأقوال قد تتضمن أو تشير الى تشبيه المجتمع بالكائن الحى أو العقل . ومن جهة أخرى قد تكون مجرد صياغة أدبية . وما دما فى الواقع تقارن الزمرة الاجتماعية أو الجماعة المحلية بالكائن العضوى لكى تبرز نواحي المجتمع المتشابهة لتوقع الأفراد بعضهم على بعض فى خلال النسق الاجتماعى ، فاننا فى هذه الحالة نستخدم تشبيها بسيطا ومعينا لنا<sup>(٢)</sup> . ولكن الوضع مختلف جدا حينما نصف النسق الاجتماعى بأنه كائن عضوى بالفعل . ذلك لأن هذا الرأى يسمى الى فردية الكائن

---

(١) أنظر : Oswald Spengler, *The Decline of the West* (C. F. Atkinson, tr. : New York, 1926).

(٢) أنظر مثلا المقال المفيد بقلم:

W. B. Cannon, "The Body Physiologic and the Body Politic", in *Society and Man* (R. N. Anshen, ed., New York, 1942), pp. 287-308.

الاجتماعى ، بالضبط كما تسمى نظرية العقد الى طبيعته الاجتماعية . ومن المضل أن نقول أن المجتمع هو وحده الذى يحيا ويتنفس من خلال أفرادهِ ، أو ان شعورنا ما هو الا تعبير للشعور الاجتماعى <sup>(١)</sup> . وينبغى أن نجيب بأن المجتمع لا يعيش اطلاقا الا فينا نحن وحدنا ، أو بعبارة أخرى فى أفرادهِ . ومن المضل أيضا أن نقول اننا ننتهى الى المجتمع كما تنتهى أوراق الشجر الى أشجارها أو الخلايا الى الجسم . وفى الحقيقة أن معنى المجتمع لينكمش ما لم يكن أفرادهِ حقائق واقعة . ومهما انطوى التشبيه العضوى على جمال فى الأسلوب أو احياء بأى نوع من الفائدة فأننا لاينبغى أن نتخذ منه تفسيراً للعلاقة الأساسية فى الحياة الاجتماعية ، ألا وهى العلاقة بين المجتمع والفرد . وذلك لأن النظرية العضوية ، كالنظرية العكسية بالنسبة لها أى نظرية العقد الاجتماعى القائم على الفردية ، تنكر جانبا من هذه العلاقة .

**الفرد والمجتمع ، واستكشاف العلاقة بينهما :** يبدو جليا قصور النظريتين اللتين انتهينا من عرضهما توا عندما تتناول أدلة محسوسة معينة على العلاقة المتبادلة بين الفرد والحياة الاجتماعية المنتظمة . وقد لاحظنا أن من بين الدروب المتعددة التى سار عليها الباحثون بغية استكشاف هذه العلاقة ثلاثة لها عند السوسيولوجى دلالة خاصة :

**١ - الحالات الهمجية :** لقد ثبت توقف الطبيعة الانسانية على عضوية الانسان فى أحد المجتمعات ببعض الأدلة شبه التجريبية . وبالطبع ليس من السهل اجراء تجارب لعزل الأطفال الرضع عن جميع العلاقات

---

(١) هذا رأى لعالم الاجتماع الفرنسى A. Fouillée وهو يحاول فى كتابه :

*La Science Sociale Contemporaine* (Paris, 1904).

أن يقرب بين النظرية العضوية ونظرية العقد الاجتماعى بتسميته المجتمع « كائنا عضويا متعاقدا » .

الاجتماعية وان كنا نعرف أن بعض الملوك في ظل الحكم المطلق ، من الملك بزماتيک في مصر القديمة الى الملك جيمس الرابع في اسكتلندا ، قيل انهم قد قاموا بهذه التجربة . ولكن الصدف أو الأحداث الطارئة وحالة أو حالتين من الحالات المدروسة قدمت الينا الدليل الكافي على أهمية المجتمع بالنسبة للفرد <sup>(١)</sup> . ولقد يحسن أن نذكر ثلاثا من هذه الحالات المدروسة :

أولا — تعتبر حالة كاسبار هاوسر ذات مغزى خاص لأن هذا الشاب السيء الحظ كان في الأغلب محروما من الاتصال بغيره من الناس بسبب النظم السياسية ، وترتب على ذلك أنه حينما عثر عليه لم يمكن أن تنسب حالته الى نقص في قواه العقلية الفطرية . وحينما جال هاوسر وهو في سن السابعة عشرة في مدينة نومبرج في سنة ١٨٢٨ لم يكن يستطيع المشي الا بصعوبة ، وكان له تفكير الأطفال ، ولم يكن يهتمهم الا بعبارة أو عبارتين لا معنى لهما . ومما يستحق التسجيل من وجهة نظر علم الاجتماع أن كاسبار كان ينظر الى كل ما يصادفه من جناد على أنه كائنات حية . وحينما قتل بعد ذلك بخمس سنوات اتضح من تشريح جثته أن مخه نما بطريقة غير طبيعية . ان حرمان كاسبار هاوسر من الحياة في المجتمع حرمه أيضا من أن يستمتع بالطبيعة الانسانية نفسها <sup>(٢)</sup> .

ثانيا — ومن أهم الحالات الهمجية حالة تختص بطفلتين من الهنود اكتشفتا في سنة ١٩٢٠ في جحر ذئب ، وكان عمر احدهما في ذلك الوقت الثامنة وعمر الأخرى أقل من سنتين . فقد ماتت الطفلة الصغيرة بعد

(١) أنظر لمراجعة أمثلة من هذه الحالات :

R. Briffault, *The Mothers* (New York, 1937), Chap. I.

(٢) هذا المثال المستمد من التاريخ هو موضوع قصة Wassermann . وللإطلاع على الوقائع المتعلقة بهذا الموضوع أنظر :

Mayers *Konversationslexikon*, 6. v.

اكتشافها ببضعة شهور ، ولكن الطفلة الكبيرة ، وتدعى « كاملا » لم يكن فى أحوالها ما ينبىء بأنها احتفظت بمظاهر السلوك الانسانى . فقد كانت تمشى على أربع ، ولم تكن تتحدث بأية لغة فيما عدا عواء يشبه عواء الذئب ، وكانت تخشى الآدميين كما يخشاهم أى حيوان غير مستأنس . وبعد جهد كبير وعطف بالغ عليها فى تدريبها وتربيتها استطاعت أن تتعلم بعض العادات الاجتماعية الأولية — ووقفت قبل وفاتها فى أن تتعلم ببطء بعض الكلام البسيط ، وتناول الغذاء الذى يتناوله الآدميون وارتداء الملابس التى يلبسونها وما شابه ذلك . وهذه الطفلة الذئب التى كان يعوزها الاحساس بنفسها الانسانية وقت العثور عليها ، وجدنا هذا الاحساس يظهر عندها بالتدريج ولكن ظهور نفسيته وفرديتها كان يتوقف على كونها أصبحت بعد العثور عليها عضوا فى مجتمع انسانى<sup>(١)</sup>.

ثالثا — درس بعض علماء الاجتماع والنفس حديثا جدا حالة «أنا» ، وهى طفلة أمريكية غير شرعية وضعت فى حجرة لما كانت سنهما ستة أشهر حيث عزلت فيها حتى اكتشفت بعد ذلك بخمس سنوات وذلك فى سنة ١٩٣٨ . وفى خلال حبسها كانت تغذى «أنا» باللبن كطعام رئيسى وبعض الأطعمة الأخرى القليلة ، ولم تتح لها فرصة التعلم العادى ، وفى الأغلب لم تتصل بأى انسان أو حيوان . هذا الانعزال الاجتماعى فى أقصى صورته وأقساها ، والذى يرى فيه العلماء « حالة معملية » ترك الطفلة وليس لديها الا القليل من الصفات التى تكون عند الطفل الطبيعى البالغ من العمر خمس

(١) اذا رغب القارئ فى بيان موجز عن الاطفال الذئاب فليطلع على:

K. Young, *Sociology* (New York, 1942), pp. 5-8.

وتوجد التفاصيل فى :

A. Gesel, *Wolf Child and Human Child* (New York, 1939) and J. A. L. Singh and

R. M. Zingg, *Wolf Children and Feral Man* (New York, 1942).

سنوات . وعندما اكتشفت « أنا » لم تكن تقدر على المشى أو الكلام ، وكانت مجردة تماما من العواطف وغير مكترثة بالناس الذين كانوا حولها . وكما حدث في حالة « كاملا » ، استجابت « أنا » للعناية التي وجهت إليها بعد أن أطلقت من حبسها ، وربما ساعد صغر سنها وقلة احتكاكها بأى كائن أثناء حبسها على أن تعود لها انسانيته بسرعة قبل موتها في سنة ١٩٤٢ . وتوضح حالة « أنا » مرة أخرى أن الطبيعة الانسانية تنمو في الانسان حينما يعيش في المجتمع فحسب — أو بعبارة أخرى حينما يكون واحدا من كثيرين من الأفراد يقسمون حياة مشتركة (١) .

٢ - نمو الاحساس بالنفس : تمدنا دراسة العملية الاطراكية لنمو الاستعداد للحياة الاجتماعية عند الطفل بمجموعة أخرى من الأدلة على العلاقة الأساسية المتبادلة بين الفرد والمجموع . وأن ظهور الاستعداد للحياة الاجتماعية ما هو الا جانب من جوانب نمو الاحساس بالنفس وبالشخصية . ان الطفل ليس مجرد مقلد للأساليب الاجتماعية التي يتبعها الكبار ، كما يلتقط الببغاء لغة الكلام . ولا شك أن الطفل حيوان مقلد ، ولكنه في خلال قيامه بالتقليد تتكشف طبيعته الاجتماعية رويدا رويدا . وقد لاحظنا أن الطفل في مراحله الأولى لا يميز بين الأشخاص والأشياء — وما تدى أمه و « البرازة » في نظره الا وسيلتان متساويتان من كل وجه تؤديان غرضا واحدا هو اشباع حاجة عضوية عنده . وكذلك تجرى محادثاته الأولى بينه وبين نفسه ونراه في هذه المرحلة يخاطب نفسه بصوت مرتفع . وهذه المحادثات تتحول بالتدريج

---

(١) لزيادة العلم بحالة أنا أنظر :

K. Davis, "Extrem Isolation of a Child," *American Journal of Sociology*, XL (1940), 554-565; and "Final Note on a Case of Extreme Isolation", *ibid.*, LII (1947), 432-437.

إلى كلام هو صدى أفكار آخذة في التعديل <sup>(١)</sup> . وكما قال جان بياجيه حديثاً ، يتحول الفكر المتمركز حول النفس إلى « ارتباط عقلي تكاملي يبرز من خلاله منطق العلاقات » القائمة بين الفرد والعالم الذي هو جزء منه <sup>(٢)</sup> . وعندما يحس الطفل بنفسه يكتشف ضمناً أن للآخرين نفوساً متميزة . وكلما وضحت معالم فرديته يصبح بحق قادراً على ممارسة العلاقات الاجتماعية <sup>(٣)</sup> . فأول لعب للطفل يبدو أنه مجرد تقليد للغير ويقتصر لعبه في هذه الحالة لنفسه ومن أجل نفسه ، وكلما تقدم في تعلم اللعب مع الآخرين تتوقف قواعد اللعبة عن أن تصبح أحكاماً خارجة عنه مفروضة عليه من الآخرين ، ونراه يعمل على المحافظة عليها كأنه مسئول عنها <sup>(٤)</sup> .

وقد درس كثيرون من المتخصصين الأمريكيين في علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي لمدة سنين موضوع نمو الاحساس بالنفس ، وقد ثبت من أبحاث ج. هـ. ميد أن نفسية الطفل تنمو كلما أحس خلال أحلام اليقظة وأثناء لعبه بالعرائس ومع أقرانه أن للآخرين — ومن بينهم والداه وغيرهم من الأبطال من وجهة نظره — أدواراً يلعبونها في حياته هو <sup>(٥)</sup> .

(١) أنظر مثلاً البحث القيم : Jean Piaget, *The Language and Thought of the Child* (New York, 1926), Chap. II.

(٢) أنظر : Jean Piaget, "Intellectual Evolution" in *Science and Man*, pp. 409-422.

(٣) هذه النقطة تبدو ضعيفة ، وذلك لأن نمو الفردية لا يستلزم بالضرورة نمو القدرة على الحياة الاجتماعية .

وليس في الجملة التالية عند المؤلفين ما يؤيد رأيهما أو يوضحه .

— المترجم

(٤) قارن :

Jean Piaget, *The Moral Judgment of the Child* (New York, 1932), Chap. I.

(٥) أنظر : George H. Mead, *Mind, Self, and Society* (Chicago, 1934), pp. 135-226.

وأكثر من هذا تنطوى العملية الاطرادية لظهور النفس على انسجام  
الطفل المستمر مع سلوك الآخرين . ويعتبر هذا عند بعض علماء الاجتماع  
ومن بينهم تشارلز هـ . كولى <sup>(١)</sup> عاملا ذا دلالة كبيرة فى تكوين الشخصية .  
وكون الاحساس بالنفس لا يظهر الا عند الشخص الذى يعيش فى مجتمع  
ما — حيث مبدأ الأخذ والعطاء الذى تتميز به الحياة الجمعية — قد تأيد  
بالأبحاث العلمية الحديثة <sup>(٢)</sup> .

٣ - الانسان وما يختص به • توقف حياته على الميراث الاجتماعى :  
لا يعدو كل فرد أن يكون نتاجا لعلاقة اجتماعية أدت اليها بدورها آداب  
عامة مقررة من قبل مولده <sup>(٣)</sup> . وفوق ذلك فاننا نرى أن كل شخص ،  
سواء أكان رجلا أم امرأة ، هو فى حقيقته طرف فى علاقة . وليس الفرد  
فى ذاته بداية أو نهاية ، وانما هو حلقة فى تتابع الحياة . وهذه حقيقة  
سوسولوجية وبيولوجية على السواء ، ولكنها لا تشير حتى الآن الى  
مدى توقفنا كأفراد على المجتمع .

وذلك لأن المجتمع شئ أكثر من بيئة ضرورية ، وأكثر من التربة  
التي تتلقى فيها تربيتنا . ان علاقاتنا بالميراث الاجتماعى أقوى وأشد  
ارتباطا من علاقة البذرة بالأرض التي تنمو فيها . لقد ولدنا فى مجتمع

---

(١) أنظر : Charles H. Cooley, *Human Nature and the Social Order*, (New York, 1922).

(٢) أنظر من أجل زيادة الإلمام بموضوع توقف الفردية على القوى  
الجمعية : E. Parls, *The Nature of Human Nature* (New York, 1937), Part I.  
وتقريرا عن البحث التجريبي فى هذا المجال ، فى :

G. and L. B. Murphy and T.M. Newcomb. *Experimental Social Psychology*  
(New York, 1937), Part II.

(٣) لشرح هذه الفكرة أنظر :

Emile Durkheim, *Les Règles de la Méthode Sociologique*, huitième édition,  
(Paris, 1927), Chap. I.

حددت عملياته الاطرادية ميراثا ، ويصبح في الوقت المناسب بعض ما أخذناه من المجتمع عدتنا العقلية الداخلية — لا مجرد شيء نمتلكه كسائر الأشياء — ويكون من شأن التراث الاجتماعي الذي يتغير باستمرار تبعا لتجاربنا العملية ، أن يوقظ شخصيتنا ويوجهها . ان المجتمع يحررنا ويحد من استعداداتنا كأفراد في وقت واحد ، ليس فقط يمنحه ايانا القرص المحددة والتشجيع ، وليس فقط بارهاقه ايانا بالقواعد وتداخله في سلوكنا ، وانما أيضا بتكييف مواقفنا ومعتقداتنا ومقاييس سلوكنا ومثلنا العليا بطريقة رفيقة لا يشعر بها .

ان ادراكنا لهذه العلاقة المتبادلة الأساسية والديناميكية بين الفرد والتراث الاجتماعي يجعلنا نقدر صحة عبارة أرسطو المشهورة : ان الانسان حيوان اجتماعي . وليس المقصود بذلك أن الانسان حيوان متآلف مع الناس ، فالأفراد مختلفون من هذه الناحية . ولا المقصود أن الانسان غيري يؤثر الغير على نفسه أحيانا باتجاهه الى المجتمع . ومن أبعد المعاني عما ترمى اليه عبارة أرسطو أن الانسان اجتماعي بحكم تكوين أصيل لا في الطبيعة الانسانية وانما تقصد أنه بدون المجتمع ، وبدون تأييد الميراث الاجتماعي ، لا تستطيع شخصية الفرد أن تستبين .

**الفرد والمجتمع من حيث الاعتبار النظرية التي لابد من فهمها حول العلاقة بينهما :** لاحظنا فيما سبق التفسير الفردي الذي تؤكدته نظرية العقد الاجتماعي ذات الجانب الواحد ، وكذلك نظرية التفسير العضوي المماثلة من حيث كونها جانبية . وماتدعو اليه من اهمال يكاد أن يكون كليا لدور الفرد في الحياة الاجتماعية . ولقد أوضحنا بعض الاستكشافات للعلاقة بين الفرد والمجتمع . ولكننا ما زلنا نرى أن فهم هذه العلاقة فهما واقعيا يحتاج الى كلمة ختامية عامة قبل أن نتقل الى بعض التفاصيل . فلنبحث الآن المظهر العام لوحدة المجتمع والعلاقات القائمة بين أفراد من جهة ، وفيما بين كل منهم والمجموع .

هناك بالتأكيد وجوه اتفاق مهمة بين التركيب الاجتماعى والتركيب العضوى ، ولكن هناك أيضا وجوه اختلاف مهمة بينهما . وبالرغم من أن هيربرت سبنسر نظر الى المجتمع ككائن عضوى ، فقد أشار الى فارق كبير بينهما حينما قال ان المجتمع يفتقر الى « دماغ » أو مركز للحس أو للتفكير <sup>(١)</sup> . وذلك لأن الأفراد هم وحدهم الذين يفكرون ويشعرون . اننا نستطيع أن نوصل مشاعرنا وأفكارنا الى غيرنا حتى يمكنهم أن يشاركونا عواطفنا أو يفهمونا . ولكن فى الواقع لا يستطيع الآخرون أن يقتسموا معنا مشاعرنا أو أفكارنا . وبهذا المعنى تكون كل نفس ، بحكم كيفية خلقها ، فى معزل عما عداها من النفوس <sup>(٢)</sup> ، على اعتبار أن المشاعر والأفكار متشابهة وليست مشتركة . انها تمر فى تجارب الأفراد من حيث كونهم أفرادا ، لأن العقل ينقل الأفكار الى عقل آخر . ولكن العقل الناقل والعقل المنقول اليه لا يكونان عقلا واحدا . ولقد تدعو نفس المؤثرات الى تهيج شعب أو حشد من الناس ، لا بطريقة كلية بل من حيث ان هذه المؤثرات تخفق فى نفس كل فرد من الأفراد العديدين الذين يتكون منهم هذا الشعب أو ذاك الحشد . واذا تكلمنا عن « عقل الزمرة » فلن يكون لدينا أى دليل ، وبالتالي أى حق ، فى أن نتصور هذا العقل على أنه مجموع عقول أفراد هذه الزمرة وهم يشعرون أو يفكرون

---

(١) من المهم أن نشير الى أن سبنسر الذى استخدم اصطلاحات التفسير العضوى كان هو نفسه من متطرفى أصحاب التفسير الفردى فى عصره .

(٢) يبدو أن المدرسة الوجودية الحديثة فهمت هذه الحقيقة فهما جيدا وكيفتها بحيث تتلاءم مع نوع من « الفلسفة » المتمركزة حول النفس ، شاع فى فرنسا ذكرها وحديث الناس عنها . ولا ننسى أن الشعب الفرنسى هانى الكثير من الحكم النازى الذى نزل بهم خلال الحرب العالمية الثانية . ومن علامات الشقاء فى زماننا أن تجد الوجودية لها أنصارا جددا فى الولايات المتحدة وغيرها من البلاد .

بكيفيات متشابهة ، كما يستجيبون استجابات متشابهة ، وتحركهم مصالح متشابهة أو مشتركة .

ان الأفراد لا ينتسبون الى المجتمع كما « تنسب » الخلايا الى الكائن العضوى : ان مراكز النشاط الوحيدة التى نعرفها للشعور والوظيفة العضوية وأغراض الحياة هى نفوس الأفراد . وان المجتمع الوحيد الذى نعرفه هو مجتمع ترتبط فيه هذه النفوس بعضها ببعض ، خلال الزمان والمكان ، بالعلاقات القائمة بين كل منها والأخرى ، سواء آكانت هذه العلاقات جديدة أم موروثه . وان التجربة الوحيدة التى نعرفها هى تجربة الأفراد . وانه لقى ضوء الصراع القائم بين هؤلاء الأفراد وبين مصالحهم ورغباتهم وآمالهم ومخاوفهم فحسب أننا نستطيع أن نتبين وظائف المجتمع وأهدافه . وبالعكس ، انه بسبب كون الأفراد جزءا من المجتمع تراهم أصحاب مصالح ورغبات وأهداف . وان الطبيعة الانسانية لتزدهر وتتفتح فى المجتمع وحده . ان العلاقة بين الفرد والمجتمع ليست علاقة من جانب واحد . ان كليهما ضرورى لفهم كل منهما .

وتتميز كتابات أصحاب التفسير الفردى فى الماضى والحاضر بعجزهم عن تبين هذه العلاقة المتبادلة بين الفرد والمجتمع . فقد رأينا توماس هوبز فى القرن السابع عشر وأيضاً جون ستيوارت مل فى القرن التاسع عشر يكتبان كما لو كان المجتمع فى طبيعته معاديا لكل ما يساعد الفردية على التعبير عن نفسها ونموها <sup>(١)</sup> . واليوم ، على أساس نفس الخطأ فى تصور هذه العلاقة نسمع ترديداً صاخباً لما يتهدد الفرد من عدوان النظام الاجتماعى عليه ، تتجاوب أصداؤه فى جمعياتنا التشريعية أو نقرؤه .

---

(١) أنظر : Hobbes, op. cit., Chap. XXI, and Mill, On Liberty, passim.

في الجدل الذي يشهده أولئك الذين يرون في كل إجراء جديد للتأمين الاجتماعي ضربة مسددة للحرية (١)

ويميز نفس الخطأ عند أصحاب النظرية المضادة ، آراء المفكرين الذين نادوا كما نادى بنيامين كد بأن الفرد ينبغي أن يكون تابعا للمجتمع ، أو آراء من يمثلون بأتباع الفيلسوف هيجل حين يذهبون الى أن المجتمع له في ذاته قيمة تتجاوز الخدمات التي يؤديها لأفراده (٢). وتتضمن مثل هذه الآراء أن المجتمع يتقوم بذاته بكيفية غامضة وغير مدركة تماما لنا ، وأن سعادته يمكن أن تتحقق دون نظر للأفراد ، وربما على حساب سعادتهم (٣). وأنا لرى في بعض الأحيان أنه من الممكن ، ان لم يكن من المرغوب فيه ، أن تضحي سعادة الفرد أو الأفراد جميعا ( وليس بعضهم ) في سبيل المجتمع . وعندما حاول « فلاسفة » موسوليني وهتلر الرسميون أن يفسروا ما استغلوا من « النظرية » الفاشية والنازية — وكان القصد من ذلك اعلان تبرير عقلي لتفسير الدكتاتورية وقيمتها الاجتماعية —

(١) اننا هنا لا نتعرض للحكم على هذا أو ذلك من ضروب التخطيط الاجتماعي من حيث كونه مرغوبا فيه ، وانما نقتصر على مهاجمة ما يفترضه البعض من أن النظام الاجتماعي في حقيقة أمره ضار بالفردية .

(٢) أنظر : B. Kidd, *Social Evolution*, (New ed. New York, 1920) and *Principles of Western Civilisation* (London, 1902).

وإذا أراد القارئ مثالا لمذهب هيجل فليُنظر :

Banquet, op. cit., Chaps. V and VII.

(٣) مهد أتباع هيجل في الواقع لنظريات دوركايم وراذكليف براون ومالينوسكي بمثل هذه الآراء . ولزيادة هذه النقطة وضوحا ، أنظر :

Aly A. Issa, *The Methods of Social Anthropology An Examination of Current Ideas and Practices*. (Unpublished D. Phil. Thesis, Oxford, 1950).

— المترجم

لم يكن مستغرباً أن يجد هؤلاء الفلاسفة بعض المذاهب التي جاء بها هيجل وغيره معينة لهم في عملهم (١) .

واذن فجوهر فهمنا النظرى للفرد والمجتمع يقوم على أن هناك علاقة بينهما — وهذه العلاقة تتضمن تلك العمليات الاطراذية التي تقوم بين فرد وآخر ، أو بين الفرد والمجموع في داخل نطاق النمط الدائم التغير للحياة الاجتماعية . وما المجتمع بكل تقاليده ونظمه السائدة وما يقدم من عدة للحياة فيه الا نظام اجتماعى هائل يتصف بالتغير في كل أجزائه ، وهو يقوم على حاجات الجسم والروح الضرورية لأفراده . وهو مجال منتظم يولد فيه الناس ، وينمون ، في حدود امكانياتهم ، ثم ينقلون من خلاله احتياجات المعيشة الى الأجيال القادمة . وينبغى أن نرفض أى رأى يتصل بهذا النمط اذا قام على النظر الى العلاقة القائمة بين الفرد والمجتمع من هذا الجانب أو ذاك .

## الفرد والمجتمع

طبيعة الوحدة الاجتماعية : تتكشف الوحدة الاجتماعية الفريدة في بابها اذا قارناها بغيرها . ويمكن أن نميز أشكالا مختلفة لهذه الوحدة اذا نظرنا الى طبيعة العلاقة الوظيفية للوحدات أو الأجزاء بالنسبة للكل . وأول أنواع الوحدة هو الكائن العضوى الذى فهم المجتمع في بعض الأحيان خطأ على غرارهِ كما رأينا . ونحن نفسر في الكائن العضوى .

---

(١) أنظر مثلا : G. Gentile, "Philosophical Basis of Fascism", *Foreign Affairs*: VI (1928), 190-304, and A. Kolani, *The War Against the West* (New York, 1938).

وللتعليق أنظر :

R. M. MacIver, *The Web of Government* (New York, 1947), pp. 243-255, and G. Galton, *The Story of the Political Philosophers* (New York, 1939), chap. XXI.

الخلايا والأعضاء والأجهزة المختلفة التى يتألف منها — كالدورة الدموية والغدد والجهاز العصبى وهلم جرا — باعتبار أنها مهمة فقط من ناحية نفعها لحياة الكائن العضوى فى مجموعه . ( وعلى ذلك فالمصران ) الأعور والعصص يوصفان أحيانا بأنهما من الناحية العضوية آثار لا فائدة منها ) وهناك نوع آخر من الوحدة وهو الميكانيزم ، ويتمثل شكله الخاص فى آلة جسم الانسان . وكلنا نعرف أن الآلة لا تدير نفسها بنفسها ولا تعتمد على نفسها ، كما أنها لا تنتج مثلها الكائن العضوى . ولكننا نرى أجزاءها المختلفة كالعجلات و « التروس » وأحزمة الجلد المستخدمة لنقل الحركة من مكان لآخر وغير ذلك ، لا يمكن فهمها الا من طريق ما تسهم به كل منها لكى تؤدي الآلة الكبرى وظيفتها . وتنطبق من وقت لآخر على المجتمع أو أجزاءه اصطلاحات الوحدة الميكانيكية والوحدة العضوية مثلما نتحدث عن « ميكانيزم الأسعار » أو « الآلة السياسية » .

ولكن النسق الاجتماعى ينبغى أن يتميز عن هذه الأنواع وذلك لأن النسق الذى يتكون من العلاقات الاجتماعية ينمو ويتغير تبعاً لمواقف الأفراد ومصالحهم المتغيرة ، أو لمواقف بعض أو كل الوحدات الداخلة فى النسق الاجتماعى ومصلحتها ، أو لمواقف ومصالح الأفراد الذين تتكون منهم هذه الوحدات . ويستمد النسق أهميته من تأييده بغايات الأفراد أنفسهم وما يمكن أن يسهم به فى هذا السبيل . ولا يمكن تصور الوحدة الاجتماعية بدون هذه الغايات . وهذا المبدأ يجعل التوافق بين المجتمع والفردية ممكناً . وقبل أن نستمر فى شرح هذا المبدأ ينبغى أولاً أن نوضح المعنى الذى نضفيه على هذا الاصطلاح الأخير الذى ذكرناه وهو « الفردية » .

معنى الفردية : يتضح المعنى السوسولوجى للفردية بجلاء إذا عددنا المدلولات المختلفة لهذا الاصطلاح .

١ - معنى الفردية الجسمى والبيولوجى : اننا نستخدم أحيانا

الاصطلاح « الفردية » بمدلول جسمى ، ليشير الى الانفصال الجسمى لشيء من شيء آخر . ومثل هذا الاستخدام قد يكون مربكا ، مثلما نطبقه على النباتات التى تنبثق منها جذور جديدة - فهل يجوز لنا أن نحكم بأن هذه الجذور الجديدة أفراد وأن لها فردية ؟ هناك أشكال بسيطة للحياة مثل الأميبا التى تنتج أمثالا بالتكاثر من تلقاء نفسها وتؤدي الى أن يتحول ما هو فرد الى فردين أو أكثر . كذلك هناك بعض الحيوانات التى تعيش وتتحرك فى مجموعات يتخصص فيها الأفراد فى أداء وظائف عضوية مختلفة - مثل الانسال والتغذية والدفاع - للمجموعة بأسرها . ومن أمثلة هذا النوع من المجموعات ما يشار اليه « بالسفينة الحربية البرتغالية » . هذه الأمثلة تدل على أن الفردية الجسمية مسألة فرق فى الدرجة ، وأن الفردية أقل وضوحا لأشكال الحياة البسيطة منها فى الأشكال المعقدة . واذا نحن طبقنا الاصطلاح « الفردية » على الجمد نشأ عن ذلك جانب آخر لهذه الحقيقة . فالنقطتان من الماء أو السحابتان يشيع كل منهما فى الأخرى ويصبحان شيئا واحدا ، وبذا تفقد الوحدات تميزها . ومن الجلى أن يتلاشى معنى الفردية تقريبا اذا طبقناها على الأشياء المتناهية فى صغر الحجم أو التى لا شكل لها والتى يمكن تداخلها بعضها فى بعض تداخلا تاما .

وقد لا نختار للفردية مدلولاً جسمياً بل بيولوجياً . وبهذا المعنى يمكن أن نقول ان المخلوق الحى كلما أشعرناه بفرديته ازداد رغبة فى توكيد نفسه وازداد قدرة على المفاضلة فى أسلوب الاستجابة للمؤثرات الخارجية ، كما ازداد سيطرة واستفادة من بيئته حتى تسد كثيرا من حاجاته الخاصة . والكائن العضوى الذى تتقاذفه الرياح أو الأمواج مثل السمك الهلامى أقل حظا من الفردية من الكائن العضوى الذى يعرف

كيف يتحرك بإرادته مع التيار أو ضده . والكائن العضوى الذى يستطيع أن يقوم بقليل من الانفعالات البسيطة أو الذى لديه قليل من الأعضاء التى تكاد أن تكون متباينة ليؤدى بها وظائفه المختلفة أقل فردية من ذلك المعد لانسجامات أدق وأكثر حساسية ، مثل الانسان .

٢ - المعنى السوسولوجى للفردية : عندما نضفى معنى الفردية على الانسان نجد من الضروري أن نستخدم هذا الاصطلاح بمدلوله السوسولوجى . فنحن نقول ان الكائن الاجتماعى تشتد فرديته اذا لم يكن سلوكه مجرد محاكاة أو نتيجة لتعرضه للايحاء ، واذا لم يكن عبدا بمعنى الكلمة للعادة الجمعية أو حتى لعاداته الفردية ، وعندما لا تكون استجاباته للبيئة الاجتماعية حاصلة بطريقة أوتوماتيكية وانصياغية ، بل عندما يهتم بالتفكير لنفسه وبالتحديد أغراض سلوكه ويصبح هذان عاملين من عوامل نشاطه . والفردية بالمعنى السوسولوجى هى تلك الصفة التى تكشف عضو الجماعة وتبرزه كأكثر من مجرد عضو فيها ، عضو يشعر بنفسه ويرى فيها مركزا للنشاط والاستجابة للمؤثرات الخارجية، معبرا عن طبيعته الخاصة . وهذا التصور يكمن وراء النصيحة التى درجنا على أن نسديها الى الغير أو الى أنفسنا حينما نقول : «احتفظ بشخصيتك» والاحتفاظ بالشخصية هنا لا يعنى مجرد الاصاله فى التصرف . وبالتأكيد ليس معناه شذوذ الطبع . وقد لوحظ أن من الممكن للفرد ذى الشخصية القوية أن يعبر تعبيرا وافيا عن روح أو صفات بلاده أو زمانه ، وانه ليفعل ذلك لا لأنه سريع المحاكاة أو من السهل أن يقع فريسة لايحاء الغير ولكن بسبب حساسيته لمقتضيات العصر .

وصحيح أن أعضاء الزمرة اذا كانوا جميعا أقوياء الفردية دب بينهم بالخلاف وأدى ذلك الى أن يعبروا عن أنفسهم بطرق مختلفة . ولكن الخاصة المميزة للفردية ليست هى درجة الانحراف عن باقى الأقران

أو الزملاء . وإنما هي كيف يتصرف الفرد معتمدا على نفسه مع قيام العلاقات بينه وبين الآخرين . وكيف يتفهم مطالب الآخرين منه . وعندما يسلك صاحب الشخصية سلوكا معينا ، على الأقل في الأحوال الضرورية ، ملتقيا مع الآخرين في نفس الاتجاه السلوكي ، لا يقال انه فعل ذلك لمجرد أن الآخرين قد فعلوه ، ولكنه هو نفسه يقر هذا السلوك المعين . وعندما يسير وراء السلطة ، الا اذا أرغم على ذلك ، فانه يتبعهم لأنه من ناحية مقتنع بصواب ما يفعل ولا يتبعهم لمجرد كونهم أصحاب سلطة . وهو لا يقبل دون تمحيص آراء الآخرين ولا يأخذ في ترديدها . ان لديه بعض الاستقلال في الحكم ، وبعض المبادأة ، وشيئا من التمييز ، وكما نقول في أغلب الأوقات عنده « قوة خلق » وتعتبر الحدة التي يفصح بها عن هذه الصفات هي نفسها درجة فردية وشخصية .

ويقتضى الأمر الآن أن نلاحظ ملاحظة قصدنا بها التحوط والاحتباس . اننا لم نقل ان صاحب الفردية يستمتع بقسط من حرية الارادة أكبر من ذلك الذي يستمتع به أقرانه . ولا يهنا هنا أن نثير المسألة القديمة المتعلقة بما اذا كان لدى الفرد مثل هذه الحرية . وربما كان بعض القراء مقتنعين ، أيا كان الاقتناع ، بقدرة الفرد على أن يمارس حرية الاختيار . وعلى أية حال لا بد أن يتفقوا معنا في فهمنا للفردية — باعتبارها هذا الجانب من الشخصية الذي يزيد حساسية الكائن الاجتماعي لغاياته وغايات الآخرين .

**مبدأ التوافق بين الفردية والمجتمع :** من المسلم به بوجه عام أن الفردية كما عرفناها توا أقل نموا ( ولكنها ليست مختلفة ) في المجتمعات البدائية ، بسبب العادات الجمعية والمحرمات الصارمة ، منها في المجتمعات الراقية التنظيم . ويمكن القول بحق ان في المجتمعات الأكثر تعقيدا وأرقى تنظيما ، تمس الحاجة الى الافصاح عن الفردية كما تنهيا أفضل الفرص لتحقيق ذلك .

وهناك أدلة كثيرة تسوغ هذه الخاتمة . انظر مثلاً مدى توقف ايقاظ الفردية على مرونة اللغة وغناها ، أو على جمال هذه الأداة الأولية في التعليم ونقل الأفكار الى الغير . يقول عالم حجة في هذا الموضوع ، ان اللغة لا تؤدي فقط وظيفة القوة « الموحدة » في المجتمع ولكنها « في نفس الوقت تعتبر أقوى عامل معروف لدينا لنمو الفردية » (١) . وينبغي أن نضيف الى اللغة وسائل التعبير الأخرى العديدة التي يتيحها المجتمع المعقد أو الحديث . هذا المجتمع يمد الفرد على نطاق كبير بأنواع كثيرة جداً من الاتصالات والمهن والمصالح والفرص — وبايجاز بالمؤثرات العامة والخاصة التي يمكن أن تستجيب لها فروق الفردية بالطريقة التي تلائمها ، وقد وضع أميل دوركايم رسالة سوسيولوجية « ممتازة » ، عنوانها « تقسيم العمل الاجتماعي » تدور حول هذا البحث (٢) . ويرينا دوركايم بمهارة تدعو الى الاعجاب أن في المجتمعات البدائية حيث يوجد تخصص في العمل في أبسط صورته تلعب المشابهة ( في الانتساب الى نفس رئيس العائلة وفي قبول نفس المعتقدات والآداب العامة ) أكبر دور في التماسك الاجتماعي . ولكنه يهتم بأن يلفت نظرنا الى أن التركيب الاجتماعي في المجتمعات الأكثر تقدماً حيث يوجد تخصص متزايد في العمل يقوم على المخالفة والمشابهة على حد سواء . وبذا يعمل على ايقاظ درجة عالية من الفردية .

وقد أيد سوسيولوجيون كثيرون هذه الحقيقة التي اكتشفها دوركايم،

---

E. Sapir, "Language" *Encyclopaedia of the Social Sciences* (New York, (١)  
1935), IX, 160.

Emile Durkheim, *De la Division du Travail Social*, translated by G. (٢)  
Simpson as *The Division of Labor in Society*, (New York, 1933).

جما قاموا به من أبحاث <sup>(١)</sup> . وملخص نظرية دور كايم أنه إذا فكر كل الناس بطريقة متشابهة ، وشعروا بطريقة متشابهة ، وعملوا بطريقة متشابهة ، وإذا كانت جميع مقاييسهم ومصالحهم واحدة ، وإذا قبلوا نفس العادات الجمعية ، ورددوا نفس الآراء دون اعتراض أو اختلاف ، فما كانت الحضارة الانسانية لتتقدم قيد أنملة ، ولبقيت الثقافة جامدة لا تتحرك من مرحلتها التطورية الأولى . وما كان يمكن أيضا أن ينشأ تخصص أو حياة تتبادل فيها المنافع الا في القليل النادر . ومن المعلوم أن التخصص وتبادل المنافع من لواحق التربية الفردية — ولأنه لو كانت المشابهة طابع الحياة الاجتماعية لكان كل الوجود الذى حولنا سطحيا ومصطنعا ، ولافتقدنا المعانى الانسانية التى يتصف بها التعاون الاجتماعى ، ولا نمحى كل باعث مفيد على الاتصالات الاجتماعية ، كما ضاع من حياتنا كل نوع من أنواع المبادأة والعمل الاستقلالى والتخريب ومقاومة كل محاولة لضم الناس فى صف واحد ومعاملتهم كقطعان الغنم ، وبذا ينعدم الأمل فى التقدم ، وتأخذ الحياة هذا اللون القاتم والمظهر الرتيب على النحو الذى صورته خيال الدس هكس فى كتابه « عالم جديد فاضل » . وقد تصور سكان ذلك العالم كأشخاص متساوين من كل وجه قادرين على جعل الحياة محتملة فى دنياهم بفضل تعاطيهم المخدرات من وقت الى آخر .

وفى عالمنا هذا الذى نعيش فيه يسير المجتمع والفردية جنبا الى جنب متعاونين . وإذا لم تقم الخصومة بينهما فالتوقع أن يعتمد كل منهما على

#### (١) أنظر مثلا :

Herbert Spencer, *Principles of Sociology* (New York, 1916), Vol. I, part II; G. Simmel, *Über Soziale Differenzierung* (Leipzig, 1890); F. Tönnies, *Gemeinschaft und Gesellschaft* (Leipzig, 1887); J.M. Baldwin, *The Individual and Society* (Boston, 1911), es. Chap. I; Cooley, *op. cit.*, Chap. I; R. M. MacIver, *Community*, (New York, 1929), Book III, esp. Chap. III.

الآخر . وكما سنرى فيما بعد ، أن أفضل العلامات الدالة على تطور المجتمع درجة مساهمة فردياته المختلفة في الخدمات التعاونية والمشاركة .

**قصور مبدأ التعاون بين الفرد والمجتمع :** من المؤكد أن القارئ قد يتساءل : هل كل شيء بين الفردية والمجتمع متوافق ؟ ويمكننا — دون أن نتغلى عن مبدأ توقف كل منهما عن الآخر — أن نجيب بمناقشة القصور في هذا المبدأ .

١ - **التكامل الاجتماعي لا يقع بتمامه :** ان المجتمع كما نعلم ملئ بالمنازعات والمشاحنات والكبت والتمرد . ففي كل زمرة اجتماعية ، وفيما بين الزمر ، يقوم صراع دائم بين المصالح المختلفة والمتعارضة ، وهناك الاحتكاك ومظاهر سوء التوافق ، والأحقاد والعقبات الناشئة عن المنافسة والقيود ومظاهر الاستغلال — وغير أولئك مما يعرف القارئ . وهذا كله يؤثر في التوافق بين الفرد والمجتمع كما يحد من التكامل الاجتماعي بين الأفراد والزمر الاجتماعية الداخلة في النسق الاجتماعي . وهذا النسق تسوده نظم من طبيعتها أن تمكن بعض الزمر أو الطبقات الاجتماعية من السيطرة على البعض الآخر .

ومعنى هذا أن التكامل الاجتماعي لا يكون تاماً أبداً ، ولا يسوده التوافق في جميع الأحوال . وقد زعم كل من موسولينى وهتلر أن دكتاتوريتيهما التي أطلقا عليها اسم « النظام الشمولى » قائمة على التكامل الاجتماعي ، غير أن ما سجله التاريخ لعهدهما من فظائع ومذابح بشرية ليذكرنا بما يمكن أن تتحول اليه المجتمعات المتبدلة من تطبيق لما هو أشد قسوة من الأساليب البدائية ، في أوقات الأزمات الاجتماعية .. وانه ليذكرنا كذلك بأن تكامل المجتمع والفردية ، ليس فقط من العلامات.

البارزة في تاريخ الانسان القديم ، ولكنه الى جانب ذلك هدف يواصل السعى الى تحقيقه في الحاضر والمستقبل .

٢ - كبح المجتمع جماح الفرد : أى فرد لم يشعر بينه وبين نفسه في بعض الأحيان أنه ممتعض من القواعد التي فرضها عليه المجتمع ؟ ومنذا الذى لم يقاوم في بعض المناسبات الآداب العامة في محيطه أو ينهزم أمامها ؟ نحن لا نشير هنا الى مجرد قمع الميول المضادة للحياة الاجتماعية السليمة ، فهذا أبعد ما يكون عن تفكيرنا . ولكننا نقصد الى مقاومة الدوافع والحاجات ، وأحيانا الى ما يبدو أنه مثل عليا اذا كان النظام الاجتماعى نفسه يفرضها بقسوة وفضاعة وبروح مجردة من العدالة . ومن منا لم يتلف أحيانا الى شئ مثل « طاقية الاخفاء » ليقى نفسه طغيان المجتمع عليه ويفلت من رقابته العنيدة ؟

اننا هنا نشعر بأن التضاد بين المجتمع البدائى الأقل تنوعا في داخله وبين المجتمع المعقد المتباين الأجزاء ، يكشف لنا ما في مبدأ التوافق بين الفرد والمجتمع من قصور كما يجعل البرهنة عليه صعبة . وذلك لأن المجتمع المعقد في العالم الحديث يتميز بالعديد من المنظمات والمؤسسات الكبيرة والروابط الاقتصادية والسياسية المنشأة على نطاق واسع التي تقوم جميعا على تقسيم الوظائف والتخصص حتى يصبح الفرد وكأنه أحد « أسنان عجلة » في آلة اجتماعية ضخمة . وتنحصر مهمته في أداء عمله بشكل آلى ، داخل دائرة تخصصه ، فلا تنهيا له الا أقل الفرص لاثهار فرديته . وهذا الكبح الذى يلقاه الانسان في حياته الحديثة كثيرا ما يتعرض له القصصيون والرسامون الكاريكاتوريون ومؤلفو الروايات، من طريق تصويرهم اما للنقد اللاذع ، أو التهكم ، أو الفكاهة . ومن ظاهية أخرى نرى الباحثين في علم النفس وعلم الاجتماع يدرسون كيف تقمع روح الابداع والقوة الخالقة عند الفرد نتيجة لمقتضيات النظام

الآلى الذى تدعو اليه الحياة المهنية الحديثة (١) . ليس فى وسعنا اذن أن نتجاهل قصور الفردية الذى تفرضه النظم السائدة . وهذا القصور ، كما سيتبين فى معظم أجزاء هذا الكتاب ، يثير مشكلة كبيرة من مشاكل الحياة الاجتماعية المعاصرة . الا أننا ينبغي أن نذكر أن الاهتمام الذى تلقاه هذه المشكلة من كثيرين من المفكرين لا يتيسر فى واقع الأمر الا فى مجتمع معقد ومتقدم تسمح نظمه بكشف امكانيات الفردية على نطاق واسع . ومما لاشك فيه أن أسلوب العمل الآلى والمشابهة وتجديد المستوى فى نواحي الحياة — وهى جميعا من الخصائص التى يسلم بها الرجل البدائى — قد أصبحت نذر سوء مخيفة عند كثير من المجتمعات الحديثة .

٣ - التحديد الاطرادى لمستويات الحياة الاجتماعية : كذلك يزعم كثير من الناس لدى ما تتعرض له مواقف الرجل المتحضر وآراؤه من تشكيل بفعل النمط العام للمجتمع الذى يعيش فيه . وربما كان هناك ما يسوغ هذا الانزعاج عندما نرى فى الولايات المتحدة الأمريكية مظاهر تحديد مستويات الحياة الاجتماعية بتأثير الاعلان والدعاية العريضة والغذاء العقلى الرتيب الذى تقدمه برامج محطات الاذاعة وانتاج صناعة السينما فى هوليوود . وقد أدت السيطرة على عقول الناس بهذه الكيفية الى تضيق الحدود التى يعمل فى نطاقها كل من المنتج والكاتب والعامل.

(١) أنظر مثلا :

K. Young, *Personality and Problems of Adjustment* (New York, 1940), Chap. XXIII; *Industrial Conflict: A Psychological Interpretation* (G. W. Hartmann and T. Newcomb, eds., New York, 1939), Part. II.

ولأبحاث أقدم من هذه فى تفسير الاخمداد المهني للفردية ، أنظر :

T. Veblen, *The Instinct of Workmanship and the State of the Industrial Arts* (New York, 1914); Stuart Chase, *Men and Machines* (New York, 1929).

والمثل ، كما حدث من آمال الجماهير وأذواقها بحيث لا تتعدى الحواجز التى أقيمت حولها (١) . وبالطبع يؤدي كل هذا الى انكماش الفردية وصعوبة تعبيرها عن نفسها . وتتضح خطورة هذه المسألة اذا عرفنا — كما لاحظ بعض الباحثين منذ عهد قريب — أن أفضل الطرق للتحقق من تأثير وسائل اقناع الجماهير وقياس النجاح فى هذا العمل لا يكونان الا باحصاء عدد الأفراد الذين أمكن دفعهم الى العمل المرغوب فيه أو تحويل تفكيرهم على النحو المطلوب (٢) .

ومنذ قرن ذهب واحد من أنصار الحرية وأكبر دعاةها الى أن « المجتمع الآن قد أفاد من الفردية أكبر افادة » (٣) . ولكننا نلمس اليوم، بشكل أوضح مما كان فى زمان مل ، فقدان كل أمل فى أى توافق كامل بين الفردية والمجتمع . ومع ذلك لا تزال الوقائع الجوهرية الآتية ماثلة أمام أعيننا : (١) فالمجتمع شرط أساسى لنمو الفردية — وفى الواقع المجتمع شرط لكل رضا نشعر به أو نسعى اليه أو حتى نحلم به ، (٢) وكلما نمت الفردية ازداد الأخذ والعطاء بينها وبين المجتمع .

**الفردية و « المذهب الفردى » :** ستركز مناقشتنا فى هذا المطلب حول العلاقة المتبادلة بين الفردية والمجتمع . ويلاحظ أننا لم نستخدم فى هذا الموضوع الاصطلاح « المذهب الفردى » كذلك لم نقصد ونحن نضع مبدأ العلاقة بين الفردية والمجتمع أن نجعله مشتملا على الدفاع عن الدعاوى الكثيرة التى يثيرها البعض باسم المذهب الفردى .

(١) نوقشت هذه المشكلة من وجهات نظر متعددة فى :

*Print, Radio and Film in a Democracy* (D. Wapples, ed., Chicago, 1949); and in the report of the Commission on the Freedom of the Press, *A Free and Responsible Press* Chicago, 1947).

«R.K. Merton, *Mass Persuasion*» (New York, 1946), p. 185. (٢)

J.S. Mill, *On Liberty*, Chap. III. (٣)

ونحن نقرر من دون أى مبالغة تاريخ المجتمع الغربى خلال القرون الثلاثة الماضية أو أكثر قد سجل مكاسب اجتماعية ضخمة نتيجة لحركات اتباع المذهب الفردى المضادة للسلطات الدينية والسياسية والاقتصادية. وهذا الصراع الذى نربطه بأسماء بعض الأعلام من أمثال جون لوك وآدم سميث وجيريمى بنتام وتوماس جيفرسون ، كانت له نتائج بعيدة المدى — وسعت من امكانيات الفردية فى الحياة الاجتماعية . ولا يعزب عن البال أن المذهب الفردى ، كما يتصوره كثيرون من دعاة فى الوقت الحاضر ، هو فى الأغلب دعوى من جانب واحد تتجاهل الجانب الآخر وهو المجتمع وما بينه وبين الفردية من علاقة متبادلة أساسية بالنسبة للثلاثين . وهذه النقطة أثارت أ.د. لندسى فكتب بشأنها فى دائرة معارف العلوم الاجتماعية ما يلى :

« ان المذهب الفردى كفلسفة كاملة متناسقة للحياة الاجتماعية لابد بالضرورة أن ينهار . وليس فى وسع انسان أن يكون فرديا مطلقا ، كما أنه ليس فى وسع انسان أن يكون اشتراكيا ( جماعيا ) مطلقا . وذلك لأن كلا من الفرد والمجتمع يؤثر فى الآخر ويعتمد على الآخر ، وحتى الذين تطرفوا فى الفردية الدينية ورفعوا قيمة الشخصية الانسانية فوق جميع النظم السائدة فى المجتمع مضطرون للاعتراف بالدور الذى يلعبه المجتمع والنظم السائدة فى تنمية الفردية ودعمها . ويبين تاريخ الفكر أن المذهب الفردى مفيد كل الفائدة ما دامت الفردية ينظر اليها كشيء ينبغى توفيره وتحقيقه . ولكن اذا كان المقصود بالفردية ، كما جاء فى كثير من نظريات المذهب الفردى ، شيئا يعطى ويدافع عنه ( ضد المجتمع ) ، لفقد المذهب الفردى قوته الخالقة وأصبح من غير الممكن تمييزه عن الأناية » (١)

(١) بقلم A. D. Lindsay فى : *Encyclopaedia of the Social Science*

Vol. 7 Copyright, 1932, by The Macmillan Company.

هذا النص منقول باذن من الناشرين .

ومهما يكن من شيء فسنعالج بالتفصيل ملاسبات مبدأ التوافق بين الفردية والمجتمع ومدى قصوره فى فصول تالية . وبينما يظل اهتمامنا مركزا حول العلاقة بين الفرد والنظام الاجتماعى ، أو بين الجزء والكل ، فينبغى أن نعرض بايجاز لبعض الأبحاث الهامة المتصلة بالموضوع الذى نحن بصددده اتصالا مباشرا .

## « الثقافة » والشخصية

مركز الاهتمام فى دراسة الثقافة والشخصية : تقوم فى كل أنحاء العالم مجتمعات تتألف من أقوام نسميهم أحيانا « معاصرنا البدائيين » . وهذه المجتمعات فى العادة زمر صغيرة لاتزال بعيدة نسبيا عن حضارتنا ، هؤلاء الأقوام الذين يختلفون عن الهنود الأمريكيين « هوبى » ، وسكان جزر اندمان بالمحيط الهندى ، قدموا لعلم الانسان مجالا للتحقيق العلمى لم يسبق أن ادعته لنفسها العلوم الاجتماعية الأكثر قدما . مستكشفو هذا الميدان هم الأنثروبولوجيون « الاجتماعيون » أو « الثقافيون » الذين نقلوا إلينا بالتفصيل خلال عدة سنين المعاول والنظم الاجتماعية السائدة والآداب العامة والمعتقدات التى شاهدهوها أو شاهدوا مظاهرها عند عدد كبير من الشعوب البدائية . وقد اختار الأنثروبولوجى الاصطلاح العام « الثقافة » للدلالة على كل ما صنعه أى شعب من الشعوب أو أوجده لنفسه — من مصنوعات يدوية ومحرمات ونظم اجتماعية سائدة وأدوات ومعاول وأسلوب للتعبد . وباختصار كل ما صنعه الانسان أينما وجد ، يطلق عليه الأنثروبولوجى اصطلاحه هذا ، الذى هو اسم جنس تنفرع عنه مفرداته <sup>(١)</sup> . واذن فكلمة « الثقافة » عند الأنثروبولوجى تعنى مجمل التراث الاجتماعى للبشرية ، بينما عبارة « ثقافة ما » تعنى

(١) قارن : R. Linton, *The Study of Man* (New York, 1935), p. 78

التراث الاجتماعى لشعب معين . وهذا الاصطلاح سنستخدمه فيما بعد، فى هذا الكتاب بمعنى أكثر تحديدا كأداة تحليلية أكثر دقة . أما فى البحث من هذا الفصل المتقدم فائنا نستخدم المعنى الأثروبولوجى<sup>(١)</sup>.

أدرك الأثروبولوجيون ادراكا تاما خلال دراستهم للشعوب البدائية وثقافتها ، علاقة الفرد الوثيقة بالثقافة نفسها . وقد أيقنوا أن أى فهم واف لشخصية الفرد أو للمركب الاجتماعى أو الثقافى الذى هو جزء منه، يتطلب تحليلا دقيقا للعلاقة المتبادلة بين الجزء والكل وتوقف كل منهما على الآخر ، وقد ظهر أن المشكلة الرئيسية عند كثيرين من هؤلاء الباحثين هى نفسها المشكلة الرئيسية التى واجهت علم الاجتماع نفسه سنوات عدة ، ألا وهى العلاقة بين الفرد والنظام الاجتماعى . وقد علق أحد الكتاب على هذا تعليقا جارفا بلا سند علمى ، قائلا فى مبالغة : « ان المعنى الدقيق للشخصية والثقافة ينحصر فى أنهما لا يمهدان السبيل لخلق مجال جديد للدراسة والما يشيران الى مجال قائم بالفعل تشترك فيه كل العلوم الاجتماعية<sup>(٢)</sup> . ونحن لا نستطيع أن نقبل هذا التعليق بحذافيره ، وكل ما يمكننا أن نقوله أننا بالتأكيد نوافق فقط على أن العلاقة بين الشخصية والثقافة ينبغى أن توضع فى المحل الأول عند جميع السوسيولوجيين والأثروبولوجيين الاجتماعيين والباحثين فى علم النفس الاجتماعى<sup>(٣)</sup> .

(١) لمناقشة معانى الثقافة المختلفة أنظر :

C. Gluckhohn and W. H. Kelly, "The Concept of Culture", *The Science of Man in World Crisis* (R. Linton, ed., New York, 1945), pp. 78-105.

R. S. Lynd, *Knowledge for What?* (Princeton, 1939), p. 52. (٢)

E. Linton, *The Cultural Background of Personality* (New York, 1945), Introduction. (٣) قارن :

تتضمن العلاقة بين الثقافة والشخصية ، من جهة ، التراث الاجتماعى الشامل المحيط بالفرد ، والذي تستجيب له سواء بطريقة شعورية أو لا شعورية . ومن جهة أخرى الصفة الكاملة للفرد . والشخصية كما نفهمها هى كل ما مر بالفرد من تجارب فى الماضى والحاضر بشرط أن يفهم هذا الكل كوحدة . وعلى هذا الأساس فالشخصية اصطلاح أعرض مدلولها من الفردية . وذلك لأن الشخصية تستوعب هذا « الكل المنظم من العمليات الاطراذية والحالات النفسية المتعلقة بالفرد » (١) . ان التقاء الثقافة بالشخصية يذكرنا بأن النمط العام لأية ثقافة يحدد أكثر من أى عامل آخر الخطوط الرئيسية للشخصيات الفردية . وهذه بدورها تفصح عن النمط الثقافى وتعمل جاهدة على استمراره .

ولسنا نحب أن يفسر القارىء هذا التأكيد بأن يظن أنه ينطوى على علاقة آلية أو جبرية محكمة بين الثقافة والشخصية ، ولعله يستعيد الى ذاكرته فى هذا الشأن مناقشتنا السابقة للفردية اذ تعتبر جانباً من جوانب المشكلة الحالية ، وفيما يلى ماكتبته عالمة من علماء الأثروبولوجيا أسهمت بتحقيقاتها اسهاماً جدياً فى فهمنا للدور المتبادل بين الثقافة والشخصية :

« لا يعتقد أثروبولوجى ذو خبرة بثقافات الشعوب المختلفة أن الأفراد أجهزة تتحرك تلقائياً بطريقة آلية منفذة أحكام حضارتها . ولم تدل المشاهدات بعد على أن ثقافة ما استطاعت أن تستأصل الفروق المزاجية للأشخاص الذين تتكون منهم . فالأمر أخذ وعطاء فيما بينهم . وليس فى الامكان ايضاح مشكلة الفرد من طريق تأكيد الخصومة بين الثقافة وبينه ، بل بتأكيد الطرق التى يصطنعها كل منهما لتقوية الآخر .

---

(١) انظر نفس الكتاب ، ص ٨٤ .

وهذه العلاقة وثيقة جدا الى حد استحالة مناقشة أنماط الثقافة دون مراعاة لعلاقتها بعلم النفس الفردي « (١) .

**دراسات الثقافة والشخصية :** سجل الأنثروبولوجيون اكتشافات متتالية للعلاقة الوثيقة بين أنماط الثقافة ومظاهر الشخصية ، التي وجدت عند ال : زوني الهادئين الوادعين والميالين للتكاف من أهل الجنوب الغربى ، وعند ال : كواكيوتل المتطرفين ونزعتهم الفردية ورغبتهم فى المنافسة من أهل الشمال الغربى، وكلاهما فى الولايات المتحدة الأمريكية، وعند أهل دوباو بالقرب من غينا الجديدة ، المشهورين بالتشكك والتشاجر، وعند ال : كومانش (٢) المعروفين بحب العمل والشجاعة والديموقراطية ، وعند كثيرين غير هؤلاء . وليس بمستغرب أن تدعو هذه الاكتشافات بعض الأنثروبولوجيين لأن يروا أن العلاقة المشار إليها ذات أهمية مباشرة بالنسبة لعلماء النفس . وذلك لأن الاكتشافات التى أعلنت هى بمثابة « أدلة معملية » على الدور الكبير الذى تلعبه الثقافة ، لا من حيث تأثيرها فى السلوك فحسب ، بل من حيث تشكيلها لتركيب الشخصية نفسه . فها هنا مجال لاجراء الاختبارات لفحص بعض المبادئ النفسية الكثيرة المظنون امكان تطبيقها على سائر المجتمعات الانسانية .

١ - الأدلة الأنثروبولوجية : يمدنا التحقيق العلمى فى كل مجتمع بدائى بأدلة جديدة على الطرق التى تتيح للتكيف والتقليد والايحاء ، اذ تجتمع فى أساليب تربية الأطفال ، أن تنتج أفرادا ذوى مصالح ومواقف متناسقة مع المطالب الثقافية . وكل مجتمع كما ظهر من هذه الأدلة « يحقن » أعضائه الجدد بما يقرر من مستويات للخير والشر

---

(١) R. Benedict, *Patterns of Culture* (Boston, 1934), pp. 253-254. Reprinted by permission of the publishers, Houghton Mifflin Company.

(٢) فى جنوب غربى الولايات المتحدة الأمريكية .

أو آداب عامة أو قيم لها مكانة النظم السائدة . وقد وجد في داخل المجتمع بعض الأفراد ممن تنحرف شخصياتهم وسلوكهم بشكل ملحوظ عن المعايير الثقافية ، حتى أن أقرانهم يعتبرونهم « نشازا » على نحو ما ( . وان كنا في بعض الحالات نرى المجتمع يقر هذا الانحراف الجامح عن المستويات المرعية مثلما يحدث عند المتطبين ومن يزعمون حلول العفاريات في أبدانهم ، في كثير من المجتمعات البدائية ) . وهذه الأشكال الخاصة للسلوك ، العادى أو المنحرف ، تختلف اختلافا كبيرا من مجتمع لآخر ومن ثقافة لأخرى . ويبدو هذا واضحا في المجتمعات البدائية والمتحضرة على السواء ، حتى أن نسبية الثقافة أضحت مبدءا جوهريا في دراسة النظم الاجتماعية وتركيب الشخصية . هذا المبدأ والأخذ بفكرة أن كلا من الثقافة والشخصية يمكن أن يدرس ككل ، وأنها ينبغي أن ينظر إليهما من حيث علاقة كل منهما بالآخر ، من الخصائص البارزة في مراجع الأنثروبولوجيا ، وربما على الأخص في تحقیقات المرحوم الأستاذ برانسلاو مالينوسكى <sup>(١)</sup> . وفي سنة ١٩٣٧ بدأ الأنثروبولوجى ريلف لينتون والمحلل النفسى ايرام كاردنر سلسلة من الاستكشافات المشتركة عن العلاقة بين الثقافة والشخصية من طريق الدراسة التفصيلية للتقارير المكتوبة عن عدة مجتمعات بدائية وقرية أمريكية حديثة <sup>(٢)</sup> . وقد برهنت هذه الدراسات بطريقة مقنعة — رغم نقدها المنصب على بعض تفسيراتها موضع النقاش — أن كل ثقافة تميل الى أن تنتج ، كما

(١) أنظر مثلا : B. Malinowski, *A Scientific Theory of Culture and Other Essays* (Chapel Hill, 1944)؛

وأنظر للتعليق على أهمية دراسات مالينوسكى فى مجال الثقافة

والشخصية : A. Kardiner, *The Psychological Frontiers of Society* (New York, 1945), Foreword by R. Linton.

(٢) هذه الدراسات موضحة فى : *The Psychological Frontiers of Society*

ومن قبل فى : A. Kardiner, *The Individual and His Society* (New York, 1939).

تستند الى نموذج اساسى للشخصية يتكون من مركب خصائص الشخصية « المتفقة مع المدى الشامل للنظم السائدة .. فى داخل ثقافة ما » . وهذا النموذج الاساسى للشخصية ، الذى يتحقق عند العدد الأكبر من أفراد مجتمع محدد بالذات وليس بالضرورة عند أفراد هذا المجتمع جميعا ، هو نتيجة للتجارب المبكرة فى مرحلة الطفولة والمتشابهة ثقافيا ، وليست بأى معنى مباشر نتيجة الفرائز أو الدوافع الفطرية أو القوى الأساسية .

أنظر مثلا الى السكان الأصليين فى جزر ماركساس حيث لم يكشف أى دليل تقريبا على أن للدافع الجنسى دورا اجتماعيا خطيرا كما لوحظ فى مجتمعنا نحن ، أو كما يفسر بنظريات فرويد وأتباعه ، باعتباره أساس الأمراض العصبية . ونحن نعلم أن سكان جزر ماركساس قلما يهتمون بالمسائل الجنسية ، فليس فى لغتهم كلمة للمذرة « البكارة » ، وسلوكهم الجنسى لا يقتزن الا بالنزr اليسير من العاطفة . ومن جهة أخرى ، يبدى هؤلاء السكان كثيرا من القلق — حتى انهم فى عرفنا يعتبرون مرضى بالأعصاب — لسبب ندرة الطعام وخطر التعرض لأن تؤكل لحومهم . وهذه مظاهر قلق مفهومة عند الشعوب التى تعانى القحط الموسمى وتمارس أكل لحوم البشر . ويعلق لنتون على هذا كله بقوله : « ان حول مظاهر القلق هذه أنواع مختلفة من المحرمات والقواعد تتصل بالحياة الجنسية كما هى الحال فى مجتمعنا الغربى » (١) .

أو فليتأمل القارىء حالة مجتمع الور الصغير فى الهند الشرقية الهولندية . هذا الشعب الزنجى المحدود يخاف بعضه بعضا بوجه عام ، لا يثق أفراداه بأحد يفتخرون الى روح العمل والى الطموح ، كل فرد من

R. Linton, "Potential Contributions of Cultural Anthropology to (١)

Teacher Education", in *Culture and Personality* (Washington, D.C. 1941), p. 5.

أفراده راغب في استغلال الآخرين ، والاعتداء بعنف عندهم من المظاهر العادية والطبيعية وهو مما يعد في مجتمعنا شذوذا لا يقع الا من أشخاص اختلت قواهم العقلية . وهذه الخصائص ، بناء على ما ذكره الباحثون ، تمثل الشخصية الأساسية للشعب الالورى . وعلى حد قول كاردنر يفسر الوضع كله بأنه تفاعل لمقومات الثقافة تتج عن اهمال المهمات لأطفالهن وذهابهن للعمل في الحقل . وهذا التركيب المعين للشخصية الأساسية يساند بدوره ثقافة الورا الاستغالية ، والتي هي في جوهرها غير تعاونية . وقائمة على المنافسة المالية (١) . وتفسر بنفس الطريقة الشخصية الأساسية عند شعوب أخرى متنوعة مثل قبائل التانالا والكومانش وسكان بلينفيل في الولايات المتحدة الأمريكية — وفي كل مجتمع من هذه المجتمعات يلاحظ مبدأ الأخذ والعطاء بين الثقافة ونموذج الشخصية . وتمدنا هذه الدراسات الأثنوبولوجية بالبرهان المفصل على الوحدة الجوهرية للفرد والمجتمع .

دراسات في الثقافة « عن طريق الشخصية » : رأينا توا أن تنوع نماذج الشخصية الأساسية لا يفهم الا بالرجوع الى الثقافات التي ترتبط بها النماذج المختلفة . واذا فالاجتماعى المتخصص يواجه فكرة امكان دراسة ثقافة معينة بتركيز بحثه في من تغمرهم هذه الثقافة ، أى بأن يتخذ كمادة أولية لهذا البحث ما يبدو على أفراد المجتمع من مظاهر الشخصية ، وبعبارة أخرى فان المركب المكون من الشخصية والثقافة وما بينهما من علاقة متبادلة يمكن أن ننفذ اليه « من طريق الشخصية » ويشغل علماء

---

Cora Du Bois reports this group in *The People of Alor*. (Minneapolis, (١)  
1924) and in *The Psychological Frontiers of Society*, Chap. V.

أنظر للتحليل الذى قدمه كاردنر ، هذا الكتاب الثانى ، الفصول

الاجتماع أنفسهم بهذا النوع من البحث منذ عشرات السنين ، وان كانوا يستخدمون له اصطلاحات غير التى نستخدمها نحن هنا .

وأهم الدراسات التى قام بها الاجتماعيون فى هذا الشأن ربما كانت الفلاح البولندى فى أوروبا وأمريكا على يد و . أ . توماس وفلوريان زنالكى ، وهى عبارة عن تقرير متضمن خمس مجلدات يشتمل على تفسير علمى للأسرة الريفية والحياة الجمعية وما طرأ عليهما من تغير نتيجة للتصنيع الحديث وهجرة الفلاحين البولنديين الى ألمانيا والولايات المتحدة . ونظرا لأن بحثنا هذا يتضمن مناقشات طويلة حول المشاكل والنظرية والمنهجية ذات الأهمية القصوى لكل من علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى ، فقد آثرنا أن نرجع هنا الى الدراسة التى تعاون على القيام بها توماس وزنالكى لاستخدامها استخداما شاملا « الوثائق الانسانية » . فى بحث الشخصية والثقافة . فالرسائل والمقالات الصحفية وسجلات المحاكم وتقارير الهيئات والجمعيات ، وعلى الأخص تاريخ حياة الأفراد مع تضمنه المذكرات الشخصية حول هذا الموضوع ( المجلد الثالث كله يتعلق بمذكرات من هذا النوع لمهاجر من الفلاحين وتفسير للوقائع ) كل أولئك تكشف عن حياة الأفراد — مواقفهم ومصالحهم وتمصّبهم ومشاكلهم الشخصية ، وما يجيش فى صدورهم من آمال وكذلك ما يحسون وطأته من قيود اجتماعية . وقد استطاع المؤلفان بمعاونة هذه المادة الفنية أن يفسروا من جهة تكوين الشخصية وتفككها واعادة تكوينها ، ومن جهة أخرى النسق الاجتماعى المتغيرة بسبب الأحوال الجديدة . ومهما وضع فيما سعى المؤلفان الى تحقيقه من وجوه نقص فى ضوء التقدم العلمى الحديث ، فإن مما لا شك فيه أنهما قدما لنا مثالا رائعا لمحاولة فهم تفاعلات « الثقافة » وأنماط الشخصية من طريقه

«الاهتمام بالمظاهر التفصيلية لسلوك الأفراد»<sup>(١)</sup>. ومنذ نشر كتاب «الفلاح البولندي» ضاعف السوسيولوجيون هذه المحاولة ، كما سنيين في مناسبات عديدة في هذا الكتاب فيما بعد ، عند تعرضنا للنواحي المختلفة للحياة الاجتماعية . فاشتمل عملهم على دراسة الدوائر المكانية للمدن الحديثة حيث يشيع التفكير الاجتماعي والثقافي ، وذلك باستخدام تاريخ حياة الأفراد الذين لحقهم التفكير والحالات الخاصة بهم . وكذلك حللوا الأنماط المتغيرة للأسرة بواسطة فحص مشاكل الشخصية عند أفرادها . ثم صوروا مظاهر الصراع الاجتماعي والثقافي بين الأقليات يدرس تاريخ حياة أعضائها . وفي هذا المجال وغيره من المجالات يحاول المختصون في العلوم الاجتماعية منذ عشرات السنين أن يسلكوا السبيل الذي رسمه لهم وأكد أهميته القائلون بمنفذ أو منهج دراسة الثقافة والشخصية<sup>(٢)</sup> .

وهناك أبحاث عديدة توضح الجهود المبذولة في الوقت الحاضر لدراسة الثقافة « من طريق الشخصية » ، وتدور حول الانقسام الطائفي بين السود والبيض في الولايات المتحدة الأمريكية ، وحول التركيب

---

(١) ظهر كتاب W. I. Thomas and Florian Znaniecki, *The Polish Peasant in Europe and America*

أول ما ظهر في بوسطن عام ١٩٢٠ - وللإطلاع على تحليل تفصيلي لهذا الكتاب أنظر :

H. Blumer, *Critiques of Research in the Social Sciences I* (New York, 1939)؛

وأنظر بصفة خاصة التقييمات التي قدمها :

G. W. Allport, Blumer, M.M. Wiley, C.P. Murdock, R. Bain.

(٢) لمناقشة بعض المشاكل المنهجية المتضمنة في مثل هذا النوع من

البحث وللإطلاع على مادة إيضاحية ممتازة أنظر : L. Cottchalk, C. Kluckhohn, and R. Angell, *The Use of Personal Documents in History, Anthropology and Sociology* (New York, 1945), especially pp. 177-232.

الطبقي في داخل هاتين الزمرتين . ونحن نعرف أن أحد من وضعوا بعض هذه التقارير المبكرة ، وكان متخصصا أصلا في علم النفس ، حلل المادة المتعلقة بتاريخ حياة الأفراد بغية استخلاص المظاهر الرئيسية في تركيب الجماعة المحلية لمدينة في جنوب الولايات المتحدة . وكانت طريقته أن يستقبل الأفراد كلا على حدة ، ويقوم بإجراء التحليل النفسي عليهم مستخدما وسائل أخرى خاصة لاستكشاف ووصف التركيب العاطفي الذي يلائم التركيب الاجتماعي للجماعة ويتفق معه . هذا التقرير الذي كتبه جون دولارد (١) . وغيره من الأبحاث التي تلتها مستخدمة نفس المنهج ومؤكدة مثله أهمية استخدام المادة المتعلقة بالشخصية كمعلومات قوية الدلالة في الكشف عن مكنونات النفس ، قد أكدت بما لا يدع مجالا للشك تلك العلاقة الوثيقة بين التركيب الاجتماعي ونماذج الشخصية . وقد ثبت هذا بنوع خاص عندما لوحظ أن نماذج الشخصية تختلف تبعا لارتباطها إلى طبقة عليا ، أو وسطى ، أو دنيا ، من طبقات المجتمع ، مع انطباق هذه القاعدة على البيض والسود على السواء . وأكثر من ذلك فقد وجد أن كلا من الحواجز المغلقة المحيطة بالنظام الطائفي ، والخطوط المفتوحة الممكن اجتيازها حول النظام الطبقي ، لها صداها وتستند إلى تأييد من شخصيات الأفراد الذين يحتلون المراكز الاجتماعية المختلفة في داخل جماعاتهم المحلية . وعلى كل حال لا تقتصر بالطبع العلاقة المتبادلة بين التركيب الاجتماعي والشخصية على سكان المدن الجنوبية كما ثبت من نتائج الأبحاث الأخرى التي أجريت في

(١) John Dollard, *Caste and Class in Southern Town* (New Haven, 1937), p.17.

فلينظر القارئ الفصل الثاني من هذا الكتاب لمناقشة موجزة للمنهج . وكذلك ما كتبه قبل ذلك نفس المؤلف في نفس الموضوع بشيء من التفصيل ،

*Criteria for the Life History* (New Haven, 1935).

في :

نيوانجلاند وغيرها بالولايات المتحدة الأمريكية (١) . وسنتهم في أحد  
الفصول الأخيرة من هذا الكتاب بإيراد بعض هذه الأبحاث في النظامين  
الطائفي والطبقي . وما ورد بشأنهما حتى الآن قصدنا به الى أن نوضح  
توقف كل من الثقافة والشخصية على الأخرى .

بعض الصعوبات في طريق دراسة الثقافة والشخصية . حينما يضرب  
الأنثروبولوجي أو عالم الاجتماع المقارن خيمته في جماعة محلية صغيرة

---

(١) بالإضافة الى ما كتبه دولارد تحت عنوان Caste and Class in a Southern Town أنظر :

A. Davis and J. Dollard, *Children of Bondage* (Washington, D.C., 1940);  
H. F. Frazier, *Negro Youth at the Crossways* (Washington, D. C., 1940);  
C. S. Johnson, *Growing Up in the Black Belt* (Washington, D.C., 1941); W. Lloyd  
Warner, B. H. Junker, and W. A. Adams, *Color and Human Nature* (Washington,  
D.C., 1941); R.L. Sutherland, *Color, Class and Personality* (Washington, D.C.,  
1942); A. Davis, B.B. Gardner, and M. R. Gardner, *Deep South* (Chicago, 1941);  
and for New England's "Yankee City" see W. Lloyd Warner and F.P.S. Lunt,  
*The Social Life of a Modern Community* (New Haven, 1941); W. Lloyd Warner  
and L. Srole, *The Social Systems of American Ethnic Groups* (New Haven, 1943).

( المؤلفان )

ويلاحظ أن الأستاذ W. Lloyd Warner في كتابه الأحداث الموسوم :  
Democracy in Jonesville (Harper & Brothers, New York, 1949)

يتزعم الأنثروبولوجيين الاجتماعيين في مد مجال دراستهم ليشمل  
المجتمعات الصناعية المتميزة بنظامها الطبقي . وهو يعلن في أكثر كتبه أن  
دراسة الأنثروبولوجيين الاجتماعيين للمجتمعات البدائية لم تكن مقصودة  
لذاتها وإنما لزيادة فهم المجتمعات الحديثة ، الأوروبية والأمريكية ، وأنهم  
إذا كانوا قد صرفوا وقتا طويلا في دراسة الأولى فقد فعلوا ذلك لسرعة  
تسجيل طبائعها قبل أن تنقرض ازاء الحضارة الغربية الجارفة . ومما  
يذكر أن وورنر كان تلميذا لرادكليف براون الأنثروبولوجي الاجتماعي  
البريطاني وكلاهما يطلقان على مادتهما اسم علم الاجتماع المقارن وقد أوضحا  
ذلك صراحة في أكثر كتاباتهما .

- المترجم

منعزلة نسبيا من جماعات ميلانيزيا أو سكان استراليا الأصليين أو الاسكيمو . ويشرع في اجراء مشاهداته العلمية بعناية ، وربما يشاركهم أيضا حياتهم الاجتماعية ، يستطيع أن يرى « ثقافتهم ككل » إذا جاز لنا أن نستخدم هذا التعبير . وهو يستطيع زيادة على ذلك أن يسجل تسجيلا موضوعيا بقدر الامكان الطرق التي تؤثر بها كل من الشخصية والثقافة في الأخرى أو تسند بها الأخرى في المجتمع الذي يدرسه . ويكون لدى الأنثروبولوجي في هذه الحالة الفائدة المزدوجة التي ترجع الى ادراكه الحياة الاجتماعية في شمولها وبقائه في نفس الوقت منفصلا عاطفيا عن قيم الثقافة البدائية المتميزة بضغطها على الفرد ، ولكن عندما ينتقل الأنثروبولوجي الى مجتمعه الخاص الغربى يفقد هذه المزايا . فهو حين يشترك مع السوسيولوجي والمتخصص في علم النفس الاجتماعى في بحث الثقافة والشخصية في جماعته المحلية يلتقى بنظام اجتماعى مترامى الأطراف يمتاز بتعقده ، وبقيم ثقافية بعضها على الأقل قيمه الخاصة ، وب نموذج للشخصية ( أو نماذج منها ) هو نفسه مثال منها . ومع ذلك فنحن نجد وزملاءه من المتخصصين في العلوم الاجتماعية شاعرين بالحاجة الى فهم تعقيدات المجتمع المتحضر <sup>(١)</sup> بدرجة لا تقل عن فهمهم لأنماط الثقافة والشخصية عند مجتمعات تانالا وكومانش وزونى . وقد دعت هذه الحاجة متخصصى العلوم الاجتماعية الى أن يستجيبوا لها للأسباب المتقدمة في صورة هذا الاهتمام البالغ الذى يظهره في استكشافات المجتمعات الحديثة التى نعيش فيها وغيرها من المجتمعات <sup>(٢)</sup> . ونظرا

(١) ما دامت تمثل ناحية من الطبيعة الانسانية التى تعمل العلوم الانسانية على اماطة اللثام عنها .

#### — المترجم

(٢) هذا الاتجاه نحو الدراسة المقارنة للمجتمعات الانسانية قد ظهر أول ما ظهر عند الأنثروبولوجيين الاجتماعيين أولا بمقارنة المجتمعات البدائية =

للسعوبات الهائلة التي تعترض سبيل دراسة ثقافة الولايات المتحدة مثلا بأسرها ككل ، تلك الصعوبات التي لم تعزب عن بال الباحثين الحقلين ، فقد أثر هؤلاء أن يختاروا جماعات محلية صغيرة نوعا ما بغية دراسة تفاعلاتها الثقافية كأهم ما عنوا به ، ثم بحث خصائص تركيب الشخصية كمبحث أقل قليلا في الأهمية من المبحث الأول . ومن بين أخطر الدراسات التي من هذا النوع اثنتان تتعلقان بمجتمع « ميدلتاون » ، نشرتا في عامي ١٩٣٠ ، ١٩٣٧ ، وفيهما استخلص المؤلفان ثقافة مدينة صغيرة ، ربما تعتبر ممثلة لكثير من المدن الصغيرة في أواسط الولايات المتحدة وذلك باستخدامهم أدوات البحث التي يستخدمها عادة الأنثروبولوجي الحقل . وقد لقيت الأنماط الثقافية في هذين المجلدين عناية كبيرة ، إلا أن أحد المؤلفين وهو روبرت س . بند ، حلل في بحث لاحق التأثير المتبادل بين الثقافة والشخصية بشيء من التعميم وبالإشارة الى مناطق أكثر اتساعا في الحياة الأمريكية <sup>(١)</sup> . ومدينة مدلتاون التي تقع في ولاية انديانا يبلغ عدد سكانها خمسين ألف نسمة تقريبا ، مما يجعلها جماعة محلية كبيرة معقدة نوعا ما . وقد قام الأنثروبولوجي و . لويد وورنر بدراسة مماثلة ، ولكنه لكي يحدد مجال بحثه بطريقة عملية تجعله صالحا للدراسة صلاحية تامة ، وتمكنه من بحث الثقافة في بيئة ذات صناعة نامية ومحتوية على

---

= فيما بينها كما فعل رادكليف براون مثلا في دراسته للقبائل الاسترالية واثانيا بمقارنة المجتمعات البدائية بالمجتمعات المتحضرة كما فعل تلاميذ رادكليف براون من الباحثين الأمريكيين مثل جون أمبري وورنر وتلاميذه من المصريين مثل المترجم .

— المترجم

(١) أنظر :

R. S. and H. M. Lynd, *Middletown* (New York, 1930) and *Middletown in Transition* (New York, 1937); and R.S. Lynd, *Knowledge for What?* especially Chaps. III and V.

عدة زمر من الأقليات — وهذه جميعا مظاهر بارزة في كثير من المدن الأمريكية — نراه قد أقدم هو وآخرون على دراسة مفصلة في التفصيل تشرح التركيبات العامة للطبقات والأجناس البشرية والمكانة الاجتماعية في « يانكي سيتي » ، وهي إحدى جماعات نيوانجلاند يبلغ عدد سكانها ١٧٠٠٠ نسمة (١) . وهذه الأبحاث جميعا تصور العلاقات بين الثقافة والشخصية على الأقل في منطقة واحدة حضرية بالولايات المتحدة (٢) ، وقد سارت جنبا الى جنب مع الدراسات التحليلية ، التي سبقت الإشارة اليها للنظامين الطبقي والطائفي . وقد ورد ذكر دراسة الثقافة والشخصية التي قام بها كل من لتون وكاردنر في وصف حديث لثقافة « بلينفيل » ، وهي قرية صغيرة يبلغ عدد سكانها أقل من ثلثمائة نسمة وتقع على الحدود بين الشمال والجنوب في الولايات المتحدة الأمريكية وتأخذ الاكتشافات التي وصل اليها هذان الباحثان مكانها بين الأنثروبولوجيا

---

(١) الواقع أن بروفيسور وورنر وزملاءه لم يذكروا الاسم الحقيقي للمدينة التي درسوها وأطلقوا عليها هذا الاسم المستعار « يانكي سيتي » .  
أنظر : W. Lloyd Warner and Paul S. Lunt, *The Social Life of a Modern Community* (New Haven, Yale University Press, 1941), p. 40.

وهذا ما فعله أيضا بالنسبة للمدينة التي أطلق عليها اسم Jonesville  
المستعار . أنظر : W. Lloyd Warner, *Democracy in Jonesville* (Harper and Brothers, 1949), pp. XIV and XV.

وهذه على كل أبحاث تصور حقيقة الحياة في عدة مدن أمريكية . والكتاب الثاني يصور حياة سكان الولايات المتحدة الأمريكية جميعا على حد تعبير وورنر .

— المترجم

(٢) أنظر :

Warner and Lunt, *op. cit.*; Warner and Srole, *op. Cit.*; also W. Lloyd Warner and P. S. Lunt, *The Status System of a Modern Community* (New Haven, 1942); and for an account of one aspect of "Yankee City." W. Lloyd Warner and J.O. Low, *The Social System of the Modern Factory* (New Haven, 1947).

والتحليل النفسى ولكنها ليست قاطعة أو نهائية — ولا تهنا فى هذه النقطة التى نعالجها الا من حيث كونها مثالا آخر للتحقيق الشامل لجماعة محلية (١) .

ونحن اذ فوصى القارئ بهذه الأبحاث السوسولوجية المشرة ينبغى فى نفس الوقت أن توجه نظره الى بعض نواحي القصور فيها . فلنذكر أن كلا من هذه الجماعات المحلية التى درست — سواء آكانت « مدلتاون » أم « سذرتاون » أم « بلينفيل » — جزء من مركب ثقافى أكثر اتساعا ، يشتمل على النظام الاجتماعى الشامل للمجتمع الأمريكى على الأقل . هذا النمط الأعم يتفرع ويتفاعل مع التركيب الاجتماعى للمدينة أو القرية المحلية بكيفيات متعددة . ولم ينس أحد من الباحثين هذه الحقيقة نسبانا تماما ، غير أن دراسة الجماعة المحلية تميل الى استبعاد العلاقات المتبادلة بين الثقافة المحلية والنمط الأعم . ان فهم الجماعة التامة التكامل فى « يانكى سيتى » مثلا لا يقتضى أن نكتفى بأن نوضح فى أشكال ورسوم التفاصيل المقررة عرفا وغير المقررة للتركيب الاجتماعى للمدينة ، وذلك لأن هذا التركيب لا يمثل لسقا مغلقا للحياة الاجتماعية كذلك النسق الذى نراه أحيانا فى المجتمعات البدائية . ولنذكر كذلك أن هذه الطريقة المستخدمة بصفة خاصة فى دراسة « الجماعات المحلية الصغيرة » تميل الى أن تهمل الدور الثقافى البالغ الأهمية الذى تقوم به على نطاق واسع العملية الاطرادية لنشر التمدن أو التحضر ، تلك العملية التى نلاحظها بوضوح فى المدينة الكبيرة ووظيفتها الكبرى اقامة « المظهر الثقافى العام » الغالب على حياتنا الاجتماعية كلها . والى جانب كل هذا نرى أن الاهتمام بالطرق التى تعمل فيها الجماعة المحلية الصغيرة وتنظم نفسها بمقتضاها كنسق اجتماعى ،

---

See under the pseudonym "James West", *Plainville, U.S.A.* (New York, 1945); and *The Psychological Frontiers of Society*, Chaps. X & XIII.

من الممكن أن يطنى على العوامل التاريخية الديناميكية التى يدونها  
لا يكون من الميسور قيام أى كيان للثقافة أو الشخصية ، أو فهمها فى  
آخر الأمر . ومع ذلك فهما كان هناك قصور فى هذه الدراسات المتعلقة  
بالثقافة أو الشخصية فى الحياة المعاصرة فانها تقدمنا خطوات الى الأمام  
فى طريق البحث الرئيسى فى علم الاجتماع ، وهو العلاقة بين الفرد والمجتمع .  
وعلى وجه التقريب للاحظ أن جميع الكتاب الذين ساهموا فى هذا النوع  
من الدراسة قد وجدوا أن مبدأ الأخذ والعطاء بين الفرد والمجتمع ، أو بين  
« الثقافة والشخصية » ، لا يقوم على علاقة قوامها التوافق الكلى .  
وذلك لأن المجتمع من طبيعته أن يولد الخلاف كما يولد التوافق ، أو  
بعبارة أخرى أن المجتمع يدعو الى التنازع كما يدعو الى التعاون .  
وستكون مهمتنا فى هذا القسم من الكتاب أن نختم التحليل المبدئى  
لهاتين العمليتين المتطردتين وهما التعاون والتنازع ، كما يعملان فى حياة  
المجتمع وحياة الأفراد .

## التعاون والتنازع

طرق التعاون الاجتماعى : لا يستطيع الناس أن يجتمعوا على غير  
تعاون ، أو دون أن يشتركوا معا فى العمل من أجل السعى وراء المصالح  
المشتركة . وهناك طرق كثيرة للتعاون فى الحياة الاجتماعية يمكن أن  
نقسمها فى هذه المرحلة من البحث الى قسمين رئيسيين :

١ - التعاون المباشر : سندرج تحت التعاون المباشر جميع مظاهر  
النشاط التى يقوم فيها الناس معا بأعمال متشابهة — كاللعب معا ،  
والتعبد معا ، وحرث الأرض الزراعية معا ، والعمل معا بطرق مختلفة .  
وفى مثل هذا النوع من النشاط قد يوجد تنوع بسيط فى تنفيذ العمل  
المشترك — كما يقول أحد الزوجين للآخر : عليك غسل الأطباق وعلى

تجفيفها — وأهم شيء هنا أن الناس يقبلون أن يعملوا معا ما يمكنهم أن يعملوه أيضا وهم منفصلون أو في عزلة عن الآخرين . وهم يشتركون في العمل اما لأن كون المرء يعمل وجهها لوجه مع غيره يشجعه على حسن أداء العمل ، واما لأن في ذلك مزايا اجتماعية أخرى . ويتمثل التعاون المباشر أيضا حينما يؤدي فريق من الناس بالاشتراك عملا يبدو من الصعب على الشخص أن يؤديه بمفرده . كما يحدث في لعبة «شد الحبل» أو حينما يتعاون أكثر من رجل واحد على إزالة بعض المناريس .

٢ - التعاون غير المباشر : سندرج تحت التعاون غير المباشر جميع مظاهر النشاط التي يقوم فيها الناس بأعمال غير متشابهة بالتأكيد بغية تحقيق غاية واحدة . وبهذه المناسبة يجب أن نذكر مبدأ تقسيم العمل <sup>(١)</sup> ، ذلك المبدأ المشهور المتأصل في طبيعة الحياة الانسانية . ويتكشف تقسيم العمل في الانتاج البيولوجي أو في تربية الأبناء ورعاية شئون الأسرة . وانه ليتكشف كذلك حينما يجتمع في صعيد واحد أناس يختلف الواحد منهم عن الآخر ليؤدوا بالاشتراك عملا بعينه ليرضى كل منهم غيره ، أو الغاية مشتركة . وفي الصناعة ، كما هي الحال في الحكومة والبحث العلمي ، وحتى في مظاهر الترويح عن النفس ، تميل وظائف الناس الى التخصص شيئا فشيئا . وهذه العملية الاطرادية أكثر وضوحا في الحياة الحضرية منها في الحياة الريفية ، وان كان انتهاء الوسائل القديمة في الزراعة

---

(١) كان آدم سميث أول من أشار الى الدلالة الاقتصادية لهذا المبدأ ويوجد البيان الكلاسيكي الذي يتحتم على كل طالب اجتماع أن يقرأه في :  
*The Wealth of Nations, Book One.*

انظر لمناقشة حديثة قيمة حول هذا الموضوع :

W. B. Moore, *Industrial Relations and the Social Order* (New York, 1946),  
 Chap. IV,

واستخدام الآلات فيها من طبيعتها أن يجعلها الناس يبحثون عن وسائل جديدة للتشجيع على العمل الاجتماعي .

ان حلول التعاون غير المباشر صاحب تقدمنا التكنولوجي ( الآلى ) العظيم ، وهذا يتطلب تخصصا في المهارات والوظائف . واذا دققنا النظر وجدنا أن هذا لا يعتبر كسبا له من وجهة نظر الحاجات الانسانية . وقد أكثر الكلام في أن الفرد الذي يعيش في المجتمع الحديث المتحضر الذي يأخذ بأسباب الصناعة ، يزداد كل يوم بعدا عن مظاهر النشاط التعاوني ويتحول شيئا فشيئا الى « متخصص » منزل عن الروابط الوثيقة التي تربطه بحياة الجماعة ثم ينتهي به الأمر الى أن يجد نفسه وحيدا وفريسة للأمراض العصبية ، على النحو الذي تزداد أقلام الكتاب تصويرا له يوما بعد يوم (١) . وكما سنوضح فيما بعد يستند هذا الذعر الذي لا يوجد ما يسوغه تماما الى بعض الاعتبارات الإضافية . فقد يسمح لنا أن نقول ان من مظاهر زماننا أن الكنائس والمدارس والهيئات العديدة تشجع خطط التعاون المباشر بين أعضائها وروادها ، وان المتخصصين في علم النفس والمحللين النفسانيين يرون أن ما ننسبه الى المجتمع من مظاهر العدوان والمنافسة مرتبط كله ارتباطا ذا مغزى بأنواع الخلل المختلفة التي تصيب الشخصية ، وان هناك ميلا عند المشتغلين بالتعليم العام الى أن يفضلوا تكوين مواطنين مثقفين مقيددين على متخصصين تخصصا ضيقا في هذا النوع من النشاط أو ذاك .

طرق النزاع الاجتماعي : يظهر التنازع بكمييات متعددة ودرجات متفاوتة في أي اتصال يقع بين السنان وآخر . وتتغير طرقه دائما مع تغير

(١) أنظر مثلا مؤلفات K. Horney وعلى الأخص :

*The Neurotic Personality of Our Time* (New York, 1937) and *Our Inner Conflicts* (New York, 1945).

الأحوال الاجتماعية والثقافية . وتختفى بعض أنواعه من مجتمعنا كما حدث بالنسبة لنظام المبارزة ، وتظهر بدلا منه أنواع أخرى . فإن أى شكل منه كالحرب وبعض طرق المنافسة الاقتصادية ، تعتبر كذلك أبدية بالضرورة . ان « التنازع الاجتماعى » يشتمل على كل نشاط يوجهه الشخص ضد أى شخص آخر لتحقيق هدف ما . وله نوعان رئيسيان هما : التنازع المباشر والتنازع غير المباشر .

١ - التنازع المباشر : يحدث التنازع المباشر حينما يعتدى الأفراد (أو الزمر) بعضهم على بعض اعتداء صارخا يترتب عليه أذى بليغ ، يقصد الحصول على غرض معين . وأما الاعتداء الخفيف يقصد منع الغير من تحقيق غاية معينة ، فوسيلته التقاضى والجدل والدعاية ، وكثير من الصراخ الذى تقوم به بعض الزمر الاقتصادية المنظمة للحصول على فائدة أكبر . ويتميز التنازع الاقتصادى بين الطبقات الاجتماعية فى بعض الأحيان بأشكال للتنازع أشد عنفا ، كما يحدث بوضوح فى المبارزة والثار والثورة والحرب .

٢ - التنازع غير المباشر : يحدث التنازع غير المباشر حينما لا يحول الأفراد أو الزمر فعلا بين بعضهم وبين تحقيق مصالحهم ، وإنما يقع هذا النوع من التنازع حينما يسعى كل فرد لتحقيق مصلحته وهو يعلم أن ذلك لن يتم الا بالحيلولة دون تحقيق مصالح الآخرين . وستعرض لنا الفرصة فيما بعد لأن نحلل فى هذا الكتاب ظاهرتى المساومة والمنافسة اللتين تدرجان بكل أنواعهما تحت هذا النوع من التنازع . وما المنافسة التنازع خفى بين الأفراد للحصول على أغراض معينة ، الفرص فيها محدودة ، سواء أكانت هذه الأغراض مالية أم امتيازات أكاديمية أم سيدات جميلات . أم تتعلق بالمركز الاجتماعى . فالمنافسة من حيث هى كذلك لا تتدخل

تدخل مباشرة في جهود الآخرين للحصول على هذه الأغراض ، وإنما  
تتدخل بطريقة مباشرة في نجاح الآخرين .

ونحن اذ نميز بين هذين الشكلين من التنازع ينبغي أن نذكر القارئ  
أن ليس كل صراع يشترك فيه الانسان تنازعا اجتماعيا من أحد النوعين .  
إننا نصارع للتغلب على الصعوبات وتذليل العقبات وللوصول الى غاياتنا  
بوسائل بعيدة عن التنازع مع أقراننا . ولعلنا نذكر بهذه المناسبة معركة  
الانسان الدائمة مع البيئة الطبيعية التي يعيش فيها . ان التنازع الاجتماعي  
سواء أكان بين رجل وآخر أم بين زمرة وأخرى من الناس لا بد أن  
يظهر حيثما يوجد أى مجتمع . وما لم يغفل التعاون في المجتمع وينتصر  
على التنازع فإن المجتمع لا يمكنه أن يستمر .

**اجتماع التعاون والتنازع في الحياة الاجتماعية :** ان التعاون من  
العناصر الدائمة في الحياة الانسانية عامة . ومن الغريب أنهما يجتمعان معا  
في عدد كبير من وجوه النشاط . وكما توجد في عالم الطبيعة قوى للجذب  
والدفع تعمل في وقت واحد محددة وضع الأجسام في أماكنها ، كذلك  
نجد في عالم الاجتماع اتحادا بين التعاون والتنازع يتكشف في علاقات  
الأفراد والزمرة الاجتماعية . وقد كتب كولي في هذا الشأن يقول : « كلما  
دققنا النظر في هذا الموضوع أدركنا أن التنازع والتعاون ليسا شيئين  
منفصلين ، وإنما هما وجهان لعملية اطرادية واحدة تشمل شيئا من الاثنين  
دائما <sup>(١)</sup> . وتفصيل ذلك أن الناس حينما يتعاونون فيما بينهم تكون  
مصالحهم متوافقة الى حد محدود فقط . وحتى في العلاقات الودية جدا  
والروابط الوثيقة التي تجمع بين الناس هناك أوقات تتعارض فيها المصالح ،  
أو مواقف لا تكون واحدة بالنسبة للأفراد المتعاونين . ان أوثق أنواع  
التعاون وهو ما يقوم داخل نطاق الأسرة لا يمنع من حدوث المشاجرات .

والاخلاص لقضية مشتركة لا يستبعد من المتفانين في سبيلها الخلاف في  
الرأى أو المطامع المتعارضة . « ويبدو أنه لا بد أن يوجد دائما عنصر من  
عناصر التنازع في علاقتنا مع الآخرين ، يعمل جنبا الى جنب مع عنصر من  
عناصر المساعدة المتبادلة . هكذا جعلتنا الحياة . ان ملامح وجوهنا تدل  
على ذلك ، وعلى جبين المرء ترسم علائم الحب والكراهة معا » (١) .

ومع ذلك فالتنازع محدود بوجه عام من حيث مجاله وأسلوبه ، وذلك  
لاضطرار المتنازعين الى أن يتعاونوا على نحو ما في داخل مجال التنازع  
وخارجه . وفي الحق أنه لا يوجد شكل من أشكال التنازع الاجتماعى ،  
سواء أكان وجهها لوجه كالمبارزة ، أم المناظرة ، أم السباق في مجال الرياضة ،  
أو تنازعا بين الزمر الاجتماعية كذلك الذى يحدث بين الزمر الاقتصادية  
أو البشرية أو السياسية أو المدنية ، الا ويشتمل على مظهر أو أكثر من  
مظاهر النشاط التعاونى . وفي واقع الأمر أن الشكل الوحيد للتنازع  
الاجتماعى الذى يأخذ مظهر التنازع المطلق المجرى من أى تعاون هو  
الحرب . وذلك لأن الحرب تنتهى آخر الأمر الى أن تتجاهل كل نوع من  
القواعد . وبالعكس من ذلك لا توجد أمثلة للأعمال التعاونية في المجتمع  
يمكن أن تخلو من مظهر أو أكثر من مظاهر التنازع . وعلى ذلك فالتعاون  
الذى يقتحمه التنازع يميز المجتمع الإنسانى في كل مكان — في « الثقافة  
التعاونية » عند ال : زونى بين الهنود الحمر المعروفين باسم بويبلو ، وفي  
« الثقافة التنافسية » عند ال : كواكتيل بين قبائل الشمال الغربى في  
الولايات المتحدة ، وفي الاقتصاديات الجمعية في روسيا السوفيتية أو  
الاقتصاديات التنافسية عند الأمم الأخرى . ولا تخلو منه مناظرة في أحد  
الأندية أو جلسة عادية تضم بعض الأصدقاء .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٥٦ .

التعاون وأنواع المصلحة : يذكر القارىء أننا فرقنا في الفصل السابق بين المصالح المتشابهة المنفصلة والمصالح المشتركة التي يقتسمها الجميع . وهذا النوعان من المصلحة يميزان أسلوبين من النشاط التعاوني .

١ - التعاون والمصلحة المشتركة : من الواضح أن الناس حينما يتبينون مصلحة مشتركة ، يظهرون ميلا الى التعاون لتحقيق هذه المصلحة . أنهم يتعاونون لا من قبيل الاعتقاد بأن العمل التعاوني أجلب للخير من العمل الانفرادي ، وانما الى جانب ذلك تدعو المصلحة المشتركة الناس الى احساس بقيمة الكثرة المتعاونة . ولا يمكن أن يتحد الناس دفاعا عن قضية ما ، سواء أكانت المصلحة العلمية هي الأسرة أو الأمة أو العقيدة أو العلم ، دون بعض الشعور بالرغبة في مواصلة العمل والتعاون مع الغير : وهذه الدوافع بالذات ، التي تمتد جذورها في المصالح المشتركة ، هي التي يخاطبها القادة والزعماء حينما يدعون الناس الى العمل لخدمة البلاد أو الطبقة الاجتماعية أو الجنس البشرى أو الدين .

٢ - التعاون والمصالح المتشابهة : ولقد يقوم النشاط الاجتماعي بأسلوب آخر سعيًا وراء مصالح الأفراد المتشابهة والمتوافقة . فالناس مثلاً يلتزمون للأفادة من تقسيم العمل أو للاكتتاب في المشروعات التجارية ، أو السعي لتحقيق مصلحة لدى الحكومة ، أو للقضاء على منافس خطير . والمتنافسون في التجارة مثلاً يرغبون في زيادة الطلب على سلعهم ، ويحتاجون الى خفض كلفة البضاعة والعمل ، ولا ينفون من ذلك كلف المنافسة نفسها . ومن هذه النواحي ومن غيرها تكون مصالحهم متوافقة وتؤدي الى درجة من التعاون . وسترى في فصل لاحق أن التنظيم الاقتصادي هو المجال الأول لهذا الشكل من التعاون .

وللفرق بين هذين الأسلوبين من التعاون من دلالات سوسيولوجية نرى هنا موضع الإشارة إليها : الدلالة الأولى ، وهي الاخلاص الى قضية

مشتركة يقوم في نوع من المصلحة غير قابل للانقسام ، ولا سبيل الى تحصيله اطلاقا الا اذا أفاد الآخرون من تحصيله . وعلى ذلك فكل من الموقف المتعلق بالتعاون والمصلحة متشابكان . ومن هنا فان الميل الى التعاون لا يتوقف على الرغبة في النجاح الفردي فحسب ، بل في نجاح المجموع أيضا — وفي الواقع قد تدعو الهزيمة والقمع الى ربط الأفراد بعضهم ببعض أكثر مما يدعو الى ذلك النجاح ، كالمشاهد في حالة اتحاد الزمر أو الجماعات الدينية في وجه اضطهاد صارخ <sup>(١)</sup> . ويحضرنا ما ذكره أحد أعضاء جمعية يهوا اليهودية الدينية ذات مرة بقوله : « ان ما يقال أو يكتب ضد الجمعية أعتبره كما لو كان موجها نحوي شخصا ، اذ أنني أؤيد بقوة كل ما يصدر عن الجمعية من قول أو فعل <sup>(٢)</sup> » . وبديهي أنه قد نتج عن المصلحة المشتركة بين أعضاء الجمعية موقف تعاوني قوى . ولكن التعاون القائم على المصلحة المتشابهة والمحدودة بحدود الفرد لا يستطيع أن يجمع الناس بمثل هذه الروابط القوية وذلك لأن هذا النوع الذي نراه مثلا في التنظيم الاقتصادي يتضمن درجة من الاعتبار الفردي ؛ فالدافع على التعاون يستمد قوته من أن مصلحة الفرد قد وجد أنها من الممكن أن تتفق مع مصلحة الآخرين . وإذا لم يتم التوافق بين المتعاونين — كما يحدث في أكثر الأحيان في تعاون أصحاب العمل والعمال ، أو في حالات المنافسة ، أو المشاركة في العمل — فان الرغبة

---

(١) في تاريخ المسيحية الأولى والبروتستنتية الأولى توضيحات تامة لهذه النقطة . وربما وجدنا مثلها في التطور التعاوني الحديث في فلسطين . انظر مثلا :

H. F. Infield, *Cooperative Living in Palastine* (New York, 1944) and the novel by A. Koestler, *Thieves in the Night* (New York, 1946).

(٢) جاء ذكر هذا النص في :

H. H. Stroup, *The Jehovah's Witnesses* (New York, 1945), p. 156.

فى التعاون عرضة لأن تتلاشى . وفى هذه الحالة يكون الموقف المتعلق بالرغبة فى التعاون مجرد نتيجة للمصالحة المؤقتة بين وجهات نظر الأفراد . ويتعرض ما يتم من مصالح أو تحالف بين المتنافسين بقصد المنفعة المتبادلة إلى الانهيار تبعا لحدة المنافسة وما يترتب عليها من مشاعر وشكوك . ويتميز مجتمعنا الحديث مع ما يقوم عليه من تقسيم دقيق للعمل وما يعتمد عليه من توافق بين المصالح المشتركة ، بعدم استقرار تدل عليه من ناحية أشكال التنازع المختلفة فى النظام الاجتماعى ، ومن ناحية أخرى اضطرابات الشخصية الفردية (١) .

**التنازع والمصالح والمواقف :** التنازع شأنه شأن التعاون من حيث أن له أساليب مختلفة ، وهذه الأساليب تتصل بأنواع المصلحة الرئيسية وما يرتبط بها ارتباطا وثيقا من أنماط للمواقف .

١ - التنازع والمصالح المتشابهة : يلاحظ أن التنازع يظهر بوضوح حيثما تكون المصالح المتشابهة غير متوافقة . وأبسط حالة من هذا النوع حالة فردين أو زمرتين كل منهما يحتاج إلى شيء واحد موجود بالفعل ولكن ليس له ثان . ان عبارة « ما أحتاجه أنا تحتاجه أنت » توحى بالتعاون ، اذا أمكن اقتسام المصلحة أو الاشتراك فى الانتفاع بها . وتوحى بالتنازع اذا كانت المصلحة وحيدة لا يمكن اقتسامها أو الاشتراك فيها . واذن فكل شيء نادر يحتاج إليه الناس للتملك أو الاستمتاع ، سواء أكان سلعة ، أم شخصا محبوبا أم شرفا أم وظيفة ذات سلطة ، لا بد أن يتضمن عوامل التنازع . ويجمل بنا أن تسجل ثلاثة أمثلة لمصالح متشابهة غير متوافقة ذات أهمية كبرى . فأولا — جميع السلع الاقتصادية

(١) تحزت كتب K. Horney أثر الصدام بين المنافسة والشخصية .  
أنظر بصفة خاصة كتابه :

التي تقتضى من الناس التنافس من أجلها أو المساومة عليها تعتبر من الدوافع على النزاع . وذلك لأن السلع الاقتصادية لها قيمتها التي ترجع الى ندرتها . وهى قلما تسد حاجة من يملك منها الكثير أو القليل . وثانياً — نجد في مجال العاطفة أن الشخص المرغوب في صداقته أو وده، من الممكن أن تنشأ بين مريديه مظاهر المنافسة والغيرة والحسد التي تؤدي جميعها الى النزاع في السر والعلانية . وأخيراً هناك مصالح السلطة والتفوق التي هي بطبيعتها لا يمكن أن تكون مشتركة أو متوافقة . انها لا تتوافق لأنها ترمى دائماً الى الحصول على ما عند الآخرين من سلطة أو تفوق . ومثل هذه المصالح تعتبر نوعاً من السلع غير الملموسة ، وبالتالي تتعذر قسمتها على النحو الميسور بالنسبة للسلع الاقتصادية الملموسة . وعلى ذلك فالمجتمع يمكن تنسيقه ( لتجنب النزاع ) على أساس المساواة في توزيع الثروة ، كما هي الحال في بعض المجتمعات « الساعية وراء المطالبة » في العصر الحديث . ولا يمكن أبداً أن يكون هذا التنسيق على أساس المساواة في السلطة أو التفوق . ومن المسلم به أنه ليس من الممكن أن تقوم سلطة في أى مجتمع اذا كانت موزعة على الأفراد بالسوية . ان البسعى وراء السلطة والتفوق لا ينتهى مع حياته الاجتماعية . وهو كما سنرى مصدر دائم للنزاع الاجتماعي .

٢ - النزاع والمواقف غير المتشابهة : تناولنا حتى الآن النزاع الناشئ عن عدم التوافق بين المصالح المتشابهة . أما النوع الآخر الخطير من النزاع فهو الذى تمثله في أبسط أشكاله هذه العبارة : « ما أحبه أنا تكرهه أنت » وهو قبل كل شيء النزاع الذى يشير الى المواقف المتخصصة غير المتشابهة ، تلك التي تنشأ عن المصالح المتشابهة اذا لم تكن متفقة ، مثل الحرب الاقتصادية بين الطبقات الاجتماعية ، أو لغير هذه الأسباب مثل بعض الخلافات الدينية . وفي أغلب الأحيان يأخذ الاختلاف

في المصالح الاقتصادية مظهر تنازع ثقافي أعمق. كذلك كثيرا ما نجد المتعصبين  
لجنس بشري معين أو لطبقة اجتماعية معينة يسوغون موقفهم بالخلاف العميق  
بين المصالح . واذن فالمواقف والمصالح يقوى بعضها بعضا ، وتعملان  
جميعا على اذكاء جذوة التنازع . والناس حينما يكره بعضهم بعضا  
يجتهدون في تسويغ هذا الكره تسويغا عقليا . كما تشهد في تاريخ كل  
حرب مرت بنا . ومن طبعهم اذا تعارضت مصالحهم أن ينسبوا البواغث  
الشريرة الى خصومهم ، كما نرى في الدعاية المدبرة وغير الواعية ضد  
السامية .

وتظهر المواقف غير المتشابهة اما في صورة عدم اكتراث أو كراهية  
أو تنازع ايجابي . أما عدم الاكتراث فهو نادر في الحياة الاجتماعية .  
فالرجل الذي يحيا للرياضة ويهبها كل وقته وتفكيره ، ولا يهتم بالنف  
فتيلا ، قد نعتبره غير مكترث بالرجل ذى الأذواق المتضادة . الا أن مثل  
هذه الحيدة غير عادية ، وذلك لأن الناس عرضة للشعور بعدم الارتياح  
لأزاء الذين يظهرون الجمود البارد نحو الأشياء التي يقدرونها . وإن مجرد  
التباعد عن الغير ينطوي على معارضة شئ ما . ويشير الدخيل والأجنبي والغريب  
والمخالف في العقيدة الدينية موجة عدم اطمئنان بمجرد ظهورهم في الزمرة  
المحيطة بالشخص ، وذلك لأن أعضاء الزمرة الخارجية موضع الريبة في  
نظر الكثيرين ، اذ من الممكن أن يهددوا ما ألفوه من قيم .

وأما الكراهية فتنتج عن عدم الاعتراف بالمصلحة العامة أو المشتركة.  
وهذا الشكل من العداوة العاطفية ينكر قيم الزمر الخارجية أو يقلل من  
شأنها . فالخاصة التي تحقر العامة ، والعامة التي تحقر الخاصة ،  
والمترمون من سكان المدن الذين يشعرون أنهم أرقى من الريفيين سكان  
القرى ، وهؤلاء الذين يعتبرون أهل المدن منحلين لا أخلاق لهم ، كل  
أولئك إنما يقاومون القيم الغريبة بالنسبة اليهم . وتفسير هذه الظاهرة

أن الفروق الثقافية تولد مواقف الكراهية ، وعلى الأخص بين الأفراد الذين يعيشون في عزلة نسبية عن الزمر التي لا ينتسبون إليها أصلاً ، أو عند المتسكنين بالاستقامة أو الدين داخل زمرتهم . وهم يقيمون بهذه الكراهية حواجز منيعة لكيلا تزحف إليهم القيم التي يرفضونها (١) .

وليس بين الكراهية والتنازع الفعلى ، أو بين الدفاع عن النفس والاساءة الى الغير الا خطوة قصيرة . حينما يكون التنازع غير متكافئ نراه يأخذ شكل الاضطهاد والقمع . أما اذا تكافأ فإن كلا من الطرفين المتنازعين يسعى جاهدا لاثارة الطرف الآخر بمهاجمة الأشياء التي لها عنده قيمة خاصة . وللووقوف كحجر عثرة في سبيل تحقيق أغراضه . وقد يقع التنازع الفعلى داخل نطاق القانون ، كما هو الحال في الصراع الاقتصادي والمنافسة بين الأحزاب السياسية والنزاع من أجل مركز ذي نفوذ أو لترقية ، وكذلك حرب الدعاية وكسب الألبصار للمبادئ والمعتقدات ، الى آخر ما هنالك من خلافاً الحياة اليومية ، وفيما عدا ذلك توجد الخصومات القبلية أو العائلية والأخذ بالثأر والمظاهرات الثورية والاعدام بدون حكم من محكمة ، والثورات وغيرها من الحركات السياسية مما لا يتعرض الا جزئياً لسطوة القانون ، أما الحرب بين بلدين فلا تدخل في نطاق أى قانون .

وكلما كان التنازع بعيداً عن دائرة القانون ازداد اعتماده على القوة الجثمانية وأصبح أكثر ميلاً الى التدمير . وهذا حق بصفة خاصة اذا كانت قوة الطرفين المتنازعين متعادلة بالتقريب . وفي هذه الحالة يكون التنازع ملمراً تدميراً تاماً فلا يجرف في طريقه المصالح المتنازع عليها وحدها

---

(١) فى قصة (H. H. Howe, *We Happy Few* (New York, 1946) صورة

صادقة للعزلة النفسية التي فرضها أعضاء زمرة متمزمة غير قانونية على أنفسهم وعلاقتها بمواقف الكراهية .

بل جميع المصالح الأخرى للطرفين . وهذه النقطة يوضحها تاريخ الحروب الحديثة بين الدول أو بين الزمر الكبيرة مثل بعض أجزاء الصين الدائمة الخصم .

٣ - المصالح المشتركة والتنازع : من الواضح أن المصالح المشتركة للزمر تجعل في طياتها عوامل إثارة التنازع ، وذلك لأن المصلحة المشتركة تحتضن بعض أفراد الزمر وتلفظ البعض الآخر . وهذه العملية الأخيرة تؤدي إلى أشد أنواع التنازع وأكثرها إصراراً . ولا تشعر الزمرة شعوراً قوياً بوحدها إلا إذا هددتها زمرة أخرى . ومن هنا نجد أن من بين أساليب نشر الدعوة لتقوية الشعور العام بالمصلحة المشتركة أن ينبه من يعنيه الأمر إلى أنها مهددة من مصلحة مضادة ، وأن يوجه كل ضروب التعصب لتأييد الجماعة الأصلية بتمييز قيمها على قيم الجماعة الدخيلة المعتدية . أنظر جمعية كوكلو كس كلان وجمعية بلاك ليجيون السريتين في الولايات المتحدة ، انهما تريان أن الزوج واليهود والكاثوليك يشتركون في مؤامرة خبيثة ضد المثل العليا للرجل الأمريكي الأصل . وبالمثل تجد الرجل العسكري الوطني يرى في دعاة الاستسلام خونة جبائن . ويحكم السياسي على برنامج الحزب المعارض بأنه مدمر يجانب العقل والصواب . حتى إذا ما رأى الحكام الأوتوقراطيون ( المستبدون المستأثرون بكامل السلطة ) أن البلد عرضة لانهكسات داخلية حولوا الاهتمام إلى عدو خارجي أو إلى « فتنة داخلية » . وبذا يتخلصون من الكوارث الوطنية ومسئولياتها ويستخدمون في نفس الوقت أحد أساليب الدعاية التي ترمى إلى إثارة المصلحة المشتركة لهذه الزمرة أو تلك وتوجيهها نحو غاية معينة (١) .

(١) هناك مراجع عديدة في أساليب الدعاية : أنظر مثلاً :

L.W. Doob, *Propaganda* (New York, 1935); and the Institute for *Propaganda Analysis*, *The Fine Arts of Propaganda* (New York, 1939).

وعلى ذلك فالمصلحة المشتركة تؤوى الكراهية والاخلاص فيما بين أعضائها . ولكنها تقوى وتشتد وتتحد غاياتها بما يشعر به الأعضاء من كراهية وخوف ازاء عدو خارجي . وهذا يفسر لنا التنازع القائم بين الهيئات الدينية والثقافية والأحزاب السياسية والطبقات كما يدلنا على أهم أسباب الحروب بين الأمم . ويوضح الصراع بين هذه الزمر التي أشرنا إليها توا أهمية الدور الذي تؤديه المواقف الارتباطية والاقصالية، اما في تقوية الأواصر بين أعضاء الزمرة الواحدة ، واما في ابعاد البخلاء والوقوف في وجه العدو الخارجى . وسنهتم بمعالجة جانبى المصلحة التالى فى انتظام الحياة الاجتماعية .

**التعاون والتنازع وتير انتظام الحياة الاجتماعية :** فرقنا فيما سبق بين الأشكال المباشرة وغير المباشرة للتعاون والتنازع . واهتمنا على وجه الخصوص بأن نظهر أن الصراع والمساعدة المتبادلة معا من سمات الحياة الاجتماعية كما حللنا الدور الهام الذى تلعبه المصالح المشتركة ، والقائمة على التنافس الحقيقى ، وما يتصل بها من مواقف تعاونية وتنازعية . وأشرنا فى عدة مواضع الى ظهور أثر ذلك كله فى نماذج السلوك عند الأفراد وفى أنماط المجتمعات المتغيرة <sup>(١)</sup> . ومع ذلك فان معالجتنا الموجزة لهذا الموضوع ما هى الا تمهيد لتفصيله فى الفصول التالية .

ومما يدل على تعقد المشاكل المتضمنة فى التعاون والتنازع أن هاتين العمليتين تأخذان فى الجماعة المحلية أشكالا تتمثل فيها بوضوح الأحوال الاجتماعية والثقافية السائدة فى البيئة . ففى الولايات المتحدة مثلا لدينا أعداد لا حصر لها من الزمر الاجتماعية والمستويات الدينية والبشرية

---

(١) هذا التحليل الذى قدمناه للتعاون والتنازع من ناحية أنواع المصالح والمواقف يناقض - وفى بعض المواضع - الدراسة السيكولوجية التى قام بها M. A. May و L. W. Doob فى كتابهما :

والقومية ، والسكان يتحركون من مكان لآخر بسهولة كما ينتقلون من طبقة اجتماعية الى أخرى بغير عناء . والنظام الاقتصادي انتشر بسرعة دون أية سيطرة عليه من حكومات الولايات . كذلك نجد عقلية الفاتحين الأوائل تعيش مع عقلية المحدثين من الوافدين على البلاد من كل أنحاء العالم ومظاهر الديمقراطية التعاونية المباشرة كديموقراطية المجالس البلدية في ولاية مثل نيوانجلاند قائمة جنبا الى جنب مع الديمقراطية الشعبية الواسعة النطاق في المدن الصناعية الكبيرة . ويعتبر مجتمعنا الى حد كبير نتيجة لسلسلة من الهجرات الضخمة الحديثة العهد ، وكثير من القيم الاجتماعية الحاضرة في الولايات المتحدة يعد انعكاسها للتنازع الثقافي الحاصل أثناء اطراد عملية الاندماج بين العناصر المهاجرة . وبالرغم من التنوع الزائد وأنواع التجارب المختلفة التي مرت بالزمر الاجتماعية الموجودة في بلادنا فانا نعمل على تقوية الحواجز الفاصلة بين الطبقة الممتازة التي تكون السكان البيض الأنجلوسكسونيين الاعتبارين أرقى العناصر وبين مجموعات السكان المنتسبة الى أجناس بشرية أخرى . وما هذه الأمثلة جميعا الا بعض مظاهر حياتنا القومية التي تشير الى ما يسود الولايات المتحدة من تعاون وتنازع <sup>(١)</sup> . وهكذا ففي كل نظام اجتماعي ينبغي أن يظهر الى هذه العمليات الاطرازية من حيث صلتها بالظروف الاجتماعية والثقافية المحيطة بها .

وانا لنلاحظ أن مظاهر التعاون والتنازع تختلف من حيث النوع والتفصيل ليس بين جماعة وأخرى بل من وقت لآخر كذلك . ونحن اذا راقبنا العمليات الاطرازية استخلصنا منها بالضرورة أن التنظيم الاجتماعي

(١) انظر سلسلة من المناقشات حول هذه المسائل في :

*Competition and Cooperation* (New York, 1937); see a specially Chap. II.

*Unity and Difference in American Life* (R. M. MacIver, ed., New York, 1947).

دائم التغير . ففى كل حالة تتنازع مثلاً نجد أنه كلما تطور التنازع ، سواء أكان بين أمم ، أم طبقات اجتماعية ، أم أفراد متنافسين ، تغيرت المواقف والمصالح عند الأطراف المتنازعة ، إذ أن نشاطها فى ذاته من طبيعته أن يغير مجرى الأمور . وفى كل حالة من حالات قيام التنازع ، سواء أكان بوسائل مؤقتة كانشاء الحواجز الفاصلة أو بفرض مطالب من قبل هيئة منتصرة ، أو بما يتمخض عنه التنازع نفسه من اكتشاف دائرة مصالح أكثر اتساعاً ، نجد أن قيام هذا التنازع جزء من تتابع تاريخى لانهائية له .

وكلما درسنا العمليات الاطرادية المتعلقة بالتعاون والتنازع ، قادتنا الصفة الديناميكية الكامنة فيهما الى بحث مشاكل التغير الاجتماعى . وإذا أردنا الدقة ، سيظل اهتمامنا الحاضر بالتعاون والتنازع ، كلما أوغلنا فى خصائص التركيب الاجتماعى فى الكتاب الثامن من هذا المؤلف ، إذ أن هذه العمليات الأساسية تدخل دائماً فى النظام الاجتماعى . أما التغير الاجتماعى ذاته فهو معقد أشد التعقيد ، وذو أهمية كبيرة بالنسبة لحياة الفرد والمجتمع حتى ان الكتاب الثالث والأخير سيختص به .



تقديم

الباب الثاني :

المجتمع والبيئة



## كلمة استهلالية

قبل أن ندرس تركيب المجتمع والتغيرات التي تطرأ عليه يجدر بنا أن نتناول ظروف العالم الخارجى التى تتوقف عليها الحياة الاجتماعية كما تتوقف كل حياة أخرى . وأن نتفهم طبيعة هذا التوقف . وهنا تبدو لنا مسألتان كبيرتان خليقتان بالتأمل .

فمن حيث ان كل زمرة اجتماعية ، سواء أكانت بشرية أم قومية أم عرقية ، متميزة كطبقة اجتماعية أو كجماعة محلية ، أم كانت لها خاصة أخرى تحددها ، أم تختلف من عدة وجوه عن غيرها من الزمر ، فالتساؤل نواجهه مسألة ملحة ملخصها : هل تتحدد هذه الفروق بصفة رئيسية بالوراثة أو بظروف المعيشة ؟ وللإجابة التى تقدمها عن هذا السؤال نتائج عملية هامة وشديدة الخطر ، وهى فى الحقيقة تؤثر على نظرتنا العامة للمجتمع . وسنعالج هذا الموضوع فى الفصل الرابع .

وأما المسألة الثانية فتتعلق بالطريقة والدرجة التى تؤثر بهما النواحي المختلفة للبيئة كل على حدة فى حياة الإنسان الاجتماعية ، وسنبحث هذا الموضوع فى الفصل الخامس ، مع الإشارة بصفة خاصة الى الأحوال الجغرافية التى يتصل بها المجتمع والثقافة دائما بكيفيات معينة . وسنواجه فى الفصل السادس بصفة مباشرة تلك المشكلة المعقدة المتصلة بالعلاقات القائمة بين الفرد وبيئته الشاملة .



## الفصل الرابع

### البيئة والحياة

#### البيئة والتوافق

العلاقة الوثيقة بين البيئة والحياة : من الحقائق الثابتة بالملاحظة أننا إذا غرسنا بذرة في الأرض ، في ظروف ملائمة ، نبتت بدفع أوراقها في الهواء ومد جذورها في التربة . ومعنى هذا أنها تنشئ علاقات معقدة كل التعقيد مع البيئة لدرجة أننا إذا انتزعناها من التربة ورددنا لها استقلالها عن التربة كما كانت في أول الأمر لهلكت . وتظهر على النبات أثناء هذه العملية الاطرادية المعقدة جميع القوى الكامنة في بذرته ، وفي بذرته وحدها . وبذا يصبح هذا النبات نوعا من القمح أو الحبوب ، أو عباد الشمس ، أو أى شجر حسب نوعه ، إلا أن البيئة تؤثر تأثيرا جوهريا في اكساب النبات القوة على الأزهار أو الأثمار أو جعله يذبل قبل الأوان أو ينمو عاليا قويا أو قصيرا ضعيفا ، أو محوطا بنباتات أخرى تعطله أو قائما وحده في تماسك . وهناك أنواع مختلفة من النباتات تلائم بيئات متباينة ، كالمستنقع ، أو التربة الصخرية ، أو الصحراء القاحلة ، أو الأرض الخصبة الغنية بسمادها الطبيعي والواقعة في السهول الميسورة الري ، أو الحرارة أو البرودة أو ضوء الشمس أو الظل . ومن الملاحظ أن النبات الواحد تبدو عليه تغيرات هامة إذا نما في أنواع مختلفة من المناخ . وهذه الصلة بين النبات والتربة قوية الدلالة لدرجة أن فرعا خاصا من علم النبات هو إيكولوجيا النبات قد انفرد بدراستها .

ولا ترتبط أنواع الحيوان بالتربة على النحو المشاهد في النبات .  
ولكنها مع ذلك لا تقل اعتمادا على البيئة أو تجاوبا معها . ويستطيع  
الآدميون عادة أن يتنقلوا من بيئة لأخرى ، وكذلك أن يغيروا من أحوال  
بيئة معينة لكي تلائم أغراضهم . واذن فهم ليسوا من هذه الناحية أكثر  
اعتمادا على بيئتهم من الحيوان . وليست البيئة في الاصطلاح مجرد  
العالم الخارجى ، أو شيئا نظنه محيطا بنا وملقفا حولنا . ولو أننا نظرنا  
للبيئة على هذا النحو لقللنا من شأنها ومن أهمية الدور الذى تلعبه فى  
حياتنا . وفى الحق أن هذه الصلة القائمة بين حياتنا وبين البيئة صلة  
وثيقة الى حد كبير . ولعلنا نذكر أن الكائن العضوى نفسه ، أو تركيبه  
العضوى ، ان هو الا نتيجة لحياة ماضية وبيئة ماضية . ان البيئة موجودة  
منذ النشأة الأولى للحياة ، حتى فى الخلايا البيولوجية الأولية . اننا تفكر  
فى تركيبنا العضوى كما لو كان المقصود به قسمنا ، ونفكر فى البيئة كما  
لو كانت قائمة خارجا عنا . الا أن قدرات التركيب العضوى وصفاته  
متصلة بالبيئة العامة التى تكتنفها . والبيئة شئ أكثر من عامل من عوامل  
تشكيل الحياة التى يمكن تصورها منفردة عنه . وليتخيل القارىء مثلا  
أننا قلنا فجأة الى كوكب أكبر حجما من كوكبنا . فإن أجسامنا يزداد  
وزنها فى الحال . وهذه الواقعة وحدها مثيرت عليها تغيرات أخرى  
كثيرة لا حصر لها فى حياتنا ، وأول ما سيتبادر إلى أذهاننا سوف لا نعرف  
أنفسنا ، بمعنى أننا سنكون أغرابا فى نظركنا . واذا افترضنا أننا سنستطيع  
الحياة فى هذا الكوكب الجديد فما لا شك فيه أننا سنمارس الحياة  
كأشخاص آخرين . ولن يكون فى وسعنا ادراك معنى الحياة الا فى بيئة  
ملائمة تسمح بذلك . أو بعبارة أخرى فى بيئة معدة للحياة : وعلى ذلك  
فالحياة والبيئة فى الحقيقة أمران متلازمان .

وتتداخل الحياة والبيئة بعضها فى بعض بدرجة قوية حتى ان لكل

حياة ، أو لكل نوع معين من الأحياء ، أو فرد حى ، البيئة التى تلائمها ،  
والتي تختلف عما يلائم غيره من يثات . ومن المحقق أن البيئة ليست  
شيئا فردا ولكنها عدة أشياء لا نهاية لها . ومن الأدلة على هذه الحقيقة  
أن بالمتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى فى مدينة نيويورك معروضات  
تمثل أكثر من ألف نوع من الحشرات جمعت من فناء واحد فى إحدى  
الضواحي . أى أن هذا المكان المحدود والمحصور قد وجد فيه أكثر من  
ألف نوع من البيئة تلائم حياة الحشرات وحدها . ومن الأمثلة العجيبة  
على تنوع البيئة هذا التمييز الذى فراه بين قملة الرأس وقملة الجسم ،  
وكل منهما لا يمكن أن تعيش فى البيئة التى تلائم الأخرى . واذن فالبيئة  
تتخصص كما تخصص الحياة التى تقوم فى كنفها .

وفوق ذلك فإن كل تغير يطرأ على أى كائن حى من شأنه أن يحدث  
تغيرا فى صلته بالبيئة . وكل تغير يصيب البيئة يستتبع تغيرا فى استجابة  
الكائن الحى لها . أن يثبتنا هى المكان الذى تتخذ منه موطننا ومعاشنا بكل  
ما تحمله هذه العبارة من معنى . وإذا نظرنا إليها من حيث شمولها وصلتها  
بأية زمرة اجتماعية ( وفى النهاية من حيث صلتها بأى فرد ) فهى عامل من  
عوامل الحياة شديد التعقيد . أن كل اختلاف فى البيئة يعنى اختلافا فى  
عادتنا الفردية وفى أسلوب حياتنا . ومن ناحية أخرى فإن عاداتنا وأساليب  
حياتنا تخلق لنا كلما اختلفت بيئة جديدة يتنوع فيها الاختيار كما  
تهيئنا بطريقة أخرى للحياة فى هذه البيئة الجديدة . ومن خلال عمليتى  
الاختيار والتوافق الدائمين يتحقق باستمرار هذا التوازن المتحرك  
اللازم للحياة .

**البيئة والحياة والمجتمع الانسانى :** ان خير ما يوضح تقابل الحياة  
والبيئة هو الزمر الاجتماعية . وكما يختلف كل إقليم عن الأقاليم الأخرى  
فى كل بلد من بعض النواحي ، كذلك يختلف سكان كل إقليم فيما بينهم .

فالفرد من سكان أوزاركس أو جبال كنتوكى يفكر ويشعر بطريقة تختلف  
عن تلك التى يفكر أو يشعر بها النيويوركى وما يقال عن هذين ينطبق  
على كل من المواطن من نيوانجلاند وأحد ساكنى إقليم المروج ( فى  
الولايات المتحدة ) . والفرق بين الاثنين فى كل من الحالتين يرجع بكيفية  
ما الى البيئة التى يعيش فيها كل من الشخصين ( وان كان مدلول العلاقة  
بالبيئة كما سنرى ينطوى على صعوبات كبيرة ) . وتؤكد المشاهدة العامة  
أن الناس يختلفون فى القرية عنهم فى المدينة . وفى حالة احترافهم الزراعة  
عنهم فى حالة احترافهم الصناعة ، وفيما اذا سكنوا الجبال عما اذا سكنوا  
السهول ، وفى المناخ الحار عنهم فى المناخ المعتدل . وهم يهيئون أنفسهم  
للأحوال الجديدة بأن يخضعوا لعملية تغير اطرادية كلما تغيرت بيئتهم .  
ومن الواضح أن الأثرياء يعيشون فى بيئة تختلف عن بيئة الفقراء . وان  
بيئة الطوائف الملونة فى المدن الأمريكية تختلف عن ذوى اللون الأبيض .  
وبيئة أصحاب المهن الكبيرة شئ غير بيئة الصناع . وهذا القول ينطبق  
على جميع الوحدات الاجتماعية مهما كان حجمها . خذ مثلاً أهم الجماعات  
الكبرى كالامة أو منطقة حضارية برمتها ، تر أن خصائصها متصلة اتصالاً  
حقيقياً بالبيئة الشاملة التى نمت فيها . أو خذ أصغر زمرة اجتماعية وهى  
الأسرة الصغيرة ، وستجد فيها هذا التقابل بين الحياة والبيئة واضحاً لكل  
ذئ عينين .

ومن أهم الاكتشافات التى توصلت اليها العلوم الاجتماعية طريقة  
تشكيل البيئة لحياة الجماعة واكسابها طابعها الذى تتميز به ، وكذلك  
تأثر البيئة بالجماعة . وقد لاحظ الناس منذ العصور القديمة على التحقيق  
بعض وجوه التقابل العامة بين الأحوال الطبيعية ( البيئة ) بأوسع معانيها  
وبين أساليب الحياة . مثل الفروق فى خصائص سكان المناطق الحارة  
وسكان المناطق المعتدلة والباردة . وان المشتغلين بصناعة البحر يختلفون  
عن سكان اليابسة . ولكن هذه المشاهدات قد لقحت فى السنوات الأخيرة  
بالتدريج وتوسع فيها حتى وصلت الى وضعها الحاضر المتناسق . وقد

أسهم علم الاجتماع الفرنسي بنصيب وفير في نمو هذه الدراسات منذ أيام منتسكيو حتى وقتنا الحاضر بارشاد باحثين من أمثال لوبليي وديمولان وبرونر (١) .

وقد كانت ولا تزال العلاقة بين البيئة الطبيعية والظواهر الاجتماعية مثار الاهتمام الخاص عند فريقين من علماء الاجتماع الأمريكيين في السنين الأخيرة . فقد نشأت أولا « مدرسة ايكولوجية » شجع على ظهورها تلك الأبحاث التي قام بها كل من المغفور له ز . أ . بارك ، و . و . بيرجس في جامعة شيكاغو . وأنا لنرى الايكولوجيا الانسانية أو الاجتماعية معنية بصفة خاصة بالظواهر الاجتماعية والثقافية المتعلقة بمناطق التجمعات الحضرية المختلفة ، مستفيدة في ذلك العمل من وجوه شبه نافعة في دراسة ايكولوجيا النبات والحيوان . وعلى ذلك فالظواهر التي تتراوح بين أنماط النظام العائلي وبين الاصابة بالأمراض العقلية وأنواعها تعتبر وسائل لازاحة الستار عن عملية اطرادية القصد منها تهيئة حياة الزمرة الاجتماعية ومحاولة جعلها منسجمة مع الظروف الحاضرة المتمثلة في الدائرة المكانية . واذ يهتم الايكولوجيون بالآثار الاجتماعية للدائرة المحلية نجدهم قد توسعوا في دراسة العملية الاطرادية كما تبدو في صورة تنافس وتعاون ، ومركزية ولا مركزية ، وتخصص وانقسام بين مجموعات الأفراد ، وغزو من الخارج وتوارث للسلطة أو الملكية ،

---

( ١ ) أشار Frederic Le Pla في بحثه الهام عن العمال الأوربيين وعنوانه :

Les ouvriers Européens (Paris, 1855) إلى نظريته القائلة بأن الدائرة المكانية locality تحدد العمل work وبهذا يكون لها تأثير كبير في النظام الاقتصادي للأسرة والنظم الاجتماعية السائدة بين الناس . وقد واصل ديمولان عمل لوبليي ، ونشر في مجلة La Science Sociale عدة بحوث الغرض منها اظهار الخصائص الاجتماعية لبعض أقاليم فرنسا . أنظر بشأن ج برونز الفصل الخامس فيها بعد .

منها يميز التركيب الاجتماعي في المجتمعات الريفية والحضرية على السواء وتضيف اكتشافاتهم الى معرفتنا بالنواحي « المكانية » للحياة الاجتماعية (١) .

وقد عادت الايكولوجيا الانسانية تركز نفس اهتمامها في السنوات الأخيرة حول موضوعاتها القديمة ، وإن تم ذلك بطريقة مغايرة على أيدي أعضاء « المدرسة الاقليمية » المعروفة بين علماء الاجتماع الأمريكيين . والذي فعله الاقليميون بزعامة هوورد و . أودم وزملائه في جامعة نورث كارولينا ، أنهم جددوا بعبارات مستحدثة ما نادى به لوبلي منذ قرن مضى ، بالسعى للبحث عن التفاعل القائم بين البيئة الطبيعية للانسان وحياته الاجتماعية ، فمثلا تنقسم الولايات المتحدة حاليا الى عدة أقاليم « طبيعية » كل منها له أحواله الجغرافية والاجتماعية التي تتكامل فيما بينها كما يرى البعض بحيث ينشأ عنها أسلوب متزن للحياة . وهذا التقسيم الاقليمي اذ يعمل على تحقيق التوازن والتكامل بين الظروف البيئية والاجتماعية لتنمية حياة الجماعة نفسها ، وتهتم هذه الخطة اهتماما

---

( ١ ) أوضح الطريقة الايكولوجية من خيرة ممثليها ، هم :

R. B. Park, E.W. Burgess, and R.D. McKenzie in *The City* (Chicago, 1925).

For sympathetic surveys of the ecological school, see J.A. Quinn, "The Development of Human Ecology in Sociology", *Contemporary Social Theory* (H.E. Barnes and H. Becker, eds., New York, 1940), pp. 212-244, and E.C. Llewellyn and A. Hawthorn, "Human Ecology", *Twentieth Sociology* (G. Gurvitch and W.E. Moore, Eds., New York, 1945), pp. 466-499; and for a critique of its theoretical aspects, M.A. Alihan, *Social Ecology: A Critical Analysis* (New York, 1938).

ومن أدق الدراسات الايكولوجية في بريطانيا :

E.E. Evans-Prichard, *The Nuer : A Description of the Modes of Livelihood and Political Institutions of a Nilotic People* (Oxford, 1940).

خاصا مع ذلك يبرز التفاعل الحادث بين مظاهر نشاط الانسان والظروف المحيطة به. (١) .

وستتناول في فصل تال أهم اكتشافات الايكولوجيا الاجتماعية والنظرية الاقليمية (٢) . هذه الدراسات وسواها تعمل معا لتظهر لنا أمرين : الأول مدى تعقد البيئة ، والثاني كيفية تغلغلها تغلغلا تاما في حياة الزمرة الاجتماعية . وأكثر من ذلك فإن هذه الدراسات تثير تساؤلا أعمق مما ذكر . ويتصل بمعرفة مدى امكان تفسير الفروق القائمة بين الآدميين أو بين الزمر الاجتماعية على أساس الفروق البيئية . أما الاجابة على هذا التساؤل — وهي كما نرى تتضمن العلاقة بين ذلك العامل الحيوى الذى نسميه الوراثة وبين البيئة نفسها — فتعتبر أساسية لفهمنا طبيعة المجتمع الحقيقية والتغيرات الدائمة التى تطرأ عليه . وسنحاول أن نوضح بعض النقط الأولية قبل أن نشرع فى الاجابة المطلوبة .

ثلاثة اتجاهات للتكيف مع البيئة : كثيرا ما نسمع أو نقرأ التعبير الآتى : « الانسان يتكيف مع بيئته » مستخدما بطريقة تشعر بأن المقصود بذلك شكل أساسى واحد أو طريقة واحدة للتكيف . ويؤدى هذا المعنى فى الغالب الى شيء من الخلط ، وعلى الأخص فى دراسة الحياة الاجتماعية . وعلى ذلك سنراعى كما فعلنا فى الاصطلاح « الفردية » أن هذا الاصطلاح الذى نحن بصددده وهو « التكيف » يمكن استخدامه بمعنى طبيعى أو بيولوجى أو اجتماعى .

---

(١) يمكن للقارئ لى يلم بالتفصيل بالطريقة الاقليمية أن يطلع على :  
H.W. Odum and H.E. Moore, *American Regionalism* (New York, 1938)  
ولتطبيق هذه الطريقة على هيئة فديرالية ( لا وجود لها الآن ) أنظر :  
National Resources Committee, *Regional Factors in National Planning and Development* (Washington, D.C. 1935).

وللاطلاع على تأييد قوى للتخطيط الاقليمى أنظر :  
L. Mumford, *The Culture of Cities* (New York, 1938), Chaps. V and VI.

(٢) أنظر الفصل الثمن فيما بعد .

## ١ - التكيف الطبيعي : يحدث التكيف الطبيعي البحث سواء أوردناه

أم لم نرده : انه مستقل عن مسعانا وعن غايتنا . وان الشمس لتصبح جلدنا اذا عرضنا أجسامنا لأشعتها . وينجم عن ذلك تكيف طبيعي في أحد أشكاله . واما أن يجعلنا قادرين على أو عاجزين عن المعيشة في البلاد المشمسة . وان الهواء النقي لينشط رئتينا والغاز السام ليفتك بهما . ومن الوجهة الطبيعية كل من الهواء النقي والغاز السام يحدث تكيفا في جسم الانسان . وما القوة والضعف ، أو الصحة والمرض ، إلا تعبيرات للدلالة عما نعينه بقولنا « القانون الطبيعي » . وهذه جميعا مطالب تفرضها الطبيعة علينا حيثما وجدنا حتى ان الموت نفسه لا يعدو أن يكون مظهرا أخيرا للتكيف الطبيعي . ومهما كانت الظروف المحيطة بالانسان ، صحراء قاحلة ، أو مدينة آهلة ، فقر أو رخاء ، مواتية أو غير مواتية ، طيبة أو سيئة ، فإن هذا التكيف الطبيعي الذي يحدث بلا قيد أو شرط يبقى دائما كهوة قاهرة :

وتوحى الأمثلة التي ضربناها أن الانسان مهتم أشد الاهتمام بمعدة مشاكل مرتبطة بالتكيف الطبيعي كالموت والصحة والتغيرات الجسدية التي أدت اليها حالة التغذية والحياة الاجتماعية . الا أن هذا الاهتمام وما يصاحبه من جهود يبذلها الانسان لإطالة حياته وتحسين صحته وقد تنجح في بعض الأحيان ، لا ينبغي أن نخلطها بعملية التكيف الطبيعي المطرد في ذاته . ان التكيف الطبيعي البحث مقدم أبدا ولا يمكن أن يكون « سوء توافق » .

## ٢ - التكيف البيولوجي : ائنا نقصد بالتكيف بالمعنى البيولوجي

أن شكلا خاصا من أشكال الحياة مهيا بحيث يعيش أو يزدهر في ظروف بيئية معينة . ونحن نقول ان السمك متكيف مع البيئة البحرية ، والنمور متكيفة مع أحوال العيش في الغابة . وبهذا المعنى نتحدث أيضا عن سوء التكيف أو سوء التوافق . فاذا قلنا مثلا ان النمر سيء التكيف مع ظروف

الحياة في الصحراء أو فوق الجليد القطبي ، فاننا نعى أن الظروف هناك ليست بحيث تسمح للكائن الحي بأن يؤدي وظائفه كاملة ، وإن التكيف الطبيعي الذي لا مفر منه في واقع الأمر ضار بالمطالب البيولوجية . وإذا أردنا أن نحصل على توازن معين يساعد على بقاء الكائن العضوى أو حسن أدائه لوظائفه ، وجب أن نشترط في البيئة شروطا معينة . وهذا الاشتراط الذى نعينه الزام موجه ، كما هو معلوم ، الى الكائن العضوى .

٣ - التكيف الاجتماعى : يكشف مفهوم التكيف الاجتماعى عن امتداد للتكيف البيولوجى . غير أن الأول يمتاز بأنه يرمز على الدوام الى مستوى معيارى معين - وبعبارة أخرى أنه تكيف مشروط . وكثيرون من السوسولوجيين يتحدثون عن العملية الاطراذية المتعلقة بالتكيف والسعى لاستكمال الحاجات ، وإن كان الاصطلاح الأخير يستخدم أحيانا للإشارة بصفة خاصة لتكيف الانسان مع ظروف معينة أكثر مما يقصد به تكيف هذه الظروف مع الانسان (١) . ولكن إذا كنا نريد أن نعيش على الطريقة التى نودها لأنفسنا ، فينبغى أن نختار بين أمرين : أما البحث عن البيئة التى تلائمنا ، وأما خلق هذه البيئة . ولا يستطيع الانسان أن يفعل أكثر مما يفعل أى كائن حي بالنسبة لذكائه ؛ انه يختار بيئته ويعدل فيها بحيث يؤدي التكيف الذى لا محيص عنه لسد أقصى ما يمكن من حاجاته . وبهذا المعنى الاجتماعى ينطوى التكيف حتما على تقويم لقيم معينة ، بينما نجد أن التكيف الطبيعى البحث لا يتضمن فكرة السعادة أو القيمة المفيدة أو الأفضلية .

وعلى ذلك فحينما نتحدث عن سوء التوافق أو سوء الانسجام لا

(١) أنظر مثلا :

R.W. Burgess, "Accommodation", *Encyclopaedia of the Social Sciences* (New York, 1935), I, 403-404.

لا تقصد أن القانون العام للتكيف الطبيعي قد انهار . وانما نعنى أن التكيف الاجتماعى الحاصل بالفعل ينطوى على سد ناقص لحاجتنا ومثلنا العليا التى كان يمكن أن تكتمل لو أن تغيرا شمل البيئة فى اتجاه معين . وليس بمستغرب على كل حال أن نجد الانسان — بسبب طبيعته الاجتماعية الطامحة ورغباته المتعددة — ينظر الى أى توازن بين حياته وبيئته نظرة غير القانع الذى يرى فى هذا التوازن درجة ما من « سوء التوافق » . ان رغباتنا هى التى تدعونا دائما لنقد عملية توافقنا مع البيئة مع أن هذا التوافق يعتبر تاما اذا نظرنا اليه كظاهرة طبيعية أو فيزيقية فحسب . ان الذى ننقده فى حقيقة الأمر لا يعدو أن يكون البيئة التى تتكيف حياتنا معها . أو أنفسنا اذا ما عجزنا عن السيطرة على هذه البيئة وتغيير ظروف التوازن .

وبالضرورة يدرس السوسيلوجى العملية الإطراذية للتكيف الاجتماعى ، وتتضمن هذه العملية محاولات الانسان المتصلة لضبط هذا التكيف بحيث يتفق مع ظروف حياته المتغيرة ، كما تدرج تحتها تقديراته لمحاولاته وظروفه هذه . وهو بعكس العالم الطبيعى — كالبيولوجى مثلا — يواجه مهمة تحليل بيئة معقدة تكون آماله وحاجاته وآراؤه النقدية عنصرا حيويا فيها .

**البيئة الخارجية والداخلية للانسان الاجتماعى :** يخل الانسان عادة نوعا خاصا من البيئة وذلك خلال جهوده المتواصلة لتعديل ظروفه المعيشية . ولهذه البيئة التى صنعها الانسان مظهران : الأول خارجى ، والثانى داخلى .

١ - **البيئة الخارجية :** وهذه تشتمل على التعديلات الفيزيكية للطبيعة وتدخل فى ذلك المساكن والمداين ووسائل النقل والمواصلات ، وأساليب الراحة واليسر ، وأدوات الحضارة وآلاتها . وتبضم هذه البيئة فيما يذهب بعض الأنثروبولوجيين ، كل ما يسمى « ثقافتنا المادية » ولا

شك أن هذا التركيب الفيزيقي الآلي ، أو على الأقل جزء منه ، قادر على البقاء زمنا ما إذا هلك المجتمع نفسه . ودليل ذلك الآثار المتخلفة عن الحضارات القديمة ، كالحضارتين المصرية أو الانديزية . على أن هذا ليس صحيحا بالنسبة للمظهر الثاني المتعلق بالبيئة الاجتماعية .

٢ - البيئة الداخلية : وهذه هي المجتمع نفسه ، ولا تبقى الا مابقى المجتمع <sup>(١)</sup> . وهي تشتمل على التنظيمات والقواعد والتقاليد والنظم السائدة وكل ما هو محظور أو مسموح به في الحياة الاجتماعية . أو بعبارة أخرى كل ما نسميه في جملته التراث الاجتماعي . وبالنسبة لكل فرد من أفراد المجتمع يقف هذا النسق الكبير على قدم المساواة مع مظاهر الحياة المادية والخارجية كجزء من البيئة . فيما عدا أن توافق الانسان معه لا يتم بنفس القوة ، نظرا لأنه ليس مفروضا بقانون طبيعي <sup>(٢)</sup> . ومع كل ذلك فالانسان لا يستطيع أن يفلت من تأثيره لأنه أعد للحياة في داخله وألف هذا التأثير . ولن يكون في وسعه أن يحقق رغبة من رغباته الا اذا أقام له ما يستحقه من الاعتبار .

واذن فالبيئة الشاملة تتضمن <sup>(٣)</sup> : ١ - بيئة خارجية يعدلها الإنسان بطرق مختلفة ، وهذا التعديل يتم على نطاق واسع في مراكز الحضارة الحديثة ، ولكنها ما زالت تحتاج في جميع الظروف الى تكيف عام أو فيزيقي . و ٢ - بيئة داخلية أو اجتماعية يتكيف معها الانسان بالاستجابة الواعية والتعود وسنرى أن التمييز بين هذين المظهرين للبيئة الشاملة جوهرى في تحليلنا للحقيقة الاجتماعية الواقعة . ولكن ينبغي أن

---

Cf. E. Rignano, "Sociology, Its Methods and Laws", *American Journal of Sociology*, XXXIV (1928), 429-450.

(٢) يستخدم المؤلفان « القانون الطبيعي » فى كل ما يتصل بالمادة ، وهذا الاتجاه يخالف ما يذهب اليه كثيرون من أمثال كيتليه ورادكليف براون الذين يرون المجتمع نفسه جزءا من الطبيعة وأن ظواهره على هذا الأساس تخضع لقوانين طبيعية .

نذكر أيضا أنها يتفاعلان بعضهما مع بعض ، وذلك يرجع الى أن الانسان يعمل باستمرار على تغيير كل من البيئة الخارجية والبيئة الداخلية ، أو عالمه الفيزيقي وعالمه الطبيعي ، لمجرد رغبته في اشباع حاجاته التي لا سبيل الى اشباعها .

**الحضارة والتكيف :** المشاهد أنه قد تمت أثناء المراحل الحديثة للتاريخ الانساني تعديلات جمة أجراها الانسان على نطاق واسع في البيئة الخارجية والداخلية ، وتتميز بصفة خاصة بأنها تمت بسرعة . والمقول أن هذه التغييرات الواسعة في البيئة قد زادت من بعض حاجات الانسان على حساب البعض الآخر . وجعلت الطبيعة الانسانية غريبة في عالم الحضارة الذي صنعته لنفسها . ومن هذا النقد ما ذهب اليه جراهام والاس من أن البيئة الحديثة تحد من بعض « طبائعنا أو أمزجتنا الغريزية » . وعلى حد قوله : « يولد المرء وفي تكوينه مجموعة من الاستعدادات تتصل بطريقة تدعو الى الاشتمزاز ولكن معقولة في نفس الوقت ، بعالم الغابات والكهوف في المناطق الاستوائية والأراضي المتاخمة لها ، تلك المناطق التي سكنها أسلافه ملايين السنين ولم يتطوروا أثناءها الا ببطء شديد » . ويذهب هذا المفكر الى أن هذه الاستعدادات كانت تتكيف خلال العصور لتستجيب الى عوامل البيئة التي عاشت فيها . وبمجرد افلاتها ( بعد التطور الطويل ) من ظروف بيئتها وجدت حياتها صعبة واضطرت أن تتخبط <sup>(١)</sup> . ووفقا لهذا الرأي يتكيف الانسان تكيفا بيولوجيا مع الحقول والغابات لا مع الحياة التي تفرضها المدنية أو المصنع أو المكتب . والقول بأن التكنولوجيا الحديثة والحياة الاجتماعية تعطل بالضرورة الاستعدادات المتوارثة قد عم ترديده في السنوات الأخيرة . ويجمل بنا أن نبحث هذه المسألة بإيجاز .

ونستهل الكلام بقولنا انه ليس لدينا دليل على أن الأفراد في المجتمعات البدائية أكثر أو أقل منا قناعة بنصيبهم من الحياة ، أو أكثر

منا تكيفا لظروف حياتهم ، على ما نعرف من أساليبهم التكنولوجية ونظمهم من الاجتماعية البسيطة نسبيا . وقد بددت الاثروبولوجيا الحديثة الخرافة القائلة بسعادة المتوحشين وقناعتهم . ومما لا ريب فيه كذلك أننا اذ نعدل بيننا لكى تزيد اشباع بعض رغباتنا ، قد نجعلها بذلك أقل استعدادا لارضاء الآخرين . وهناك على التحقيق كثير من أسباب سوء التوافق خلقتها ظروف الحياة الحديثة ، فى البيئة الجديدة المعقدة التى صنعها الانسان لنفسه . غير أن هذه الأسباب يمكن تفسيرها فيما نعتقد بالعادات المتوارثة .

واذا كان الانسان قد عاش فى الكهوف عصورا طويلة فاتنا لا نلمس منه رغبة ملحة فى الرجوع ثانية لهذا الأسلوب من أساليب الحياة . بل بالعكس ان ما يفتقر اليه أكثر مما عداه فى كثير من بيئات المدن الحديثة إنما هو نصيب أوفى من الحاجات العامة لصحة الجسم ، كالهواء النقى وضوء الشمس وحرية الحركة . وبالنسبة للملايين من سكان المدن تعتبر أحوال المسكن والعمل واللعب مقيدة لنشاط الجسم والعقل وغير صحية . وفوق ذلك فان لهذه الأحوال نتائج كثيرة وأمورا مثيرة للنفس تؤدي الى ارهاق الأعصاب . وفيما يتعلق بصفة خاصة بأولئك الذين نشأوا فى القرية ينتهى الانتقال الى الحياة فى المدينة كآى انتقال آخر من البيئة التى ألفها الشخص ، الى نوع من الاحساس بالحرمان مصحوبة بالشعور بالحنين الى الموطن الأصلى . ولما كان نمو المدن السريع قائما على وجود نسبة كبيرة من السكان بها أصلهم من الذين نشأوا بالقرية ونزحوا منها ، فان هذا الضيق النفسى الذى أشرنا اليه لا بد أن يكون ظاهرة عامة للحياة فى المدن .

وحينما تتعرض البيئة لتعديل سريع من طريق التقدم التكنولوجى تظهر فيها علامات مختلفة لسوء التوافق . فيوجد مثلا ، كما ذكرنا قبل الآن ، اضطراب شخصى يصيب الأفراد ينتج عن تغير أحوالهم المفاجيء

بعد أن كانوا قد ألفوا أحوالا أخرى قبلها . وهناك أيضا — كما أوضح أوجيرن — هذا « التخلف » العام بين الأحوال الاجتماعية الملائمة للنظام الآلى الحديث والأحوال الاجتماعية الموروثة عن النظم القديمة<sup>(١)</sup> . وكذلك نجد في كل نظام اجتماعي معقد متناقضات كثيرة فيما بين الآداب العامة العديدة ، وأيضا بين الآداب العامة المستقرة وبين مظاهر السلوك التي فرضتها الأحوال الاجتماعية السريعة التغير . ومن ثم ينبغي أن ندخل في الاعتبار مثل هذه العوامل عندما نحصى أسباب سوء التوافق وقيود الحركة والعمل والاضطرابات التي يتعرض لها الأفراد ؛ ويجدر بنا في نهاية هذا القسم أن نلفت النظر إلى أن هذه الفكرة الصعبة المتعذر اثبات صحتها ، هي التناقض الشديد بين رغبات الإنسان الواعية في العمل على تعديل بيئته وبين استعداداته العضوية أو « الغريزية » ( للرجوع إلى ثقافته الأولى التي كانت لأسلافه في عصر ما قبل التاريخ )<sup>(٢)</sup> ، لا يحسن الالتجاء إليها الا اذا لم تكن هناك تفسيرات أخرى كافية .

### دراسة الوراثة والبيئة

الجدل حول موضوع ( الوراثة « ضد » البيئة ) : توصل الأفراد في المجتمعات الانسانية منذ القدم الى أمر أيدهم المشاهدة مؤداه أن دم الوالدين يجرى في عروق أولادهم ، وأن الشبيه ينتج ذرية شبيهة . وعلى ذلك فالاختلاف في الوراثة قد يفسر تفسيراً صحيحاً الاختلاف في خصائص أو صفات الأفراد أو الزمر ( مجموعات الأفراد الذين تجمعهم

(١) W.F. Ogburn, *Social Change* (New York, 1923), Part II, Chap. VIII and Part IV, Chap. I.

ولاستخدام مفهوم « التخلف » لأوجيرن على نطاق واسع أنظر :

H.B. Barnes, *Society in Transition* (New York, 1939), especially Chaps. IV and XXI.

وأنظر فيما بعد Chap. XXVI بحثنا في قيمة هذا المفهوم .

(٢) ما بين القوسين اضافة مني — المترجم

عوامل مشتركة) <sup>(١)</sup> حتى اذا كانوا في بيئات مختلفة كل الاختلاف .. ويميل بالطبع بعض البيولوجيين لهذا التفسير ، يؤيدهم في ذلك عدد من علماء النفس وقليل من علماء الاجتماع ، على حين نجد الباحثين في البيئة يؤيدون بوجه عام تأثيرها في خصائص الأفراد وصفاتهم . وقد ترتب على ذلك أن احتدم الجدل وما زال محتدما حتى اليوم حول أهمية كل من الوراثة والبيئة . فذهب البعض في تفسير تنوع الناس والمجتمعات الى أن الوراثة هي العامل الأول المحدد لهذا التنوع ، بينما قلل آخرون من شأن الوراثة باسم البيئة . وجادل فريق من العلماء قائلان بعض الصفات كالصحة والذكاء تعتمد أساسا على الوراثة ، بينما سلموا بأن الصفات الأخرى — وعلى الأخص الصفات الاجتماعية كما تبدو في، مقاييس السلوك والعادات الجمعية والمعتقدات — تعتمد اعتمادا مباشرا على البيئة .

١ - الدراسات القديمة للمشكلة : أثار فرنسيس جالتون هذا الموضوع بصراحة في كتابه الأول من نوعه ، وعنوانه « العبقريّة الوراثية » . وقد حاول أن يظهر فيه أنه بينما يبدو أن ظهور العبقريّة خاضع للحظ فان هناك احتمالا كبيرا في أن يكون الأطفال الموهوبون أبناء لآباء ، هم أنفسهم ذوو درجة عالية من الذكاء . وقد أتم عمل جالتون باحث آخر هو كارل بيرسون ، الذي طبق طريقة التضايف (أو الترابط بين الظواهر) على المشكلة واستخلص أن تأثير البيئة أقل بكثير من تأثير الوراثة في تحديد الفروق الانسانية الهامة . وذهب بيرسون الى أنه حتى قوة تأثير كل عامل على حدة كان من الممكن قياسها ، كما قدم أدلة تحمل الى الذهن رأيا خلاصته أنه بالنسبة للأفراد الذين ينتمون الى جنس بشري واحد داخل مجتمع ما ، تلعب الوراثة دورا أهم سبع مرات من الدور الذي تلعبه البيئة <sup>(٢)</sup> .

(١) ما بين القوسين اضافة منى لزيادة الايضاح . - المترجم

K. Pearson, *Nature and Nurture* (London, 1910), and other papers in (٢)

:the Eugenics Laboratory Lecture Series.

وقد اقتضى أثر بيرسون باحثون كثيرون آخرون. وبعضهم اشتغل على مجموعات طبقية أو مهنية وأظهروا أن الزمر التي تتميز بأعلى درجات المكانة الاجتماعية أو الحالة العقلية قد أنجبت عددا من الأشخاص العباقرة أو الممتازين. وقد وضح هذا الترابط مثلاً في أبحاث ثبت منها أن الأسر المالكة تنتج من العباقرة نسبة أعلى من العباقرة، وأن أسر رجال الدين في الولايات المتحدة الأمريكية تنجب أكبر نسبة من الرجال الممتازين، ويتبعها بالترتيب أصحاب المهن الأخرى، فرجال الأعمال، فالزارعون، فالعمال، وأن رجال العلم الأمريكيين يرزون أكبر عدد منهم من طبقات أصحاب المهن، كما أن أقلهم ينجبون من طبقة الزراع وهكذا (١). واختار غير هؤلاء من الباحثين مجموعات بشرية وقومية وتوصلوا بعد تطبيق الاختبارات السيكلوجية — وعلى الأخص «اختبارات الذكاء» — إلى فروق ذات شأن بينها، كما في حالة اختبارات الجيش المعروفة الجماعات المهاجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وبوجه أعم بين أقسام السكان المتضمنة المواليد المحليين والمواليد الأجانب والزواج (٢). كذلك نرى بعض الباحثين اقتصروا على دراسة بعض الزمر العائلية للمقارنة فيما بينها وزودونا بتلك المقابلة المشهورة بين سلسلة الأخيار

(١) F.A.Woods, *Mental and Moral Heredity in Royalty*, (New York, 1906); S.S. (١)

Visher, "Study of the Type of the Place of Birth etc. of Fathers of Subjects of Sketches in Who's in America" *American Journal of Sociology*, XXX (1925) 551-557; J. McKeen Cattell, *American Men of Science* (3d ed., New York, 1921), p. 783.

(٢) للاطلاع على مثل هذه الدراسات ومعرفة القيمة العلمية لكل منها

انظر :

O. Klineberg, *Race Differences* (New York, 1935), Chaps. I VII and IX.

المتأزبن من نسب جونآان ادواردز ، وبن الذرتبن التمتبن لآل جوك وآل كالكاك (١).

٢ - ما تكشف عنه هذه الأبحاث وما لا تظهره : كثيرا ما تستخلص من هذه الأبحاث نتائج لا تدل على أكثر من تحليل سطحي لمشكلة الوراثة والبيئة . ومعظم هذه التحقيقات القديمة قدمت لنا أدلة أكثر دقة بشأن الملاحظة العامة الآتية : وهى أن أولئك الذين ولدوا فى عائلات أو زمر حاصلة على امتياز ما أو مكانة اجتماعية ، من المتوقع أن تبدو عليهم أكثر من غيرهم مظاهر الارتقاء العقلى أو غيرها من الصفات العالية . فمثلا جاء فى بحث أشرنا إليه فيما تقدم أن القرص التى منحت لأبناء العمال غير المهرة ليتبوا مراكز عالية ( استنادا إلى البيانات التى احتوتها طبعة ١٩٢٢ - ١٩٢٣ من دليل Who's Who in America ) لم تعد فرصة واحدة فى ٤٨٠٠٠ حالة ، وبالمقارنة بأبناء الزمر المهنية الأخرى ظهر أن من وصلوا لمراكز عالية من هذا المجموع كانوا بالتقريب كما يلى : من العمال المهرة ٣٠ ومن المزارعين ٧٠ ومن رجال العمل والتجارة ٦٠٠ ومن أصحاب المهن الكبيرة عدا رجال الدين ١٠٣٥ ومن رجال الدين ٢٤٠٠ (٢) . مثل هذه الوقائع هامة ولا شك . إلا أننا حينما نتناولها ينبغى أن نفرق بينها وبين ما نستخلصه منها . انها فى حقيقة الأمر تخبرنا أننا باختبارنا خاصة من خصائص التميز نجد أن بعض الجماعات المهنية فى بلد ما ( وفى زمن معين ) قد أنجبت أشخاصا ذوى مكانة بنسب مختلفة تتفق مع أعدادها . ولا يلزمننا هنا أن نناقش خاصة التميز المختارة . ولكننا مضطرون لأن نلاحظ أن هذه الأرقام لا تنبئنا مباشرة بأى شىء عن الوراثة أو عن البيئة . وإن كانت تفيدنا بعض الشىء عن مظاهر التداخل

(١) A.H. Winship, *Jukes-Edwards* (Harrisburg, P., 1900); H.H. Goddard, *The Kallikak Family* (New York, 1912); R.L. Dugdale, *The Jukes* (New York, 1877); and A.H. Estabrook, *The Jukes in 1915*, (Washington, D.C. 1916).

Visher, op. cit. (٢)

العديدة بينهما . وكثيرون من الباحثين الذين جمعوا هذه الوقائع يستتجون منها أن الوراثة عامل أقوى أثرا من البيئة . رغم أن هذه الوقائع نفسها يمكن أيضا أن تستخدم — وأن تستخدم بطريقة مشروعة ، لتأييد النتيجة العكسية . فقد لاحظنا أن كل زمرة معينة من هذه الزمر لها بيئتها الخاصة . ولقد قيل ان أوجه الشبه القائمة بين أعضاء الأسر المالكة يجب أن ترجع بسبب الأوساط المختلفة التي انحدر منها أسلافهم ، الى الخلايا الجرثومية الفسيولوجية وحدها <sup>(١)</sup> ( غير أنهم كانوا جميعا أعضاء في البلاط الملكي ا ) . وما تردد ذكره أيضا أن الزنجى يفتقر الى بلازما جرثومية ممتازة من النوع الذى يملكه الجنس الأبيض بعد أن لوحظ ما حصل عليه الزنجى من درجة واطئة في اختبارات الذكاء <sup>(٢)</sup> . كذلك كثيرا ما نسمع أن الأعمال التى تصدر عن أفراد الطبقات العليا الاجتماعية والاقتصادية تعتبر في ذاتها علامة مميزة لما يتركز في هذه الزمر من وراثة أفضل . وليس بخاف ما نقوله في لغتنا اليومية الدارجة « العرق شديد ، أو العظمة جامدة » . ولا يؤدى تقرير مثل هذه النتائج الى استبعاد تأثير الأحوال البيئية فحسب ، ولكنه كما سنرى يغفل أو يطمس التفاعل المستمر بين البيئة والحياة .

٣ - كلمة تحذير تمهيدية : كثير من هذه التحقيقات العلمية التى نحن بصدددها هنا اهتمت بأعمال الناس أو سلوكهم وقاست هذه الأعمال بالرجوع الى هذه الصفة المميزة أو تلك ، كما تبدو في الزمر الطبقيه أو المهية المختلفة . ونحن نعلم أن أطفال الطبقات « العليا » بوجه عام تقوم بمقدار كبير من العمل يفوق ما تقوم به أطفال الطبقات « الدنيا » ويجب ألا نفترض ، كما يفعل بعض الكتاب ، أن توزيع الزمر المهنية يمثل التشكيل الذى لا معدى عنه للسكان الى مستويات من المقدرة « الطبيعية »

Woods, op. cit. (١)

P. Popen and R.H. Johnson, Applied Eugenics (New York, 1926), (٢)

لأن هذا الافتراض يتجاهل بعض الجوانب الحاسمة للمشكلة التي نعالجها . وهو يغفل أن التوزيع المهني للناس ظاهرة اجتماعية معقدة . ليست محددة أو مقيسة بالعامل البيولوجى أو أى عامل آخر أوحده ، وسنعود الى هذه النقطة فيما بعد فى هذا الكتاب <sup>(١)</sup> . وفوق ذلك فإنه يسطر الى حد كبير دور التحرك العمودى <sup>(٢)</sup> ، أو التحرك الى فوق أو تحت فى الطبقات المهنية — وهو عملية يختص بها مجتمعنا الحاضر ( فى الولايات المتحدة ) وان كانت تتلاشى بالتدرج فى السنوات الأخيرة <sup>(٣)</sup> . ان التحرك الاجتماعى لم يحدث أنه حصل بحرية تامة بحيث يسمح لكل أو ربما معظم الأشخاص ذوى المواهب الموروثة بأن يستكشفوا مستوياتهم المهنية « الطبيعية » والا فما كنا لنجد ، كما يحدث الآن ، أنه فى أى زمن لابد أن نعر على بعض الأفراد الموهوبين فى أية زمرة مهنية كبيرة مهما كان مركزها الاجتماعى .

(١) أنظر الفصل الرابع والعشرين .

(٢) اصطلاح معناه انتقال الفرد من طبقة اجتماعية الى أخرى . ويقابله التحرك الأفقى وهو انتقال الفرد الى مستوى آخر فى طبقته . والاول كالانتقال من الطبقة الوسطى الى الطبقة العليا أما الثانى فمثل انتقال العامل فى داخل طبقته من عامل غير مدرب الى عامل مدرب أو ماهر أو رئيس عمال .

— المترجم

(٣) حاول L. Corey أن يقلل من أهمية التحرك الاجتماعى وفى بعض كتاباته أنكر وجوده فى الولايات المتحدة الأمريكية فى كتابه *The Crisis of the Middle Class* (New York, 1934), p. 222 and *passim*. ومع ذلك فوجود هذه الظاهرة مؤيد بالوثائق بالنسبة لاحدى الجماعات المحلية فى :

P.E. Davidson and H.D. Andreson, *Occupational Mobility in an American Community* (Stanford University, 1937); see also the same authors' *Occupational Trends in the United States* (Stanford University, 1940), especially Chap. I. The economic aspects of the process are discussed in O. Pancoast, Jr., *Occupational Mobility* (New York, 1941).

وسنتوسع فى مناقشة التحرك الاجتماعى فى الفصل الرابع عشر فيما بعد .

وأخيرا فإن الافتراض الذى تقدناه توا يقوم على تصورنا الناقص للعلاقة بين الوراثة والبيئة ، هذه العلاقة التى لا بد لنا من تناولها بشيء من التفصيل .

الوراثة « ضد » البيئة : بعض ما فحص من حالات غير مقنعة . يقع الناس فى أخطاء جدية كثيرة بشأن طبيعة الطبقات الاجتماعية والتمييز العنصرى ( بين الأجناس البشرية ) والوحدات القومية وغير هذه من الموضوعات ذات الأهمية السوسولوجية الكبيرة ، بسبب الآراء المنحرفة عن العلاقة بين الوراثة والبيئة الاجتماعية . ومن أجل ذلك سنستخدم مجموعة متنوعة من « الأدلة » الكثيرة التداول بقصد توضيح الحاجة لتحليل أكثر عناية لهذه المسائل :

١ - الدراسات المقارنة لاختبارات الذكاء بين الزوج والبيض :  
وهنا سنتناول أولا الدراسات المعروفة التى كثيرا ما يرجع إليها الكتاب فى موضوع الذكاء المقارن بين الزوج والبيض فى الولايات المتحدة . وقد جاء فى البعض من أقدم هذه الأبحاث ، استنادا الى وقائع تتعلق باختبارات للذكاء مطبقة على المطلوبين للتجنيد أثناء الحرب العالمية الأولى ، أن متوسط العمر العقلى للزوج كان ١٠ سنوات ، يقابله ١٣ سنة للبيض (١) . وقد أظهرت كثير من التحقيقات التالية بشأن نفس المقارنة درجات أعلى مماثلة لذكاء البيض وأقل منها للزوج (٢) ، وإن كانت هناك اثنان منها على الأقل أجريتا على الترتيب فى لوس

---

B.W. Yerkes, *Psychological Examining in the U.S. Army, Memoirs*, (١)  
National Academy of Sciences, XV (1912).

(٢) هذه الدراسات قد أحصيت وحللت مثلا فى كتاب :

Klineberg, op. cit., and in *Intelligence: Its Nature and Nurture*, The Thirty-ninth Yearbook of the National Society, for the Study of Education (Bloomington, Ill., 1940), Vol. I, Chap. IX.

انجليس ونيويورك ولم تكشفنا مثل هذا التقابل (١) . ومع ذلك فانه الاكتشافات المتطابقة بشأن الدرجات الدنيا لذكاء الزوج في الولايات المتحدة الأمريكية تحتاج الى تفسير . وهناك مسألتان هامتان تثيرهما في الحال هذه الاكتشافات . ( وقد يجوز لنا أن نفعل مشكلة مدى صدق تمثيل عينات السكان التي درست ، بسبب التطابق العام لنتائج كثير من التحقيقات ) .

ففى أول الأمر ينبغي أن نتساءل عن مدى ما يمكننا أن نستخلصه بشأن المستوى العام للعقلية للبيض والزوج ، من نتائج معينة مطبقة على زمر منتقاة ؟ هل هذه الاختبارات صحيحة ؟ اننا نواجه هنا صعوبتين : احدهما تختص بالفرض العلمى الذى نقرر على أساسه أن الاختبارات المتضمنة درجات للسهولة فى أداء عمليات معينة فى ظروف معينة ، تمثل بصدق درجات للذكاء العام أو « العمر العقلى » . ويذهب أحد الخبراء الى أن « اختبارات الذكاء تعتبر الى حد كبير مجرد اختبارات للمعرفة تبين بطريقة نسبية طاقة العمل عند الأطفال المتساوية أعمارهم ، وأن كثيرا من هذه الاختبارات لا تعدو أن تكون بالضرورة أقيسة غير مباشرة لدرجة الاستعداد المدرسى أو القابلية للتعليم » (٢) . فما الذى يمكن أن

---

W.S.Clark, "Los Angeles Negro Children" *Educational Research Bulletin*, (١)

"Los Angeles City Schools" (1923); J. Peterson and L.H. Lanier, "Studies in the Comparative Abilities of Whites and Negroes" *Mental Measurement Monographs*, V (1929).

G.D. Stoddard in *Intelligence: Its Nature and Nurture*, I, 6. (٢)

وهو يقول أيضا « ان ذكاء الزوج كما ظهر كفاهتهم العامة أمر مسلم به ، وأن الأدوات الحاسبة المستخدمة فى الاختبارات العقلية هى من الأشياء التى يالفيها الأطفال فى المدارس وقبل أن يدخلوا المدارس مثل الخرز الذى يسلك « يلضم » والمكعبات الخشبية التى تبني والافاز وصور الحيوانات والاحاجى والمسائل الحسابية والتعاريف والالقاء من الذاكرة » ( الكلمات المطبوعة بالرقعة مميزة بتوجيه من ستودارد ) .

— المؤلفان

تستخلصه من نتائج الاختبارات التى تقيس « الاستعداد المدرسى » أو القدرات المشابهة المتعلقة بتلك الصفة العامة ( المسيرة التعريف ) التى نطلق عليها « ذكاء الأهالى الزوج » ؟ أما الصعوبة الثانية وهى متصلة بالأولى أشد الاتصال فتختص بالأساس الثقافى لكل من البيض والزوج . فهل الاختبارات المطبقة على الفريقين غير متحيزة ، بمعنى أنها تقيس بالتساوى هذه القدرات التى يتبين الذكاء من خلالها تحت تأثير ظروف المعيشة عند كل منهما ؟ وبالرغم من أن علماء النفس قد قاموا بتحسين كبير فى السنوات الأخيرة فى مقدار عدم تحيز — أو موضوعية — اختبارات الذكاء فإن قلة منهم تدعى أنه قد أمكن التوصل الى طرق جديدة يمكن بها أن تقيس بالتساوى ذكاء الزوج الذين ينتسبون لمستويات ثقافية الفروق بينها شاسعة ونظرا لأن المستوى الثقافى للزنجى يختلف بوجه عام عنه عند الرجل الأبيض ، فإن الصعوبة الناشئة هنا لابد أن تكون جديدة .

ولنفترض مع ذلك أن هذه الصعوبات أمكن التغلب عليها . ففى هذه الحالة يكون علينا أن نواجه مسألتنا الرئيسية الثانية . اننا نزعم الآن أننا قد وجدنا العلامات الدالة على الذكاء عند كل من فريقى البيض والزوج . فهل يكون من حقنا أن نستنتج أن هذه العلامات تكشف خروق الذكاء الوراثية والبشرية عند الفريقين ؟ حتما لا ، لأننا لم نفعل شيئا حتى الآن لاستبعاد عامل تفاوت البيئة . ولا تستطيع مثل هذه الاختبارات أن تغفل تأثير تفاوت التعليم والخبرة والحياة المنزلية والقرص الاجتماعية . وإذا كان الزنجى هو الشخص الأردأ فى هذه الاختبارات أفلا يمكن أن يكون للبيئة دخل فى هذه النتيجة ، تلك البيئة الشاملة التى لا تتضمن نواحي التخلف الاقتصادى والتعليم المدرسى المتأخر أو النادر فحسب ، وإنما يدخل فيها كذلك النواحي الأقل كالاقتدار الى عواعت النشاط الاجتماعى وكل ما يتهيأ للرجل الأبيض من آمال فسيحة

في الحياة ؟ وللجواب على هذا السؤال نذكر أن الأطفال الزوج في شمالي الولايات المتحدة الأمريكية يصيبون درجات أعلى في الذكاء مما يبلغ أقرانهم في الجنوب — وبالضبط حوالي سبع درجات زيادة في نسبة الذكاء ، في مدينة نيويورك . وقد قرر بروفيسور كلاينبرج أن هذا الفرق لا يرجع الى الهجرات المختارة ، كما خلص بأن أصبح اختبار لمعرفة الفرق بين الأجناس البشرية ينبغي أن يتم في ظروف مثالية من حيث استبعاد التمييز العنصري والتحقق من تكافؤ الفرص . واذ ذاك تكون اختبارات الذكاء مقاييس لاستجلاء القدرة على العمل المنتج ، لا مجرد وسيلة لمعرفة الفروق البشرية في القدرة العقلية كما فطرت عليها جيلة البيض أو السود (١) .

ولا شك أن البيئة التي عاش فيها ماضيها والبيئة التي يعيش فيها حاضرها ، كلتاهما تدفعان حياتنا . هل يا ترى يمكننا أن نقيس تأثير البيئة ومنها نتقل الى تأثير الموضوع فيما بعد . وكل ما نستطيع أن نؤكد هنا هو أن اختبارات الذكاء لا تسمح لنا بتعرف دور الوراثة . انها مفيدة فقط من حيث اظهار الفروق القائمة في زمان ومكان معينين للدلالة على القدرة على العمل الانساني ، كنتيجة لما تقتضيه البيئة والحياة معا .

٢ - قياس الخصائص الجثمانية : الظاهر أن بعض الصعوبات التي اعترضتنا في القسم السابق لا وجود لها هنا . وذلك لأن الخصائص الجثمانية أشياء محسوسة وقياسها أسهل بالتأكيد من قياس الخصائص العقلية . ومن الممكن تمثيل مدى تنوع الخصائص الجثمانية للزمر المنتسبة لجنسيات مختلفة في رسوم بيانية . وترينا إحدى الدراسات المعنية بهذا الموضوع أن ارتفاع قامة جنود الجيش اليابانيين يتراوح من أقل من ٥٦ بوصة الى ٦٩ بوصة والجنود الأمريكيين من حوالي ٦١ بوصة

الى ٧٥ بوصة تقريبا ، وأن متوسط طول القامة للفريق الأول ٦٣ر٢٤ بوصة وبالنسبة للفريق الثانى ٦٧ر٥١ <sup>(١)</sup> . وقد يلزمنا أن نذكر ملاحظة عابرة بشأن هذه الأرقام ، فهي لا تقيس بالدقة متوسط قامة الذكور عند الشعبين ، ولكنها توضيحات مفيدة لما بينهما من فروق . وفيما نرى يمكن الخطر الأول فى هذه المقارنة العددية فى أنها تقيس فرقا وراثيا بين الفريقين . ولذلك لأننا لا نعرف حتى الآن تأثير التعرض المستمر لبيئات مختلفة . ونحن لا يمكننا أن نفترض أن ظروف الحياة ونوع الطعام والنشأة والمناخ لا دخل لها فى ما وضح من فروق .

وفى الواقع يوجد دليل مقنع على أن الأطفال حينما يتعرضون لأحوال غير ملائمة كأن يعوزهم الغذاء الكافى خلال حرب أو اضطراب اقتصادى شديد ، كما هى الحال اليوم فى جزء كبير من العالم <sup>(٢)</sup> ، فإن بعض التغيرات تطرأ على قامتهم ووزنهم . وعكس هذا يحدث اذا كانت الظروف التى يعيش فيها الأفراد مواتية . فقد أثبت فرائز بواس مثلا أن مواليد المهاجرين الى أمريكا ، وعلى الأخص اليهود واليابانيين لا ينمون فى متوسط طول القامة الى أن يبلغوا بوصتين زيادة على متوسط طول والديهم فحسب بل ان شكل رؤوسهم قد تغير كذلك <sup>(٣)</sup> . ومن الأحكام القاطعة أو الجازمة أن يقال استنادا الى تكاثر هذا النوع من الأدلة ،

(١) توجد الرسوم الخاصة بهذه النتائج فى :

R.E. Chaddock, *Principles of Statistics* (New York, 1925), p. 227; see comments in F.H. Hankins, *Racial Basis of Civilization* (New York, 1926), Part II, Chap. II.

(٢) وضع المؤلفان هذا الكتاب فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وقيود الطعام كانت لا تزال شديدة فى كل الدول سواء التى خرجت من الحرب منتصرة أو مغدولة . - المترجم

(٣) أنظر F. Boas, "Effect of American Environment on Immigrants and Their Descendants", *Science*, Dec. 11, 1936; and *The Mind of Primitive Man* (Rev. ed., New York, 1938), especially Chap. VII.

أن الوراثة وحدها هي المسئولة عما يظهر من فروق فسيولوجية بين الزمر القومية أو البشرية .

ونحب أن نؤكد للقارئ أننا لا نفتعل الأدلة لتأييد أثر البيئة . فنحن لا ننكر لحظة أن الوراثة تسهم في تفسير فروق المقاييس الجثمانية بالنسبة للزمر المختلفة ، وإنما الذى ننكره أن تكون هذه الفروق مقاييس دقيقة لمدى تأثير الوراثة أو البيئة . خذ مثلاً مسألة طول القامة كما يعرضها أحد المشتغلين بالوراثة اذ يقول : « هناك عوامل كثيرة تؤثر في وراثة صفات القامة منذ اللحظة الأولى لوقوع الحمل وخلال مرحلة البلوغ ، مثل صحة الأم وما يعترىها من اضطرابات في الغدد ، وعاداتها الغذائية ، والمناخ ، والأحوال المعيشية ، ونوع المهنة — ان وجدت — والرياضة البدنية ، وطرق المشى ، وكيفية النوم ، وجميع هذه الأمور تتدخل في تحديد بنية الجسم <sup>(١)</sup> . وما دامت هذه المؤثرات تتكاثف جميعاً فلا عجب أن تكون مهمة قياس العوامل المختلفة للوراثة أشد تعقيداً مما يظن كثيرون من المهتمين بالمقاييس الحيوية . ونحن نعلم من طريق دراسات مندل وسواه أن الذرية ترث بعض الشيء الصفات أو الخصائص التي قد تكون متوارية في الوالدين ولكن ظاهرة في الجداول والأسلاف البعيدين . وبعبارة أخرى ينبغي أن ننظر الى الوراثة وفي ذهننا عدة أجيال على الأقل . وإذا كنا من جهة أخرى ننظر الى البيئة على أساس تأثيرها في جيل واحد ليس غير فقد نستخلص استنتاجات مضللة بشأن أهميتها . وهناك ما يدعو الى الاعتقاد أن قامة الشعوب الأوربية بوجه عام قد طالت منذ أيام الفرسان المسلحين . كذلك توجد أدلة على أن طلبة الكليات الأمريكية في الوقت الحاضر أطول قامة وأثقل وزناً من زملائهم منذ عشرين أو ثلاثين عاماً . وربما كانت قامة الذكور

A. Scheinfeld. (*You and Heredity*, (New York, 1939), pp. 81-82 (١)

نوصى الطالب بقراءة هذا الكتاب كله اذ أنه من خير الكتب وأكثرها رصانة على مناقشة موضوع الوراثة .

الأمريكيين من المواليد المحليين أكثر بوصتين عن قامة أمثالهم منذ نصف قرن ، فإذا كانت الحال كذلك فمن الواجب ألا نسقط تأثير البيئة على مدى طويل ولا تأثير الوراثة . وإذا كان هذا صحيحا بالنسبة للخصائص الجثمانية فإن صحته تكون أشد وضوحا بالنسبة للخصائص العقلية والاجتماعية التي تحمل كما سنرى علامات لا شك فيها على الميراث الاجتماعي .

٣ - الفروق القائمة بين الزمر المهنية : ويتعلق الموضوع التالي بمسألة سبق أن أثرناها ، وهي كيف تفسر الفروق في القدرة على العمل وفي الذكاء التي يبدو أنها موجودة بين الأفراد المنتمين الى زمر مهنية مختلفة ؟ وقد يعيننا أن نستعرض بحثا أو بحثين حول هذا الموضوع :

الأول بحث يتعلق بالبيئة الاجتماعية التي انحدر منها كبار رجال الأعمال الأمريكيين ، وهذا تحقيق علمي ذكر عنه مؤلفاه أنه « يوحى بقوة أن لتباين الدخل بين الطبقات المهنية العديدة أصولا تتوغل في الماضي بحيث يمكن ارجاعها الى فروق أساسية في المواهب منذ المولد ، لا الى عدم تكافؤ الفرص » <sup>(١)</sup> . وقد استمد الدليل الموصل لهذه النتيجة من قائمة أسئلة اشترك في الاجابة عليها عدد كبير من مشلى كبار رجال الأعمال ، اشتملوا على شركاء وأصحاب أعمال ومديرين لديهم المبيعات أو من الدخل ما يبلغ قيمته ٥٠٠٠٠٠ دولار . ومن هؤلاء وجد أن ٣٦ في المائة كانوا أبناء لرجال أعمال « كبار » ومن المجموع بوجه عام ٥٦٧ في المائة كانوا أبناء « رجال أعمال يتفاوت مركزهم المالي صعودا أو هبوطا » ، بينما كان ١٢٤ في المائة أبناء مزارعين و ٥ في المائة أبناء كتبة أو بائعين في المحال التجارية و ٨ في المائة أبناء عمال مهرة و ٢٢ في المائة أبناء عمال عاديين . وفيما يختص برأس المال أو الاتصالات من حيث

---

F.W. Taussing and C.S. Joslyn, *American Business Leaders* (New York, (١)

كونها عوامل يئنية تسهم بقدر كبير فى نجاح الأعمال ، فقد وجه المؤلفان عدة أسئلة تتعلق بارث المال والمعونة المالية من الأهل والأصدقاء وأمثالهم ، فقرر ١١٦ فى المائة ممن استجابوا لهذا الاستفسار أنهم تلقوا « معونة مالية جدية » من مثل هذه المصادر كما أجاب ٣٦ فى المائة تقريبا بأن « اتصالات ببعض ذوى النفوذ » نفعتهم فى نجاح أعمالهم . وسجل أن ٣٢ فى المائة من المجموع الكلى لرجال الأعمال الذين درسوا كانوا من خريجي الكليات .

وقد استنتج المؤلفان من هذه البيانات أن « الافتقار الى المواهب عند المولد لا الافتقار الى الفرص » هو الذى يفسر التمثيل غير المتناسب للزمر المهنية المختلفة . وبالإشارة الى مناقشتنا السابقة لا يسعنا الا أن ندع للطلاب أن يقرر ما اذا كانت الأدلة التى سقناها ( حتى اذا كانت

| الجدول ١ — الذكاء وطول مدة التربية المدرسية وعلاقتهما بالمستويات المهنية                  |             |                                    |                   |
|-------------------------------------------------------------------------------------------|-------------|------------------------------------|-------------------|
| المستويات المهنية                                                                         | عدد الحالات | متوسط عدد السنوات المقضية بالمدرسة | متوسط نسبة الذكاء |
| ١ - المهن الكبيرة والأعمال الحرة وإدارة الأعمال ، إلى آخره                                | ١٣٠         | ١٧ر٣                               | ١١٥               |
| ٢ - المهن الصغيرة والأعمال الحرة الصغيرة والمزارعون والبائعون بالمحال التجارية ، إلى آخره | ٥٦٥         | ١٤ر٠                               | ١٠٨               |
| ٣ - الوظائف الكتابية والصناعات المحتاجة لتدريب ومهارة ، إلى آخره                          | ٢٢٨         | ١٢ر٠                               | ١٠٤               |
| ٤ - العمال شبه المهرة                                                                     | ١٢          | ١٠ر٨                               | ٩٩                |
| ٥ - العمال غير المهرة                                                                     | ١٠          | ٩ر٤                                | ٩٧                |

أدلة ذات جانب واحد ) تؤيد « بقوة » النتيجة التى وصلنا اليها . كذلك هل هذه النتيجة تتفق والواقعية التى تؤيدها عرضا الأدلة المسوقة نفسها ، ومؤداها أن « كبار رجال الأعمال فى الولايات المتحدة هى

اليوم ( حوالى عام ١٩٣٩ ) يجندون ، أكثر مما كانت عليه الحال لدرجة كبيرة منذ ثلاثين أو أربعين عاما ، من بين أبناء مديري الأعمال ؟ أما بخصوص المسألة الأكبر خطرا والمتعلقة بدور كل من الوراثة والبيئة فهل يمكننا أن نستخلص أية نتيجة صحيحة مهما كانت من مثل هذه الأرقام التى قدمناها ؟

قد يتساءل القارئ قائلا : « حسن جدا ، وما موقفنا بشأن فروق الذكاء بين الزمر المهنية المختلفة ؟ » والحقيقة أن الطبقات المهنية العليا أصابت درجات أعلى فى اختبارات الذكاء كما ثبت فى عدد من الأبحاث التى تتفق نتائجها مع تلك التى ضمها الجدول ١<sup>(١)</sup> . وترينا هذه الأبحاث بالطبع أن الأعمال التى تعطى أجرا « أفضل » والتى هى موضع التقدير العالى يقوم بأدائها فى العادة الأفراد « الأذكى » من غيرهم كما أيدت ذلك الاختبارات ، ومما هو ذو مغزى خاص أن هؤلاء الأفراد قد نالوا حظا موفورا من التربية المدرسية الطيبة . ولكننا قد تتساءل مرة ثانية عما تفيدنا هذه الأبحاث فى موضوع تأثير كل من الوراثة والبيئة فى تحديد الفروق الطبقة ؟ وإذا كنا نستخلص من مثل هذه البيانات التى جاءت فى الجدول رقم ١ أن الطبقات الاقتصادية العليا تستمتع أكثر مما عداها بميزات ترجع الى الوراثة ، فقد يكون ذلك تمشيا مع اعتقاد سائد فى بعض الدوائر العلمية ، الا أن هذا الاعتقاد لم يتأيد بعد ماديا . وقد لاحظ أحد المجتهدين من الباحثين فى هذه المشكلة أنه بينما أظهر البحث المتصل « ما أسهمت به كل من الوراثة والبيئة من تأثيرات فإن المسألة

---

W.M. Proctor, "Intelligence and Length of Schooling in Relation (١) to Occupational Levels", *School and Society*, XLII (1935), 783-786. This study and several other similar ones are discussed by A.W. Kornhauser in *Industrial Conflict : A Psychological Interpretation* (G.W. Hartmann and Newcomb, eds., New York, 1939), Chap. XI, pp. 201-216.

كلها ما زالت جدلية لدرجة أننا عندما تبين الفروق الطبقية « من خلال قياس الذكاء (١) .

٤ - سلاسل النسب الراقية والمنحطة : سيكون المثل الأخير الذي نضربه هذا التقابل المعروف بين بعض الزمر مثل عائلات آدمز وإدواردز وسولتستول من جهة وعائلات كاليكك ونام وجوك من جهة أخرى ، وكانت جميعا موضع اهتمام كتب الأمس في علم الاجتماع (٢) ، وما تزال تستخدم لسوء الحظ كدليل على الوراثة الحسنة والوراثة الرديئة . ولننظر الى سلالة جوك . فقد أمكن في عام ١٨٧٧ تسجيل ١٢٠٠ شخص من ذرية رجل يدعى جوك وأبنائهم وأحفادهم . وكان جوك هذا جدهم الأكبر قد ولد في نيويورك عام ١٧٢٠ ، ووجد أن ٤٤٠ شخصا من هذا العدد يعانون من العيوب الجثمانية أو المرض ، وأن ٣١٠ كانوا فقراء معدمين ، و ٣٠٠ ماتوا في دور العلاج ، وأن ١٣٠ كانت قد صدرت ضدهم أحكام دمغتهم بالأجرام ، منهم ٧ قتلة ، وأنه ربما كان أكثر من نصف النساء اللواتي حملن اسم جوك من المومسات . وظهر عندما بحثت هذه العائلة مرة ثانية في عام ١٩١٥ أن عدد أفراد سلالتها كانوا قد بلغوا ٢٨٢٠ شخصا ، منهم ٦٠٠ قواهم العقلية مختلة ، وكانوا أحياء عند التسجيل . وفي مقابل هذه الصورة المعتمدة الكثيفة سجلت الصفحة المشرقة لسلالة جوناتان إدواردز ، الذين أمكن احصاء ١٣٩٤ شخصا منهم في عام ١٩٠٠ . وكان من هذا العدد على الأقل ٢٩٥ من خريجي الكليات ، كثيرون منهم من الممتازين في عالم المهن الكبيرة ومن رجال الأعمال كما أنهم تضمنوا ١٣ شخصية شغلت وظائف عمداء كليات ، وواحدا كان نائبا

---

(١) Kornhauser, op. cit., pp. 215-216 . وضع خط تحت كلمتين أشار

كورنهاوزر بأهميتهما كما ذكر المؤلفان في النص الانجليزي .

- المترجم

(٢) Scheinfeld, op. cit., p. 360; see Chap. XXXIX of this volume for

an excellent discussion of ancestry.

لرئيس الولايات المتحدة . ولم يبد في السجل أن أحدا ممن حملوا اسم ادواردز قد دمنتهم المحاكم بأنهم مجرمون .

إن التقابل في هاتين الحالتين صارخ . ولكن لا شك أن الذين يندفعون في الادعاء بأنه يكشف عن انتصار الوراثة على البيئة قد ضلوا السبيل . قفى أول الأمر ينبغى أن نوجه السؤال الآتى : بأى معنى يعتبر أفراد جوك وادواردز الموجودون في جيل حاضرهم نفس عائلاتهم التى عاشت في الجيل التاسع أو العاشر في الماضى ؟ إن كل جيل ما هو في الواقع الا خليط جديد من الأفراد والدم الذى يجرى في عروقنا هو دم الأجيال العديدة المخلطة . وإن الأسماء البارزة من أسلافنا قد أسهم في انجابها أو اخراجها من الظلمات الى النور أشخاص عديدون خلو مما عندهم من كروموزومات أو خصائص وراثية بالمعنى البيولوجى . وفوق ذلك فإن انتاج أى فرد ينطوى على فقدان نصف عدد الوحدات الوراثة من كل من الوالدين . وهذه الوحدات غير المتناهية في العدد بشكل خارق ، توحى في النادر من الأحوال حدوث نفس التركيب البيولوجى في شخصين أو أكثر . « ويترتب على ذلك أن أفضل الصفات الوراثة قد تظهر في الوالدين وتتلاشى في ذريتهما ، وأن العبقرية التى تكون نصيب أحد الأسلاف قد يحل محلها العدماء المقدرة أو البلاهة أو الجنون في أحد أفراد الذرية » (١) . ولننظر الفروق الممكن مشاهدتها بين أفراد الأسرة الواحدة . اننا عندما ندرس هذه الفروق نصادف من العوامل البيئية الجديدة ما يعقد بحثنا في علل هذه الفروق تعقيدا شديدا . فنحن نكتشف مثلا أن مظاهر السلوك المنوعة بين الأطفال متصلة ببعض الظروف

---

(١) E.C. Conklin, *Heredity and Environment* (Princeton, 1923), p. 312.

واذا شاء القارىء التوسع في هذه النقطة فلينظر أحدث مناقشات الباحثين البيولوجيين لهذه العملية ، على سبيل المثال ، فى :

F Osborn, *Preface to Eugenics* (New York, 1940), and S.J. Home , *Human Genetics and Its Social Import* (New York, 1936).

كالترتيب الزمني في المولد ، والتغيرات التي تطرأ على تجارب الوالدين ، ومواقفهم أو نظرتهم للأمور . وينبغي أن نذكر أنه لا يوجد اثنان من سلالة جوك أو أدواردز يطابق أحدهما الآخر من جميع الوجوه .

وليس معنى ما تقدم أننا نرفض ما يراه أكثر علماء تحسين النسل الانساني اعتدالا ، من أن الشبيه يميل الى انتاج الشبيه (١) . كذلك ليس لدينا تسويغ لانكار أهمية الوراثة أقوى من تسويغ بعض علماء تحسين النسل الانساني لانكار أهمية البيئة . ومع ذلك فإن هذه الآراء التي عرضناها توا تشير الى نقطتين على جانب من الخطر : الأولى تعقد الوراثة نفسها وكونها غير مؤكدة ، والثانية هذا السخف الذي يجعل البعض ينسبون الى جد سابق دون غيره جميع الفضائل أو الرذائل الاجتماعية التي تلاحظ في بعض زمر السلالة . ويطلب منا باحث معروف في « علم تحسين النسل الانساني » أن نضع في ذهننا دائما أن الفرد واحد لا يتكرر ، وأن كل خلية في جسمه الحي تحمل كل ما تحتاج اليه من كروموزومات ووحدات وراثية ، كلها متشابهة ، ولكنها رغم ذلك تختلف عن نظائرها في أي كائن حي آخر ، حتى أن كل جزء من الجسم يفعل انفعالاته الخاصة مع المؤثرات البيئية التي تعدد درجة نموه (٢) ، وفي هذا تذكرة ذات مغزى للباحث في الحياة الاجتماعية .

وتوحي طبيعة موضوع جوك وأدواردز من جوانب أخرى الحاجة

---

(١) فمثلا نجد عند L. Darwin, in *What is Eugenics?* (New York, 1928) شرحا معقولا لحقيقة الوراثة على النحو الآتي : نحن لا نستطيع أن نتنبأ بصفات أي انسان قبل مولده . ولكن اذا عرفنا صفات أقرب الناس اليه أمكننا أن نقرر الكثير مما يحتمل أن تكون صفاته . ومعنى هذا أننا رغم ما نتعرض له من خطأ من جراء استخدام هذه الطريقة نكون بوجه عام أقرب بكثير من الحقيقة مما لو اعتمدنا على الصدفة .

(٢) Osborn, op. cit., p. 37

الى التحوط . فقد وصف حوالى ٦٠٠ شخص من سلالة ادواردز بأنهم من « العظماء » ولكن كم كان العدد الكلى للسلالة ؟ لا أحد يعرف ذلك بالدقة ، وان كان المفهوم أن هذا العدد يبلغ عدة آلاف — مع ذلك بالدقة ، وان كان المفهوم أن هذا العدد يبلغ عدة آلاف — مع ما نجهل من صفات بعضهم <sup>(١)</sup> . وينبغى أن نلاحظ أن الأعضاء الأكثر يسرا في التعرف عليهم في أى سلالة هم أولئك الذين تميزوا عن أقرانهم على نحو ما ، أى كما حدث تماما في حالة عائلة جوك ، فان الذين أخفقوا منهم اخفاقا ذريعا في حياتهم هم الذين كان تتبعهم أكثر سهولة <sup>(٢)</sup> . ومع كل ذلك فالفرق بين السلالتين قائم بلا ريب . فنحن نبحث عن سلالة جوك في مستشفيات الأمراض العقلية والبيوت الفقيرة ونجد بعضهم في هذه الأماكن ، بينما نفحص وظائف الخدمات الممتازة بحثا عن سلالة ادواردز فنوفق في العثور عليها . ولكن يجب ألا ننسى هنا أن عائلة جوك عاشت في بيئة اجتماعية غير مواتية ، بينما عاشت عائلة ادواردز في بيئة مواتية . واذا ادعى أحد أن تحديد الزمرة للبيئة أكثر من تحديد البيئة للزمرة كان هذا الحكم متحيزا . وقد عرفت أبحاث السلالات العائلية المشهورة

Cf. P.A. Witty and H.C. Lehmann, "An Interpretation of the Hereditary (١) Background of Two Groups of Mental Deviates", *American Journal of Sociology* XXXIV (1928), 28. See also by the same authors. "The Dogma and Biology of Human Inheritance", *idib.*, XXV (1930), 548-563.

(٢) هذه النقطة أوضحها بعناية Scheinfeld, loc. cit. حيث يقول :

There was a Bostonese  
Who searched out pedigrees  
Which she stored in the middle of her forehead;  
And when they were very, very good,  
And when they were bad — they were horrid.

( أى أن الباحث في السلالات لا يلفت نظره ولا يذكر إلا الحسن جدا أو الردىء جدا من الأفراد ) — المترجم

بهذا النوع من التحيز . فقد عجزت عن أن تفرق بين توريث الوحدات الوراثية وتأثيرات البيئة الرديئة التى تنتقل من جيل الى آخر . وعلى ذلك فهذه الأبحاث شائعة من حيث هى دراسات اجتماعية ، أما أن تتخذ منها دليلا على تأثير الوراثة فهى مرفوضة بوجه عام فى الوقت الحاضر (١) .

**الوراثة « ضد » البيئة :** فحص التجارب العلمية « المتحكم فيها » :  
توحى هذه الحالات التى فحصناها حتى الآن بالتفاعل الدائم بين الوراثة والبيئة . والذين يقللون من أهمية البيئة لا يرون الا جانبا واحدا منها ، ويرى الجانب الآخر من يحقرون شأن الوراثة . ولما كانت خصائص كل من البيئة والزمرة الاجتماعية التى تعيش فيها مترابطة — وليست منفصلة البتة فى الحياة نفسها — فان من السهل أن نستخلص نتائج مضادة من نفس الظواهر . وذلك مع بقاء الترابط نفسه قائما بدقة ووضوح —  
فما لاشك فيه أن أبناء الآباء الناجحين أكثر نجاحا من متوسط نجاح آبائهم . ولكن ينبغى ألا ندع أى يقين سابق يحدد مقدما جانب الترابط — سواء أكان الوراثة أو البيئة — الذى نرى فيه علة النجاح أو الاخفاق .  
وازاء هذا الترابط الدائم حاول باحثون كثيرون استنباط طرائق تعين على معرفة العوامل الدائمة والعوامل المتغيرة . والقاعدة المتضمنة هنا أن الفروق التى تظهر لنا يمكن ارجاعها الى العامل المتغير وحده ، ويؤيد ذلك أن اخصائى النبات يمكنه أن يحصل على بذور من نبات معين ثم يزرعها فى أحوال مختلفة فيما يتعلق بالتربة والمناخ . ويستطيع فى هذه الظروف أن يرجع الفروق الى عامل البيئة ، أو بالدقة الى مزيج من نفس

---

(١) Osborn, op. cit., pp. 47-48 . ويذكر لا نسلوت هوجين ، اخصائى علم الوراثة ، بصراحة ما يلى : « اذا قدر لعلم الحياة الاجتماعى أن يصبح علما مضبوطا فان هذا التاريخ المقبض لسلالة جوك سينظر اليه كما ينظر الآن الى الكيمياء القديمة » .

الوراثة وبيئات مختلفة . والآن فهل في مقدور السوسولوجى أن يجرى تجاربه على هذا النحو ؟

أولئك الذين أجابوا على هذا السؤال بالإيجاب وجهوا اهتماما خاصا منذ بداية البحث العلمى فى الوراثة — الى تلك الحالات أو الأمثلة التى يمكن أن ينظر فيها الى الوراثة البيولوجية على أنها ، عمليا ، واحدة من ناحية تشابها . وذلك لأن هذه الحالات تمدنا بفرصة قيمة لتحديد مدى الدور الذى يلعبه عامل البيئة المتغير ، وبالتالى عامل الوراثة أيضا . والفرصة سانحة بالفعل فى حالة التوأمين « الشبيهيين » اللذين انحدرا من بيضة مبيض معينة . وكان جالتون أول من تعرض لهذه الموضوعات خلال القرن الماضى ( وذلك على أساس نظريات بيولوجية تعتبر فى وقتنا الحاضر غير كافية ) وقد أدى ما بين التوأمين من تشابه ملحوظ تحت ظروف عديدة الى أن يزداد يقينا فى الدور الرئيسى الذى تقوم به الوراثة فى احداث ما بين الناس من تشابه وفروق <sup>(١)</sup> . وحاول باحثون من بعدهم أن يقبلوا الوضع بأن يدرسوا حالة أطفال متباينين وراثيا بعد تنشئتهم فى بيئة واحدة بمعنى الكلمة . هذان الوضعان المختلفان يبعثان الأمل فى أن تتمكن من تذليل الصعوبات التى عرقلت قليلا ما أشرنا اليه توا من أبحاث .

١ - الأبحاث الخاصة بتنشئة التوائم الشبيهة معا : منذ أربعين سنة والبيولوجيون والسيكولوجيون والاختصاصيون يدرسون الخصائص الجثمانية والسلوكية للتوائم ، واستطاع الباحثون فى السنوات الأخيرة أن يميزوا بين التوأمين الأخوين المنحدرين من بويضتى مبيض مختلفتين .

---

F. Galton, *Inquiries into the Human Faculty and Its Development* (London, (١) 1883). See G.C. Schwesinger, *Heredity and Environment* (New York, 1933), pp. 175-231, for a review of the series of researches initiated by Galton.

وين التوأمين الشبيهيين المنحدرين من بيضة واحدة . ولقد أصبح من الأمور المقررة أن التوأمين يظهران صفات جثمانية وعقلية أكثر تشابها فيما بينها من نظيرها عند الشقيقين غير التوأمين ، وانه من ناحية بعض الخصائص الجثمانية المعينة نجد التوأمين الشبيهيين أكثر تقاربا في مظهرهما من التوأمين الأخوين . وقليل من هذه الأبحاث أدى الى اكتشافها بعض حالات التشابه الكلى في العقل والجسم معا ، لدرجة تسوغ تلك التمثيلية القديمة المعروفة باسم ملهاة الأخطاء Comedy of Errors . وكذلك انتهى بعض الباحثين الى أن تأثير البيئة ضعيف جدا اذا قورن بتأثير الوراثة (١) .

ومع كل ما تقدم فان أحدث الأبحاث وأشملها بشأن التوائم الشبيهة (أو غيرها) التي تمت تنشئتها معا ، لا تأخذ بهذه النتيجة ذات الجانب الواحد . وقد أجريت في السنوات الأخيرة مشاهدات علمية عديدة الغرض منها تحليل الوقائع ، مقرونة بتجارب على التربية والتعلم كما جمعت البيانات الاحصائية بدقة . واستخدمت في كل هذه العمليات أرقى أساليب البحث لتحقيق العوامل المؤدية للفروق الجثمانية ولتباين الذكاء والشخصية . ونتيجة لذلك وجدت أوجه شبه قوية بين التوائم والأشباه دون أن يمنع هذا من بعض الفروق الهامة بينها . ولا بد أن نوه من بين هذه الدراسات بالتقارير التفصيلية المتعلقة بخمسة الأطفال الأشباه المشهورين ، الذين حرزق بهم آل ديون . فقد وجد أن جميع هؤلاء الأطفال ، بالرغم من انحدارهم من بيضة واحدة ومن الوراثة المشتركة ( والبيئة المتشابهة

(١) من الدراسات القديمة في هذا الموضوع :

E.L. Thorndike, *Measurement of Twins* (New York, 1905) and *Educational Psychology* (New York, 1914), Vol. III ; A. Gesell, "Mental and Physical Correspondence in Twins", *Popular Science Monthly*, XIV (1922), 305-331, 415-428 ; N.D.M. Hirsch, *Twins* (Cambridge, Mass., 1930).

وتمتاز جميع هذه المصادر بمنطقها المنحرف .

لا البيئة المطابقة من جميع الوجوه ) يظهرون تباينا ملحوظا في الخصائص الجثمانية والعقلية . وعلى الأخص في الشخصية والمزاج <sup>(١)</sup> .

والآن ماذا نستخلص من هذه الأبحاث التى تدور حول الوراثة والبيئة ؟ اننا فكرر ما سبق أن ذكرناه من أن كلا من هذين العاملين هام . ويمكن أن نرجع جزئيا وجوه الشبه القوية بين التوائم الشبيهة ، الى ميراثهم المشترك ، كذلك يمكن أن نرجعها جزئيا الى البيئات السابقة على الولادة واللاحقة لها ( ويجدر بنا أن نشير الى أن الرحم نفسه لا يهيىء للجنة دائما نفس البيئة ) . ومع ذلك فالفروق القائمة بين التوائم الشبيهة تخلق ، كما رأينا ، فروقا تفسر حتما بتنوع فى البيئة . وما الذى نستخلصه بشأن المقادير النسبية لتأثير الوراثة والبيئة ؟ فلنستمع الى كلمة ممن عملوا فى هذا الميدان بعض الوقت اذ يقول : « يبدو أن كل ما اشتملت عليه الدراسات التوأمية يوحى .. بأن فكرة فصل مؤثرات الطبيعة ( أو الوراثة ) عن مؤثرات البيئة بقصد معرفة النسبة المئوية لما تسهم به كل منهما فى حياة الانسان بأى معنى عام ، لفكرة تافهة وفجة » <sup>(٢)</sup> .

٢ - الأبحاث الخاصة بتنشئة التوائم الأشباه منفصلة : هنا يصح أن تأمل اختبارا موضحا للجدل الذى نحن بصددده حول الوراثة والبيئة . فقد اعترف العلماء منذ زمن طويل بقيمة دراسة التوائم التى تمت تنشئتها متباينة . ولكن بعض الأبحاث القليلة التى أجريت فى الماضى على حالات فردية للتوائم ، قدمت لنا أدلة ، هى أبعد الأشياء عن أن

---

(١) للدراسات المتصلة بالتوائم من حيث تنشئتها معا ، عرض ونقد بقلم فى المرجع الآتى :

H.D. Carter in *Intelligence: Its Nature and Nurture*, Vol. I, Chap. VIII.

وفيما يختص بالخمس المولودين معا لأسرة ديون ، انظر :

W.H. Blatz and others, *Collected Studies on the Dionne Quintuplets* (Toronto, 1937).

Carter, op. cit., p. 248. (٢)

تكون حاسمة (١) . ومنذ عهد قريب قام كل من هـ . هـ : نيومان ،  
البيولوجي ، وف . ن . فريمان ، البيولوجي ، وك . ج . هولتزجر ،  
الاخصائي (٢) ، بدراسة تسعة عشر زوجا من التوائم الشبيهة الذين تمت  
تنشئتهم في مساكن منفصلة . وأجرى هؤلاء العلماء تحليلا لما بين التوائم  
من فروق في الجسم والعقل والشخصية ، من حيث علاقتها بالفروق البيئية ،  
كما عقدوا مقارنات بين البيانات المتعلقة بخمسين زوجا من التوائم  
الأشباه واثنين وخمسين زوجا من التوائم الأخوية الذين حصلت تنشئتهم  
كلهم معا . وكانت النتائج التي استخلصها الباحثون من هذا التحليل القيم  
الشامل حذرة ولكن موجهة . وبينما هم قد سجلوا فروقا عديدة مختلفة  
الأنواع بين التوائم الأشباه الذين تلقوا تربيتهم منفصلين ، فإنهم وصلوا  
الى نتائج وخلصتها أن الخصائص الجشائية أقل ما تكون تأثرا بالبيئة ،  
وأن الأعمال والمهارات المختلفة أكثر حساسية لها وأن صفات الشخصية  
هي التي تتعرض لتأثيرها الأقوى . وقد كشفت أغلب التسع عشرة حالة  
المنفصل بعضها عن بعض عن قدرات عقلية متشابهة على وجه التقريب .  
غير أن خمسا من هذه الحالات كانت تعيش في أوساط متباينة تبائنا  
ملحوظا ، وجد أن نسبة الذكاء تنوعت فيها تنوعا عريضا بين العلو  
والانخفاض ، يتفق مع نتائج أبحاث أخرى عديدة أجريت في السنوات  
الآخيرة . ويجدر بنا أن نثبت هنا نص البيان الذي ختموا به كلامهم في  
هذا الموضوع :

(١) هناك دراسة قديمة عن توأمين شبيهين فصل كل منهما عن الآخر  
وهما في سن أسبوعين قام بها :

H.J. Mpler, "Mental Traits and Heredity", *The Journal of Heredity*, XVI  
1925, 433-448).

وخلاصة هذه الدراسة أن القدرة العقلية تتحدد بالوراثة بينما يتحدد  
تنوع الخصائص غير العقلية بالبيئة . وللإطلاع على مناقشة لبعض الأبحاث  
الآحدث في الموضوع ، والتي لم تصل لمثل هذه النتائج المحددة ، انظر :

Carter, op. cit., pp. 248-251.

*Twins: A Study of Heredity and Environment* (Chicago: The University  
of Chicago Press, 1937).

« لو كان المؤلفون في بدء قيامهم بهذه الدراسة منذ أكثر من عشر سنوات قد اكنفوا بالأمل في أن يصلوا الى حل نهائي للمشكلة العامة الخاصة بالوراثة والبيئة ، أو حتى لجزء كبير من المشاكل المترتبة عليها ، بمجرد أن يوفقوا الى قاعدة بسيطة وواضحة ، لكان نصيبهم المحتوم أن يصدموها بخيبة الأمل ؛ فقد ظهر في معالجة هذه المشكلة أنه كلما تعمق الباحث في الالتواءات المركبة لعوامل الوراثة والبيئة ، تلك العوامل التي تحدد معا نمو الأفراد ، كان أكثر فرعية — وإن من المستحيل بلوغ حل عام للمشاكل الرئيسية ، أو حتى لأية مشكلة فرعية .. وأنا لنشعر أننا أكثر ميلا لموافقة بروفيسور هـ.س. جننجز على قوله الحكيم بأن ما تفعله الوراثة تستطيع البيئة أيضا أن تفعله » (١) .

واذن فالأبحاث التي من هذا النوع تقلل من أهمية النظرية التي تدعى امكان قياس القدرة الصحيحة لتأثير الوراثة ، كما تقف نفس الموقف من أية نظرية أخرى تؤيد أى دور رئيسى للوراثة كعامل مضاد للبيئة ، وذلك بشأن الفروق القائمة فيما بين الأفراد والزم الانسانية . ولا يزال في استطاعة عالم الوراثة أن يقرر أنه حتى في حالة التوائم « الشبيهين » من الممكن أن توجد فروق وراثية . ويستطيع كذلك الأخصائيون في دراسة البيئة أن يربطوا كل الفروق تقريبا بالظروف الحيوية التي تحتويها — ولا تؤيد الأبحاث الحديثة أى تفسير من جانب واحد على كل حال . وربما كانت التجربة الحاسمة بمعنى الكلمة تلك التي تبحث

---

(١) Ibid., p. 362 . في النص كلمتان مطبوعتان بالخط الرقعة

لاهمية لفت النظر اليهما من وجهة نظرنا ، ويمكن لمن أراد الاطلاع على نقد هذا البحث وأمثاله مما أجرى حديثا على التوائم الشبيهين التي تمت تنشئتهما منفصلين أن ينظر :

R.S. Woodworth, *Heredity and Environment*, Social Science Research Council Bulletin No. 47 New York, 1941, pp. 21-32. )

تربية التوأمين الشبيبين منذ مولدهم في ظروف متباينة تبينا كبيرا . فاذا ربي أحدهما في بيت أمريكي والثاني في مجاهل افريقيا ، أو اذا قدر لأحدهما أن يكون حظه من الحياة حظ كاسبار هاووزر ، أو اذا أمكن لخمس أشباه ولدوا معا كأولاد آل ديون أن ينشأوا في خمس بيئات مختلفة اختلافا كبيرا ، ففي مثل هذه الحالات يمكن أن نحصل على اختبار يمدنا ببرهان قاطع . ومن المعقول على أية حال أن نخمن - استنادا الى ما سنقدم من توضيحات في الفصول التالية - أن مما يسوغ زعمنا هذا ، أن البيئة عامل يقف على قدم المساواة الى جانب غيره من العوامل التي تقرر اتجاهات نمونا وتحدد مصائرنا .

٣ - الأبحاث الخاصة بالأطفال المنتسبين لأباء مختلفين واجريت تنبؤاتهم معا : وهذه آخر نوع من الأبحاث ينبغي أن تتجه اليه ، عسى أن يؤدي الى حل المشكلة من طريق دراسة الحالات التي تكون فيها البيئة لا الوراثة هي العامل الثابت الدائم لتفسير النمو الانساني . ومن المستحيل ، كما رأينا ، أن يعيش فردان في بيئة واحدة من جميع الوجوه . وأشد البيئات تقاربا هي تلك التي يحيا فيها أطفال من أصول وراثية مختلفة ، منذ زمن الرضاعة أو الطفولة المبكرة تحت رعاية مربين ليسوا آباءهم <sup>(١)</sup> . وقد أجرى عدد من البحوث في هذا الاتجاه ، وهناك بحث أو اثنان منها يقوم بهما أصحابهما على مدى طويل الآن <sup>(٢)</sup> ، وهما يختلفان من حيث نتائجهما اختلافا كبيرا .

(١) في مثل هذه البيئة يشعر كل طفل أن علاقته بالمربين تساوي علاقة كل من الأطفال الآخرين بهم . - المترجم  
(٢) أي في سنة ١٩٤٩ عند نشر الأصل الانجليزي لهذا الكتاب أو قبل هذه السنة أثناء تأليفه . - المترجم

Earlier studies by F.N. Freeman, K.J. Holzinger, and B.C. Mitchell and by B.S. Burks, referred to in the text, are reported in The Twenty-seventh Yearbook of the Nation Society for the Study of Education (Bloomington, Ill., 1928). These and more recent studies by A.M. Leahy, by H.M. Skeels and M. Skodak of the famous University of Iowa investigations, and by various others are analyzed by F.L. Goodnough in *Intelligence: Its Nature and Nurture*, I, pp. 331-362, and by Woodworth, op., cit., pp. 33-70.

وعلى سبيل المثال نذكر أن الآنسة ب.س. بيركس درست منذ بضع سنوات ذلك التشابه بين الأطفال المتبنين وبين مربيهم وقابلته بالتشابه بين أطفال آخرين وآبائهم الحقيقيين ، محاولة بذلك مرة أخرى أن تقيس تأثيرات الوراثة والبيئة . وقد وصلت في الواقع الى نتيجة خلاصتها أن نصيب الوراثة كان حوالى ٨٠٪ والبيئة ١٧ في المائة على التحديد . وبنت هذه النتيجة الاحصائية على أساس الزعم الخاطيء بأن ما اكتسبه الأطفال بالوراثة تمكن معرفته حتما . وانه قد قيس فعلا بالاختبارات المنطبقة في هذه الدراسة . ومما لاشك فيه أنه لا يمكن بمثل هذه الطريقة الحصول على مقاييس صحيحة لأى من القدرة الفطرية أو البيئة ( ومعلوم أنهما لم يخضعا للقياس « بنجاح » ) . وقد غاب عن البال في هذه الدراسة درجة تعقد البيئة والتفاعل المتلوى بين حياة الانسان النامية والظروف المتغيرة في البيئة . وتحدثنا الآنسة بيرنز قائلة ان أفضل بيئة منزلية تصورها قد تسهم بـ ٢٠ نقطة في اختبار نسبة الذكاء . كما أن أسوأ بيئة من هذا النوع قد تخفض هذه النسبة بنفس هذا القدر من النقط . وما هذه الا مقارنة في داخل نطاق الحياة المنزلية الأمريكية ، وليست بين « أفضل » و « أسوأ » بيئة ، فبأى منطق اذن استطاعت أن تستنتج « أن النصيب الشامل للوراثة .. هو على وجه الاحتمال غير متجاوز ٧٥ أو ٨٠ في المائة » ؟

وفي بحث تقابلي أجرى حوالى نفس الوقت بواسطة ف.ن. فريمان واثنين غيره قام الدليل على أن صفات بيت التبنى تؤثر حتما في درجة القدرة العقلية التى يحصل عليها الأطفال الذين يربون في هذه البيئة ، وكذلك على أن الأطفال الذين ألحقوا في السن الصغيرة المبكرة بأحد بيوت الطبقة العالية زاد نموهم العقلى على نمو أقرانهم الذين ألحقوا بنفس البيت في سن متأخرة . وفوق ذلك ثبت أن هذه البيئة الراقية التى

تحيط بهذا البيت أدت الى تحسين سلوك الأطفال وقدرتهم الى حد تجاوز ما كان ينتظر أن يبلغوه اعتمادا على التنبؤ القائم على أساس معرفتنا بأخلاق آبائهم وذكائهم . وهذه النتائج التي تتحدى بشدة تفسيرات الآنسة بيركس وأمثالها لا تنفذ في نفوسنا نفوذ الدراسات الأحدث التي أجريت خلال عدة سنين في جامعة آيوا الرسمية (١) ، وملخصها أن أكثر من ١٥٠ طفلا ، أكثرهم غير شرعيين ، وضعوا في بيوت غير بيوت آبائهم وهم في سن ستة شهور ، وكانوا يخضعون لاختبارات دورية في الذكاء ، تقارن نتائجها بما يتيسر من معلومات عن ذكاء آبائهم الحقيقيين أو البيولوجيين . وهذه البيانات وما عداها مما أمكن الحصول عليه يبدو أنها تشير الى « أن الذكاء كما هو مفهوم عادة يعتبر أكثر استجابة بكثير لتغيرات البيئة ، مما كان يظن قبالا » وأن تفسير القصور العقلي لأي شخص لأسباب بيولوجية ليس في الواقع بالدقة التي يوصف بها في أكثر الأحيان (٢) . وهذه النقطة الأخيرة قد تأيدت بشكل ظاهر في أبحاث جامعة آيوا وما أماطت اللثام عنه من أن ١٦ من هؤلاء الأطفال أثبت تشخيص أمهاتهم أنهم ضعيفات العقل بمتوسط نسبة ذكاء قدره ٧١ ، قد بلغوا في بيوت من تبنوهم ، بعد انقضاء حوالي عامين متوسط نسبة ذكاء قدره ١١٦ ( وأن كان هذا المتوسط الأخير قد هبط بعد عامين ونصف عام الى ١٠٨ ) .

(١) قام بمعظم هذه الدراسات ه . م . سكيلز الذي لخصها في :

*Intelligence: Its Nature and Nurture*, II, Chap. XX

و م . سكوداك ، مؤلف :

*Children in Foster Homes: A Study of Mental Development* (Iowa City, 1939).

For a thorough but less environmentally focused study of the same problem, see A.M. Leahy, "Nature-Nurture and Intelligence", *Genetic Psychological Monographs*, XVII (1935), 235-308.

Skeels, op. cit., p. 305 (٢)

وقد أذيع على نطاق واسع هذا « البرهان » على قدرة البيئة — وحمل من الأهمية أكثر مما يسمح به أو يسوغه صغر العينة ، وما احتواه منهج البحث من قصور . ومع كل ذلك فإن هذه النتائج تهمنا من ناحية معارضتها لبعض النتائج الأخرى التى قدمناها فيما سبق . ولكن الحذر ضرورى هنا أيضا عندما تنتقل من الوقائع الى تفسيرها . وهناك كذلك كثير مما لا يمكن التنبؤ به عن الوراثة الفردية بحيث يتعذر الوصول الى تعميمات تتصل بتأثير البيئة ، قائمة على مثل هذه النتائج التى اعتمدت عليها أبحاث جامعة آيوا . ان البيئة معقدة دائما ومتغيرة دائما ، والوراثة لا يمكن أن تعرف معرفة تامة . ومن جهة أخرى فإن مثل هذه الأبحاث المشار اليها ، تساعدنا على الأقل فى أن ندرك أننا مضطرون لأن نوجه للبيئة من الاهتمام ما لا يقل عما نوجه للوراثة .

## عدم إمكان الفصل بين الوراثة والبيئة

**الصواب والخطأ فى الأسئلة المتعلقة بالوراثة والبيئة :** اننا ولا شك نضيق جهدنا اذا أصررنا على توجيه أسئلة خاطئة . ومن هذه الأسئلة الخاطئة ما قد نظن أننا نستطيع أن نوجهه فى موضوع الوراثة والبيئة بوجه عام ، بأن نقول : « أيهما أكثر أهمية أو الأكثر تأثيرا ؟ » ان كل ظاهرة من ظواهر الحياة نتيجة للثنتين معا . ولا تقل ضرورة احدهما بالنسبة للنتيجة عن ضرورة الأخرى . وكذلك لا يمكن لأحدهما أن تستبعد أو أن تعزل وحدها . والتعقد لا البساطة هو الصفة التى تلازمها فى كل حالة من الحالات التى نببحثها وكل منهما يعمل مع الأخرى لانتاج هذه الحالة أو سواها فى خلال زمن لا يمكننا أن نتخيل مداه . ولهذه الأسباب يبدو من المستحيل أن نتخيل حالتين تنطويان تماما على مزيج واحد من عوامل الوراثة والبيئة . ومن هذه الناحية تعتبر كل حالة فريدة

في بابها ، بالضبط كما تعتبر كل سحنة انسانية مختلفة بطريقة ما عن أى سحنة أخرى . وحيشما كان هناك عاملان لابد منهما معا لاجداث نتيجة معينة ، فمن العبث أن لبحث في أيهما بوجه عام أكثر أهمية من الآخر . هل الطعام مثلا أكثر ضرورة من الهواء لحفظ الحياة ؟ وهل العلاقات القائمة فيما بين الناس أكثر جوهرية من الناس أنفسهم لخلق المجتمع ؟ وهل القيود المفروضة على النفس أكثر أو أقل أهمية مما يمنح من حقوق فيما يختص بصيانة ما نسميه الحرية ؟ في الحق أن البحث الذي سعى اليه الكثيرون بشأن الوراثة « ضد » البيئة ، ما هو الا واحد من هذه المسائل التي لا يمكن الاجابة عليها لعدم جدواها .

ان الوراثة — أو بمعنى آخر الخلايا الجرثومية — تشتمل على كل الاستعدادات التي تعين المرء على الحياة ، ولكنها لا تعمل في الواقع الا تحت تأثير ظروف البيئة . فما هو اذن نوع السؤال الذي يحق لنا أن نوجهه والذي نأمل أن يكون في امكاننا الاجابة عليه ؟ انه لا يمكن أن يكون البتة سؤالاً يختص بالنصيب المطلق لأى من هذين العاملين بوجه عام . غير أن هناك أسئلة ذات دلالة كبيرة لكل من البيولوجى .. والسوسيوولوجى . فالبيولوجى مثلاً يهتم بتتبع توريث صفات معينة ، كلون العين الأزرق ، واجتماع بياض الجلد وشعر الرأس وجهر العين في شخص واحد ، والكزاج النكفى <sup>(١)</sup> وما شابه ذلك ، وكلها أمور توحى وجود عوامل معينة منفصل بعضها عن بعض في ميكانزم الوراثة . وكذلك يهتم بالطريقة التي تعبر بها استعدادات الجسم عن نفسها تحت الظروف المنوعة للبيئة ، كأن يبدو عليها ميل للتأثير ببعض الأمراض ، أما السوسيوولوجى فهو يهتم مثلاً بكيفية تصرف زمرة من الناس في البيئة العامة التي تحيط بهم . وكذلك بالطريقة التي تتأثر بها الزمرة من التغيرات

( ١ ) استعداد الشخص لنزف الدم بكثرة

التي تحدث للأفراد داخل بيئة معينة ، أو اذا انتقلوا بهذه التغيرات الى بيئة أخرى . فان أية جماعة من المهاجرين مهما كانت مصادر الوراثة التي انحدرت منها تظهر عليها صفات جسمية متشابهة عندما تنتقل من ايطاليا أو اليونان أو ايرلندا الى أمريكا الشمالية . ولا يستطيع المرء أن يفعل الطريقة التي تتغير بها العادات الجماعية والمواقف وأساليب الحياة ، استجابة الى تغير الأحوال الاقتصادية والنشاط الجديد في نوع العمل الى غير ذلك . ولدينا أمثلة عديدة عن الكيفية التي يتم بها تسجيل الانتقال من الفقر الى الثروة وبالعكس ، بما يبدو من تغير في مواقف الأفراد والجماعات ومستوى المعيشة . كما أننا نستطيع أن نقدم أمثلة تاريخية لا حصر لها عن كيفية تغير مظاهر الحياة الجماعية لمجرد حدوث بعض التغير في ظروف البيئة . فالعشائر الاسكتلندية الفخورة بالمحبة للثأر والانتقام ، والنصب ، وهذه جميعا اتجاهات سادت بينهم في القرن السابع عشر ، قد تحولت من طريق اندماجها بفريق السكان المشتغل بالصناعة في القرن الثامن عشر . وان الآداب العامة التي مرت عليها أزمنة طويلة وهي باقية ، قد تغيرت كلما اتسعت حدود الحضارة . وأظهرت الشعوب البدائية تفاعلا خاصا عندما انتقلت أدوات الحضارة الغريبة اليها أو فرضت عليها . وقد كشف السكان الزراعيون في كل أنحاء العالم ، وعلى سبيل المثال في أمريكا أو روسيا أو اليابان عن تغيرات ذات دلالة كبيرة في عملية التصنيع الاطرادية . وبالرغم من تنوع مظاهر استجابة أفراد الجماعة للبيئة ، فإن في وسعنا أن نجد تغيرات معينة ثابتة حدثت لهم كنتيجة لوقوع تغيرات معينة ثابتة في داخل البيئة . وهنا نحصل على المفتاح الذي يساعدنا على فهم العلاقة بين البيئة والحياة .

ولا تدلنا دراسة هذه التغيرات عما اذا كانت الغلبة للوراثة أو البيئة ، ولكنها على الأقل تدلنا عن السبب الذي من أجله تعد كل منهما هامة ،

والكيفية التى تتكشف بها هذه الأهمية ولا شك أنه عندما يظهر عامل جديد على المسرح عند نظرنا لأية مشكلة ونلاحظ أن تغيرات هامة قد نتجت عن ظهور هذا العامل فينبغى ألا ننسب هذا التغير له وحده . ولندكر فى هذه المناسبة أن أى تغيير وان بدا تأفها فى أى تعبير كيموى قد يؤدى الى فرق شاسع فى النتيجة كالفرق بين الطعام والسّم . ولكن الحقيقة أن المزيج الجديد الذى يتألف من العناصر المقومة للتركيب الذى ترجم اليه هذا التعبير ، هى التى أصبحت سامة ، وليس كل عنصر من هذه العناصر على حدة . فان أى تغيير تأفه يطرأ عليهما قد يؤدى الى ظهور وضع جديد مختلف من كل وجه . على أننا لا يجب علينا ، بناء على هذا الرأى ، أن نستخلص أن البيئة هى الأهم . ان الحاجة الاجتماعية للمواهب القادرة على الاختراع التى يشجع عليها هذا العصر الصناعى قد رفعت الى ذروة المجد رجالا لو أنهم عاشوا فى عصر سابق لظلموا فى حلى النسيان ، وكذلك فان الفرص الحديثة لتكديس الثروة من طريق النظام الرأسمالى قد جلبت الامتياز والقوة ، ان لم تكن السلطة ، لرجال خشأوا أصلا فى أوساط حقيرة ، مثل كارنيجى وفورد وكثيرين غيرهما من أساطين الصناعة والمال فى أمريكا ، وهؤلاء ما كانوا فى العصر الاقطاعى يلبغوا أكثر من وظائف الكتبة والكادحين . والوضع الاجتماعى الجديد ، أو مجرد المصادفة السعيدة قد تهىء الفرصة لشخص عبقرى لكى يكشف عن قوته الكامنة . ولكن لا يستطيع أى مقدار من فرصة مواتية أن يحول شخصا متوسط الذكاء الى عبقرى . ومن ناحية أخرى لا ينبغى أن نفترض مع بعض أساتذة الوراثة أن العبقرية تشق طريقها حتما مهما اعترضت هذا الطريق عقبات من البيئة . واذا كان بعض الناس قد انتصروا على ظروفهم ، فهل يخولنا هذا حق القول بأن كل ما فى النفس من عظمة تستطيع أن تتخطى الحواجز القائمة حولها بحكم مولدها ؟ اننا فى هذا

المجال مضطرون بصفة خاصة الى أن نحافظ على أحكامنا خشية أن تتأثر بمظاهر التحيز الدقيق الذى تدعو اليه وطنيتنا ، أو جنسنا البشرى . أو احساسنا الطبقي أو درجة نجاحنا أو اخفاقنا فى صراعنا من أجل الحياة .

**بعض النتائج العامة :** أولى هذه النتائج أن الوراثة لا يمكن أن تعمل الا فى نطاق بيئة معينة . ان جميع الصفات الحيوية تنتقل بالوراثة ، ولكن اتاحة الفرص لهذه الصفات حتى تظهر ، مسألة تتوقف على البيئة . ويترب على هذا المبدأ الأولى أنه كلما كانت الاستعدادات الكامنة قوية كانت الحاجة الى البيئة شديدة . وبدلا من أن نحاول تفضيل أحد العاملين على الآخر ينبغى أن ندرك الحقيقة التالية كمظهر من مظاهر الترابط التى أكدناها كثيرا ، وهى أنه كلما كانت الوراثة تنطوى على صفات ممتازة وكبيرة ازداد عامل ملائمة البيئة أهمية . وعلى ذلك فأبسط الفروق وأدقها فى البيئة قد يكون لها تأثير تافه على الأفراد من ذوى الاستعدادات الضعيفة ، بينما نراها واسعة الدلالة بالنسبة للأفراد الأكثر استجابة لها ، لحاجتهم للإفادة منها . ان أى تغيير وان بدا طفيفا فى أية حالة أو أى ظرف من الظروف ، كدافع ما على النجاح أو أى تشجيع أو تثبيط ، قد يكون حاسما عند شخص ذى طبيعة حساسة وقد لا يؤثر الا فى القليل النادر فيمن هم أقل منه حساسية . ويترب على ذلك أن تصبح دقائق البيئة الاجتماعية أكثر أهمية للأفراد المتدينين والزمم الانسانية الراقية . وهذه الدقائق ، كالتقدير الاجتماعى أو انعدامه ، ووجود أو اختفاء المثيرات الداعية لمضاعفة الجهد فى الأعمال وما شابه ذلك ، لا يمكن قياسها ، ولكن اذا أغفلنا أمرها ربما تكونت لنا صورة جد خاطئة عن الفرق بين أية بيئة انسانية وأخرى .

وكلما كانت الحياة مرنة ( كحياة الانسان وبعض الحيوان ) ازدادت طواعية للبيئة وظلت تحت رحمتها ، الا اذا استطاعت أن تسيطر على هدم

البيئة وأن تخضعها لأغراضها . ولما كان الانسان أكثر الحيوانات مرونة فقد سعى خلال عصور قديمة لا نعرف الكثير عنها لأن يجعل بيئته أكثر ملاءمة لسد حاجاته المتزايدة . وقد اتفرد من دون سائر الحيوانات بالبحث المتصل عن البيئة المواتية ، ويعتبر هذا البحث بالنسبة له أوليا ، وتهم البيئة أهمية كبرى — لسبب يشبه هذا السبب — خلال المرحلة التي تكون فيها الحياة الانسانية قابلة للتشكل ، وهي السنوات الأولى بعد المولد . وذلك لأننا نتأثر بشدة في تلك الأثناء بكل ما يشجع الهمم أو يبطئها على السواء . واذن فعلينا لهذا السبب ، ان لم تكن هناك أسباب أخرى ، أن نقرر الأهمية المتعادلة لعاملَي الوراثة والبيئة اللذين بهما يتحدد كل شيء في حياتنا آخر الأمر .



## الفصل الخامس الجغرافيا والإنسان

### الجغرافيا والحياة الاجتماعية

الجغرافيا وسيطرتها : ما دمنا ندرس المجتمع فنحن نهتم بالضرورة بالظاهرة الجغرافية وبالكيفية التي تعترض بها حياتنا باعتبارنا كائنات اجتماعية . ولكننا لا نحاول بالطبع أن نلم بكل هذا الامام الواسع الهام الذى تشغله الجغرافيا . انما سنجتهد أن نبين الدور الذى تلعبه البيئة الجغرافية فى الحياة الاجتماعية ، ومع الاشارة الى الاحتياطات الضرورية من التعميمات الكثيرة المائعة التى تصادفنا فى أغلب الأحيان بشأن الجغرافيا والانسان .

١ - معنى الجغرافيا : اننا نستطيع داخل نطاق البيئة الشاملة للانسان أن نميز بوجه عام بين الأحوال الجغرافية وغيرها من الأحوال التى تتوقف هى نفسها على النشاط الانسانى . وتشتمل البيئة الجغرافية على تلك الأحوال التى تمتد الطبيعة بها الانسان . وتتضمن سطح الأرض وما عليه من معالم فيزيقية ومصادر للثروة الطبيعية — كنوزيع الأرض والمياه ، والجبال والسهول ، والمواد المعدنية والنباتات والحيوانات والمناخ وجميع القوى الكونية ، الجاذبة والكهربية والاشعاعية ، التى تعمل فوق الأرض وتؤثر فى حياة الانسان . ونحن نميز هذه البيئة الأولية أولا عن كل تعديل يصيبها من طريق التخيل التكنولوجى ( الآلى ) للانسان ، كالذى يحدث عند تنقية الأرض من العشب ، أو عند زراعة التربة ، أو

إنشاء الطرق وإقامة المدن ، أو استغلال قوى الطبيعة ، وثانياً عن البيئة الداخلية أو الاجتماعية وقوامها مظاهر السلوك العام والآداب العامة والنظم السائدة التي تمد الزمر الانسانية أعضائها بها ، وسنرجع من وقت لآخر في هذا الكتاب الى البيئات الجغرافية والتكنولوجية والاجتماعية من حيث تأثيراتها وعلاقاتها بعضها ببعض . وقد يحسن أن نستعرض بإيجاز تلك العوامل التي تتكون منها البيئة الجغرافية ، اذ يبدو أن بعض هذه العوامل لا سيطرة للانسان عليه ، بينما يحمل البعض الآخر طابع نشاطه بدرجات متفاوتة .

٢ - العوامل القابلة للسيطرة عليها والعوامل غير القابلة لهذه السيطرة : يمكن أن ندخل من بين العوامل غير القابلة للسيطرة عليها علاقة الأرض بالشمس والقمر ، ومساحة الأرض ، ومدى ثروتها من المواد المعدنية وتعيين أماكنها ، وتوزيع أراضيها الفسيحة والمحيطات المترامية ، وكذلك السهول والجبال ، والأنهار والبحيرات الكبرى ، ومظاهر المد والجزر ، وتيارات المحيطات ، والطاقات الكهربائية ، وسقوط المطر (١) ، وهبوط الرياح ، والطاقات الكهربائية . ويستطيع الانسان أن يجرى تعديلاً طفيفاً جداً في معظم هذه الظواهر ، أما التغيرات الكبيرة فتتوقف على قوى ليست في طوقه . فالشواهد تدل على أنه آخذ في استخدامهما ، ومستفيد من المزايا التي تقدمها اليه ، وكذلك قادر على تعظيم بعض الحواجز التي وضعتها في طريق غاياته . فهو لا يقوى على السيطرة على الرياح ولكنه يستطيع أن ينشر شراعه ليملاه بالرياح وبهذه الطريقة يدفع قاربه . وهو لم يتمكن حتى الآن من إزالة الجبال الشامخة ، غير أنه شق النفق في داخلها ، كما أنه لا يستطيع أن يعين خط سير

---

(١) نجح العلم في السنوات الأخيرة في اسقاط المطر مع توافر شروط معينة تلائم هذه العملية .

العاصفة ولكنه عرف كيف يستغل الكهرباء في نقل الكلمات والصور وكيف يجعل منها مصدرا للقوة المحركة لآلاته . وهو لا حيلة له في تغيير فصول السنة ولكنه يعرف كيف يقى نفسه الحر والبرد <sup>(١)</sup> . وتوجد هناك عوامل جغرافية أخرى يمكن إخضاعها جزئيا لسيطرة الانسان وما قد يدخله من تعديل عليها ، غير مكثف باستخدامها فحسب . وأهمها توزيع الحيوان والنبات على الأرض وخصوبة التربة . وهو يستولى على الحيوانات والنباتات التي تسد حاجاته ، ثم يستولد الأولى ويزرع الثانية ، ويتخلى عن البعض الآخر لنفس الأغراض . ويترتب على كل هذا أن يضطرب الميزان « الطبيعي » <sup>(٢)</sup> للحياة العضوية بفعل الانسان . وهو قادر على أن يختار بعض الأنواع يولد كائنات جديدة بإخصاب بعضها ببعض بأسلوب لا تعرفه الطبيعة الأصلية أو تطبيقه . فهناك مساحات واسعة تختص بحياة نباتية أدخلها الانسان وحده وسهر على المحافظة عليها ، كمناطق القمح والقطن والحبوب والطباق والرز . وهذه الزراعات بدورها تنتهي الى الارتباط بثقافة هذه المناطق ونظمها الاجتماعية السائدة ، كما يلاحظ كل من أتبع له السفر عبر « الحزام القطنى » في جنوب الولايات المتحدة أو مناطق القمح الشاسعة في غربها أو مساحات زراعة الرز في الشرق الأقصى . وعلى ذلك فافنا بالاضافة الى أو عبر الأقاليم

---

(١) ذكر جوليان هكسلى في خطاب عام له ، ألقاه في شتاء ١٩٤٥ - ١٩٤٦ ، إمكان استخدام القنبلة الذرية كنوع من « الديناميت الصناعى » بغية تهشيم تلوج المناطق القطبية وبذلك يتغير مجرى بعض تيارات المحيطات ودرجة حرارتها والأحوال المناخية في بعض أجزاء الكرة الأرضية . ومهما كان هذا الأمل عريضا نوعا ما فإن القوى التكنولوجية الكامنة في الانقسام الذرى هائلة جدا لدرجة أنها تسوغ مثل هذا التغيير في العوامل التى ذكرناها توا والتي كان يظن أنها غير قابلة للسيطرة عليها .

(٢) لا ينبغي أن نعتبر الانسان وأعماله مظاهر غير طبيعية وهذا مادعانا لاحاطة كلمة « الطبيعي » بالعلامات .

«الجغرافية المتميزة بظواهرها الطبيعية الخاصة ، نجد مناطق جديدة ساعد على خلقها رغبة الانسان في استغلال أنواع عدة من الحياة العضوية .

٣ - « الطبيعة ضد الانسان » : بعد أن حطم الانسان الميزان الطبيعي كما رأينا في الأسطر السابقة — وجد نفسه مضطرا لأن يعمل جاهدا وبصفة مستمرة على حفظ الميزان « المصطنع » فهو لا يكف عن مصارعة أعدائه من متلفي زراعاته ، كالأعشاب الضارة والحشرات وغيرها من الآفات الضارة والنباتات الطفيلية والكائنات العضوية المتناهية في الصغر كالديدان والسوس . ومن جهة أخرى فإن زراعة الانسان للأرض بالطرق الفنية من شأنها أن تضعف خصوبتها ولكنه عرف بالتدريج كيف يعيد الى التربة ما تفقده من خصائص ، بل ويزيد من قوتها الأصلية . ومثال ذلك أن المحصول الزراعى في أوروبا في الوقت الحاضر يساوى حوالى أربعة أمثال ما كان عليه منذ خمسة قرون مضت . وقد تجاوز المحصول ذلك بكثير في الولايات المتحدة الأمريكية وفي جمهوريات روسيا السوفيتية . ويتعاون اليوم علم الحياة والكيمياء وعلوم أخرى في خدمة الانسان بحيث يسيطر سيطرة كبيرة على خصوبة التربة وقدرتها على انتاج المحصولات . وبوساطة طرق الري الحديثة يجرى العمل على تمكين الأنهار والبحيرات بكل قواها الكامنة من أن تمدنا بالمياه والقوة المحركة ومخصبات التربة وغير ذلك من ضروريات الزراعة الحديثة لخدمة أقاليم واسعة برمتها ، مثل وادى تينيسى وأراضى كاليفورنيا الخصبة في الولايات المتحدة الأمريكية .

ولكن ينبغى ألا نستخلص مما تقدم أن الانسان قد تحكم في بيئته الفيزيائية والبيولوجية . ونحن نعرف أن مدن حضارة مينا<sup>(١)</sup> التى دفنتها

(١) بالكسيك . — المترجم

الغابات دليل صريح على الطريقة التي يمكن أن تؤكد بها الطبيعة سلطانها. ولقد زعم بعض المؤرخين أن سقوط الحضارة السوميرية القديمة (١) كان مصحوبا بانتشار الملاريا ، كما أن اضمحلال الثقافات في سواحل شرقى البحر الأبيض المتوسط (٢) قد لازمه تحول نحو الفقر وجفاف في التربة ، جعلها أشبه ما تكون بالصحراء القاحلة (٣) . وهناك الأوبئة التاريخية ، التي لا يستبعد أن يتكرر وقوعها ، كتلك التي جاءت في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، تذكرنا بأن سيطرة الانسان على بيئته البيولوجية لا تزال بعيدة عن أن يعتمد عليها (٤) . كذلك نحن لسنا في حاجة الى أن نشير بالتفصيل الى أن في بلادنا ( الولايات المتحدة الأمريكية ) مناطق شاسعة مهددة بأن تصبح كالصحارى نتيجة لعملية اقتلاع الغابات واتلاف التربة ، ولا سبيل الى ايقافها الا بالمحافظة عليها بالطرق العلمية في أوسع نطاق ، وأن لدينا أيضا مصادر للثروة الطبيعية يظن أنها « غير قابلة للنفاذ » كالبتروول و تراب الحديد ، مع أنها قرية جدا من النفاذ قريبا خطرا (٥) .

(١) وتمثل العنصر غير السامى حضارة بابل . - المترجم

(٢) نلفت نظر القارىء الى أن المؤلفين يستخدمان « النقافة » و « الحضارة » هنا كمرادفين . وهكذا يفعل معظم المؤلفين الغربيين المحدثين .

- المترجم

(٣) See, for example, V.G. Sim Khovitch, "Hay and History", *Political Science Quarterly*, XXVIII (1913), 385-403.

(٤) هناك أبحاث قيمة عن هذا الصراع فى :

H. Zinsser, *Rats, Lice and History* (Boston, 1935), and H.E. Sigerist, *Civilization and Disease* (Ithaca, N.Y., 1943).

(٥) من خير الأبحاث المتعلقة بموضوع اتلاف مصادر الثروة الطبيعية والمحافظة عليها ، ما يلى :

S. Chase, *The Tragedy of Wastes* (New York, 1925) and *Rich Land, Poor Land*, (New York, 1936); K. Glover, *America Begins Again* (New York, 1939); H.R. Muelder and D.M. Delo, *Years of This Land*, (New York, 1943); F. Osborn, *Our Plundered Planet* (Boston, 1948); and W. Vogt, *Road to Survival* (New York, 1948).

وليس من المستغرب إذن أن العلاقة المستوحاة من هذه الأمثلة القليلة ، بين الفيزيائية للانسان وبين الحياة الاجتماعية ، قد أدت الى قيام مدرسة جغرافية لعلم الاجتماع .

**المدرسة الجغرافية لعلم الاجتماع :** كثيرا ما نقرأ أن المفكرين تحدثوا فيما مضى عن تأثيرات الأحوال الجغرافية في المجتمع الانساني . وهم ازاء ما لمسوه من فروق أساليب الحياة الانسانية ومقتضياتها على سفوح الجبال ، وفي السهول ، وبالقرب من شاطئ البحر ، وفي الصحراء وفي الغابة ، وفي المناطق المعتدلة المناخ والمناطق الحارة ، لم يترددوا في أن ينسبوا للجغرافيا دورا رئيسيا ، وأن ينظروا اليها باعتبارها العامل الأول من حيث الأهمية في تحديد صحة السكان وثرواتهم وكثافتهم وطاقاتهم الحيوية ، وعاداتهم الجمعية ونظمهم الاجتماعية وعقائدهم وفلسفاتهم . وقد نشأت خلال القرن الماضي ، من أمثال هذه المشاهدات ، مدرسة واضحة للجغرافية البشرية والاجتماعية .

١ - بعض ممثلي المدرسة الجغرافية : يمكننا هنا أن نمر دون توقف بالكتابات الجغرافية التي خلفها المفكرون ابتداء من أرسطو في الزمن القديم الى مونتسكيو في القرن الثامن عشر . ومن رواد الجغرافيا الاجتماعية عالم فرنسي مثل هذا الأخير ، هو فريدريك لوبلي ، الذي تبعه في بلاده ديمولان وآخرون ، ومن المشاهد أن دراسة الاقليم كمجال تختص به « الجغرافيا البشرية » أصبحت منهاجا مفضلا عند علماء الاجتماع الفرنسيين ، وقد امتد تطبيقه في السنوات الأخيرة الى أقاليم في خارج فرنسا (١) . وهذا التوكيد من قبل لوبلي وخلفائه للعلاقة بين خصائص البيئة الفيزيائية ومظاهر نمو الحياة الاجتماعية ، كما ذكرنا في

---

See, for example, J. Gottmann, "French Geography in Wartime", (١)

*Geographical Review*, XXXVI (1946), 80-91.

الفصل السابق ، قد أثر في أبحاث الايكولوجيين البشريين والدراسات الاقليمية التي أجراها هاورد و . أودم وزملاؤه . وقد نشأ في ألمانيا فرع هام للمدرسة الجغرافية البشرية . وفي إنجلترا ظهر تاريخ الحضارة يتبع نفس المنهاج بقلم ه . ت . باكل . ويمكن أن نذكر من بين ممثلي هذه المدرسة من الأمريكيين الن سميل ، وهى من أتباع راتسل ، وكلا من أ.ج. دكستر والزويرث هانتنجتون ، وقد تحرى هذا الاسم الأخير في سلسلة من المجلدات آثار التصادم أو الاحتكاك الحادث بين المجتمع والثقافة من جهة وبين الأحوال البشرية ( المتعلقة بالأجناس البشرية ) والمناخية من جهة أخرى (١) .

وقد أضاف كتاب هذه المدرسة اضافات وافية لمعرفتنا بدور الجغرافيا في نمو الحياة الانسانية . انهم جعلونا ندرك العلاقة المتبادلة بين المناخ والطبوغرافيا والجوانب المختلفة للبيئة الفيزيائية من ناحية ، وبين الظواهر السياسية والاقتصادية والتكنولوجية والثقافية من ناحية أخرى . الا أن مما يؤخذ عليهم أنها تفسيرات مضلة .

٢ - مظاهر قصور هذا المنهاج : تظهر في كثير من أبحاث المدرسة الجغرافية صعوبة منشؤها أن هذه المدرسة تعنى بجانب واحد ليس غير . من جوانب البيئة الشاملة ، كما لو كان علة منفصلة وكافية ، بدلا من

---

(١) أنظر بشأن المدرسة الجغرافية :

P. Sorokin, *Contemporary Sociological Theories* (New York, 1928), Chap. III ; and F. Thomas, "The Role of Anthropogeography in Contemporary Social Theory", in *Contemporary Social Theory* (H.E. Barnes and H. Becker, eds., New York, 1940), Chap. VII.

وأحدث كتب هانتنجتون وأشملها الكتاب التالى :

*Mainsprings of Civilisation* (New York, 1945).

النظر الى هذا الجانب على اعتبار أنه عامل مؤثر متشابك تشابكا قويا مع عدة عوامل مؤثرة . وقد أبانت مناقشتنا للوراثة والبيئة في الفصل السابق الحاجة الى كثير من الحذر في هذا الشأن ، وهو حذر كثيرا ما نجد كتابات هذه المدرسة مفتقرة اليه . فمثلا يخبرنا لوبليي أن الشكل الخاص الذى تتميز به الأسرة ينتج عن ظروف العمل الذى تحدده طبيعة الدائرة المحلية التى تعيش فيها الأسرة . ولكن ما القول فى أن أشكالا للأسرة قد تنمو فى نفس الظروف الجغرافية أو فى ظروف متشابهة ؟ ويخبرنا باكل كذلك أن نمو الثروة يتوقف كلية الى التربة والمناخ . ولكن كيف نفسر مثلا التاريخ الموصوف بالرخاء النسبى لولاية نيوانجلاند المعروفة بأنها « موحشة وصخرية » ؟ ويسعى هانتنجتون فى كتابه الحضارة والمناخ الى أن يرينا أن الظروف المناخية المواتية عامل رئيسى فى تحديد خط السير التقدمى للحضارة . وانا لتساءل بشأن اليابان الحديثة ، التى تستمتع بظروف هانتنجتون « المواتية » ومع ذلك نراها قد استعارت جزءا ضخما من حضارتها من العالم الغربى ؟

وسبق أن ذكرنا أن الحضارة نفسها قادرة على أن تعدل تأثير الجغرافيا . ويمكن أن نضيف هنا أن الجغرافيا لا تستطيع أن تحدد بنفسها أو فى ذاتها على الاطلاق مجرى الأحداث الانسانية . وهذه وجهة نظر يؤيدها كثيرون من الجغرافيين المعاصرين أنفسهم . وقد عبر عن ذلك واحد من ممثليهم المبرزين على النحو الآتى :

« لا يأخذ العلم أو الفكر الجغرافى المعاصر بنظرية المدارس القديمة التى نادى بالجبرية الميكانيكية <sup>(١)</sup> . ان الوقائع المتعلقة بالأرض لا تحدد شكل المجتمع الانسانى وطبيعته خلال تطوره ولكنها تكيفه . وهناك

---

(١) ومؤداهما أن مجرد توافر ظروف جغرافية معينة يؤدى حتما لنوع معين من الظواهر الاجتماعية . - المترجم

وقائع أرضية جديدة تكشف من وقت لآخر ، من شأنها أن تجعل الوقائع القديمة عرضة لأن تفسر تفسيرات جديدة كلما تقدمت المعرفة الانسانية ، وتطور الفكر ونمت الحياة الاجتماعية ، مما يدعونا لأن نقرر أن العلاقات متناوبة بين هذه الوقائع وبين نمو المجتمع » (١).

٣ - همسة بخصوص « الجيوبوليطيقا » : كثر الكلام في السنوات الأخيرة حول « الجيوبوليطيقا » ( علم السياسة الجغرافي ) ، التي لم تعد علما صحيحا في رأى الكثيرين في الوقت الحاضر . وبالرغم من أنها لا تنتمي الى المدرسة الجغرافية لعلم الاجتماع فانها تحتاج الى تعليق موجز . وذلك لأن هذا المزيج المركب من الأمانى الوطنية والاستراتيجية العسكرية والدراسة الجغرافية ، والذي برز الى المكان الأول من الأهمية في ألمانيا بين الحربين العالميتين الأخيرتين ، كان تطبيقا لنظرية أحد الكتاب الذين سلفت الإشارة اليهم وهو راتسل ، وقد تزعم نفسه هذا الاتجاه الى حد ما عندما بدأ لأول مرة . ونحن نذكر أن راتسل دافع في كتاب له وضعه عام ١٨٩٧ وعنوانه الجغرافيا السياسية عن نظرية مؤداها أن الدولة كائن عضوى حى يحتاج الى مجال حيوى تتسع دائرته على الدوام لضمان البقاء والاصرار عليه . ولقد لقيت هذه الفكرة بالطبع ترحابا لدى التوسعيين الألمان وأصبحت جزءا من التقاليد القومية والعسكرية المتطرفة في ألمانيا - واستطاعت الجيوبوليطيقا أن تحرز خلال الحرب العالمية الأولى وفيما بعدها مركزا أكاديميا محترما بزعامة كارل هوشوفر ، العالم الجغرافى والضابط السابق فى الجيش ، الذى أسس معهدا وصحيفة

---

Isaiah Bowman, *Geography in Relation to the Social Sciences* (New York, 1934), p. 225.

وهذا الرأى معبر عنه ضمنا وصراحة فى كتابات بعض الجغرافيين من أمثال :

R. Hartshorne, J. Russell Smith, V. Stefansson, H.W. Weigert, and D. Whittlesey..

للجيوبوليطيقا فى ميونيخ . وقد استعارها هاوشوفر على نطاق واسع من كتابات البحاثة البريطانى هـ . ج . ماكنور ، ولهذا نظرية مشهورة عن « الأرض التى بمثابة القلب » تقول بأن قوة العالم تلتقى عند مركز تلك الكتلة الأرضية الكبرى المعروفة باسم القارة الأوراسية ، التى تعتبر من أجل ذلك منطقة ذات شأن سياسى كبير بالنسبة لجميع الأمم . وقد استخدم ماكنور هذه النظرية لتأييد تحالف بريطانى مع روسيا ، كما استغلها هاوشوفر لتأييد تحالف ألمانى مع روسيا أيضا — وهذا رأى كان يعتنقه بعض العسكريين الألمان . وفى خلال الحرب العالمية الثانية أصبح كثير من اكتشافات الجيوبوليطيقا جزءا هاما من الاستراتيجية العسكرية لمحور روما — برلين . ومما نذكر بهذه المناسبة أنه حتى اليابان ظهرت فيها مدرسة فكرية للجيوبوليطيقا .

ان دراسة الوقائع الجغرافية لبلاد الأصدقاء والأعداء محل عناية الاستراتيجية العسكريين وواضعى السياسة الدولية كما تشهد بذلك الجيوبوليطيقا الأمريكية أثناء الحرب العالمية الثانية . ومع ذلك فحينما ينظر الى كتل اليابسة ومساحات الماء وما على شاكلتها باعتبار أنها العلل الأساسية للقوة القومية والمصير التاريخى ، كذلك لتسوين سياسة التوسع ، يكون معنى هذا أننا نواجه أقوى وأشهر الأدلة على الجبرية الجغرافية فى أشد أشكالها تطرفا . ومهما جمعت المعلومات الجغرافية وتم وصلها بعضها ببعض بحذق ومهارة ( هذا رغم أن الباحثين الذين استخدمهم هاوشوفر لم يكونوا فى جملتهم من الجغرافيين المقتدرين ) ، ومهما كانت هذه المعلومات مفيدة لواضعى الخطط الحربية ، فانها لا تسوغ فى ذاتها أية نظرية للجبرية الجغرافية . ان قوة أقوى أمتين فى العالم فى الوقت الحاضر ، وهما الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، ترتكز جزئيا ، فى حقيقة الأمر على موقعهما وما لديهما من مصادر للثروة

الفيزيكية . ولا يستطيع أى باحث دقيق — سواء أكان جغرافيا أم باحثا عاما أم من رجال الدولة أم من علماء الاجتماع — أن يقدر قوة أى من هاتين الأمتين دون أن يدخل فى الحساب حالة الفنون الصناعية والمستويات التعليمية وآمال المواطنين ودواعى وحدتهم وتمسكهم ومظاهر ولائهم وكيفية قيادتهم . وعلى ذلك ، فمهما كانت الوقائع المتصلة بالأرض ، ينبغى أن ينظر إليها بالاشارة الى تراث الانسان الاجتماعى (١) .

**الحضارة والأحوال الجغرافية :** من أهم مظاهر الحضارة مقدرتها على السيطرة على البيئة الخارجية . وهناك مبدأ أو قانون هام تكشف عنه علاقة الانسان بالأحوال الجغرافية خلاصته : كلما زادت سيطرة الانسان تقص اعتماده المباشر وقل اعتماده الكامل على البيئة المباشرة التى يعيش فيها وأصبحت هذه أقل تأثيرا فيه . ولا بد لنا من فحص حقيقة هذا المبدأ وما يسوغه .

١ - **الدافع الجغرافى :** لا تستطيع البيئة الجغرافية وحدها البتة أن تفسر نشوء حضارة ما . وليس فى وسعنا أن نكشف أية علة كامنة فى الأحوال الجغرافية بحيث نتخذها كدافع على مولد حضارة كبيرة فى وسط

---

(١) من بين المراجع العديدة عن الجيوبوليطيقا ما يأتى :

H.W. Weigert, *Generals and Geographers* (New York, 1942); R. Strausz-Hupe, *Geopolitics* (New York, 1942); A. Gyorgy, *Geopolitics, The New German Science* (Berkeley, Cal., 1944).

وللبينات الموجزة بأقلام آخرين من الاختصاصيين أنظر :

*Compass of the World* (H.W. Weigert and V. Stefansson, eds., New York, 1944), especially those of E.A. Walsh, I. Bowman, R.E. Harrison and H.W. Weigert, J. Russell Smith, and H.J. Mackinder, *Examples of the More Moderate American "Geopolitics"* include D. Whittlesey, *The Earth and the State* (New York, 1939); N.J. Spykman, *America's Strategy in World Politics* (New York, 1942) and *The Geography of the Place* (New York, 1944).

جزيرة كريت بدلا من مولدها في وسط جزيرة صقلية . أو تعطينا تفسيراً لنمو حضارة ميسا العظيمة في منطقة الغابات بأمريكا الوسطى بدلا من نموها في الأراضي الجبلية أو المناطق الساحلية . ومما يستوقف النظر حقا قيام حضارات قصيرة العمر وأخرى طويلة بالرغم من نشوئها تحت نفس الأحوال الجغرافية أو ما يشبهها .

« ومن الواضح أن نفس المزيج المركب من العنصرين البشرى وغير البشرى في البيئة قد يؤدي لقيام حضارة في إحدى الحالات ويعجز عن أن يفعل ذلك في حالة أخرى ، دون أن يكون في مقدورنا أن نعلل هذا الفارق البين في النتيجة بتحري أى فارق مادي في الظروف مهما كنا دقيقين في المقارنة . وبالعكس نرى جليا أن الحضارات يمكنها أن تنشأ ، وانها لتنشأ بالفعل في بيئات متباينة أشد التباين . والبيئة غير البشرية أنواع مثل النوع النهري الذي أدى لقيام « الحضارات المصرية والسوميرية وربما أيضا لقيام ثقافة هندية قديمة مستقلة ، أو « النوع الهضبي » الذي ساعد على نشوء حضارات الأنديز والحيثيين والمكسيك ، أو « النوع الأرخيلى » الذي بعث الحضارات المينوسية <sup>(١)</sup> ، والهلينية وحضارة الشرق الأقصى ، في اليابان ، أو النوع القارى الذى أوجد حضارات الصين والهند والحضارات الغرية والحضارة الأرثوذكسية المسيحية في روسيا ، أو نوع « الغابة » الذى تولدت عنه حضارة ميسا » <sup>(٢)</sup> .

(١) وهى حضارة جزيرة كريت المنتسبة الى الملك الأسطورى الكريتى مينوس . - المترجم

*From A Study of History*, by Arnold J. Toynbee (London, 1934), I, 269. (٢)

Published by Oxford University Press under the auspices of the Royal Institute of International Affairs. See pp. 249 ff. in this volume or Part II of D.C. Somervell's abridgment of Toynbee's work (New York, 1947) for the latter's discussion of Geography and civilization.

ان صاحب هذا النص وهو ارنولد ج . توينبي قد أوضح بطريقة مقنعة أنه مهما كانت البيئة الجغرافية ذات تأثير في تحديد صفات الحضارات ، فليس هناك دليل على أن للجغرافيا قوة تسير الأعمال البشرية . وأكثر من ذلك فإن توينبي يسمى الى « أن يرفض الوهم الشائع بأن الحضارات تنشأ عندما تمنح البيئات ظروفًا مواتية للحياة ، والى أن يقدم لنا رأياً يؤكد الفكرة المضادة تماماً » (١) . وعلى ذلك فهو يمدنا بالحالة بعد الحالة ، من حضارة ميسا الى الحضارة الهندية في سيلان ومن انتشار الحضارة البولينية في المحيط الهادى الى الحضارة القائمة في ولاية نيوانجلاند (٢) ، لكى يوضح « فضل الشدة » التى استجاب بها ازاء هذه الظروف حتى استطاع أن يخلق حضارات رائعة تثير الإعجاب . ومهما شككنا فى طريقة توينبي التى قلب بها المدخل المتواضع عليه فى دراسة التأثير الجغرافى ، فإن هناك عددا ممن يقرأون له لا يمكن أن ينتهوا من كتابه الضخم الا وقد أصبحوا جريئين جغرافيين ولا يخامرهم أى ريب فى صحة نظريته . ونحن لا نستطيع على كل حال أن نرفض الدافع الجغرافى على العمل البشرى فحينما نعلل ما حقيقة ثقافات وديان الأنهار فى العصور القديمة ، كالنيل ودجلة والفرات ، ينبغى أن نشير الى الخصائص الفيزيائية لهذه الأنهار وأوديتها . وحينما نتحرى مدى نجاح ادارة مشروع التنيسى (٣) ، لا يمكننا أن نفعل أحوال الأرض والتربة والمياه فى وادى تنيسى .

٢ - الجغرافيا والحضارة : من الخطأ مع كل ذلك أن نفترض أن دور الجغرافيا كان هو هو فى مصر والعراق ووادى تنيسى . ويرجع هذا الى أن الحضارة نفسها تتعرض لتغيرات كبرى . وقد أدى ما صنع الانسان من وسائل للمواصلات الى أن تكون للحضارات أهداف

(١) Somervell abridgment, op. cit., p. 80

(٢) بالولايات المتحدة الأمريكية . - المترجم

(٣) بالولايات المتحدة الأمريكية . - المترجم

جديدة . فالخصوبة الزراعية أصبحت أقل شأنًا في تحديد عدد السكان وثروتهم . وربما كان أهم ما أحرزته إدارة وادى تينيسى من نجاح استصلاح أرض المنطقة وجعلها صالحة للزراعة من جديد . ومما دفع السكان الى الهجرة بالجملة الافادة من الظروف الجديدة باستغلال المهارة الصناعية والعمل الحر في ميدان التجارة والمال ، وتلك الفرص الاقتصادية المتوقعة جزئيا على تحكم الانسان في الطبيعة . وقد حدث في انجلترا أن تغيرت مراكز تجمع السكان بعد الثورة الصناعية ، بأن انتقلت من المناطق الجنوبية الخصبة الى المناطق الشمالية الأقل خصوبة ، بينما تعمل التغيرات الاقتصادية الحديثة في الوقت الحاضر على إعادة تغير هذه المراكز . وفي الولايات المتحدة ساعدت الأحوال الاقتصادية في أول الأمر على قيام صناعة النسيج في ولاية نيوانجلاند ، ولكن عوامل اقتصادية لاحقة نقلت جزءا من هذه الصناعة الى ولايتى كارولينا مع بقاء العوامل الجغرافية كما هى . ومعنى هذا أن تؤدي سيادة العوامل الاقتصادية والسياسية والثقافية الى أن يبدو المجتمع مستقلا نسبيا عن التأثير المباشر للعوامل الجغرافية المحيطة به . لقد ذهب أحد الكتاب الى أن خط سير الحضارة متجه «نحو الجو البارد» ، منذ الامبراطوريات السوميرية والمصرية <sup>(١)</sup> . هذا التعميم مشكوك فيه بالطبع ، ومن جهة أخرى فإن الصلة بين الحضارة العالية وبين درجة الحرارة المنخفضة غير مؤكدة . والذي تدل عليه هذه التغيرات التي أشرنا اليها هو كيف أن القوى المنبعثة من داخل المجتمع تحدد على الدوام بيئات الحضارات الكبرى .

وليس من الصعب أن نبين سبب ذلك . ففي الحياة البدائية يقتصر

S.C. Gilfillan, "The Coldward Course of Progress", Political Science (١)

Quarterly, XXXV (1920), 393 ff.

وحتى هانتنجتون الذى كتب بالتفصيل فى موضوع « العلاقة القوية بين كفاية الأحوال الجوية والحضارة » ، يشير الآن الى « الواقعة الرئيسية ومؤداها أن الحضارة تتوقف على تأثير الوراثة والبيئة الفيزيائية والتاريخ الثقافى معا » - أنظر : *Mainsprings of Civilization*, p. 399.

نشاط الإنسان على ما تحدده له الدائرة المحلية التي يعيش فيها . وهو يعتمد على المنتجات الغذائية وأدوات البناء ونسيج لباسه مما تمده به الجيرة المباشرة . فإذا كان هناك قحط محلي لا تكون لديه وسيلة يتقن بها المجاعة . ان نشاطه الاقتصادي متوقف على المنتجات التي تقدمها له البيئة المحلية أو تسمح له بها أدواته وآلاته المحدودة . ان فنونه وصناعاته وعاداته الجمعية ومعتقداته تتجاوب كلها مع بيئته المحلية ومن أجل ذلك دأب الأنثروبولوجيون على أن يصفوا ثقافات بدائية كاملة على أساس إنتاج زراعى أو حيوانى معين خاص بالأقليم مثل قولهم : ثقافة الجاموس وثقافة الذرة وثقافة اقليم الغابات فى الشرق — وهى أسماء « مناطق ثقافية » تنطبق على أمريكا التى كان يقطنها الهنود الحمر قبل اكتشاف كولمبس .

واذن فإن نمو الحضارة يغير التأثير المباشر للأحوال الجغرافية المحلية ويقلل من مفعوليته . وانا لنرى الرجل الحديث يحصل على أنواع عدة من المنتجات من مناطق كثيرة . وكثير من صناعاته لا يمت بأية صلة على الإطلاق بالبيئة الجغرافية . كما أن وسائل مواصلاته تنقله الى بلاد تتيح له أن يواجه عادات جمعية جديدة وأساليب مختلفة للحياة لم تكن مألوفا له من قبل . وفى الحقيقة يصادف الانتشار السريع للمؤثرات الثقافية فى الوقت الحاضر عقبات من صنع الإنسان باسم السياسة أو التعصب أكثر مما يلاقى من حواجز بيئية فى اليابسة والماء . ولما كان من الممكن التغلب على هذه العقبات بالتكنولوجيا الحديثة وتعجيل انتشار الثقافة تبعاً لذلك فقد ترتب على هذا تناقض فى التجانس المحلى فى المجتمع الواحد من جهة وتقارب ثقافى بين بعض المجتمعات وبعضها من جهة أخرى .

أنظر مثلاً التباين الثقافى المشاهد فى جماعة محلية مثل « ميدلتاون » القائمة فى مروج الميديويست بالولايات المتحدة حيث تجد أحدث ما وصلت اليه التكنولوجيا الى جانب التقاليد الشعبية القديمة التى ترجع الى عدة أجيال مضت ، ثم تأمل بعد ذلك الأشياء العديدة المشتركة — فى النواحي

الاقتصادية والمدنية والتقاليد السياسية والتعليم وما شابه ذلك — بين ميدلتاون وبين الجماعة المحلية الساحلية في نيوانجلاند المعروفة باسم « يانكي سيتي » . وغير هذين المثالين لا تنسى الشكوى التي يرددها بعض الأوروبيين من أن قارتهم آخذة في أن تصبح « متأركة » أو بعبارة أخرى مختومة بخاتم ثقافتنا الأمريكية . وعلى العكس من ذلك هناك التباين الثقافي الملاحظ في كل مدينة من المدن الكبرى في العالم — حيث لا يتعذر أن نجد جميع المستويات الحضارية اذا بحثنا عنها في نيويورك أو باريس أو سان فرانسيسكو أو شنغهاي . ومن الممكن أن نعدد الأمثلة الى ما لا نهاية عن دور الحضارة المتزايدة الأهمية في تحديد شكل الجماعة المحلية والدور المباشر المتناقض للجغرافيا في تحديد طريقة حياة الانسان .

ان الانسان أقدر على أن يتعلم قوانين الطبيعة لمصلحته وتقسيمه . وأما توقف حياته على الأحوال الجغرافية المحيطة به فيمكن أن يعدله بطريقتين أوليين . فمن جهة يرى أنه حر في التحرك الجغرافي، وهذه الحرية قوة كبيرة تساعد في اختيار المكان الذي يرغب في الاستقرار فيه أو تغييره . وهو الآن يستطيع أن ينتقل بسرعة ، دون أى عناء شخصى وبأقل النفقات من مكان الى آخر ، حتى ان الهجرة من موطن قديم الى موطن جديد لا يقف في سبيلها الآن الا ما يفرضه المجتمع ، لا الجغرافيا ، من عقبات ، ومن جهة أخرى فانه يتعرض لنتائج ارتطام المؤثرات المختلفة في البيئات النائية . ونحن نرى أن أسلوب حياته وتفكيره ونظامه الاجتماعى، كل أولئك يتأثر بما يفعله أو يفكر فيه غيره من الأقوام وهم على بعد آلاف الأميال منه . كما أن غذاءه يشتمل على أشياء منتجة في بلاد بعيدة ومجمل القول أن التراث الاجتماعى كلما نما قلت أهمية العوامل الجغرافية من حيث امكانها تفسير الحياة الاجتماعية .

وليس معنى هذا — بالرغم من ذلك — أن بيئة الانسان الفيزيائية تقل دلالتها العامة كلما تقدمت فنونه الآلية :

« فكلما زاد التراث الثقافى ، أصبح جزء كبير من البيئة مفيدا ويعنى

الكثير . وإن الأحوال الطبيعية للأقليم تكون خطيرة الأهمية إذا لم يتقدم  
منفعولها نتيجة لزيادة الثقافة والمهارة الفنية . فالصياد يعرف الغابة فقط  
كموطن للطيور التي يصطادها ، ولكن الرجل الحديث يعتبر الغابة مصدرا  
للأخشاب ووسيلة لحماية التربة من التآكل كما يجد فيها فضاء لتجديد  
النشاط ومجالا للمشاهدة العلمية » (١) .

إن لويس مفورد ، صاحب هذا النص ومن المتحمسين للتخطيط  
الأقليمي ، ربما كان مبالغا فيما يقول . غير أنه يوجه أنظارنا الى ما بين  
الجغرافيا والحضارة من أخذ وعطاء .

**العلاقة الخاصة والمحددة بين الجغرافيا والمجتمع :** اننا لا نرفض  
« الوقائع الأرضية » فهي ما زالت ذات تأثير واضح ودقيق جدا في حياة  
المجتمع . وقد يحسن أن نلمح بعض العلاقات القائمة بينهما .

١ - **التأثيرات المباشرة للجغرافيا :** انه لمن الواضح كل الوضوح  
أن الجغرافيا تهبط ظروفها معينة ذات دلالة اقتصادية كبيرة . وقد ذكر أحد  
الثقات ستة أنواع من النشاط البشري تعتمد اعتمادا مباشرا على الوقائع  
الجغرافية : (١) البيئة والسكن ، (٢) نوع الطرق واتجاهها ، (٣) زرع  
النباتات ، (٤) تربية الحيوان ، (٥) استغلال الثروة المعدنية ، (٦) الأضرار  
التي تصيب النبات والحيوان (٢) .

وينبغي أن نذكر أن الوقائع الجغرافية تختلف دلالتها بالنسبة لهذا  
النشاط البشري أو ذاك تبعا للتقدم التكنولوجي وغير ذلك من مظاهر  
التغير الحضاري . وعلى سبيل المثال لم يكن ظهور الفحم في أوروبا أولا  
وفي أمريكا من بعدها « واقعة أرضية » لها معناها الا عندما بدأ العصر  
الصناعي . وبنفس الكيفية ظهرت هناك أهمية اجتماعية لم تكن فيما قبل  
الحقول البترول ومصادر القوة المائية الكهربية ، وأخيرا لكميات

---

From *The Culture of Cities* by Lewis Mumford, Copyright, 1938, (١)

by Harcourt, brace and Company, Inc.

Jean Brunhes, *Human Geography* (New York, 1920), Chaps. I and II. (٢)

الأورانيوم الموجودة في اركنساس . وفي الحقيقة ، ان ما نسميه « مصدرا للثروة الطبيعية » ليس مجرد نوع من التربة أو المعادن أو الأنهار ، وإنما هو نتيجة لتقدم حضارى — أو لمعرفة طبيعة الأرض واستغلالها بواسطة أحد المجتمعات القائمة . واليك مثالا آخر — فهناك بلاد تقدمت الحياة فيها وازدحمت بالسكان بفضل العوامل الجغرافية ، الا أن هذه العوامل فقدت أهميتها فيما بعد بتقدم الفنون الصناعية وانتشارها بين مكان الى آخر . وهذا هو السبب الذى من أجله ساعدت الأحوال المتغيرة على تكوين أهمية مدينة كالبنديقية ، أو قادش ، أو مدن الهنسا أو مراكز صيد الحوت القديمة في نيوانجلاند ، كما أدت التغيرات الجديدة بعد ذلك الى أن تفقد هذه المدن والمراكز أهميتها . وانظر كذلك الى الطرق المائية والموانئ الطبيعية أو النقل المتعذر لأسباب طبوغرافية كما هى الحال عند التقاء ممر جبلى بهضبة أو حافة الصحراء بأحد السهول الخصيبة ، وكيف أثرت هذه الظروف فى قيام مدن مثل نيو أورليانز وسان فرانسيسكو وبافالو ودنفر والقاهرة والقسطنطينية وأنتويرب ، ثم كيف أدى تقدم حركة النقل ونمو التجارة والصناعة الى ازدهار هذه المدن أو تدهورها . ومما يستحق التسجيل أيضا أن الاكتشافات الجديدة فى صناعة التعدين مثلا تبرز فجأة أهمية مناطق كانت قيمتها فى أول الأمر محصورة فى أرضها وطرق الانتفاع بها مثل مناطق الخام اللازمة لانتاج الألومنيوم . هذه الأمثلة جميعها ترينا التأثير المباشر لبعض العوامل الجغرافية على الحياة الاجتماعية ، ولكنها توفقنا كذلك على التفاعل المستمر بين الوقائع الجغرافية ووقائع التراث الاجتماعى .

٢ - التأثيرات الجغرافية غير المباشرة : انا حينما نرجع على التأثيرات الجغرافية التى تدق على الملاحظة أو تخفى عليها أكثر من سواها نحتاج الى كثير من الاحتياط . وذلك لأنه من السهل أن نجد علاقات تربط بين الأحوال المناخية أو المتعلقة بطبيعة الأرض وبين الظواهر الاجتماعية . وقد أشار بعض الكتاب الى علاقات ترابط بين المناخ وبين

الجريمة والانتحار والجنون وقوة الجسم والعقل وغير ذلك <sup>(١)</sup> . غير  
أن الترابط ليس تفسيرا ، انه لا شيء أكثر من دافع الى مواصلة البحث  
والدرس .

أنظر الى الترابط القائم بين القوة البشرية وبين المناخ العنيف المتغير  
الموجود في إنجلترا أو في نيوانجلاند ( بالولايات المتحدة الأمريكية ) .  
هذا الترابط يرينا — ويؤيد في ذلك ما يلاحظه عامة الناس — أن أهل  
الشمال كثيرو العمل ، معروفون بالعزم والقوة على حين أن أهل الجنوب  
كسالى ، غير منتجين . وإذا كان الأمر يتعلق بالمناخ أجبتنا بأن قوة الفرد  
وصحته نتيجة لعدة عوامل كالغذاء والأحوال الصحية ومستويات المعيشة  
ثم هناك شيء ليس آخر الأشياء ، وهو هذا « الجو » من المواقف والقيم  
ومشجعات العمل التي يعيش فيها الفرد . وما « الكسل » الجائئ في  
الجهات الجنوبية الا فكرة شعبية منتشرة حتى في إيرلندا وألمانيا ، رغم  
بعد هذين البلدين البعيد عن « نشاط » الجهات الشمالية في فرنسا  
وايطاليا <sup>(٢)</sup> . وكيف يمكننا في بلادنا ( الولايات المتحدة الأمريكية ) أن  
نفسر هذه الحياة الصاخبة التي تطالعنا في فرجينيا أو ميريلاند مثلا دون  
أن ندخل في الاعتبار العوامل الاجتماعية المتصلة بالنمو الصناعي  
والتجاري ؟ ولعلنا لا ننسى الترابط القائم بين شهور الصيف والجرائم  
التي تقترب ضد النفس ، كالقتل والاعتداء على النساء . وهناك أسباب  
واضحة تمام الوضوح يمكن أن نسوقها كتفسير لهذه الواقعة ، كالفرص  
المتاحة للتوسع في العلاقات الشخصية بفضل درجة الحرارة السائدة في

(١) من بين المراجع المتقدمة زمنيا ما يلي :

E.C. Dexter, *Weather Influences* (New York, 1904) and E. Huntington, *Civilization and Climate* (New Haven, 1924).

ومن المحاولات الجديدة في نسبة الصحة والقوة الى المناخ :

S.F. Markhan, *Climate and the Energy of Nations* (New York, 1944) and C.A. Mills, *Climate Makes the Man*, (New York, 1942).

Cf. R.T. La Pierre, *Sociology*, (New York, 1946), p. 96. (٢)

فصل الصيف ، والتي تتميز بها المنطقة الجغرافية المعروفة بالمنطقة المعتدلة- غير أن هذه التفسيرات ينبغي أن توضع موضع الاختبار ، ففي ولاية كارولينا الجنوبية تبلغ حوادث القتل أقصاها في شهر ديسمبر ، ويأتي شهر يولييه في المحل الثاني . ويدل البحث في هذه الولاية على أن الترابط بين المتوسط الشهري لدرجة الحرارة وعدد حوادث القتل ضعيف جدا .. ومن جهة أخرى فإن يوم عطلة عيد الميلاد ( المسيحي ) يشهد أكبر عدد من هذه الحوادث ، وهذه واقعة توحى بالتفسير الاجتماعي لا المناخي<sup>(١)</sup> . كذلك لا يمكننا القول بأن من طبيعة الجو الحار أن يولد الجرائم على غرار قولنا ان من طبيعة الشمس أن تذيب الجليد .

وعلى ذلك نكون الآن قد وصلنا الى عقدة العقد ، فالترابط مهما كان دقيقا لا يدل على العلية ، اذ من اللازم أن تتبع الصلة بين الواقعة الطبيعية والواقعة الاجتماعية ، قبل أن ننسب أى معنى من معانى العلية للواقعة الأولى . وعندما تتحرى التأثيرات الجغرافية غير المباشرة في الحياة الاجتماعية ينبغي أن نستكشف الحلقات الوسطى في السلسلة .. نعم لابد لنا من أن نستكشف العلاقة بين الواقعة المناخية أو غيرها من الوقائع الجغرافية وبين حالة الانسان ككائن عضوى . ويلى ذلك أن نربط هذه الحالة بالبواعث التي تعبر عن نفسها في صورة ظواهر اجتماعية . ولما كان البواعث تخضع بداهة لأحوال غير جغرافية ، فقد نحتاج بالطبع ، كما رأينا ، الى أن نستكشف ظروفها لا يمكن تفسيرها بهذا الترابط الذي يتبادر الى ذهننا لأول وهلة .

٣ - مثال من دراسة الانتحار : منذ حوالى نصف قرن حقق العالم الفرنسي اميل دوركايم موضوع الصلة بين العامل المناخى والظاهرة الاجتماعية ممثلة في الانتحار . وكان الغرض من دراسته هذه تحرى منهج البحث العلمى الدقيق الذى يهمله الكثيرون لسوء الحظ عندما يحاولون.

١- See H.C. Brearley, "Homicide in South Carolina", *Social Forces*, VIII (١)

1929), 218-221.

تفسير المؤثرات البيئية ، والذي ما يزال في حاجة لعناية الباحثين . وكانت هناك دراسات سابقة كثيرة قد أظهرت أن نسبة الانتحار في البلاد الأوروبية في النصف الأول من السنة ( من مارس الى أغسطس ) كانت دائما أعلى منها في النصف الثاني المتميز بالبرودة . الا أن التحليل الذي قام به دوركايم قد كشف أن مستوى درجة الحرارة الفعلية ليس له سوى علاقة بسيطة ومحدودة بهذا الترابط الذي نحن بصددده . اذ قد وضع أن التغيرات الشهرية في درجة الحرارة لم تتفق والتغيرات التي حدثت في نسبة الانتحار . وزيادة على ذلك فقد ثبت أن هناك بلادا حارة جدا ، نسبة الانتحار فيها واطئة . وقد دعت هذه الأمور دوركايم الى أن يبحث بالارتباطات القائمة بين الانتحار وبين عوامل اجتماعية معينة . وانا لنراه يسجل أن حوادث الانتحار يزداد عددها كلما ارتفع المستوى الحضارى . وانه تبعا لذلك تقع حوادث انتحار في المدينة أكثر مما في الريف ، وأكثر بين العزاب والأرامل مما بين المتزوجين ، وأكثر بين البروتستنت وغير المتدينين مما بين الكاثوليك . وجميع هذه الوقائع توحى بتفسير ذى حفة اجتماعية — مؤداه أن الانتحار يقع بصفة خاصة حيثما تشجع الظروف على العزلة الاجتماعية وحينما يفتقر الناس الى حاسة التضامن التى تخلقها المسؤوليات الاجتماعية القوية ، فيشعرون أنهم أكثر عرضة الى الرجوع الى مدخراتهم الخاصة طلبا للراحة أو بحثا عن الصديق أو التماسا للسلوى .

وبالطبع لم يحاول دوركايم أن يفسر كل حوادث الانتحار بهذه الكيفية . الا أنه قد قدم لنا فرضا علميا أكثر وضوحا في معناه من الغرض القائل بأن درجة الحرارة المرتفعة تدفع الى الانتحار . ونحن اذ نمود الى الترابط المناخى نشير الى ما سجله على كل حال ومن أن العامل الأول للمؤثر قد لا يكون درجة الحرارة في شهور الصيف ، وانما أيام النهار الطويل — حينما تكون الحياة الاجتماعية أكثر نشاطا وأشد حدة . وذلك

لأن النهار الطويل يمدنا بفرص كبيرة لزيادة اتصالنا بالغير بدلا من العلاقات المتباعدة التي تجعل حاسة العزلة الاجتماعية أكثر عرضة للنمو . وقد برهن دوركايم بمهارة فائقة على أن هذه النظرية تتفق والتغيرات التي تطرأ على الاتحار من موسم الى موسم ، ومن شهر الى شهر ، ومن أى يوم من أيام الأسبوع الى أى يوم آخر <sup>(١)</sup> .

٤ - ما تلعب البيئة الطبيعية من دور محدود : توضح دراسة دوركايم ما ذهبنا اليه من أن الجغرافيا تمدنا بمجموعة خارجية من الأحوال تجرى في ظلها حياة الانسان في المجتمع . ولا يستطيع السوسيولوجي أبدا أن يتجاهل هذه الأحوال . غير أن مهمته تنحصر في اظهاره لمعلاقها بالعلل المباشرة للظواهر الاجتماعية ومواقف الناس ومصالحهم . فالانسان يعمل على أن توائم نفسه جميع أنواع الأحوال الجغرافية ، ولكنه ليس بخال من المدخرات عندما يواجهها . نعم ان تغيرا ما يطرأ عليه حينما يقع تحت تأثير بيئة جديدة . ولكن هذه البيئة تتأثر أيضا بما يضمنى عليها من شخصيته . أنظر مثلا الى الرجل الأبيض الذي يعيش في المناطق الحارة . انه هنا يختلف عن أقرانه البيض الذين خلفهم في بلده وذلك بحكم البيئة الجديدة . ولكن من المسلم به أنه قد جلب معه حضارته هو . ولا شك أن الأمريكيين والأوروبيين الذين يعملون في الشرق الأقصى يتغيرون عن زملائهم الذين لم يغادروا أوطانهم ، فالأحوال المناخية تؤثر في نشاطهم ، ولكنهم لا يتحولون في العادة الى أتباع لكونفوشيوس أو بوذا . ومن الواضح أن هناك عوامل أخرى قائمة

---

E. Durkheim, *Le Suicide* (Paris, 1897), especially Book I, Chap. III (١)

وتوسع هاليفاكس في كتابه :

M. Halbwachs, *Les Causes du Suicide* (Paris, 1930):

في تطبيق طرق البحث التي اتبعها دوركايم كما نقحها ، بينما يختلف معه في أكثر من نقطة فرعية .

ولزيادة تحرى سلامة هذا المنهج من الناحية السوسيولوجية ، أنظر :

P. Sorokin, *Society, Culture and Personality* (New York, 1947), pp. 8-13.

كالاصطدام بحضارة أجنبية ، أو بأجناس بشرية يشعرون أنهم غرباء عنها . وقد يمارسون سلطانا عليها . واذن فالمسألة هنا لا تنحصر في وجود اختلاف في الأرض ، وإنما في الوضع كله . وكثير من العوامل البيئية تعمل بالاشتراك مع غيرها من العوامل حيثما وجدت المجتمعات الانسانية .

## الأرض والسكان

**السكان ووسائل العيش بالكفاف :** رأينا فيما سبق أن لرقعة الأرض التي تحتلها أية زمرة انسانية تأثيرا على صحة أفرادها وثروتهم وعملهم وفرصهم في الحياة ، وكذلك على أسلوب معيشتهم . وربما كان للجغرافيا بصفة خاصة دخل كبير في تحديد عددهم . ونحن نستبقى هذه المسألة الأساسية المتعلقة بالصلة بين الجغرافيا وحجم المجتمع أو درجة كثافته لنعالجها علجا مستقلا فيما بعد <sup>(١)</sup> .

١ - **اختلال التوزيع السكاني في العالم :** هناك مناطق على سطح الأرض نجد فيها السكان موزعين ومبشرين ، ومناطق أخرى سكانها متصلة حلقاتهم بعضها ببعض ، وتتميز بالكثافة . ويعيش ثلاثة أرباع سكان العالم البالغ عددهم بليونى نسمة في جنوب شرقى آسيا وغربى أوروبا ووسطها ، وشرقى أمريكا الشمالية ووسطها — وهذه هى مناطق كثافة السكان . وتضم آسيا وحدها أكثر من نصف سكان العالم : ففيها ٤٥٠ مليون نسمة في الصين وأكثر من ٣٨٠ مليون نسمة في الهند . وفي

---

(١) ليس من أغراضنا أن نقدم هذا المبحث كملخص واف — لاستحالة ذلك هنا — لمادة الديموغرافيا التي تأخذ أهميتها في الازدياد — وهى المادة المثلة فى بعض المراجع الجامعية مثل :

W.S. Thompson, *Population Problem* (3rd ed., New York, 1942) and P.H. Landis, *Population Problem* (New York, 1943).

وقد عنيينا فى هذا الفصل ببعض جوانب دراسة السكان ، ذات الصلة بمشكلة العلاقة بين الجغرافيا والمجتمع .

جاوا يعيش أكثر من ٩٠٠ من الناس في الميل المربع ، ويقابل هذا العدد الضخم ثلاثة أشخاص أو أكثر قليلا في الميل المربع في كندا ، على سبيل إيراد الأمثلة الصارخة . ومن الواضح أن هذا الاختلال في توزيع السكان متصل بعوامل جغرافية ، وذلك لأن الإنسان يعتمد على مقدرة الأرض الإنتاجية ، وهذه لا تشمل خصوبة التربة فحسب بل أيضا امكانيات الثروة المعدنية ، لسد حاجاته الغذائية وللحصول على كل ما من شأنه أن يحول مجرد تعيشه الى مستوى معين للمعيشة . وهناك مساحات شاسعة على ظهر الكرة الأرضية اما جافة شديدة الجفاف ، واما باردة شديدة البرودة بحيث لا تسمح بقيام أعداد كبيرة من السكان . والثابت أن ٨٠ في المائة من الأرض في العالم قد وجد غير ملائم لزراعة المحصولات ولا للرعى ، وربما كان ثلث العشرين في المائة الباقية من الأرض مستغلا في انتاج الطعام . واذا فكرنا في السكان من حيث صلتهم بالأرض والأنواع الاقتصادية للإنتاج الاقتصادي ، أمكن أن نقسم اليابسة الى أربعة أقسام كبرى : (١) الأمم الأوربية الكثيفة السكان والآخذة بالتصنيع ، (٢) الشرق الزراعى المزدحم بالسكان ، (٣) البلاد التى فى أمس الحاجة الى السكان ، مثل كندا وأستراليا ، (٤) الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، حيث نجد السكان والمنطقة والإنتاج فى توازن سليم أكثر مما عليه الحال فى بلاد العالم الأخرى <sup>(١)</sup> . ومن الواضح أن حجم السكان فى أى بلد ، أو فى الكرة الأرضية كلها ، ومستوى التقدم المادى لهذه المناطق التى أشرنا إليها ، أمران متصلان بمنح الطبيعة وبجهود الإنسان معا .

٢ - السكان الذين يعيشون بالكفاف : لوحظ منذ مدة طويلة أن بعض مجموعات السكان تميل الى النمو فى العدد الى الدرجة التى تصبح عندها غير قادرة الا على مجرد مد أفرادها بالطعام ، وهنا تتدخل الطبيعة

(١) "Two Billion People", *Fortune* (Feb., 1944).

لتعمل بطرقها الخاصة على الحيلولة دون وقوع زيادات جديدة في السكان وهذه الطرق تشمل التجويع والمرض وما يترتب عليهما من آثار ترفع نسبة الوفيات عاليا وعلى الأخص بين صغار السن . وهذا مثال قيم للتوافق الفيزيقي مع البيئة ، والشعوب التي تتعرض للسيطرة على حجمها بمثل هذه المراقبة الطبيعية يطلق عليها في الاصطلاح « السكان الذين يعيشون بالكفاف » . وهؤلاء يواجهون ظروفًا سيئة كلما ازداد إنتاجهم للطعام ؛ اذ تظهر بينهم في هذه الحالة بطون جديدة ترغب في التهام هذه الزيادة ، حتى ان الفقر المادى يصبح القاعدة بينهم . والأغلبية الكبيرة من الأفراد الذين عاشوا خلال القرون الماضية كانوا ينتسبون الى مجموعات السكان الذين يعيشون بالكفاف التي لم تكن تهبط الى مستوى عال للمعيشة الا لفئة قليلة من الطبقات المترفة فيها ، وحتى المغنم الكبيرة التي كسبتها الحضارات المختلفة من طريق الانتاج الزراعى السابق على القرن التاسع عشر لم تحسن الوضع الا قليلا ، اذ أن هذه المغنم قد صاحبها نمو كبير في عدد السكان (١) .

وليس معنى ما تقدم أن المجتمعات حتى عهد قريب لم تتعرض الا لتدخل الطبيعة في الأوضاع السكانية . ففي الحضارات التي سبقت العصر الحديث ، وفي المجتمعات البدائية تؤيد مشاهدتها وجود عادات مقصود بممارستها الحد من الأعداد الكثيرة من الناس ، ومن بين هذه العادات عادة وأد الأطفال التي يجيزها العرف ، وقتل العجزة وكبار السن كما هو الشأن بين أهالي استراليا الوطنيين ، والابهاض الذى تمارسه كل الشعوب على وجه التقريب ، والآداب العامة التى تقيد العلاقات الجنسية ، ودفع الناس الى المهاجرة ، والحرب . ومما لا شك فيه أن هذه الأمثلة دليل ذو مغزى على المحاولات التى يبذلها الانسان للتحكم فى الزيادة المطردة البادية على نموه العدى . ومهما كانت قدرة هذه العوامل

---

Cf. La Pierre, op. cit., pp. 136-138 (١)

الضابطة للسكان في العصور القديمة ، فان تدخل الطبيعة العنيف للغرض نفسه كان عاملا رئيسيا في تحديد أعدادهم ، وان مستوى المعيشة الذي يسمح فقط بالبقاء كان القاعدة بالنسبة للأغلبية العظمى من البشر — وهذا ما هو حادث بالفعل في أيامنا هذه للملايين الكثيرة من الناس الذين يعيشون بعيدين عما وصلت اليه المدنية من اختراع وتقدم في العصر الحديث (١) .

٣ - مذهب مالتوس : ونعرض الآن لتوماس ر : مالتوس الذي تأثر الى حد كبير في أوائل القرن التاسع عشر بفكرة الضبط الواقع على عدد السكان بسبب الأحوال الجغرافية وكان ذلك الوقت متنبئون من أمثال جودوين وكوندورسيه (٢) ، منوا الناس بعهد جديد باسم تعمه الراحة ويسوده الاطمئنان وينتفى منه عناء العمل، نتيجة للكشوف العلمية والتقدم التكنولوجى . ولكن مالتوس أعلن أن في مثل هذه التخمينات عنوانا يينا على تواضع الطبيعة ؛ فالعلم في نظره قد يتقدم بخطى سريعة ، الا أن قدرة الأرض على امدادنا بحاجتنا الأولية محدودة . وقد أكد هذا الباحث أن السرعة الطبيعية للانسان البشرى لا مفر من أن تتجاوز امكانيات الأرض لاطعام السكان المتزايدين ، الا اذا تحكمنا بطريقة ما في تزايدهم وفقا لخطة مرسومة .

وفي الواقع ذهب مالتوس الى أن الجغرافيا هي العامل الذي يحد من نمو السكان ، وكذلك من تقدم المجتمع . وقد قابل بجلاء في دراسته المشهورة بحث في السكان بين الخصوبة النوعية لبنى الانسان وامكانيات المواد الغذائية (٣) . وقد وصف تطورات حياة السكان الذين لا يفعلون

(١) فيما يتعلق بضبط السكان فيما قبل العصر الحديث ، أنظر :

Thompson, op. cit., Chap. I

W. Godwin, Political Justice (1793) and The Enquirer (1797); M.J. (٢)

Condorcet, Tableau Historique de l'Esprit Humain (1794).

(٣) أنظر بصفة خاصة الفصلين الأولين من كتابه :

Thomas R. Malthus, Essay on Population (edition of 1803).

بحكم ظروفهم شيئاً أكثر من التعيش ، على النحو الآتى : الأفراد يتزايدون حتى يبلغوا حدود التعيش فحسب ، بل ويتجاوزون هذه الحدود الى الفاقة ، والطبيعة تتدخل للحد من هذه الزيادة بتعريض السكان للمرض والموت جوعاً ، ويمنع الضغط الحادث بسبب الزيادة المستمرة ، أى ارتفاعاً في مستويات المعيشة . ومن رأى مالتوس أن التقدم العلمى والتكنولوجى لا يستطيع أن يرفع مستوى البشرية الا اذا تدخل باعث قوى مشجع على ضبط غريزة حب الاكثار من النسل . وقد رأى أنه لتحقيق هذه الغاية لابد من اصطناع حد وقائى قوامه الضبط الخلقى أو النفسى فى مواجهة ذلك الضبط الايجابى الذى تقوم به الطبيعة — ولكن بدون أية ثقة فى أن لدى الأول القوة الكافية للتحكم فى الرغبة الدافعة على الانسال .

وأعقب مالتوس باحثون مدققون ، أخذوا بوجهة نظره المتشائمة ، وإن كانوا قد فعلوا ذلك بتعبيرات مختلفة كتحدثهم مثلاً عن « قانون الثمار الضائعة » . وزعم كتاب أحدث منهم أن الزيادة الخارقة فى عدد السكان فى كل من أوروبا وأمريكا خلال القرن الماضى أو القرنين السابقين ، ينبغى أن ينظر اليها على اعتبار أنها حدث لم يسبق له مثيل ، مرده الى مجموعة غير عادية من الأحداث ذات الصلة بظروف ملائمة ، وأشاروا الى أنه لا توجد فى الوقت الحاضر أراض زراعية بكر يمكن أن يستثمرها العلم الحديث . وبعض هؤلاء الكتاب رأى أن الجنس البشرى فى مفترق الطرق ، وأن عليه أن يختار اما بين خصوبة نوعية ضئيلة واما بين حضارة دنيا <sup>(١)</sup> . والبعض قدر أن الأرض ما زالت قادرة على انتاج الحب والقطن وغير ذلك من الحاجيات الضرورية ، كما أقروا بأن زيادة السكان الآخذة فى الاطراد تتهدد المستقبل <sup>(٢)</sup> . وهناك كتاب عديدون عنوا باظهار أهمية ما يحيق ببلاد العالم جميعاً من أخطار جسيمة خلقها

(١) E.M. East, *Mankind at the Crossroads* (New York, 1923).

(٢) W.S. Thompson, *Population: a Study in Malthusianism* (New York, 1915).

وما يزال يخلقها ضغط السكان على مصادر الثروة في المناطق الآهلة بهم  
أو المفتقرة الى مثل هذه المصادر (١) .

ووجد كتاب غير هؤلاء ، أكثر تفاؤلا منهم . فقد لاحظ بعض علماء  
الاقتصاد القدامى تلازما بين نمو السكان وزيادة راحة البشرية . ويؤمن  
كتاب كثيرون بالامكانيات الضخمة للزراعة العلمية ، وأحدهم آمن بذلك  
لدرجة أنه قدر أن تطبيق هذا النوع من أساليب الزراعة في البرازيل  
مثلا يمكن أن يؤدي الى امداد كل أوروبا بحاجتها من الطعام . وكثيرا  
ما يشار الى أن مجموعات السكان الضخمة الموجودة في العالم الغربي  
حاليا تنال حظا من التغذية يزيد زيادة كبيرة عن حظ السكان القلائل  
الذين سبقوهم في نفس المكان قبل الانقلاب الصناعي — ولعلنا نذكر  
ما تناولناه في الفصل السابق من التأثير الجشمانى لذلك في طول القامة  
وزنة الجسم . ومن الملاحظ في كل مكان أن التقدم العلمى الباهر في  
انتاج الطعام ما زال في بدايته ، وأن مخاوف مالتوس تبدو اليوم ، بسبب  
هذا التقدم ولأسباب أخرى سنعرض لها فيما بعد ، أقل خطرا مما كان  
يظن في أول الأمر .

**نمو المجموعات السكانية الحديثة :** لا يزال صحيحا قولنا ان الزيادة  
في وسائل التعيش لا يمكن أن تلاحق في سرعتها الكفاية الانتاجية بالمعنى  
الفسولوجى لأية مجموعة من السكان (٢) . ومن الصحيح أيضا أن جزءا  
كثيرا من مناطق الأرض الخصبة قد استغل فعلا في الزراعة ، وأن كثيرا

---

W.S. Thompson, *Danger Spots in World Civilization* (New York, 1929); (١)

H.P. Fairchild, "Postwar Population Problems", *Social Forces*, XXIII (Oct., 1944).

(٢) يجدر بالذكر أن نشير الى أن الكفاية الانتاجية الفسيولوجية  
بالنسبة لأنثى الانسان — أى خصوبتها ومقدرتها على الحمل والولادة — تبلغ  
أقل قليلا من ٢٥ طفلا لكل أم . وبالطبع تعكس نسبة الخصوبة الواقعية  
العوامل الاجتماعية التى تتدخل فى تحديد هذه الكفاية الانتاجية .

Cf. S.J. Holmes, *Human Genetics and Its Social Imports* (New York, 1936),

pp. 197-198.

من الأراضى كالصين والهند ، تغطي فيها كثافة السكان لدرجة أن الجموع الكبرى من الأهالى ما تزال تحيا — بسبب أساليب الزراعة السائدة بينهم — على هامش التعيش . وعلى العكس من ذلك نجد أنه قد نت في مناطق المدنية الحديثة ظواهر جديدة ذات أهمية كبرى ، من حيث انها تبسط مشكلة السكان في ضوء جديد من كل وجه .

١ - نمو السكان ذاته : بالرغم من أننا لا نملك الا تقديرات تقريبية ، فاننا نعلم أن زيادة السكان في أوروبا الغربية زادت من خمسة ملايين في العصر الرومانى الى خمسين مليوناً في القرن السادس عشر ، وأن هذه الزيادة كانت الى حد كبير نتيجة لتحسن وسائل التغذية . الا أنه في أثناء هذه المدة وخلال القرنين التاليين ، وبالرغم من الزيادة المطردة في عدد السكان والهبوط القليل في نسبة حالات المرض والموت بسبب الجوع ، فان الأوبئة الدورية الخطيرة التي كانت تكتسح ضحاياها كالمعتاد ، ونسبة وفيات الأطفال ، لم يطرأ عليها جميعاً الا هبوط بسيط حتى منتصف القرن التاسع عشر .

والثابت أن زيادة سكان العالم منذ ١٦٥٠ ( وهى السنة التي استطاع الديموغرافيون ابتداء منها أن يقدموا لنا أضبط تقديراتهم ) آخذة في التمايل دون استقامة ، فمنذ عام ١٨٠٠ ، كما يوضح الجدول رقم ٢ ، حدث أن سكان الأرض الذين كانوا أقل من بليون نسمة زادوا

| الجدول ٢ (١) - تقديرات لعدد سكان العالم والنسب المئوية لزيادتهم |                               |                                                   |
|-----------------------------------------------------------------|-------------------------------|---------------------------------------------------|
| التاريخ                                                         | تقدير سكان العالم (بالملايين) | النسبة المئوية للزيادة السنوية خلال المدة السابقة |
| ١٦٥٠                                                            | ٥٤٥                           | ٠.٢٩                                              |
| ١٧٥٠                                                            | ٧٢٨                           | ٠.٤٤                                              |
| ١٨٠٠                                                            | ٩٠٦                           | ٠.٥١                                              |
| ١٨٥٠                                                            | ١١٧١                          | ٠.٦٣                                              |
| ١٩٠٠                                                            | ١٦٠٨                          | ٠.٧٥                                              |
| ١٩٤٠                                                            | ٢١٧١                          | —                                                 |

(١) هذه الأرقام منقولة عن by K. Davis, "The World Demographic Transition", *The Annals of the American of Political and Social Science*, CCXXXII (1945), 1-3, and are taken from A.M. Carr-Saunders, *World Population* (Oxford, 1936) and, for 1940), *League of Nations Statistical Yearbook for 1941-1942*.

أكثر من ضعف عددهم بكثير . فما الذى يفسر هذه السرعة الفائقة الزيادة؟ وما الذى يفسر بصفة خاصة ذلك الهبوط الشديد فى الوفيات الى الدرجة التى ضاعفت امكانيات الحياة منذ اللحظة الأولى للولادة ، وذلك من أواخر القرن السابع عشر ؟ ومن بين العوامل الكثيرة التى أدت لهذا الهبوط ، والتى لا بد منها لتحقيق نمو السكان الحادث بالفعل ، ينبغى أن نذكر ما يلى : (١) تحسن الآلات الزراعية والتخصص الاقليمى فى أنواع المحصولات ، مما أدى لوفرة المواد الغذائية وتنوعها ، (٢) تقدم التجارة ووسائل النقل التى ساعدت جميعا على ارتياد الأراضى البكر وتوزيع المواد الغذائية توزيعا وافيا — فمثلا انجلترا أصبحت تعتمد على استيراد الحبوب بعد عام ١٧٥٠ مباشرة ، (٣) بعد عام ١٨٥٠ تقدمت وسائل العناية بالصحة العمومية وانتشر الطب العلمى ، وساعد هذا كله فى العصور الحديثة على إطالة عمر الانسان ، (٤) العوامل غير المملوسة — كنمو النظم الديموقراطية والمثل العليا وعواطف حب الانسانية « (١) ، وربما كان هذا النوع من العوامل لا يقل شأنًا عن غيره من حيث قدرته على تخفيض نسبة الوفيات . وهنا نرى موضعا مرة ثانية العلاقة بين الجغرافيا والسكان ، ولكنها علاقة أصبحت آخذة فى أن تصبح غير مباشرة فى السنوات الأخيرة .

٢ - نسبة المواليد الآخذة فى الهبوط : يتضح الهبوط الشديد فى نسبة الوفيات بشكل ملموس عندما ندخل فى الاعتبار أنه فى الأزمنة الحديثة ، وربما ابتداء من عام ١٨٠٠ فى بعض البلاد الأوربية ، قد أخذت نسبة المواليد تهبط بنفس الكيفية . ويبين الجدول ٣ هبوط الخصوبة الفعلية بعرض عدد حالات الولادة ( ونكتفى هنا بالنسبة التقريبية للمواليد ) فى كل ألف من السكان فى أوقات مختارة خلال المائة والخمسين السنة الأخيرة ( ومن وجهة النظر الديموغرافية ، إن زيادة عدد السكان

(١) Cf. Davis, op. cit., pp. 3-5

الجدول ٣<sup>(١)</sup> - متوسط النسبة التقريبية للمواليد في بلاد وسنوات مختارة

| البلد                      | ١٨٠٨-١٨١٢ | ١٨٧٨-١٨٨٢   | ١٩٣٥-١٩٣٩                    |
|----------------------------|-----------|-------------|------------------------------|
| الولايات المتحدة الأمريكية | —         | —           | ١٧ر١                         |
| انجلترا وويلز .. ...       | —         | ٣٤ر٤        | ١٥ر٠                         |
| فرنسا .. ...               | ٣١ر٤      | ٢٤ر٩        | ١٤ر٩                         |
| ألمانيا .. ...             | —         | ٣٨ر٠        | ١٩ر٣<br>(١٧٠ في عام<br>١٩٣٠) |
| روسيا .. ...               | —         | ٤٨ر٤        | ٤٤ر٢                         |
|                            |           | (١٨٧٦-١٨٨٠) | (١٩٣٣-١٩٣٥)                  |
| السويد .. ...              | ٣١ر٨      | ٢٩ر٦        | ١٤ر٥                         |
| أستراليا .. ...            | —         | ٣٥ر٢        | ١٧ر٣                         |

في العالم الغربي ترجع الى هبوط أشد وأسبق في نسبة الوفيات منه في نسبة المواليد) . وقد هبطت نسبة المواليد في جميع الطبقات بالبلاد المتحضرة جميعها ، ولكن بصفة خاصة في الطبقات العالية والبلاد التي يعمها الرخاء . ففي هذه الزمر وهذه البلاد ارتدت « غريزة التكاثر » ، الا أن ارتدادها لم يكن بالطريقة التي نادى بها مالتوس ، أي « بالنهي الخلقى » ، ولكن من طريق ضبط النسل .

وبتقدم التصنيع وتلاشي الاعتماد المباشر على الزراعة ، ومع التعليم العام والحياة في المدن ، واتحاد هذه القوى في رفع المستوى المادي للحياة الانسانية ، أخذت أسر كثيرة تدرك فائدة وسائل منع الحمل بغية الحد من عدد الأفواه المطلوب اطعامها . وكما أن الأسرة الواحدة يمكن أن

(١) هذا الجدول يحتوي على أرقام مستقاة من

Thompson, *Population Problems*, p. 152.

أنظر الفصل العاشر من كتابنا هذا حيث تجد مناقشة مفصلة لنسبة المواليد الآخذة في الهبوط .

تحتفظ بمستوى أعلى للمعيشة بتحديد عدد أفرادها ، كذلك أوضحت مجموعات كبيرة من سكان العالم حل مشكلة مالتوس بتحديد أعدادها (١) . والدليل على ذلك هذه الأرقام المبينة في الجدول ٤ حيث يتعين على القارئ أن يلاحظ بصفة خاصة التقابل بين نسبة المواليد ، والامية ، والاعتماد على الزراعة فيما يتعلق بشمالى أمريكا وأوربا من جهة ، وبآسيا وأفريقيا من جهة أخرى .

| الجدول ٤ (٢) - الامام بالقراءة والكتابة ، والخصوبة النوعية ، والاعتماد على الزراعة ، فى العالم والقارات المختلفة ، عام ١٩٣٠ |                                                    |                                     |                           |
|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|----------------------------------------------------|-------------------------------------|---------------------------|
| الإقليم                                                                                                                     | النسبة المئوية للأميين ( من سن العاشرة فما فوقها ) | النسبة المئوية للمعتدين على الزراعة | النسبة التقريبية للمواليد |
| العالم كله ... ..                                                                                                           | ٥٩                                                 | ٦٠                                  | ٣٩                        |
| أمريكا الشمالية ... ..                                                                                                      | ٤                                                  | ٢٥                                  | ٢٠                        |
| جزر المحيط الهادى والبحار المجاورة                                                                                          | ١٤                                                 | ٣١                                  | ٢٣                        |
| أوربا (ماعدا روسيا) ... ..                                                                                                  | ١٥                                                 | ٣٦                                  | ٢٣                        |
| روسيا ... ..                                                                                                                | ٤٠                                                 | ٦٧                                  | ٤٥                        |
| أمريكا الجنوبية ... ..                                                                                                      | ٥٤                                                 | ٦٥                                  | ٤١                        |
| وسط أمريكا والمنطقة الكاريبية                                                                                               | ٥٩                                                 | ٧٢                                  | ٤٤                        |
| آسيا (ماعدا روسيا) ... ..                                                                                                   | ٨١                                                 | ٦٩                                  | ٤٤                        |
| أفريقيا ... ..                                                                                                              | ٨٨                                                 | ٧٧                                  | ٤٨                        |

(١) لا يعتبر منع الحمل الوسيلة الهامة الوحيدة لمنع الذرية ، فان طريقة الاجهاض القديمة ، وهى التى تعنى منع الولادة بعد وقوع الحمل بالفعل ، لاتزال تمارس فى كل بلاد العالم . وفى المدة بين عامى ١٩٣٠ و ١٩٤٠ وفقا لبعض التقديرات ، بلغت نسبة الاجهاض من الارتفاع ما بلغته نسبة المواليد فى بعض بلاد غربى أوربا . أما فى بعض أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية فقد تبلغ نسبة الاجهاض ثلث ما بلغته نسبة المواليد من ارتفاع . أنظر :

National Committee on Maternal Health *The Abortion Problem* (Baltimore, 1944).

Davis, op. cit., p. 10. (٢)

٣ - مذهب مالتوس اليوم : رأينا أنه كلما ارتفع مستوى المعيشة اصطنع هذا المستوى وسائل عملية للبقاء مرتفعاً وللحد من ارتفاع نسبة الزيادة « الطبيعية » أو « البيولوجية » . وبعبارة أخرى يدخل المستوى العالى للمعيشة مظاهر ارتدادية على السكان من قبل أن تبدأ العمل بزمان طويل مظاهر مالتوس « الايجابية » التى تستهدف نفس الغرض ، كالموت . حوعا والأمراض وما شابهها . وعلى ذلك فإن خطر نظرية مالتوس آخذ فى الزوال بالنسبة للشعوب التى اهتمت بالتصنيع وتنظيم الحياة فى المدن .

ورغم ما تقدم فاننا ما زلنا الى يومنا هذا نلاحظ أن أكثر من نصف البشرية ، حيث يعيش السكان بالكفاف أو بما يقرب منه — كما هى الحال بين البليون آسيوى — يقدمون الدليل المؤسف على صدق نظرية مالتوس . وذلك لأن الأخير قد أصاب عندما أوضح ما تأيد تماماً فيما بعد بالبحث العلمى ، من أن ضغط السكان على وسائل العيش كان ولا يزال فى كل العصور ، فيما عدا بين طبقات قليلة محظوظة والأقل من الشعوب المسيطرة ، شديدا وملحا ، كما يكشف عن ذلك البؤس المنتشر فى عدة أماكن والصراع المدمر للشعوب ، مما لم يكن هناك من سبيل لتخفيف حدته فى أكثر الأحيان الا شرور أخرى مثل الاجهاض ووآد الأطفال . نعم لقد نقص الى درجة كبيرة خطر مذهب مالتوس بالنسبة للشعوب الغربية ، ولكنه لا يزال جاثما عليها كذلك بطريقة غير مباشرة . ما دامت هناك مئات الملايين من الناس الذين لا سبيل الى الحد من تزايد أعدادهم الا باستخدام الأساليب العنيفة السائدة فى الشعوب المتأخرة فى الحضارة ولو أريد لمستوى المعيشة فى بلاد آسيا وأفريقيا والمناطق الأخرى « المتخلفة » أن يرتفع ، فإن على أهل هذه البلاد أن يبدأوا فى الحد من أعدادهم بوسائل ليست بعد فى متناول أيديهم ، اذ أن مستوى المعيشة العالى والتسوين العقلى لضبط النسل أمران يسيران جنبا الى

جنب ولا سبيل الى أن بجرفنا شبح مالتوس اذا ارتبطا معا عند جميع الشعوب (١) .

**الجغرافيا كطرف محدد للنسل :** نلاحظ مرة ثانية في هذه الإشارة الموجزة لأعداد السكان العوامل الجغرافية تمثل ظروفًا محددة للنسل أكثر منها ظروفًا مباشرة محددة للأوضاع الاجتماعية ، فمن جهة أن عدد الأفراد الذين يمكن أن يعتمدوا على الأرض يتوقف على مدى ما وصلوا اليه من وسائل . وعلى ذلك فإن كثافة السكان تختلف باختلاف طريقة الحصول على الغذاء . فقبائل الصيد مثلا تحتاج الى رقعة فسيحة من الأرض تسمح بأن يجول كل شخص فيها خلال مساحة تبلغ من بضعة أميال الى مائتى ميل مربع ، حسب الظروف المحلية . وأما كثافة الرحل من الرعاة فتبلغ من شخصين الى خمسة أشخاص فى الميل المربع ، وإذا ارتبطت الزراعة البدائية بالحياة الرعوية ، ارتفعت النسبة من عشرة الى خمسين شخصا فى الميل المربع . وفى امكان الشعب الزراعى اذا حسنت ظروفه أن يمد بوسائل المعيشة مائة أو مائتين من الأشخاص ، يرتفعون بصناعة ما الى خمسمائة فى الميل المربع . وبالطبع تبلغ الشعوب الصناعية كثافة أكثر فى سكانها (٢) :

ومن جهة أخرى فإن امكانيات وسائل المعيشة تتوقف عن تحديد السكان عندما يفكر الناس بطريقة فعالة فى ضبط زيادتهم ؛ فالاجهاض وواد الأطفال واعدام المسنين — وكلها وسائل لتدمير الحياة الانسانية لا تزال سارية — ان هى الا أساليب استخدمها الانسان زمنا طويلا لضبط زيادة السكان ، الا أن تأثيرها كان دائما محدودا ، والرغبة فيها محل نقاش شديد فى ضوء القيم الحديثة . غير أن الطرق الجديدة لمنع

(١) هذه النقطة مضغوط عليها وربما تكرر ذكرها بإسهاب فى :

Vogt's Road to Survival.

See, for example, E.C. Semple, Influences of Geographic Environment (٢)

(New York 1927), Chap. III.

الحمل توفر للانسان وسيلة قادرة على أن تحدد بالفعل عدد أفراده .  
وزيادة على ذلك فإن ضبط النسل الحديث ، في أعين عدة ملايين من  
الناس ، يلتقي مع مطالب مبادئنا الخلقية ، بمعنى أنه يسمح لنا بالتسوية  
الفعلية لما تقدم عليه من تخطيطات لتحسين مظهر الحياة الانسانية ولا  
يسمح بالتخلي عن هذا التسوية بعد أن تبلور في أذهاننا . ومن جهة  
أخرى ، فإن ضبط النسل قد خلق مشاكل جديدة ، يتحتم علينا أن نعود  
اليها في فصول تالية (١) .

---

(١) أنظر الفصلين ١١ و ٢٤ .



## الفصل السادس

### البيئة الشاملة وسدّ الحاجات

#### البيئة والتراث الاجتماعى

مفهوم البيئة الشاملة : عندما ينظر المتخصص فى علم طبقات الأرض . أو علم الفلك أو علم الطبيعة الى العالم الخارجى كحقيقة واقعة منفصلة . عنه وموضوعية خالصة ، فانه يفعل ذلك كعالم وليس ككائن اجتماعى . وهذا العالم الخارجى هو بالنسبة لعالم الطبيعة شىء يختلف عن الشىء الذى نشعر به ونسميه البيئة ، انه الطبيعة بلا زيادة أو نقصان . ونحن كطلاب اجتماع نهتم أكثر الاهتمام بالبيئة الشاملة التى يحسها هذا الانسان الاجتماعى بطبعه — ونعنى بذلك كل الظواهر التى تحيط به . وينفعل معها وتكون فى نظره ذات معان خاصة .

١ - البيئة الفيزيائية والانسان : ولتوضيح التفريق الذى ذكرناه . تواقد يحسن أن نبحث البيئة الفيزيائية للانسان . وأول ما نلاحظه أن هذا العالم الفيزيائى الذى يعيش فيه لم يكن فى أى وقت من الأوقات . مجرد عالم فيزيائى أو « طبيعى » ، فبالنسبة للصياد البدائى تعتبر الغابات . الأماكن التى يستطيع أن يبحث فيها عن طعامه ، والتى تهيم فيها الأرواح . تماما كما يجوسها الانسان ، وهى بوجه عام أماكن تتعلق بها آماله ومخاوفه ، كذلك تجاربه وتخیلاته . وليست الأشياء التى تحيط به مجرد حقائق فيزيائية واقعة ، انها خصائص حياته تصبغها عقليته وتفسرها . والأمر كذلك بالنسبة للطفل الصغير ؛ فهو فى سنواته الأولى يدخل باب . دنيا لا شىء فيها فيزيائى ينتهى عند هذه الصفة ولا شىء فيها مطلق فى ذاته . ثابت الهيكل مثل تلكم الأشياء التى نعرفها عن طريق العلم ... وانما

الأشياء التى يراها أشياء يمكن أن يملكها وأن يجدها اذا بحث عنها وأن يصنعها ويقدم لها المعونة ، أو يخشاها أو يحبها ويسعى للحصول عليها ، أو تحول بينه وبينها الحوائل ، أو من الممكن أن تكون موضع المتعة ، أو واعدة الى درجة كبيرة اذا كان الهجوم عليها يتطلب الجراءة والاقدام ، أو على العكس من ذلك يقتضى التراجع الحكيم <sup>(١)</sup> .

ولا يختلف الأمر عن ذلك بالنسبة للشخص البالغ المتحضر الا من حيث ان للأشياء عنده مدلولاً حافلاً بالمعاني الاجتماعية أسهم العلم فى تبينه وتوضيحه . اننا فى الواقع لا نواجه طبيعة موضوعية خالصة ؛ فثرائنا الاجتماعى يتدخل دائماً ليلعب دوره الهام . وفى العملية الاطرادية التى نسميها الحضارة نعدل باستمرار فى البيئة الطبيعية حتى يمكن أن تستجيب لمطالبنا بقدر الامكان ، وفى نفس الوقت نحن نغير تصوراتنا لحقيقة هذه البيئة فى ضوء ما نحصل عليه من تجارب ، وكلما تقدم هذا التقابل بين أفكارنا والحقائق الواقعة الخارجية وجدنا أنفسنا لا نتصرف اطلاقاً بطريقة تختلف عن تصرف الرجل البدائى أو الطفل الصغير ، واتفقنا بنفس الكيفية التى ينفع بها ازاء البيئة الطبيعية ، فلا ننظر اليها كشيء منفصل عنا .

٢ - البيئة ككل مركب فى تجربة الانسان : واذن ففى تجربة الكائن الاجتماعى تبدو البيئة ككل مركب ، والانسان لا يفصل البيئة الجغرافية كمجموعة أشياء عن البيئة الاجتماعية كمجموعة أخرى من الأشياء . وهذه الميادين التى نرسم اليها بالبيئة الطبيعية هى فى نظره ممتلكات يضع يده عليها — فالمنازل ما هى الا الدور التى يعيش فيها ، والجوانب الاجتماعية والفيزيقية للبيئة مترج بعضها ببعض فى كل حقيقة ملموسة واقعة . ومثل ذلك النظم السائدة والتنظيمات التى نعتبرها البيئة الداخلة لابد أن تكسوها مظاهر خارجية . فالكنيسة تبدو لنا فى شكل مبنى من المباني ، والعطلة تظهر فيما نرى من تغيير فى العالم الذى

A.G.A. Balz, The Basis of Social Theory (New York, 1924), Chap. I. (١)

من حولنا ، والزواج له علاقاته المادية من خواتم ومسوحات ومساكن مشتركة .

ونحن نميز العوامل المختلفة للبيئة الشاملة لأغراض تتعلق بالدراسة ، وهذه العوامل متجمعة معا في تجربتنا . فعندما يحول الانسان رقعة من الأرض الى بلد ، أو جزءا منها الى دار يسكنها ، فانه بهذا العمل أو ذاك انما يشيع كلا من البيئة الفيزيكية والبيئة الاجتماعية بعضهما في بعض . ومما لا شك فيه أن نشاطه في استصلاح التربة وزرعها ، وفي حجز مياه الأنهار وانشاء الطرق وما الى ذلك يؤدي بمرور الزمن الى استحالة التمييز بين النقطة التي عندها تنتهي البيئة الجغرافية أو هبة الطبيعة وتبدأ البيئة التي صنعها الانسان . اذ في هذه الحالة تصبح الأولى في نفس الوقت رمزا للثانية . أو بعبارة أخرى محملة بذكريات وتقاليد وقيم انسانية . وكثير من عناصرها يصبح المظهر الخارجى للنظم الاجتماعية السائدة ، كما أوضحنا قبل الآن .

٣ - تصنيف نواحي البيئة الشاملة : تحتوى البيئة الشاملة ، من وجهة نظر الفرد ، على عنصر معين بالاضافة الى العناصر التى تتكون منها بيئة الزمرة الاجتماعية ، وهذا العنصر هو الزمرة نفسها ، التى تعتبر فى ذاتها بيئة على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للفرد . وعلى ذلك فيمكننا أن نصدر التعميمات الآتية وفى ذهننا كل من الفرد والزمرة معا :

( أ ) الأحوال الجغرافية أحوال بيئية لكل من الجماعة المحلية أو غيرها من الزمر الاجتماعية ولأعضائها الأفراد .

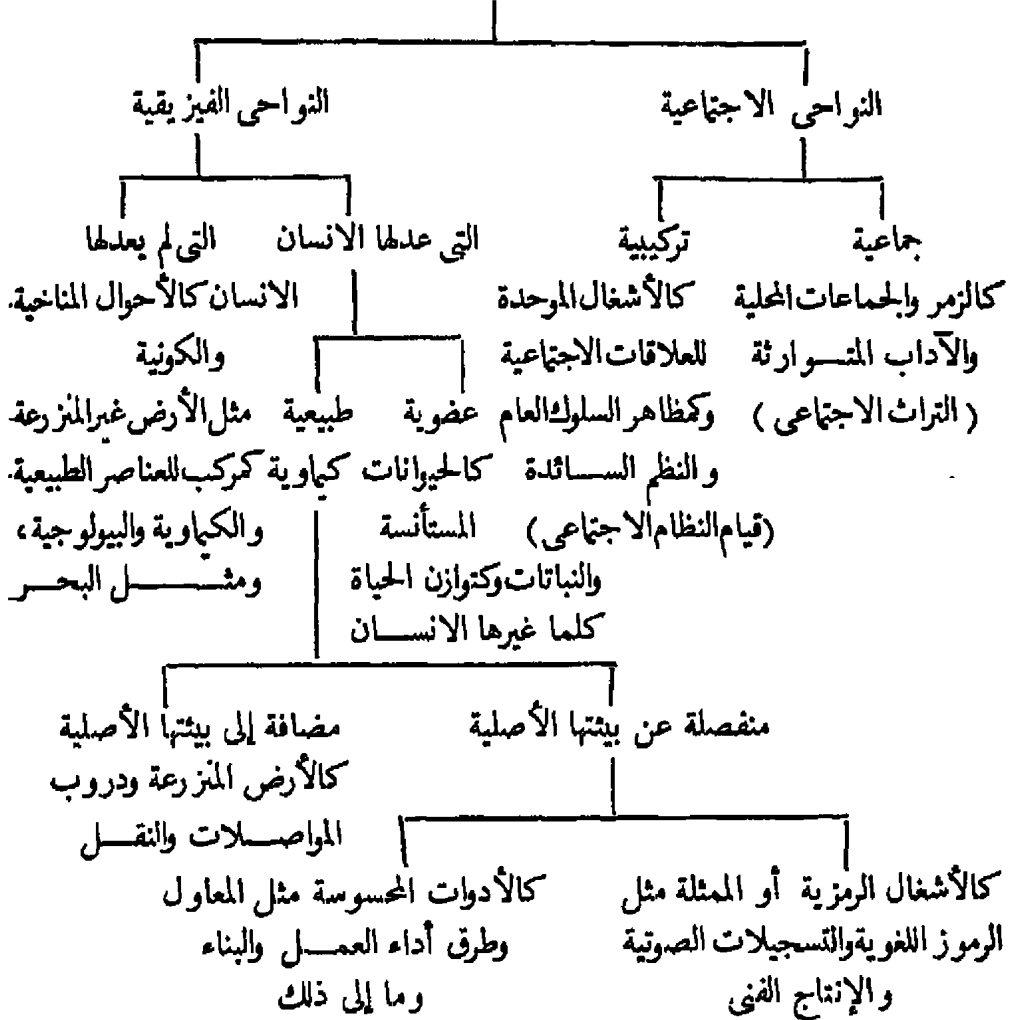
( ب ) التراث الاجتماعى ذو صفة بيئية بالنسبة لكل من الجماعة المحلية أو غيرها من الزمر الاجتماعية ولأعضائها الأفراد ، ما دامت الزمرة نفسها تقسم هذا التراث .

( ج ) تعتبر الجماعة المحلية أو أية زمرة اجتماعية غيرها مظهرا من مظاهر البيئة بالنسبة لأعضائها الأفراد .

( د ) تعتبر الجماعة المحلية اذا كانت زمرة كبرى مظهرا من مظاهر

البيئة بالنسبة للزمرة الصغيرة التي تقتسم بأية درجة حياة الزمرة الكبيرة .  
ومنذ هربت سبنسر حتى أيامنا هذه قسم علماء الاجتماع البيئة الى  
ما سموه مظاهرها الرئيسية (١) .  
وفي التصنيف المبين بالبيان التوضيحي ٣ نعرض البيئة الشاملة للفرد  
كما يبدو في داخل المجتمع .

### البيان التوضيحي ٣ - شمول البيئة بالنسبة لحياة الفرد



(١) أنظر على سبيل المثال، Spencer's Principles of Sociology (New York, 1880-1896), Vol. I, Chap. I; W.F. Ogburn and M.F. Nimkoff, Sociology (Boston, 1940), pp. 6-7. وإذا أردت ترتيباً مختلفاً بعض الشيء the Journal of Sociology, XXXI (1925), 318-332.

التراث الاجتماعى للإنسان : يرجع نشاط الإنسان فى داخل بيئته وتأثيره فيها الى عصور قديمة مجهولة . وهذه العملية الاطراذية تأخذ مظهرها تجميعيا أو تراكميا ، اذ أن الإنسان أقل قناعة من سائر الحيوان بمجرد اتخاذ عادات معينة والتوافق مع ظروفه فهو يضيف الى حياته من طريق هذه العادات تراثا اجتماعيا هو فى ذاته أساس لاضافات جديدة . وقد استخدم جراهام والاس الاصطلاح « التراث الاجتماعى » ليعنى به « المعرفة والوسائل المؤدية لتحقيق الأغراض والعادات » التى تنتقل من جيل الى جيل اجتماعيا وليس بيولوجيا ، من طريق المشاركة فى الحياة الاجتماعية ، والتربية <sup>(١)</sup> . وما الفنون والاختراعات والآلات والمعارف المتوارثة والأساطير والتقاليد والرموز والآداب العامة والنظم السائدة التى تميز الإنسان — وكلها وسائل للسيطرة على البيئة الخارجية — الا مقتنيات اجتماعية . ( وفى البيان التوضيحى (٣) الكثير من هذه العناصر ) :

١ - توقف حياة الإنسان على التراث الاجتماعى : إن مدونات حالات التجارب الوحشية مثل حالة كاسبار هاوزر ، تبين توقف حياة الإنسان توقفا تاما على قوى تنتقل اجتماعيا من جيل الى جيل ؛ فالغريزة كافية بالنسبة لبعض الكائنات الحية التى لا تسجل لنفسها ثقافة ما ولا تفعل أكثر من مواءمة نفسها للحقائق الواقعة التى تعيش فيها . الا أن الإنسان لا يقنع أبدا بمجرد « الحقيقة الواقعة » وهو يعبر بكيفية فعالة عن عدم رضاه بمجرد « الحقيقة الواقعة » ، وذلك بطرق اجتماعية أكثر منها بيولوجية . وعندما فقدت الغريزة ثباتها فى حياة الإنسان عاوتها مظاهر السلوك العام فى أداء وظيفتها ، فجاءت المعاول والآلات التى استخدمتها جموع الناس لتساعد الإنسان . وكما يقول والاس أصبحنا « متطفلين بيولوجيا على تراثنا الاجتماعى » . وهو يخمن وقوع ما يأتى : « اذا اصطدم بالأرض أحد مذنبات مستر ويلز ، واذا ترتب على ذلك

*Our Social Heritage* (New Haven, 1921), p. 14. (١)

أن كل انسان حى فى الوقت الحاضر كان لابد أن يفقد كل المعارف والعادات التى آلت اليه من الأجيال السابقة ( وان ظل محتفظا بجميع قدراته على الاختراع والتذكر واكتساب العادات دون أن يطرأ عليها تغيير ما ) فان تسعة أعشار سكان مدينة لندن أو مدينة نيويورك يتعرضون للموت بعد شهر ، و ٩٩ فى المائة من العشر الباقي منهم يموتون فى خلال ستة أشهر . فهم سيفتقرون الى لغة يعبرون بها عن أفكارهم . ولن تكون أفكارهم أكثر من هذيان غامض . وسوف يتعذر عليهم أن يقرأوا الاعلانات أو يقودوا السيارات أو الجياد . وسيهيئون على وجوههم لا يلوون على شىء ، صيحات متقطعة تنبعث من قليل من الأفراد ممن حبتهم الطبيعة ببعض مظاهر السيادة ، وسوف يغرقون أنفسهم فى لجج الأنهار اذا ما دنوا من مشارفها عند احساسهم بالعطش ، وسينهبون المتاجر التى تنبعث منها رائحة الطعام الآخذ فى الفساد منجذبين نحوه ، وربما انتهى بهم الأمر الى أن ينحرفوا نحو أكل لحوم البشر « (١) .

إن اعتماد الانسان على التراث الاجتماعى جزء جوهري من تقدمه الذى يدعو الى أن يرفض بنجاح مطالب البيئة الخارجية . والثمن الذى ندفعه لذلك أننا أصبحنا حتى من الوجهة البيولوجية ، أقل صلاحية لأن نعيش بدون عون تراثنا الاجتماعى . ويجدر بنا ألا نسيء فهم هذا الحقيقة ؛ فليس معناها أن حياتنا لم تعد «طبيعية» . ولماذا نعتبر من الأمور الطبيعية للكائنات البشرية أن تحيا معدمة لا تقدم فيها ، ولا سبيل الى انتشارنا منها الا بالتراث الاجتماعى ؟ وان ما يسمى حالة الطبيعة ( ولنسترجع الى ذاكرتنا هنا نظرية العقد الاجتماعى المضللة ) التى ظلت رمزا للفقر والانزاع والبشاعة وبلادة الفكر وقصر الأمد ، ليس من حقها أن تطالبنا بأن نزيكها أو أن ندعو لها . وكذلك ليس معنى اعتمادنا على

---

(١) *Our Social Heritage*, p. 16. Copyright 1921. Reprinted by permission of the publishers, Yale University Press.

التراث الاجتماعى أننا ضعاف بيولوجيا . وربما كانت أسنانتنا أضعف من أسنان الذين عاشوا من قبلنا ، كذلك ربما كانت عملية ولادة الطفل أشد صعوبة مما كانت عليه ، ولكن الانسان المتحضر أصبح ، بفضل المعونة التى يحظى بها من طريق ما لديه من فنون ، أكثر قوة وأشد عافية وأطول عمرا من الانسان القديم والرجل البدائى <sup>(١)</sup> . ونحن لا نود أن نناقش موضوع أيهما أسعد ، ذلك الموضوع لا يمكن الاجابة عليه . وذلك لأن نوع السعادة التى يحصل عليها متصل دائما بنوع الحياة ، ومن ثم فانه نسبى وبالتالي تستحيل المقارنة . غير أن الاستعداد البيولوجى ليس له بالتأكيد مقياس أدق من النجاح فى الحياة ، نجاحا مستمرا عبر الأجيال .

٢ - تحصيل الانسان للتراث الاجتماعى : ان اعتمادنا التام على التراث الاجتماعى معناه أن التعليم ( بأوسع معانيه ) ذو أهمية كبرى فى كل مجتمع انسانى . وفى المجتمع الحديث التميز بالنمو السريع لتراثه ، يعتبر التعليم ذا دلالة كبيرة كما يؤيد ذلك التضاد المشاهد بين أجدادنا وبيننا مثلا . ويختلف التراث الاجتماعى بشكل ملحوظ عن مجرد الميراث الاقتصادى ، فالأول لا ينتقل إلينا لنستمتع به ونستخدمه . انه أكثر من ذلك . اذ نحن ورثة مشروطون له . وشرط الحصول عليه هو أننا ينبغي أن نعد أنفسنا لتسلمه . ونجعله ملكنا بمجهودنا . ومع أن هذا التراث اجتماعى بمعنى من المعانى ، الا أنه من الضرورى أن يكتسب صفة الفردية جزءا بعد جزء ، حينما يوزع على أفراد المجتمع .

وهذه العملية الاطرادية المتعلقة باكتساب التراث الاجتماعى هى اذن ذات أهمية كبيرة بالنسبة للسوسولوجيين والسيكولوجيين وغيرهم من المعنيين بدراسة سلوك الانسان .

ولا يكتفى كثيرون من هؤلاء الباحثين بأن يدرسوا المظاهر المتعددة لميكانيزم السلوك والمتضمنة فى اكتساب العادات الاجتماعية ، مثل

(١) . Ibid., p. 19 .

وجهات النظر والمهارات وما الى ذلك ، وانما يهتمون كذلك باكتشافات علمى الأنثروبولوجيا والاجتماع المقارنين التى تزيح الستار عن العلاقة الوثيقة القائمة بين طبيعة تراث اجتماعى معين وطبيعة سلوك أولئك الذين يشتركون فى الانتفاع بهذا التراث <sup>(١)</sup> . ان كلا من المحاكاة والايحاء والعمليات الاطرازية الأخرى التى يشتمل عليها التعلم يقوم بالفعل حيثما وجد مجتمع انسانى . وهذه الظواهر تعمل لتمد الفرد على الأقل بضروريات التراث الاجتماعى اللازمة للمشاركة الاجتماعية والبقاء . ولو أن أحدنا قل بمجرد ولادته الى بلد أجنبى لا يمكن أن يكتسب ، بلا أية عقبة ، آداب السلوك وأساليب الكلام ، ومعظم أو كل طريقة للحياة المختلفة فى هذا البلد كما تسود هناك ، ثم يستخدمها كما يستخدم الآن أساليب بلده . ولا يمكننا أن نعول كثيرا ، أو باهتمام زائد ، على الفكرة القائلة بأن النتاج الحضارى والثقافى لا يورث من طريق البلازما الجراثومية ، وانما بواسطة الجهاز الاجتماعى . وعلى ذلك فالمعاول التى يستخدمها الانسان ، والفن الذى يخلقه ، والآلهة التى يعبدها ، ومراسيم خطوبته وزواجه ، وحتى نفس أفكاره وآرائه ، كلها تعتمد على تراثه الاجتماعى . ومهما كان الجنس البشرى الذى ينتسب اليه أو ميراثه العائلى أو قدراته الفطرية ، فإن اعتماده على هذا التراث باق — رغم ما يعتقده العامة من العكس .

وسبق أن ناقشنا ( فى الفصل الثالث ) الطريقة التى يصبح بها الفرد منشأ اجتماعيا . ونضيف هنا جانباً جديداً من جوانب هذه العملية الاطرازية . فبعض أجزاء التراث الاجتماعى يكتسب بسهولة — كأن نهىء أنفسنا بسرعة لمباهج الحضارة وما تقدمه لنا من خدمات ، وأن

(١) انظر على سبيل المثال N.E. Miller and J. Dollard, *Social Learning and Imitation* (New Haven, 1941); J. Dollard, "The Acquisition of New Social Habits", in *The Science of Man in the World Crisis* (R. Linton, ed., New York, 1945), pp. 442-464.

نستمتع بغير مشقة بالاختراعات والأجهزة التي أبدعتها عبقرية الإنسان . وبعض هذه الأمور يحصل عليه بالتعود البسيط ، كاللغة التي تشكلها وكآداب سلوكنا وكثير من الأدوات والآلات التي نستخدمها ومعظم عاداتنا الجمعية ومظاهر سلوكنا العام . والبعض الآخر أكثر صعوبة في تحصيلها ، ويقتضيها أولا وقبل كل شيء أن تثبت يراهن عسيرة قدرتنا على تقبلها . وأن المهارة التي تجعل صاحبها قادرا على أن يخترع وأن يحسن وجه الحضارة ، ليست متوافرة الا عند أقلية نسبية من الأفراد ، ولكننا جميعا نستطيع أن نستمتع بالمزايا التي تقدمها لنا هذه المهارة . ولأجزاء التراث الاجتماعي التي يسهل اكتسابها علاقة أقل ارتباطا بالشخصية . وهذه الأجزاء تكشف عن طبيعة المجتمع بوجه عام لا عن طبيعة الأفراد الذين يتكون منهم هذا المجتمع . أما الأجزاء التي يصعب الحصول عليها من هذا التراث فتعتمد الى حد كبير على صفاتنا الفردية . وتتأثر بهذه فتصبح ذات مظهر فردي عند كل من يحصل عليها . وهذا يجعلها تفسر تفسيراً خاصاً جداً لما لها من جانب شخصي عند كل منا . وعلى ذلك فالموسيقى والفن والفلسفة والآداب وبعض جواب الدين — لها من المعاني المتنوعة ما يختلف باختلاف الأفراد — وفي نفس الوقت تتضمن ، كما يعرف كل مشتغل بدراسة الفن ، صفات المجتمع الذي انبثقت منه .

واذن فالتراث الاجتماعي موجود عند أفراد المجتمع كلهم . ولا يستطيع أى فرد فى عالمنا هذا المعقد أن يحصل الا على جزء منه ، ولتوضيح ذلك : أن التخصص فى ميدان التعلم لا يقل فى حقيقته عن التخصص فى عالم الاقتصاد . ولا تحتاج الحياة الشخصية المستكملة الى أن تحتجز لنفسها أكثر من جزء صغير من التراث الاجتماعي ، ومع ذلك فمن المرغوب فيه جداً أن يشترك أكبر عدد ممكن من الناس فى بعض عناصره ، ونحن مضطرون لتأجيل مناقشة هذه المشكلة حتى نصل الى نقطة معينة فيما بعد نميز عندها بين ناحيتين رئيسيتين من التراث الاجتماعي : الأولى الناحية الحضارية ، والثانية الناحية الثقافية <sup>(١)</sup> .

(١) أنظر الفصل الحادى والعشرين فيما بعد .

## عماية الانسجام المطرد مع البيئة الشاملة

**البيئة والانسجام معها - بعض الاعتبارات العامة :** رأينا أن يئتنا ليست العالم الذى من حولنا فحسب ، ولكن العالم بمعناه الواسع وجوانبه المتعددة من حيث اتصاله بنا . وكلما تعمقت الحياة تعمقت البيئة وتعمد الانسجام مع البيئة الشاملة .

١ - من الانسجام العضوى الى الانسجام الحضاوى : وهكذا اذ تنتقل من الأشكال العليا للحياة أو من الأميا الى الانسان مثلا يصبح الانسجام الفسيولوجى المباشر جزءا صغيرا من العملية الاطرادية ككل - وفى نمو الانسان تحدث انسجانات عضوية ولكنها تستعين باستمرار بمخترعات الحضارة ، الا أن الحيوانات الدنيا ليست لديها معاول وهى مضطرة الى تكييف أعضائها لكى تؤدي وظائف جديدة - كأن تكون لها مخالب تقطع بها ما تشاء أو أنياب تمزق بها الأشياء عند اللزوم . ولمثل هذه الأغراض صنع الانسان السكاكين والمقصات الكبيرة الحجم والمناشير ومعاول أخرى متنوعة . وبهذه الطريقة أمكن أن يوسع دائرة عمله . وباستخدامه للمعاول لا يضطر الى أن يتبع طريقة واحدة فرضها عليه تكوينه العضوى المباشر ، وعندما تظم الآلات الى المعاول تصبح عنده طرق أكثر تنوعا للتصرف : وبهذه الكيفية تفقد مظاهر السلوك المحددة عضويا الكثير من جمودها . وأما المظاهر المرنة المكتسبة من التراث الاجتماعى فتأخذ أهميتها فى الازدياد . ونحن نلاحظ هنا فرقا هاما فى الانسجام مع البيئة الشاملة بين الانسان المتحضر وبين الانسان البدائى ، وكذلك بين الأخير وبين الحيوانات الدنيا .

وان عملية التكييف الاطرادية بين الانسان المتحضر وبين بيئته الشاملة هى تبعا لما تقدم شديدة التعقد وذات أوجه متعددة حتى اننا لا نستطيع أن نعرض لها هنا الا عرضا عاما . وسنتنظر الى هذه العملية من ناحيتين : الأولى من حيث الفروق بين التوافق التكييف الخاص بالانسان المتحضر والتكيف الخاص بالرجل البدائى ، والثانية من حيث الطريقة التى يعيد

بها المتحضر تكيف نفسه ليواجه بيئة شاملة جديدة ، أو بيئة شاملة استهدفت لتغيير عنيف قلبها رأسا على عقب .

٢ - خصائص انسجام أو تكيف الانسان المتحضر : يحتاج كل من التعميمات التي سترد فيما بعد الى اختبار دقيق : وستنح الفرصة في الفصول التالية الى أن نعود اليها ، أما في الفصل الحالي فستقتصر على استخدامها كدليل لمناقشتنا موضوع تكيف الانسان مع بيئته :

اولا - التكيف جزئي فقط : يحصل الانسان في الحضارات الراقية على انسجام غير كامل وغير شامل مع سائر الظروف التي يعيش فيها . ( وستوضح سبب ذلك عند مناقشتنا علاقة الحضارة والثقافة في الفصل الحادي والعشرين ) . ان الانسان لا يستطيع أن ينجز الا تكيفا جزئيا في عالمه المتغير المتعدد ، وهذا التكيف خليط من النزاع والشعور بالاستقرار ( ونقصد بالاستقرار عملية انسجام الشخص أو الزمرة مع وضع معين وأن يحس فيه بالراحة كما لو كان في بيته ) <sup>(١)</sup> ، وقلما يشعر الرجل المتحضر أنه متنسق مع بيئته ؛ فمطالبه معقدة كل التعقيد والظروف المحيطة به معقدة كذلك كل التعقيد ، لدرجة أنه من الصعب الاحتفاظ بالحس الدقيق بالتوازن الصحيح ، الا اذا كان الانسان قد أذهله عن

---

(١) نحن نستخدم الاصطلاح "Accommodation" للإشارة بصفة خاصة الى العملية الاطراذية التي يشعر الانسان أثناءها بحسن الاتساق مع بيئته . وربما كان تأكيدنا لهذا المعنى متضمنا في استخدام الاصطلاح عند « المدرسة الايكولوجية » .

أنظر مثلا : E.W. Burgess, "Accommodation" in the *Encyclopaedia of the Social Sciences* (New York, 1935), I, 340-404.

وأما الاصطلاح "Adjustment" فمعناه بصفة خاصة العملية الاطراذية التي يسعى الانسان عمدا في أثناءها الى أن يعدل حاجاته وفقا للبيئة أو بيئته وفقا لحاجاته .

See R.M. MacIver, "Maladjustment" in the same *Encyclopaedia*. Compare with the definitions of "accommodation" and "Social adjustment", in *Dictionary of Sociology* (H.P. Fairchild, ed., New York, 1944).

هذا عمره ورخاؤه الاقتصادي ، أو كان من هؤلاء المتصوفة الذين يحسون بوحدة الوجود بينهم وبين الكون كله. ان عدم القناعة الأبدي الذي يشعر به الرجل المتحضر ان هو الا حافظ دائم يدفعه نحو عمل جديد . ويعتبر كل جيل بالضرورة جيلا من المتبرمين .

**ثانيا - الانسجام ديناميكي :** ان انسجام الرجل المتحضر أقل استقرارا . ولديه وسائل عديدة للسيطرة على بيئته : فهو دائما يغير فيها أو يبحث في اجراء تغييرها . وكلما عدل في بيئته الطبيعية الأولية ازداد رغبة في مواصلة التعديل . ان بيئة الرجل المتحضر مليئة أبدا بالتغير في كل لحظة واذا استقرت أوضاعه في بعض الأحيان من قبيل المصادفة فسرعان ما يصيبه شيء من الاضطراب أو الازعاج بسبب تغير خارج عنه ، أو ثورة في داخل نفسه تحضه على تحقيق مطالب جديدة : وليس عند من يعيش في هذا العالم اليوم درس أبلغ من هذا .

**ثالثا - الانسجام يتصف بالاختيار والتنوع :** يتصف انسجام الرجل المتحضر مع بيئته بأنه اختياري الى درجة كبيرة ومتنوع الى أبعد حد اذا قورن بانسجام الرجل البدائي . ويمكنك أن تتصور عددا من الرجال العصريين ذهبوا جميعا للتجوال في غابة بعينها ، وقد يكون أحدهما صيادا ، والثاني مجبا للطير ، والثالث متخصصا في دراسة الحشرات ، والرابع صائعا نشأ في المدينة . ففي هذه الحالة تبدو الغابة في نظر كل منهم كبيئة مختلفة لأن كل واحد من هذه المجموعة مستعد لأن يرى ناحية معينة من الغابة وأن يستجيب لها بشكل خاص : ويقابل هؤلاء الزمرة من الهنود الحمر الأمريكيين الذين نشأوا في الغابة وعرفوها كموطن لهم تجتمع فيه ضروريات وعادات متشابهة ، وتسيطر عليهم فيه معتقدات وأساطير متشابهة كذلك : واذا نحن انتقلنا الى بيئة المدينة وجدنا فيها أوساطا مختلفة كثيرة العدد ، كالوسط الذي يعيش في حي من الأحياء القذرة ويشعر في مناطق أخرى غيرها بأنه غريب عنها .

رابعاً - محاولة الانسجام من جديد سهلة نسبياً : وأخيراً نلاحظ أن انسجام الرجل المتحضر يسمح مع ما به من تعقيد وبسبب ذلك إلى حد ما ، بدرجة كبيرة من التحرك ، ونحن نستخدم هذا الاصطلاح للدلالة على سرعة الانسجام من جديد مع بيئات أخرى مختلفة . وفي الواقع أن لدى الرجل المتحضر مهارة عقلية معينة تجعله قادراً على معالجة التعقيد المتغير الذي يطرأ على أى وضع من الأوضاع التي يمر بها . وهذه الصفة تمكنه من التوافق بسهولة مع البيئات الأخرى . فهو قادر ، رغم معارضته البعض وعدم تقبلهم للفكرة ، أن يصول بين المناطق الحارة وجليد المناطق القطبية ، وأن يتحرك من حالة الفقر المدقع إلى حالة الشهرة والغنى ، أو بالعكس . وأن ينسجم مع الحياة المعتدلة في جمهورية فير ، أو قسوة النظام العسكري والتوحش اللذين اتسم بهما الحكم النازي . واذن فمهما جلب هذا التعقيد المتعدد باستمرار في الحضارة الحديثة إلى الإنسان من سعادة أو شقاء ، فإنه يكسبه ولا ريب مرونة لا نظير لها في العالم العضوي .

الانسجام من جديد مع ظروف مغايرة : رأينا أن الإنسان المتحضر أقدر على الانسجام من جديد مع الظروف المغايرة من أفراد المجتمعات البدائية . مع ذلك ينبغي ألا ننسى أن هذا الرجل المتحضر تواجهه أحياناً ظروف يشعر ازاءها أن محاولة الانسجام من جديد للتوافق معها تتميز بالصعوبة وأحداث قلب عام غنيف للأوضاع .

١ - الأمور العامة التي تجعل الانسجام من جديد عملية شاقة : يواجه عام تنشأ صعوبة الانسجام من جديد مع الظروف المغايرة على وجهين : ففى أول الأمر قد تكون هذه الصعوبة نتيجة لعدم الاستقرار الكامن في التركيب الاجتماعى نفسه ، والذي يؤدي إلى ثورة ، سلمية كانت أو عاتية ، تذهب بالنظام القديم للمجتمع . ويكون على الأفراد في هذه الحالة أن يقبلوا النظام الجديد الذى لا يقر الأوضاع القديمة التي أحبوها وأزلوها من قلوبهم منزلة الاعزاز ، كتقاليدهم القديمة ومعتقداتهم ومقدساتهم وامتيازاتهم وأحكامهم المتعصبة وحقوقهم . ومن الأمثلة على

ذلك الثورات العديدة التي وقعت في أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى والاضطرابات التي حدثت على نطاق واسع في أوروبا وآسيا وأفريقيا في أعقاب الحرب العالمية الثانية ؛ ففي هذه الثورات جميعا تغيرت الأوضاع بعنف شديد حتى انها لم تصب النظم الحكومية فحسب ، بل قد ترتب عليها تغيير شامل كامل في أساليب الحياة ، وسنهتم بمعالجة هذه التغيرات الكبرى التي طرأت على التركيب الاجتماعى في الكتاب الثالث بصفة خاصة .

وثانيا أن مشكلة الانسجام المفاجيء من جديد يخلقها كذلك التحرك المتزايد الذى تتصف به الحياة الحديثة التى تجمع شمل الناس في بيئات جديدة تقتضى من يعيش فيها أن يكون لنفسه عادات مختلفة كل الاختلاف عن العادات التى كانت له من قبل . ويحدث هذا مثلا عندما يهاجر أهل الريف الى المدينة أو أهل المدينة الى الريف ، أو عندما يهجر الشباب بيئاتهم المنزلية للعمل أو للدراسة في جو اجتماعى مختلف ، وبصورة جلية في حالة هجرة الناس ومعيشتهم كأغراب في مجتمع جديد . وهذه جميعا ظروف تميز على وجه الخصوص الحضارة المتحركة المعروفة عن الولايات المتحدة الأمريكية (١) :

٢ - أمثلة صادقة تتضمن مشكلة الانسجام من جديد : ان الظروف التى يدخل الأفراد أو الزمر تحتها في بيئة اجتماعية غريبة ، معقدة ومنوعة : فهناك أنماط عديدة جدا من هذه الظروف تنشأ نتيجة لاصطدام ثقافات متباينة تباينا شديدا في داخل بيئة احداها ، لدرجة أن التعميم يكون من أصعب الأشياء في هذه الحالة . واذا كان النازحون ينتسبون الى نظام ثقافى أو جنس بشرى أعلى مما لدى الأفراد في المجتمع الجديد ، فان عملية التكيف تصبح بالطبع أشد تعقيدا .

---

(١) يتم John Gunther أول ما يتم في كتابه Inside U.S.A. (New York, 1947) . وهذا التقرير ضخم مع ما فيه من عدم تناسق ، ويشتمل على ثروة من المادة التوضيحية التى تهم طالب الاجتماع .

ولنبحث الآن قليلا من أنماط هذه الظروف : فإذا كان المهاجرون الى المكان من ذوى المكان الاجتماعية العالية والنفوذ ، فانهم قد يسيطرون على أهالى المكان الأصليين . وفى حالة تفوقهم الكبير عليهم فانهم قد يعملون على إبادتهم ، كما حدث من البيض المهاجرين الى طسمانيا وفى بعض أجزاء ميلانيزيا . ان انهيار معظم قبائل الهنود الحمر الأمريكيين ، وفى بعض الحالات تدميرهم الصريح انما ينهض دليلا على صدق هذه النظرية . ونجد تحت ظروف أخرى المهاجرين ذوى النزعة نحو السيطرة يقيمون مجتمعا غريبا لا يسمح للأهالى الأصليين بالاندماج فيه ، وان كان هؤلاء يعارضون قيامه بالمقاومة الايجابية والسلبية كما حدث فى الهند . وقد يعيش مجتمع المهاجرين ومجتمع الأهالى فى سلام نسبي جنبا الى جنب كما نشاهد فى حالة زمر الهنود الأمريكيين والانجلوس فى جنوب غربى الولايات المتحدة . وهناك ظروف تؤدى الى الاتصال البيولوجى بين الأجناس البشرية المختلفة ، ويترتب على ذلك أن تخف حدة العناصر الأصلية التى تحصل بهذه الطريقة على درجة من الانسجام مع الحضارة الجديدة التى فرضت عليها . وقد حدث هذا مثلا فى نيوزيلندا ، وفى أجزاء كبيرة من أمريكا اللاتينية ، وبشكل ملحوظ فى أوكلاهوما حيث اختلط تماما دم الأمريكيين الأصليين بدم المهاجرين . وكذلك الشعوب الكبيرة ذات الثقافة المتقدمة كالصين قد تقاوم بنجاح السيطرة السياسية والاقتصادية التى يحاول أن يفرضها عليها الأجنبى ، بينما نرى ادخال الحضارة الآلية التى جلبها هذا الأجنبى تكتسح ثقافة الوطنيين وتقضى عليها من أساسها أو تتسلها فى ثقافة الأجنبى . وكل من درس تاريخ الاستعمار يستطيع أن يعطى أمثلة محسوسة عن ضروب أخرى من الانسجام المتجدد فى الظروف غير المألوفة (١) .

(١) من أجل أمثلة أخرى ، أنظر :

G.H.L.F. Pitt-Rivers, *The Clash of Culture and the Contact of Races* (London, 1927), and the excellent collection of readings, *When Peoples Meet* (A. Locke and B.J. Stern, eds., New York, 1942).

إن مشكلة الزنوج في شمال أمريكا تضع تحت أعيننا مظاهرها المميزة وفي عهود الرق ساعد المركز القانوني الواطيء للعبيد في أن يحدد لدرجة كبيرة طريقة انسجام الزنوج مع البيئة الجديدة . وقد أدى الغاء هذا المركز الى خلق وضع جديد ؛ فقد بقى النقص الاجتماعي وان قام شيء من الاحتجاج والتحدى حينما اتسعت أمام الزنوج الفرص التعليمية والاقتصادية .

وهكذا نشأت حالة الانسجام الجزئي غير السهل التي نراها الآن . وقد نتحدث مقدما عن مناقشتنا التالية لهذه المشكلة ( في الفصل الخامس عشر ) اذ نذكر أنه كلما بقى الحاجز السائد حاليا ( سواء أكان قانونيا أم اجتماعيا ) ضد تبادل الزواج ، وكلما أيدت الزمرة المتفوقة الانفصال الطبيعي والاجتماعي ، فإن هذه الحالة ستدوم بكل ما تشتمل عليه من صعوبات (١) .

تمثل المهاجرين في الولايات المتحدة (٢) : أقبل المهاجرون من كل حذب وصوب ومن كل بلاد العالم تقريبا الى القارة الأمريكية وعلى الأخص الولايات المتحدة ، حاملين معهم عاداتهم وتعليماتهم للأمور ، تؤيدهم حضارات وثقافات متباينة . ولما كانت حركة الهجرة غير مقصورة على الأفراد بل تشمل أيضا الجماعات المتشابهة من المواطنين فقد نشأت

---

(١) Among the hundreds of volumes on the Negro-White relationship, not at this point the important two-volume work of G. Myrdal, *An American Dilemma* (New York, 1944); E.R. Embree, *Brown Americans* (New York, 1943); C.S. Johnson, *Patterns of Negro Segregation* (New York, 1943); and the "Segregation" issue of *Survey Graphic* (Jan., 1947).

(٢) التمثل اصطلاح مستعار من علم الفسيولوجيا أو وظائف أعضاء الجسم . والمؤلفان يتحدثان في هذا القسم عن تمثيل المهاجرين الى الولايات المتحدة بحيث يصبحون مندمجين في المواطنين الأمريكيين كجزء منهم كما تتمثل الاطعمة في جسم الانسان بأن تتحول الى أنسجته وتصبح بالتقريبه جزءا منها .

— المترجم

تبعاً لذلك مشكلة انسجام الزمر الى جانب انسجام الأفراد ، مع الحياة الجديدة في المهجر ، وما يعقد هذه المشكلة وجود أقلية زنجية كبيرة العدد رغم أنها أقلية ، اذ يبلغون حوالى عشر العدد الكلى للسكان . وبالنسبة للزنجى كما هو الشأن بالنسبة للمهاجر من أوربا أو غيرها ( وكذلك بالنسبة للزمرة الأمريكية الغالبة ) نجد أن أهم ما فى هذه المشكلة مسألة الانسجام فيما بين هذه الزمر المتباينة ، من الناحية الاجتماعية لا البيولوجية . ومن ثم فالولايات المتحدة تهىء للباحثين معملاً فريداً للدراسة لاجراء تجاربهم على هذه المجموعات التى لا نهاية لها من السكان ، وعلى اطراد عمليات التعلم التى يزاولها المهاجرون ، أفراداً كانوا أم زمراً ، ممن نقلوا من بيئات اجتماعية معينة الى بيئات جديدة فى غير مواطن آبائهم تقصد العيش فيها .

١ - أنماط الانسجام المختلفة : توجد فروق متعددة للطريقة التى يتبعها الأفراد والزمر المختلفة المنتمون لمستويات ثقافية متشابهة ، لتحقيق الانسجام التام مع البيئة الجديدة . ومنذ قرن أو أكثر أخذنا نضيف الى مشاهداتنا فى هذا الموضوع المذكرات الأوتوبيوغرافية ( الشخصية ) التى كتبها الوافدون للإقامة بالولايات المتحدة الأمريكية ، وسجلوا فيها انفعالاتهم ازاء مسرح الحياة الأمريكى ، وهى تتراوح بين الارتواء الكلى المباشر فى أحضان هذه الحياة وبين النفور الثقافى والجماعى منها <sup>(١)</sup> . والملاحظ أن الزمر المنتمية الى ثقافات مختلفة تبعاً لجنسيتها تكشف عن أنماط مختلفة للتمثل والانسجام . ولأسباب مفهومة فقد الانجليز والاسكتلنديون ، والى حد ما الايرلنديون المهاجرون ، شعورهم بأنهم فى

(١) تشتمل مثلاً من هذه المذكرات، وبعضها كتب فى القرن العشرين،

على : M.I. Pupin, *From Immigrant to Inventor* (New York, 1923); L. Lewisohn, *Upstream* (New York, 1923); L. Adamic, *Laughing in the Jungle* (New York, 1932); E. Corsi, *In the Shadow of Liberty* (New York, 1935).

وفى ما يتعلق بمجموعة من البيانات الأكثر ايجازاً بأقلام بعض المهاجرين المشهورين ، أنظر . I am an American (R.S. Benjamin, ed., New York, 1941).

منفى ، وهم أكثر استعدادا لذلك من الفرنسيين مثلا . وبوجه عام لم يجد المهاجرون القدماء الوافدون على الولايات المتحدة الأمريكية من جنوبى أوروبا قبل سنة ١٨٨٠ الا صعوبة قليلة فى الانسجام مع البيئة الجديدة ، اذا قورنوا بالمهاجرين الجدد القادمين من جنوبى أوروبا وشرقها بعد تلك السنة ، وقد دفعت البيئة الغربية هؤلاء المهاجرين فى أغلب الأحيان الى أن يكونوا « مستعمرات » أو شبه جماعات محلية ، وفى داخل هذه « الجزر الثقافية » ربما أتيح لهم لمدة معلومة أن يتمسكوا بمظاهر السلوك العام السارية فى مواطنهم الأصلية ، وأن يقدروا هذه المظاهر تقديرا أعظم مما كانت تحظى به على أيديهم وهم فى بلادهم ، وربما أشعرتهم هذه الظروف بالتمسك بالوحدة نظرا لانفصالهم عن الظروف التى خلقتها (١) .

وتضم جميع المدن الأمريكية الكبيرة وكثير من المناطق الريفية أشباه جماعات محلية من هذا النوع تتميز بطابعها البشرى أو الثقافى . خذ مثلا الكنديين الفرنسيين فهم يعيشون منذ عدة سنوات فى جميع مدن ولاية نيوانجلاند ، فى أحياء منعزلة من هذه المدن ، لهم بعض اليد فى سبب انعزالهم فيها . بل وأكثر من ذلك أنهم يعملون باستمرار على توطيد صلاتهم بكندا بكل ما أوتوا من قوة : ومن بين ال ٢٠٠٠٠٠ رء بولندى ، تقريبا الموجودين بالولايات المتحدة الأمريكية ، تعيش أعداد ضخمة فى أحياء « بولندية » داخل المدن الكبيرة على النحو الآتى — حوالى ٥٠٠٠٠٠ فى شيكاغو ، وحوالى ٣٠٠٠٠٠ فى ديترويت ، وحوالى ٢٠٠٠٠٠ فى نيويورك : وأكثر هؤلاء يشتغلون فى المحطات الصناعية أو المطاحن ( المجارش ) أو المسابك ، ومن جهة أخرى فإن مزارع كونيكتيكت.

(١) هناك كتابات كثيرة عن المهاجر فى أمريكا ، ومن بين الدراسات التى تعالج عدة زمر خاصة :

E. de S. Brunner, *Immigrant Farmers and Their Children* (New York, 1929); F.J. Brown and J.S. Roucek, *One American* (New York, 1940); C. Witke, *We Who Built America* (New York, 1940); C. McWilliams, *Brothers under the Skin* (Boston, 1943).

ريفر فالى أفادت رخاء جديدا أثناء ملكيتها للبولنديين وبسبب مهارتهم . ولقد استقر البولنديون في هذا الاقليم وهم الآن موضع الترحيب كزمرة مقيمة اقامة متصلة . والآن خذ الصينيين الأمريكيين ، وهم أقل من ٨٠٠٠٠ نسمة في الوقت الحاضر . وكانوا قد وفدوا على الولايات المتحدة في أعداد ضخمة حتى عام ١٨٨٠ وبضع السنوات التالية . وهؤلاء قدموا يدا عاملة كافية ورخيصة لانشاء خطوط السكة الحديدية الغربية وغير ذلك من الأعمال . وفيما بين عامي ١٨٨٢ و ١٩٤٣ لم يكن من نصيبهم مجرد تشريعات لحصرهم مبعدين عن غيرهم وانما للتمييز بينهم وبين الأمريكيين تمييزا تاما ، وبلغت الحال أنهم في بعض المناسبات كانوا يعانون من هياج الجماهير ضدهم . ولما كان أكثر استقرار الصينيين في المدن الأمريكية الكبيرة ( وبصفة خاصة في سان فرانسيسكو ونيويورك ولوس أنجيليز وشيكاجو ) فقد احتفظوا بذاتيتهم الثقافية أكثر مما استطاع ذلك أى فريق من المهاجرين <sup>(١)</sup> . ويمدنا تاريخ أمريكا بالمثل تلو المثال، وكل منها مختلف عن الآخر من بعض النواحي .

٢ - التمثل بين التعسير والتيسير : والآن فلنتساءل : الى أى حد يمكننا أن نعمم بشأن العمليات الاطرادية التى تقع في « وعاء الصهر » الأمريكى <sup>(٢)</sup> ؟ يمكننا أن نشير بالطبع الى أنه اذا لم يكن الوافد على الولايات المتحدة للاقامة الدائمة في حالة نفسية تسمح له بأن يكون لديه ، أو أن ينمى في نفسه ، أى حس قوى بالمسافة الاجتماعية ، أو الشعور بوضاعة المكانة أو علوها ، فان عملية الانسجام تطرد في يسر وسهولة . ولكن كيف نفسر الفرق الشاسع بين زمرة وأخرى من جهة الاحساس ، أو بين تقبل الأمريكيين لبعض الأوروبيين من غربى أوروبا مثلا وبين النفور

(١) نوقشت هذه الأمثلة وأخرى كثيرة من نوعها في :

Brown and Roucek, op. cit.

(٢) هنا تشبه أمريكا بالوعاء الذى تذوب أو تصهر فيه جماعات

المهاجرين . - المترجم

النسبى من الايطاليين واليونانيين والروس ؟ وهناك فى الواقع أبحاث متعددة فى التمثل وكتابات وفيرة ميسورة لمن يرغب فى التوسع فى هذه المسائل: ويجدر بنا أن نشير هنا الى بعض العوامل المتداخلة ، التى توضح تعقد العملية الاطراذية وتنوعها :

أولا - مرحلة النمو فى المجتمع الذى وفد المهاجرون اليه : تتوقف الى حد كبير جدا كيفية استقبال المهاجر الى الأرض الجديدة على الظروف القائمة فى الوقت الذى يفد فيه : وعلى ذلك فبالنسبة لهؤلاء الملايين الذين جاءوا الى الولايات المتحدة حينما كانت حدودها ما تزال آخذة فى الامتداد عبر القارة الأمريكية ، وحينما كانت الحاجة ماسة الى القوة والمهارة مهما كان طابع هذه أو تلك لاستخدامها فى اصلاح الأراضى الجديدة وتنمية الصناعات ، كان اختلاف اللغة أو الدين أو الجنسية من الموانع قليلة الأهمية لقبول المهاجرين . وكل ما نرمى اليه الآن هو أن نقابل بين المزايا العظيمة التى أتاحت للمهاجرين القاء من هذه الناحية ، وبين الأضرار التى ألقت بالمهاجرين الجدد بسبب تعيين معالم الحدود وقيام مجتمع مستقر نسبيا فيما يلى عام ١٨٨٠ . إن اللاجئ الأوربيين الذين دخلوا الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن استولى هتلر على مقاليد الحكم فى بلاده فى عام ١٩٣٣ ، يمكن أن يضرب بهم المثل على الطريقة التى كان ينظر بها اليهم فى أغلب الأحيان ، وبعبارة أخرى من حيث كونهم تهديدا للإنعاش الاقتصادى ولعمال البلاد وأصحاب المهن الكبيرة - وقد اعتبر كثيرون من الأمريكيين أنهم وصلوا فى الوقت غير الملائم <sup>(١)</sup> . ويمكن أن نلاحظ سريان هذا العامل - عامل احتياج المجتمع أو عدم احتياجه للمهاجرين - فى الوقت الحاضر بمقارنة الولايات التى لا تزال غير متقدمة نسبيا مثل أريزونا حيث يلقى بوجه عام كل ترحيب ويصبحون

On the recent refugees situation, see G. Saenger, *Today's Refugees*, (١)  
Tomorrow. Citizens (New York, 1941), M.R. Davide, *The Refugee Immigrant in the United States* (New York, 1946).

بسرعة من السكان الأصليين بفعل التمثل ، وولايات فيرمونت أو مين  
المواطن المعتبر من أهل البلاد .

**ثانيا - مهارات العمل السابقة :** للمهاجر نفسه ميزة كبيرة اذا كان  
قد سبق له أن حصل في بلاده التي هاجر منها على نوع من التمرين  
والاعداد في عمل تحتاج اليه البلاد الجديدة . فمثلا الاسكندنافيون  
والألمان الذين حطوا رحالهم في الميدلويسست بالولايات المتحدة كانوا في  
الأغلب ممن مارسوا الزراعة والحياة الريفية في بلادهم الأصلية . وكل  
الذي فعلوه في المهجر أنهم طبقوا مهاراتهم الزراعية المشار إليها . ونظرا لأن  
يهود بلاد شرقى أوروبا الذين وصلوا الى الولايات المتحدة منذ ثلاثين  
أو ستين سنة ، كانوا مديرين في بلادهم الأولى على صناعة الملابس ونتاج  
الأحذية ، فقد أكسبتهم هذه الظروف ميزة اقتصادية في المدن الشرقية  
بالولايات حيث كانت مثل هذه الصناعات آخذة في النمو . ومن جهة أخرى  
فان أحدث اللاجئين من أوروبا وأغلبهم من التجار وأصحاب المهن الكبيرة لم  
يجدوا سوقا مستعدة للائتماع بمهاراتهم المتخصصة . كذلك نذكر صعوبات  
التمثل التي صادفت الايطاليين واليونانيين والبولنديين الذين وصلوا  
أفواجا في الربع الأول من القرن العشرين ، وكانت ترجع الى حد ما الى  
أن هؤلاء المهاجرين وأكثرهم من مهارات معينة ، استلزمها في ذلك الحين  
الصناعات النامية في المدن الأمريكية .

**ثالثا - كثرة عدد المهاجرين :** لوحظ أن موقف المجتمع ازاء الأغراب  
يميل الى التسامح ، ويستمر كذلك الى أن يبلغ عدد هؤلاء نسبة كبيرة .  
وهذه النسبة تعتبر كبيرة أو صغيرة تبعا لعدة عوامل متداخلة . فمنذ عام  
١٨٧٠ والأعوام التالية ، وتقريبا لمدة نصف قرن كانت الصناعة الأمريكية  
النامية تمتص الملايين تلو الملايين من المهاجرين الأوائل من جنوبى أوروبا  
وشرقيها ، وتعرض فرص العمل الرخيص للمطاحن وطرق السكة الحديدية  
والمصانع والمناجم . وفي ذلك العهد كانت تجرى في عنفوانها أعظم تجربة  
في تاريخ الانسان . ولكن بحلول الآلات محل الأيدي العاملة ، وبازدياد

الطلب على المهارات الفنية ، وبشروع العمال الأمريكيين في تنظيم أنفسهم في اتحادات تضمهم ، فإن المهاجرين من غير المدربين وغير المهرة وغير المتحدثين نسيا أصبحوا يستهدفون بشكل متزايد لانصراف أهل البلاد عنهم والارتياح في الغرض من هجرتهم ، حتى ان كثيرين من الأمريكيين بدأوا يتحدثون عن « خطأ وعاء الصهر » ، على أساس أن الأغراب قليلي العدد نسيا ممن عاشوا وسط الأمريكيين في الماضي لم يكونوا خطرا ذا بال ، أما الآن فهذه الحشود من الغزاة ذوى اللون الأسمر أصبحت خطرا أى خطر (١) .

رابعا - الفروق الفيزيائية : تثير الهجرة الجديدة الى الولايات المتحدة مسألة الكيفية التي تتدخل بها الفروق المتعلقة بملامح الجسم ولون الجلد وغير هذا من الصفات الجثمانية ، كحائل في سبيل التمثل . ومن الضروري هنا أن نحذر بعض التحذير . فالفروق الفيزيائية في ذاتها لا تؤدي الى النفور أو الكراهية بين الشعوب ، كما يثبت ذلك في مناطق معينة من العالم ، مثل بعض أجزاء جنوب شرقى آسيا وأمريكا اللاتينية ، حيث تشاهد أن فروق اللون نفسها لا ينظر اليها على أنها ذات مغزى اجتماعى ومع ذلك فعندما تتدخل عوامل أخرى لايجاد الاحتكاك بين الزمر المختلفة قد يرجع المتخصصون الى الفروق الفيزيائية كدليل على الوضاعة أو مسبب للنفور . وقد توصل العاملان وورنر وسرول الى أن التمثل في الولايات المتحدة هو بوجه عام أسهل وأسرع بالنسبة للمهاجرين الذين هم من أصل قوقازى اذا كانوا فاتحى اللون . وأصعب وأبطأ تنازليا بالنسبة للقوقازيين السمر ، ثم أخلاط المغوليين والقوقازيين ، ذوى المظهر القوقازى ، ثم نفس هؤلاء اذا كان مظهرهم مغوليا ، وأخيرا الزوج وأخلاطهم (٢) . ويبدو أن هذا الدليل يبرهن على وجود مثل هذا السلم

(١) Cf. Brown and Roucek, op. cit., pp. 4-12.

(٢) W.L. Warner and L. Srole, *The Social Systems of American Ethnic Groups* (New Haven, 1945), Chap. X.

التدرجى للتعبة أو التمثل فى العلاقات البشرية . ومعنى هذا أنه بوجه عام تعتبر مشاكل الانسجام أسهل بالنسبة للوافدين الذين يشبهون الأمريكيين القدامى فى مظهرهم شبا كبيرا .

**خامسا - الفروق الثقافية :** وهى أكثر العوامل تعقدا وأعصاها على المعالجة : فالباحثان اللذان أشرنا اليهما آنفا مزجا سلمهم البشرى بسلم مشابه يختص بمدى الانحراف عن الثقافة الأمريكية السائدة واعتبرا اللغة والدين فى هذا السلم الثانى أساسين أو خاصيتين لهذه الثقافة . وبهذه الطريقة عملا على تقسيم المهاجرين وفقا لمكانتهم الثقافية ، مبتدئين بالبروتستنت الذين يتحدثون الانجليزية وهؤلاء يتمثلون بسرعة كبيرة وبسهولة ويشتملون تصاعديا ، تبعا لتعقد التمثل وصعوبته ، على البروتستنت الذين لا يتحدثون الانجليزية ، ثم الكاثوليك وغير البروتستنت الذين يتحدثون الانجليزية ، ثم غير البروتستنت الذين يتكلمون عدة لغات هندية أوربية متقاربة ، ثم غير المسيحيين ممن يتحدثون الانجليزية ، وأخيرا غير المسيحيين الذين لا يتحدثون الانجليزية <sup>(١)</sup> . وكما هو الشأن فى حالة العامل البشرى <sup>(٢)</sup> يسهل فى أكثر الأحيان حدوث الانسجام مع الظروف القائمة بالولايات المتحدة بالنسبة للذين يشبهون الأمريكيين القدامى ثقافيا . وتوجد بالطبع خصائص ثقافية كثيرة الى جانب اللغة والدين ، قد تساعد على التمثل أو تحول دونه — ومن أمثال تلك ، العادات الجمعية والمعتقدات والفلسفات وما الى ذلك .

**سادسا - مستعمرات المهاجرين والدور الذى تلعبه كمجتمعات شبه عسقلنة :** فى الولايات المتحدة مستعمرات كثيرة من هذا النوع ، وهى كما يدل عليها اسمها أنشأها المهاجرون ، وتأخذ شكل الأحياء العادية فى داخل المدن الكبيرة أو المحلات الريفية . وجميعها تلعب دورا مزدوجا وهاما فى

(١) Ibid

(٢) من الناحية الفيزيائية . - المترجم

عملية التمثل الاطرادية فمن جهة يسد الاحتفاظ بالكثير من مظاهر الحياة التقليدية ونمو حياة اجتماعية شبه مستقلة حاجات المهاجرين للتقارب فيما بينهم وما ينجم عن ذلك من احساس بالأمان والاطمئنان . وعلى ذلك فإن أعضاء الزمر البشرية المتميزة الذين يعيشون في داخل الأحياء الخاصة ، كأحياء اليهود ومدن الصينيين ومصغرات إيطاليا ( أو مستعمرات المهاجرين التي تشبه كل منها إيطاليا مصغرة ) وما إليها لا يشعرون بالهزة الثقافية العنيفة التي تمر بالأجنى الذي يجد نفسه منعزلا في أرض جديدة . وبهذه الطريقة تساعد المستعمرة كمجتمع شبه مستقل في تسهيل انسجام المهاجر مع ظروفه الجديدة . ويقابل هذا من جهة أخرى أن التمثل نفسه يتأخر بلا شك بسبب قيام هذه « الجزر الثقافية » . وفي داخلها يشعر الوافدون ، وعلى الأخص إذا كانوا من الجيل الأول ، بالاحساس بالأمان على التحقيق ، الا أنهم في أعين الأغلبية ، وهي التي تتألف من المواطنين الأمريكيين ، يقيمون الدليل بهذه العزلة على أنهم غرباء خارجون على النظام المألوف للحياة ، وبعيدون عن أن يكونوا موضع الحب .

٣ - التمثل والأجيال المتعاقبة : لوحظ فيما يتعلق بالمهاجرين الى الولايات المتحدة الأمريكية أنه الى حد ما لا يزال اليوناني في أول الأمر يتردد على مقهى ، والألماني على حانة بيرته ، كما أن الايطالى الذى من جنوب ايطاليا يظل محتفظا بسلطته الأبوية في نظامه المنزلى ، والأوكراني والبولندي يمارسان رقص بلديهما الأصليين ، وأما الايرلندي فيحتفل بتحمس شديد بالعيد الدينى الخاص بيوم سانت باتريك . ولكن بمرور الزمن يطنى تأثير البيئة الجديدة وينتصر على المقاومة المستمرة من البيئة القديمة ، الا في حالة المهاجرين أمثال المكسيكيين والشرقيين الذين تضرب الظروف الجديدة بينهم وبين مواليد أمريكا حاجزا طائفيًا يحول دون التمثل الصحيح : ويبدو طغيان تأثير البيئة في الحالات التي أشرنا إليها فيما يطرأ من تغير على « مواقف » أبناء المهاجرين وأحفادهم وما يتبعون

من سلوك : ومن الأدلة الملموسة على ذلك الزيادة المستمرة في تبادل الزواج<sup>(١)</sup> ، وتناقص ( وليس اطلاقا زوال ) الصحف اليومية المحررة بلغات أجنبية ، ولم يعد المهاجرون يقبلون على لغة بلادهم الأصلية أو تراكييها ، ولا على عاداتهم وتقاليدهم القديمة أو الاجتماعات والحفلات التي تستهدف احياءها .

وفي أغلب الأحيان يدخل المهاجرون في فترة انتقال ؛ فالجيل الذي يتكون من الصغار يرى أن مظاهر سلوك آبائه محقرة في نظر الجماعة المحلية الكبيرة التي تؤهل هذا الجيل من طريق التعليم والعمل واللعب للحياة فيها ، فيؤثر الصغار في هذه الحالة الثورة على التقاليد العائلية ويرفضون سيطرة آبائهم عليهم . وهذا بالذات ما هو حادث بالفعل بين بعض الزمر البشرية في المدن الكبيرة ، مثل الايطاليين وأهل بويرتوريكو ( وليس الصينيين ) ، وكذلك بين بعض الجماعات الريفية المهاجرة ، مثل البولنديين في كونيكتيكت فالى . وما يرمز الى هذا التفكك في النظام الاجتماعي بين المهاجرين ازدياد حالات التشرد وانتقال السيطرة على الجيل الناشئ من الأسرة الى عصابة السوء ، وكان ذلك واضحا بصفة

---

(١) تشمل الدراسات السابقة عن تبادل الزواج :

J.H. Drachler, *Intermarriage in New York City* (New York, 1921); Brunner, op. cit.; N. Carpenter, *Immigrants and Their Children*, Census Monograph (Washington, D.C., 1927).

ومن أجل الاكتشاف الأحداث في الموضوع ، أنظر مثلا :

I.L. Child, *Italian or American?* (New York, 1943); R.J.R. Kennedy, "Single or Triple Melting-Pot? Intermarriage Trends in New Haven, 1870-1940.", *American Journal of Sociology*, XLIX (1934), 331-339; L. Nelson, "Intermarriage among Nationality Groups in a Rural Area of Minnesota, *ibid.*, XLVIII (1943), 585-592; J.S. Slotkin, "Jewish-Gentile Intermarriage in Chicago", *American Sociological Review*, VII (1942), 34-39; M.L. Barron, "The Incidence of Jewish Intermarriage in Europe and America", *ibid.*, XI (1946), 6-13.

خاصة في بعض زمر الجيل الثاني <sup>(١)</sup> . ومما لا شك فيه أن أبناء المهاجرين يجدون من الصعب عليهم جدا أن ينسجموا مع بيئة شاملة تنتظمها آداب عامة متنوعة ، وفي بعض الأحيان متعارضة ، تسير على نهجها الأسرة والجماعة . فيضطرون الى أن ينووا لأنفسهم نمطا جديدا للحياة .

« يأتي المهاجر الى أمريكا حاملا عاداته القديمة . وهي من القدم بحيث لا يمكن مناقشتها وبالنسبة للجيل الأول تلعب هذه العادات دور المذاهب الجالبة للسعادة وتؤدي وظيفة المرشد الى الحياة السليمة . وبعد ذلك يتساءل أبناء الجيل الأول عما اذا كان من الممكن التخلي عن هذه العادات والمستويات الخلقية القديمة . وعندما يختل نظام الجيل الثاني يبدأ الآباء ينظرون الى الثقافة الأمريكية على اعتبار أنها شيء ضار ، كما يرى الأمريكيون أنفسهم في هذا الاختلال دليلا على أنه ليس من الحكمة فتح أبواب الهجرة الى بلادهم أي ان كلا من الفريقين لا يخطر بباله أن المسألة لا تعدو أن تكون صراعا بين ثقافتين ينتهي بالضرورة الى هذا التفكك أو الاختلال <sup>(٢)</sup> .

الانسجام شرح لقاعة وتمييز بين شيئين : كتب كثيرون في موضوع الطريقة والدرجة التي تنسجم بها الأفراد والزمير مع الظروف الاجتماعية في البيئة الجديدة . وكذلك عن المشاكل ومظاهر المقاومة التي تعترض عملية الانسجام أثناء اطرادها . ويمكن أن نضيف الى المثال الذي قدمناه عن المهاجرين في الولايات المتحدة تلك القصة الأليمة ، قصة الآلاف العديدة من الآدميين في أوروبا ، الذين واجهوا عملية انسجام من نوع خاص حينما أرغموا على الحياة في معسكرات الاعتقال قبيل وخلال الحرب العالمية الثانية ، أو ما واجهه الأمريكيين في اليابان من مشاكل

(١) أنظر مثلا :

F.M. Thrasher, *The Gang* (Chicago, 1927) and W.F. Whyte, *Street Corner Society* (Chicago, 1943).

L.G. Brown, *Immigration* (New York, 1933), p. 254. (٢)

انسجام حينما احتلوا القسم الخاص بهم في معسكرات الاعتقال . وكلتا الواقعتين من الأمثلة المتنازعة عن مرونة الرجل الحديث واستعدادهم للتشكل حسب الظروف <sup>(١)</sup> . وهناك مثال آخر لأسلوب الحياة الجديدة المفروض بالقوة شوهد في الأنظمة الاجتماعية وأنماط بعض الزمر ، مما أعده فريق من نزلاء السجون والإصلاحات وغيرها من الجماعات المكافئة الشبيهة بالمستقلة <sup>(٢)</sup> . وربما كانت هذه الجهات حالات متطرفة وغير مثالية للحالات التي نحن بصدددها ، ولكنها على أية حال تشير الى الطرق التي يسلكها الانسان سواء بوعى أو بغير وعى منه لخلق أسلوب جديد لحياته عندما يواجه ظروفًا مقلوبة . وفي الحق أن ظروف الانسجام معقدة . أشد التعقيد ومنوعة أشد التنوع بحيث اننا لا نستطيع أن نلخصها هنا . وكل ما نستطيعه أن نقنع بأن تشير الى مبدأ عام أو قاعدة عامة ، يكشف عنها هذا التقابل بين مجتمع أكثر بدائية وآخر أكثر تطورا وأن تؤكد تميزا معينًا سنشرحه بعد قليل ، يعتبر أساسيا في دراسة الحقيقة الاجتماعية الواقعة :

١ - الانسجام أقل صرامة في العضادة الراقية : ان المجتمع الأكثر تطورا وتعقيدا لا يمكنه أن يمثل الواقع عليه تمثالا تاما ، بسبب ما يعمه من تباين ، يجعل من الصعب على الغريب أن يذوب كلية في أنماط هذا المجتمع . وهذا يرجع الى أن الفروق القائمة في المجتمع الحديث فيما بين آداب اللياقة ومقاييس السلوك والعادات الجمعية والمعتقدات تجعل

---

(١) For the readjustments made in concentration camps see D. Rousset, *The Other Kingdom* (New York, 1947); A. Koestler, *Scum of the Earth* (New York, 1941); and the novel, A. Maltz, *The Cross and the Arrow* (Boston, 1944). Two excellent studies of the "relocation projects" for American Japanese are: A.H. Leighton, *The Governing of Man* (Princeton, 1945) and D.S. Thomas and R.S. Nishimoto, *The Spoilage* (Berkeley, Cal., 1946).

(٢) See for example, A.K. Weinberg, "Aspects of the Prison's Social Structure", *American Journal of Sociology*, XLVII (1942), 717-726.

مطالب المجتمع من الأفراد بالضرورة أقل تدقيقاً وغير شاملة : ويترتب على ذلك أن الشخص الغريب في مثل هذا المجتمع يجد أمامه فرصة سانحة لاختيار علاقاته الاجتماعية وتعيين مكانه في البيئة الجديدة ، وكذلك للتعبير عن فرديته تحت الظروف الجديدة . وفي المجتمع المتقدم في الحضارة تتاح لكل من المهاجر والمواطن الأمريكي فرص الحياة . وكما سنرى في فصل لاحق لا سبيل الى توضيح هذه الفكرة بدقة خير من إجراء مقابلة بين البيئة المعقدة والآلية نسيباً نشاهدها في المدينة الكبيرة ، وبين العالم الصغير القائم على علاقات المواجهة الشخصية والتمثل في الجماعة المحلية الريفية . ولهذه القاعدة العامة بالطبع حالات شذوذ . وذلك لأن ما عند الوافد من استعداد للانسجام مع المجتمع الجديد ، فيما عدا قدرته الخاصة على التكيف ، لا يتوقف كلية على درجة نمو هذا المجتمع . وهناك أسباب عديدة تجعل بعض المجتمعات أكثر تسامحاً مع الأفراد الأجانب عنها وأشدّ ترحيباً بهم ، وأقل ميلاً لفرض السلطة أو التعصب للدين السائد أو الآراء السياسية ؛ خذ مثلاً الصينيين في بلادهم فهم برغم ثقافتهم العالية المتقدمة تحلوا دائماً عبر تاريخهم بكل هذه الصفات . ويؤكد ذلك أن الصينيين اليهود ، مع تمسكهم بدينهم ، أصبحوا مندمجين تماماً في الحياة الاجتماعية الصينية ومتكاملين معها <sup>(١)</sup> .

٢ - الانسجام الاجتماعي منذ التكيف الفيزيقي أو الجثثاني :  
والآن نختم الفصل الحالي بالتحدث عن هذا التمييز الذي وعدنا به منذ قليل وسيرى القارئ أننا سنضطر للعودة إليه بعد ذلك في كتابنا هذا . وأول ما ينبغي أن نشير إليه أنه لا ينبغي لنا أن نخلط بين الطريقة التي تتكيف بها الزمر مع بيئتها الفيزيائية الجديدة ( أي مع السكان أنفسهم ) وبين العملية الاطرادية التي تمارسها هذه الزمر للانسجام مع وسط اجتماعي موجود من قبل . ويتضح من هذا أن العملية الأولى عملية

Cf. M. Fishberg, *The Jews* (New York, 1911), pp. 134-136. (١)

بيولوجية والثانية اجتماعية . فاذا استطالت قامة أبناء المهاجرين الأوروبيين . مثلا بحيث تزيد في الارتفاع عن قامة آبائهم ، أو اذا تغيرت أشكال رؤوس الأبناء ، فانهم في هذه الحالة يكونون متكيفين بيولوجيا مع ظروف جديدة ( ومعنى هذا أن الظروف فيزيقية ، أو جثمانية ، واجتماعية ) . ولكن عندما تكون لهؤلاء الأبناء مواقف عدائية أو يشتركون في عصابات الأحداث المنحرفين في الأحياء القذرة بالمدن ، فانهم يبنون عن عملية انسجام اجتماعى مطردة .

ومما يشوش هذا التمييز الذى قدمناه استخدام الاصطلاح « ايكولوجيا » فى كل من العلوم الطبيعية وعلم الاجتماع بالمعنى الذى يعطى له فى هذه العلوم . ففى علم النبات أو علم الحيوان يطبق الاصطلاح « ايكولوجيا » على حياة النبات أو الحيوان المختلفة باختلاف البيئة الطبيعية التى من شأنها أن تؤثر فى توزيع الأنواع التى يعيش فيها ، وفى خصائصها . أما أشكال الحياة الاجتماعية التى تنشأ عن الزمر الاجتماعية أو فى داخلها ، فلا تعتبر « ايكولوجية » بهذا المعنى . وذلك لأن البيئة الشاملة للإنسان لا يمكن أن تكون اطلاقا مجرد بيئة طبيعية . اننا قد نأخذ منطقة جغرافية محلية كأساس لتحقيق اجتماعى ، ولكن لا ينبغى أن نزعّم قط أن الظروف التى نكتشفها تفسر بالمظاهر الخارجية ( الجغرافية ) لهذه المنطقة (١) . وقد وجد الايكولوجيون الاجتماعيون مثلا أن نسبة

---

(١) من رأينا أن المجتمع اذا كان ستاتيكيا أى ليس عرضة لمؤثرات خارجية تغير وجه الحياة فيه ، أمكننا أن نفسر طواهره الاجتماعية تفسيراً ايكولوجياً - ولقد فعل ذلك بنجاح بروفيسور ايفانز - بريتشارد فى دراسته لمجتمع النوير وأفرد فى كتابه عنه فصلا خاصا عن الايكولوجيا - وإن من يقرأ هذا البحث ليعجب للمهارة التى فسر بها المؤلف النظم الاجتماعية للنوير وتحركاتهم خلال السنة تبعا لفيضانات النيل والأمطار وامكان زراعة الذرة وصيد السمك لتكميل غذائهم الشحيح من البان الابقار وهو لم يغفل التحركات بسبب الحشرات الضارة بالماشية - وقد بين ايفانز - برتشارد ببراعة توقفه الزواج على الثروة الحيوانية كما وجد فى حاجة =

الجانحين في المدن الكبيرة تبلغ أقصاها في الأحياء التالية مباشرة لمراكز العمل والتجارة ، وتتضاءل بوضوح كلما ابتعدنا عن هذه المراكز . إلا أن هذا لا يسوغ زعمنا بأن الدائرة المكائنة ، من حيث هي كذلك ، مسئولة في هذه الحالة ، أن ازدياد جنوح الأفراد يمثل عملية اطراد الانسجام مع العوامل الطبيعية الظاهرة في المنطقة <sup>(١)</sup> . أن التوزيع الجغرافي في بيئة اجتماعية لا يعنى البتة الجبرية الجغرافية <sup>(٢)</sup> . أن كل ظاهرة اجتماعية نتيجة لموقف شامل . فإذا اقتصرنا في تفسيرها على البيئة الطبيعية وجب أن نصحح أنفسنا بأن نجعل هذا أول اجراء نقوم به في البحث عن

= الأبقار والثيران الى المرعى سببا للغارات والحروب المستمرة بين النوير والدنكا . أنظر :

B.B. Evans-Pritchard, *The Nuer, A. Description of the Modes of Livelihood and Political Institutions of a Nilotic People* (Oxford, 1940).

وربما نجح التفسير الايكولوجي للحياة الاجتماعية في حالة البيئة القاسية وظروف المعيشة الصعبة حيث يتكالب الناس على موارد الرزق المحدودة ، أنظر :

James A. Quinn, "Ecological Versus Social Interaction", *Sociology and Social Research*, XVIII (July-August, 1934), 565-70.

### - المترجم

(١) ومن الأبحاث المتصلة بهذا الموضوع :

C.R. Shaw, *Delinquency Areas* (Chicago, 1927); National Commission on Law Enforcement, *Report on the Causes of Crime*, II (1931), 140-188; C.F. Schmid, *Social Saga of Two Cities* (Minneapolis, 1937), pp. 334-345.

(٢) وهذا حق ، ولكن لا ينبغي أن نغفل وجود جبرية جغرافية غير مباشرة في كل المجتمعات تقريبا . مثال ذلك أن عدم توافر الطعام في بريطانيا يفسر الكثير من مظاهر سياستها الخارجية ومحالفاتها وحروبها . وليس المهم أن نتحدث المظاهر الطبيعية للبيئة من حيث امكان تأثيرها في حياة الناس ، بل ننظر اليها أيضا على اعتبار أنها امكانيات يتصرف فيها العقل البشرى وينفعل معها دائما ، وبذا يحدث التأثير غير المباشر للجغرافيا .

### - المترجم

العلل<sup>(١)</sup> ، وزيادة على ذلك فإن البيئة الاجتماعية معقدة جدا كما رأينا . وهناك وسائل ودرجات لا حصر لها للانسجام مع جوانبها المتعددة ، كما يتبين من أساليب المعيشة التي تتبعها كل زمرة على حدة . وفيما يلي وصف للحياة في إحدى المدن الصغيرة في ولاية انديانا ( كتب منذ عشرين سنة تقريبا ) وهو يوضح وجهة نظرنا بكيفية تستحق الإعجاب :

« تنهج المعيشة في مدينة مدلتاون ... عدة سبل ، تذهل المتأمل لكثرة عددها . وقد لوحظ وجود فروق بين درجة انسجام جيل كبار السن وجيل الصغار ، وكذلك بين الجيران ، كما أن الاناث أظهرن أنهم أكثر محافظة من الذكور الذين يبدوون مفتقرين الى ما لدى الاناث من مطابقة في مظاهر انسجامهم أو الى نمط واضح لهذا الانسجام ، وأنهم أكثر للتكيف في مسائل أخرى . وفي كثير من مظاهر النشاط ، لوحظ كما أشرنا باستمرار أن للطبقة العاملة اليوم عادات طبقة رجال الأعمال التي كانت لهم منذ جيل مضى على وجه التقريب . ولو كان من المستطاع أن تفرق بوضوح بين تدرج تأثير كل من هاتين الزمرتين الكبيرتين في الأخرى ، فلربما ظهر لنا أن تغيرات كثيرة تتسرب ببطء من خلال زمر أخرى متوسطة ، وإن كانت هناك في بعض الأحيان انتقالات واسعة في المكانة الاجتماعية تشيع في الاتجاه العكسي ، مثل الانتقال من الطبقة العاملة ، بلا تدرج ، الى طبقة رجال الأعمال ، كما لوحظ مثلا في صناعة الخبز المعد بالطرق التجارية وصناعة الأغذية المحفوظة بالعلب .

هذه الأوضاع المتغيرة التي ثبت في حالات كثيرة أنها كافية للتأثير

---

(١) يؤيد ذلك أن الأبحاث الاجتماعية التي أجريت على المجتمعات المتكاملة في النصف الأول من القرن العشرين جميعها تفسر أولا بالايكولوجيا ثم بتفسيرات أخرى بعد ذلك . أنظر :

Aly A. Issa, *The Methods of Social Anthropology: An Examination of Current Ideas and Practices* (Oxford D. Phil. thesis, typescript).

— المترجم —

يوضح في قدرة الفرد على معالجة شئونه الدنيوية ، لا تبدو فقط فيما بين الأفراد ، وفي الأعمار المختلفة ، ونوع الشخص ، والزم الموجودة في جدلتاؤن والمشاركة في نفس هذا النشاط الحيوى ، وانما تظهر أيضا في المدينة ككل ، وفي الزمر التى تتكون منها خلال حياة المدينة نفسها وتاريخها الذى يتكون من عدة عصور ، كل منها يقتضى حياة ذات نشاط مختلف . ومن الواضح أن مدلتاؤن ما تزال تسلك في بعض تقاليدھا نفس الطرق التى سبق أن سلكتها بنفس الدقة تقريبا منذ جيل مضى ، على حين أن البعض الآخر من هذه التقاليد لا يمت الا بصلة ضعيفة الى الأزمنة الماضية . ومن الواضح في مجموعات النشاط الست الرئيسية بالمدينة أن من الممكن ترتيبها حسب درجة ما طرأ عليها من تغير . فالعمل أول نشاط طرأ عليه تغير شامل في نواحيه الآلية والميكانيكية ، ووقت الفراغ أصبح يستغل بشكل واضح بالاعتماد على التقدم المادى ، ومن مظاهره السيارة والسينما ، ومن كثرة دور السينما أصبحت تسلية شبه متقلة . أما أنواع النشاط التى تأتى في المحل الثالث والرابع والخامس وفقا للخصائص التى أمكن تحريها فهى التعلم بالمدارس ، ومظاهر نشاط الجماعة المحلية ، وتكوين بيت ، بينما يأتى في المحل الأخير نشاط لم يطرأ عليه الا أقل تغير وهو النشاط الدينى الرسمى » (١)

ومثل هذا التنوع قد يبدو أنه يشير الى أن محاولة استكشاف علاقات العلية بين مظاهر التقدم الاجتماعى والعوامل الخارجية للبيئة أمر مضلل ولا جدوى منه . ومن المؤكد أننا لا نستطيع أن نأمل أن نتوصل الى عامل ما من عوامل البيئة ونعتبره العلة الوحيدة لاحدى الظواهر الاجتماعية : ولا يمكن أن يقبل مثل هذا الفرض الا أولئك الذين ما زالوا

---

From *Middletown* by Robert S. and Helen Merrell Lynd, copyright, (١)

1929, by Harcourt, Brace and Company, Inc.

ينظرون الى طبيعة العلية تلك النظرة القديمة الخاطئة (١) . ان المشكلة التي نحن بصددھا تتلخص في أن الأفراد تصدر عنهم مظاهر مختلفة من السلوك تتفق مع كل نوع من أنواع البيئة الشاملة التي يعيشون فيها . أما الى أى حد يمكن ارجاع هذه المظاهر الى جوانب معينة من هذه البيئة فهذا كما رأينا سؤال يصعب جدا الجواب عليه . ان البيئة الشاملة في مظهرها الفيزيقي والاجتماعي ، تؤثر دائما في كل من يعيش فيها . والآن تحملنا متابعة هذا الموضوع وبحث هذه العلاقة ، بعد هذه الاعتبارات التمهيدية التي تناولناها في الكتاب الأول ، الى معالجة أكثر توسعا للتركيب الاجتماعي والتغير الاجتماعي في الكتابين الثاني والثالث .

---

(١) قليلون هم علماء الاجتماع الأمريكيون الذين حاولوا القيام بتحليل مستفيض لمشكلة العلية الاجتماعية . واذا رغب القارئ في الاطلاع على إحدى هذه المحاولات فلينظر :

R.M. MacIver, *Social Causation* (Boston, 1942); and for a critique of this volume by F.H. Knight and a rejoinder by the author, see *American Journal of Sociology*, XLIX (1943-1944), 46-58.



# الكتاب الثاني

---

## التركيب الاجتماعي

---

الباب الأول :

القوى المؤيدة لقواعد السلوك  
والعادات الجمعية



## كلمة استهلالية

إذا كنا في طائرة وألقينا منها نظرة على إحدى المدن أو القرى أو أية منطقة أخرى تجرى منها حياة اجتماعية ، فأننا نشاهد فيها أبنية وطرقا وقناطر وغير هذه الأشياء التي تدل على أعمال الإنسان . وربما استطعنا أن نميز الناس أنفسهم ونحن نتطلع الى الأرض من عل . ولكننا لا نرى التركيب الاجتماعى ، ولا يمكننا أن نراه إذا حاولنا ، فنحن لا نرى المجتمع وإنما نشاهد مظاهره الخارجية ليس غير ؛ وذلك لأن المجتمع عبارة عن نظام يتكون من العلاقات الانسانية أقامه أفراد من الناس وعملوا على دعمه ثم تغييره باستمرار مع بقاءه نظاما . وسنعالج فى الكتاب الثانى من هذا المجلد خصائص التركيب الاجتماعى ، وعلى الأخص كما نما تحت الظروف السائدة فى الحضارة الغربية الحديثة .

وسنواجه فى الباب الأول مهمة أولية ألا أنها جوهرية ، وذلك لأنه بينما يبدو التركيب الاجتماعى نفسه غير مستقر ، وخاضع للتغير ، فإن له طابعا محددا فى كل مرحلة من مراحله . وكثير من عناصره الرئيسية ، احتفظت بمثالها خلال ما طرأ عليه من تغير ، فكيف اذن يتسنى لهذا النسيج من النظم والروابط — كالأسرة والدولة والكنيسة مثلا — أن يبقى الأخص كما نما تحت الظروف السائدة فى الحضارة الغربية الحديثة : وأن يستمر تنظيمه ؟ كيف يواصل أداء وظيفته كنسق متوافق ؟ وما هذه القوى التى تعمل على ربط التركيب الاجتماعى وتماسك أجزائه ؟ وسندرس فى مرحلة تالية القوى التى تؤدي الى عدم الاستقرار والتغير ، أما هنا فسنهتم بالقوى المحافظة التى من شأنها أن تعمل على التطابق والاستقرار .

وفى هذا الجزء من البحث تتوغل مرة أخرى فى منطقة يلتقى فيها علماء الاجتماع والنفس ، وذلك لأن هذه القوى ، أو المبادئ التنظيمية ذات طابع انسانى عام ، بمعنى أنها تعتبر من لواحق كل من عملية الانسان ( أو الفرد ) والمجتمع الانسانى حيثما وجد . وعلى ذلك فسنبحث فى الدور الذى تلعبه الآداب العامة وقواعد السلوك فى اقامة دعائم الحياة الاجتماعية ، وذلك فى الفصلين السابع والثامن . على أننا ينبغي أن نذكر فى نفس الوقت أن هذه الآداب العامة وقواعد السلوك وما إليها من وسائل الضبط الاجتماعى ، التى ستكون موضع اهتمامنا ، لا تعبر تماما ولا هى تنظم دائما آراء الأفراد أو خططهم العملية ، ومن أجل هذا سنواجه — على الأخص فى الفصل التاسع — مسألة تحويل هذه المبادئ بحيث تلائم مختلف الحالات الفردية الجزئية التى لا تعتبر هذه المبادئ سببا كليا لها — وهذا البحث فى قواعد السلوك والعادات الجمعية من حيث كونها نظاما — للعلاقات الاجتماعية يدعم الحياة فى المجتمع وان كان هذا النظام نفسه متغيرا باستمرار ، سيمهد لدراسة الأشكال لتركيب المجتمع ، فى الباب الثانى .

## الفصل السابع

### الآداب العامة والضبط الاجتماعي

#### قواعد السلوك والجزاءات في الحياة الاجتماعية

**الضبط الاجتماعي والتركيب الاجتماعي :** يحظى موضوع الضبط الاجتماعي بعناية عدد كبير جدا من مراجع علم الاجتماع وغيرها من مراجع الدراسات الأخرى . والمقصود بالضبط الاجتماعي الطريقة التي يتطابق بها النظام الاجتماعي كله ويحفظ هيكله — ثم كيفية وقوعه بصفة عامة كعامل للموازنة في حالات التغير . وإن مفهوم الضبط الاجتماعي ليضعنا ، إذ نحاول أن نفهمه ، في بؤرة علم الاجتماع أوفى صميم مشكلته الأولى الدائمة ، وهي العلاقة بين النظام الاجتماعي والفرد ، أو العلاقة بين الوحدة والمجموع . ولدراسة الضبط الاجتماعي يتحتم أن نتقصى الوسائل التي يشكل بها المجتمع سلوك الفرد وينظمه . وفي نفس الوقت نتعرف الطرق التي يتبعها هذا السلوك المعين والعام بالنسبة للأفراد جميعا ، للمحافظة بدوره على حفظ النظام الاجتماعي . وهذه المهمة الكبرى ستقتضيها الاهتمام بها خلال الكتاب الثاني ، الذي سنبحث فيه مختلف النظام المعقد للعلاقات الانسانية الذي نسميه التركيب الاجتماعي (١) .

(١) من الكتب التي تعالج مباشرة مفهوم الضبط الاجتماعي ، من بين الكتابات الضخمة في هذا الموضوع ، نذكر :

H.A. Ross, *Social Control* (New York, 1901).

وهو أقدم بحث أمريكي في هذا الميدان ورغم قدمه لا يزال يستاهل =

وقبل أن نطرق المناقشة حول الجماعة المحلية والطبقة الاجتماعية والأسرة والمظاهر الأخرى للحياة الاجتماعية المتعلقة بالتركيب الاجتماعي (وهي موضوعات الباب الثاني من الكتاب الثاني) ينبغي أن نستعرض القوى المؤيدة لقواعد السلوك والعادات الجمعية المعبر عنها في مظاهر السلوك العام والآداب العامة المتبعة في المجتمع. وقد سبق أن ناقشنا بإيجاز في الفصل الأول طبيعة الآداب العامة وأشرنا الى أنها قائمة في كل مجتمع كوسائل لتنظيم السلوك، واذن فهي أدوات للضبط الاجتماعي. والآن يتحتم أن نعالج بتفصيل أوفى هذا الدور الهام وأن نخبر هذه المبادئ أو القواعد التي تسيّر بمقتضاها الآداب العامة، بقصد دعم التركيب الاجتماعي.

**طبيعة القانون الاجتماعي :** نحن لا نعرف نظاما من أى نوع، مهما كان عرضة للتغير، يمكن أن يقوم الا اذا كان بصورة ما تعبيراً لقانون. ان كل شيء في الوجود يخضع للقانون الذي يوائم تكوينه الخاص. ان الغرض من البحث والاستطلاع العلمي، في أى ميدان من ميادين العلوم، هو تقصي المبادئ أو القوانين التي تحكم الأشياء في نطاق معين. فعالم الطبيعة يهتم بقوانين الجاذبية، أو الغازات، أو العلاقة بين الحرارة، والأعمال الميكانيكية. وليس المتخصص في العلوم الاجتماعية بأقل

---

= اهتمام الطالب به، وكذلك : F.E. Lumley, *The Means of Social Control* (New York, 1925); P.H. Landis, *Social Control* (Philadelphia, 1939); L.L. Bernard, *Social Control in Its Sociological Aspects* (New York, 1939); J.S. Roucek, et al., *Social Control* (New York, 1947).

### — المؤلفان

ويصح أن يضاف الى هذه المجموعة مقال هام في الموضوع، وهو وان لم يكن كتاباً نسوقه في معرض هذه الكتب، الا أنه فيما نعتقد قد ضمن وغيره من المقالات لنفس المؤلف كتاباً صغيراً — وعنوان هذا المقال :

"Sanction, Social", *Encyclopaedia of the Social Sciences*, Vol. 13, pp. 531-34, by A.R. Radcliffe-Brown.

### — المترجم

اهتماما فيما يتعلق بالقوانين المتصلة بالظواهر الاجتماعية وكيفيات وقوعها  
الا أن هناك بعض فروق ذات بال بين هذين الباحثين فخرج بها من هذه  
المقارنة .

١ - التنظيمات الاجتماعية ذات صفة معيارية : يتميز المجتمع عن  
الحقيقة الطبيعية الواقعة من حيث القوانين التي تعمل على دعم المجتمع ،  
وعلى الأقل بعضها ، أمرة أو معيارية <sup>(١)</sup> . وبعبارة أخرى ، القوانين العالمية  
الطبيعية ، يمكن الخروج عليها كما يمكن تغييرها . وهي تقتصر الى صفة  
الصلابة التي تختص بها القوانين الطبيعية . وصحيح أن جذورها موجودة  
في الطبيعة الانسانية وفي التكوين العضوي للانسان كما في حاجاته  
وشعوره الدائم بوطأة المجتمع ، وفي مشابهته ومطابقته للمثال العام  
للانسان وبالتالي في سلوكه ، الا أن القواعد نفسها عرضة للتغير ، من  
حيث ان حاجات الناس ورغباتهم ليست ثابتة أو دائمة ، وانما هي تسعى  
دائما للبحث عن طرق جديدة للتعبير ،

وهذه القواعد التنظيمية للمجتمع ان هي الا مستويات قررتها زمرة  
من الناس لضبط سلوك أعضائها ، من حيث علاقاتهم بعضهم ببعض  
وعلاقاتهم بالزمرة ككل . وليس معنى ذلك أن هذه القواعد مفروضة  
عليهم فحسب ، اما بواسطة حكامهم واما بانحطارها من ماضيهم . وهي  
تختلف عن القوانين التي يفرضها سيد على عبده ، أو التي تسنها  
امبراطورية لتحكم بها أحد الشعوب الخاضعة لها . وانها في الأغلب  
الوسائل التي تدل على أن المجتمع عامة يقبل هذا الميراث ويستمسك به .  
وهي تتغير في الحاضر كلما نما وعي المجتمع وأدرك حاجته الى التغير .

٢ - التنظيمات الاجتماعية نسبية وتختص بفريق من الافراد دون  
غيرهم : تختلف قواعد السلوك عن القوانين الطبيعية من ناحية ، ومن

---

(١) يلاحظ أن هذه القوانين أمرة وهناك فرق بين الامرة والحتمية .  
وهي كذلك معيارية أي تقوم على معيار عام أو مستوى عام لا يمنع قيام  
مظاهر تشبه عنه . - المترجم

فاحية أخرى أنها تحمل في طياتها معنى الالتزام ، وتخطب عواطف من تحكمهم من الناس وعقولهم . وهى تجرى دائما ضد ميول أفراد عديدين . ان مظاهر السلوك العام والآداب العامة تكشف عن تماسك المجتمع الا أنه تماسك ليس كاملا دائما ؛ وذلك لأن المصلحة الشخصية للأفراد أو ما يشبهها تجرى دائما ضد المصلحة العامة أو المشتركة للمجموع ، ولأن مصلحة الزمرة الصغيرة ، كالأسرة أو النادي ، تسير فى أكثر الأحيان ضد مقتضيات الزمرة الكبرى كالجماعة المحلية أو الطبقة الاجتماعية . أن معايير السلوك الاجتماعية كثيرا ماتقيد المسعى نحو المصالح الذاتية . ومن جهة أخرى كثير من التنظيمات تصاغ لتحقيق مصلحة الزمر أو الطبقات التى لها الغلبة والمكانة المرموقة ، وتلقى مقاومة من الزمر الأخرى ، ويمكن القول بإيجاز ان أوامر قواعد السلوك الاجتماعية لا تقبل ولا تطاع بنفس الكيفية .

**قواعد السلوك والجزاءات :** ان مظاهر السلوك العام والآداب الزمرة انما تمدنا بالكيفيات الأكثر عمومية والأقوى قبولا التى تتبعها للقيام بهذا العمل أو ذاك . وهى كذلك ، كما رأينا ، لها صفة التنظيم وتمارس الضغط على كل من الفرد والزمرة ليعملا وفقا للمعايير السائدة . وفى كل من هذين الدورين تتحول التنظيمات الاجتماعية الى تسق معينة أو قواعد للسلوك ، وفى المجتمع الحديث نشعر أكثر ما نشعر بقواعد السلوك القانونية . ولكن هذه تقوم ، والى حد كبير تركز ، على قواعد سلوكية من نوع آخر ، مثل القواعد التى تفرضها العادات الجمعية والديانات .

**١ - العلاقة بين قواعد السلوك والجزاءات :** تتشابه مختلف قواعد السلوك الاجتماعية فيما بينها فى ناحية واحدة هامة . ذلك أن أوامرها جميعا من الممكن الخروج عليها . ولا بد اذن من اجراءات خاصة لحمايتها تتلخص فى أنواع من الجزاءات ، الغرض منها مقاومة الميل الى عصيان هذه القواعد . وهذا الكلام ليس أقل انطباقا على الشعوب

البدائية المحكومة بالعادات الجمعية فحسب منه على الشعوب المتحضرة (١) .

ليس هناك وضع من أوضاع السلوك ينطوى على طاعة أوتوماتيكية لا انحراف فيها عن القواعد المقررة . والمجتمع في كل حالة من هذه الحالات يسند هذه القواعد بممارسة درجة ما من الضغط على الشخص الذى يحيد عنها .

ان الاصطلاح « جزاء » يمكن تطبيقه في حالة العمل المتشى مع قواعد السلوك ويعتبر هنا جزاء حسنا . وكلنا نعرف طريقة المدح والتقريظ كأداة للضبط الاجتماعى ، ولا يقل تطبيقها في عالم البالغين عنه في تعليم الصغار كوسيلة للتشجيع على السلوك المتق والمعايير الاجتماعية . غير أن « الجزاء » يشير بوجه عام وبصفة أدق الى العقوبة الخاصة التى يفرضها المجتمع على كل من يخالف قواعده . وفي بعض الأحيان يأخذ الجزاء معنى حرمان المخطئ مما قد يكون مستمتعا به من امتيازات ، أو إلغاء بعض أو كل حقوقه ، وفي أحيان أخرى يكون عبارة عن غرامة توقع عليه أو في حالة القوانين التشريعية فقدان الحرية ( بالسجن ) أو فقدان الحياة ( بالاعدام ) . ولكل نوع من القواعد جزاءاته الخاصة . والقواعد الرئيسية للسلوك الاجتماعى تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا من حيث نوع أو امرها ، كما سنرى بإفاضة في الفصل التالى .

٢ - الجزاءات الاجتماعية والبواعث الفردية : على طلاب الاجتماع والباحثين فيه أن يميزوا بعناية بين جزاءات قواعد السلوك وبين الأسباب التى تدعو الى طاعتها . لأن الجزاء الاجتماعى أحد أسباب الطاعة التى يحس الفرد ضغطها ، ولكنه واحد من أسباب عدة . وفي أغلب الأحيان

---

B. Malinowski, *Crime and Custom in Society* (New York, 1926), (١)  
Part I.

لا يكون السبب الأهم . ان أعضاء احدى الجمعيات الطبية أو القانونية لا يحترمون قواعد السلوك الخاصة بجمعياتهم لمجرد أن مخالفة هذه القواعد تفقدهم حق ممارسة المهنة . ولا يطيع أعضاء أحد الأندية قواعد ناديهم لمجرد الخوف من فقدان عضويته . والناس بوجه عام لا يطيعون القانون لأنهم فقط يخشون رقابة الشرطي . انهم جميعا الى جانب هذه الأسباب المذكورة يحترمون قواعد السلوك الاجتماعية لأنهم يرون أنه من الصواب أن يحترموها ، أو لأنهم تعودوا احترامها حتى أصبح هذا الاحترام أقرب التصرفات لمقاومتها ، أو لأنهم يرغبون في تحسين علاقاتهم بأقرانهم ، أو لأن هذه القواعد تخدم مصالحهم ، أو لأسباب أخرى . ان بواعث الفرد متشعبة ومختلط بعضها ببعض ومن الصعب تبيينها واحداً واحداً ، كما تشير بذلك المشاكل المعقدة التي تصادف اخصائي العلاج النفسى . وتتنوع هذه البواعث تنوعاً لا حد له من شخص لآخر ، ومن ظرف الى غيره . أما الجزاءات ، فبالعكس من ذلك ، محددة ، وهى بسيطة نسبياً . والبواعث فردية الصفة دائماً ، أما الجزاءات فطبيعتها اجتماعية . واذا كان الناس ، بوجه عام في مجتمعنا مضطرون للخضوع للزواج المونوجامى ، أو زواج الرجل الواحد من المرأة الواحدة ، فان فى وسعنا أن ننسب هذا التقليد الى قواعد سلوكية وجزاءات مقررة ، تعتبر جزءاً من تراثنا الاجتماعى . إلا أن الأسباب التى يتذرع بها كل منا لتسوين زواجه المونوجامى تكمن وراء الباعث الفردى .

هذا التمييز يجب أن يستقر فى أذهاننا عند كل مناقشة للقواعد التنظيمية للمجتمع . سنقسم هذه القواعد من ناحية جزاءاتها الاجتماعية . ولكن ينبغى أن نذكر دائماً ونحن فى معرض هذه البواعث المعقدة التى تكمن وراء السلوك الإنسانى ، أن الجزاء ليس وسيلة لتفسير السلوك بقدر ما هو أداة لتقوية الأثرة نحو توحيد السلوك ، بدونها تتمزق وحدة المجتمع تحت ضغط الميول المتعارضة التى تواجه نفس الظرف الفردى الواحد .

٣ - أنواع قواعد السلوك والجزاءات : لكل جماعة محلية ، كما لكل نوع من الزمر أو الروابط المنظمة ، قواعدها التي تفرضها على أعضائها . وفي الجماعة الحديثة المعقدة تأخذ هذه القواعد عدة أشكال ، وتكون لها جزاءات متباينة فيما بينها أشد التباين .

أولاً - قواعد السلوك في التجمعات والهيئات : يعاقب من يخالف قواعد أى ناد بفقدان عضويته أو بعض مزايا هذه العضوية ، أو بفرض غرامة كشرط لاستمرار الاحتفاظ بالعضوية أو بفقدان الاعتبار أو المكالة في داخل النادي . هذه في الواقع هي الجزاءات العامة المعروفة في جميع المنظمات « الاختيارية » وإن كنا نرى في بعض الأحيان قواعد تنظيمية لبعض الهيئات تؤيدها جزاءات نهائية . فالعامل في بعض المصانع إذا خالف تعليمات الإدارة أو اتحاد العمال في داخل المصنع ربما فقد عمله وإلى جانبه رزقه . والمسيحي الذي يخطئ في حق كنيسته قد يعاني مرارة الحرمان الكنسي مع ما يتضمنه هذا الحرمان من فقدان العزاء الروحي والشعور بغضب الله . والطبيب أو المحامي الذي يغفل بواجبات مهنته قد يفقد حق مزاولتها ، وإن كان في مثل هذه الحالات يتعرض أيضاً للجزاء القانوني ، كجزاء اضافي ضروري .

ثانياً - قواعد السلوك الخاصة بالجماعة المحلية : في كل جماعة محلية قواعد لتنظيم السلوك لا علاقة لها بالزمر ذات المصالح الخاصة ، وهي قواعد معينة بوضوح كغيرها من القواعد ولكن تسالدها جزاءات لا تقل أهمية عن غيرها . فالخروج على حكم العادة الجمعية يجازى بنوع من الامتناع الاجتماعي أو نبذ الشخص المخطئ . ومع ذلك فإن هذا النوع من العقاب يعتبر في حالاته الشديدة واحداً من أقسى الجزاءات المعروفة . أما العادة المستحدثة فيسالدها نوع أخف من هذه الجزاءات ، وهو الشعور بعلو المركز الاجتماعي أو بالاحتقار نحو من لا يأخذ بهذه العادة . ومن الأماليب ذات النتيجة المؤكدة في حماية العادة المستحدثة وبوجه عام ما اصطاح عليه الناس من تصرف أن يتعرض الشخص المخالف

للسخرية ، من طريق الاستهزاء هذا ما عبر عنه مونييه بالجزء (١). ويرجع السبب في قوة هذا الجزء خوفنا من أن يقحم الغير منا ، وهو ظاهرة مغروسة في كل أعمالنا . وتحظى كذلك قواعد السلوك الجماعية بتأييد شديد كما نعرف ، من ناحية أحاديث الناس ولغوهم ، وهذه تعمل ، بوجه عام ، على أن نخفي انحرافاتنا عما اصطلاح عليه الناس ، أو نقلل منها .

ثالثا - القواعد الخلقية : لهذه القواعد موقف غامض فيما يتعلق بالجزء . ولا تفسير لذلك الا أن الاصطلاح « مقاييس السلوك » أو « القوانين الأخلاقية » يستخدم بطريقة مشوشة ليؤدى معنيين مختلفين . فأحيانا يعنى قواعد السلوك التى اصطلحت الزمرة أو الجماعة المحلية على أنها التصرفات الصحيحة والصائبة ، والتى تفرض على الأفراد المخالفين بدرجات متفاوتة من نفس الجزاءات ، التى هى الحارس الأمين على العادات الجمعية بوجه عام . ويفهم من هذا أن مقاييس السلوك ما هى الا العادات الجمعية التى اذا خولفت اعتبرت الجماعة مخالفتها خطأ بينا - وبايجاز هى الآداب العامة . ولكن قواعد السلوك بمعنى أدق هى مجموعة الأوامر والنواهى التى يتمسك بها « الضمير » الفردى على أنها السلوك المتميز بالصواب والخير . وهنا يبرز جزاء باطنى وشخصى يتمثل فى الشعور بالاثم نتيجة لخرق قواعد السلوك . وهذا الجزء يتوافق أحيانا ويتعارض فى أحيان أخرى مع الجزء الاجتماعى . فالطبيب الذى يعتمد اعدام طفل حديث الولادة لأنه مشوه الخلقة مثلا ، قد يكون بهذا العمل قد خرق قواعد السلوك الخلقية للجماعة ، وربما يكون أيضا قد خالف القانون ، ولكنه بينه وبين نفسه يعتبر نفسه على حق وأن تصرفه سليم من الناحية الخلقية كما يتصورها هو . وهناك أمثلة لا حصر لها عن التعارض بين قواعد السلوك الخلقية الخاصة بالجماعة وتلك الخاصة بالفرد .

---

R. Maunier, *Introduction à la Sociologie*, Chap. II. For another discussion (١) of ridicule as a social control device see P. Walters, Jr., "Non-violent Means of Social Control", in Rouseck's *Social Control*, pp. 320 ff.

ومع ذلك فمن الصحيح - كما يتبين أكثر مظاهر حياتنا اليومية - أن الآداب العامة ومقاييس السلوك شيء واحد تقريبا . وإذا لم يكن هذا صحيحا فإن مفهوم الآداب العامة للزمرة ربما تعذر أن يكون له أى تطبيق . إن ما فعله متفقا مع العرف - أو ما يأمر به العرف حتى إذا خالفناه - نشعر أنه الشيء الصحيح والصواب الذى يجب عمله . وإذا عشنا فى زمرة قواعد الحياة فيها أن يستيقظ المرء مبكرا ، أو أن يتزوج الرجل من امرأة واحدة ، فإن الاستيقاظ مبكرا أو الزواج من المرأة الواحدة يعتبر لهذا السبب فضيلة . ولكن الحالات المشكلة هى تلك التى يحس فيها الفرد ، كما يحس الطبيب الذى أشرنا إليه ، بالزام خلقى مضاد للقواعد الخلقية الخاصة بالمجموع . واذن فينبغى أن نميز بين قواعد السلوك الخلفية بمعناها الدقيق وبين قواعد السلوك الاجتماعية التى نحن بصدددها . إن قواعد السلوك الخلقية تختلف من شخص لآخر ، ولكن الآداب العامة خاصة بالزمرة أو الجماعة المحلية .

**رابعاً - القواعد أو التشريعات القانونية :** وأخيرا هناك قوانين ، وهى فى البلاد المتحضرة قوانين موحدة ، الجزاء الأخير فيها هو الإلزام أو بالقوة ، بدفع غرامة أو بالسجن أو بالاعدام ، دون قيد أو شرط . وهذه هى قوانين الدولة . وبمعنى محدود تستمسك الأسرة بقواعدها . فيما يتعلق بالمخطئين من صغارها ، وذلك بممارسة القوة ، ويشبه هذه القواعد تلك التى تشعها زمرة أخرى مثل المدرسة ، وعصبة الأحداث المنحرفين وأخوة الكلية . وفى بعض البلاد توجد كذلك آثار لحق الكنيسة فى سن قوانينها والنص على تنفيذها بواسطة محاكمها الخاصة . ولكن فى الدول الحديثة نشاهد أن امتياز ممارسة هذه الحقوق ، إذا وجد ، فانه يقوم بتسامح الدولة واذنها ، ولكن فى نطاق الشروط التى تستلزمها الدولة . إن الجزاء المتوقع على استخدام القوة هو فى آخر الأمر حق الدولة ، كما سنرى فى الفصل الثامن عشر عندما نعالج موضوع طبيعة الهيئات السياسية .

**٤ - التمييز بين قواعد السلوك وبين الجزاءات فى المجتمع**  
**والحديث :** كنا قد فصلنا بين أنواع قواعد السلوك الاجتماعية من جهة وبين

القواعد والجزاءات من جهة أخرى في المجتمع البدائي ، ولكننا لم نتناول هذا الموضوع بالتفصيل . وفي مثل هذا المجتمع لا توجد قواعد قانونية أو دينية أو اقتصادية منفصل بعضها عن بعض ، أو لكل منها نظمها . وجزاءاتها المستقلة ، تحميها هيئات منفصلة ومتميزة بوجه عام عن معايير زمرة القرابة وعاداتها الجمعية . كذلك نحن لم نتكلم بما فيه الكفاية في موضوع تمييزاتنا بين هذه القواعد ، كالتفريق بين القانون المدني والقانون الجنائي (١) .

وهذا العدد الوفير من قواعد السلوك الاجتماعية وأنواعها يتفق بوجه عام مع درجة تعقد المجتمع . وفي الحضارة الحديثة تستهدف تشريعات الدولة المحافظة على الهيكل العام للنظام الاجتماعي ، وهذه التشريعات ملحق بها لوائح ونظم أخرى كثيرة تتميز بطبيعتها اللينة أو المرنة ؛ فمثلا هناك أنواع متعددة من اللوائح الاقتصادية ، ابتداء من التعليمات المحكمة التي يضعها المصنع أو اتحاد العمال ، الى القواعد الأقل وضوحا الخاصة بأخلاقيات العمل والتجارة . وهناك قواعد سلوكية خاصة بآداب اللياقة المهنية وشرف المهنة ، وقواعد تتعلق بالحياة العائلية ، وأخرى بشرذمة الأصدقاء الخلاء الذين يجتمعون في المناسبات ، وغيرها

---

(١) هذا الرأي الذي سقناه يؤيدنا فيه الباحثون في المجتمعات البدائية . غير أن مالينوسكي عارضه جزئيا في كتابه *Crime and Custom in Savage Society* حيث أوضح لنا أن أهالي جزر تروبرياندي يميزون بين قواعد السلوك الأساسية المتصلة بالحياة والملكية ونظام القرابة من جهة وبين قواعد السلوك المتعلقة بالدين والحفلات الشعائرية - وآداب اللياقة من جهة أخرى . ولكننا من وجهة نظرنا الخاصة لا نلاحظ بين التروبريانديين ولا أي مجتمع بدائي آخر شيئا قريبا من التمييز بين القواعد والجزاءات على نحو ما نرى في المجتمعات المتحضرة . ولتقييم مكتشفات مالينوسكي بهذا الخصوص ، أنظر : R.M. MacIver, *Society: A Textbook of Sociology* (New York, 1937), pp. 332-333; and K.N. Llewellyn and E.A. Hoebel, *The Cheyenne Way* (Norman, Okla., 1941), pp. 60, 229, 339.

خاصة باخراوان اللعب . وأكثر من هذا توجد قواعد سلوكية خاصة بالخارجين على كل هذه القواعد أو بعضها ، كما نرى في نظم عصابات المجرمين والأشرار ، والقواعد التي يتواضع عليها نزلاء السجون ، أو المستويات السلوكية التي وضعتها لنفسها المستعمرات « البوهيمية » الأخلاق ( أو التي لا تهتمها آداب المجتمع ) المعروفة باسم الضفة اليسرى ، أو قرية جرينتش . ولكل هذه القواعد جزاءاتها الخاصة .

وعلى ذلك فلا يمكن أن تكون تقسيمات قواعد السلوك والجزاءات التي تضمنها البيان التوضيحي ، وافية بأي حال . إلا أن هذا البيان لا يوحى فقط تنوع قواعد السلوك في المجتمع ، ولكن يشير أيضا الى هذه العلاقات المتبادلة والمعقدة بين القاعدة التنظيمية والجزاء من جهة ، وبين هذه والعمليات الاطرادية الخاصة بالضبط الاجتماعي والتي تعمل في حياتنا اليومية . والآن فلنتناول هذه العمليات والوسائل المختلفة :

### العمليات المطردة والوسائل المؤدية إلى استمرار الآداب العامة

احترام قواعد السلوك : دور عملية غرس الفضائل المتفق عليها  
وتعودها : لا يستطيع أى نظام اجتماعى أن يستمر قائما اذا اعتمد كل الاعتماد على جزاءات القواعد السلوكية . واذا لم تكن هذه القواعد مفروسة في أعماق النفس عند أفراد المجتمع المقروض أنهم خاضعون لها ، فإنها سرعان ما يتبين أنها غير مجدية . وستحقق من ذلك تماما عندما نتناول ، في القسم التالي ، مسألة القهر والنظام الاجتماعى ، فمن وراء الجزاءات والاعتبارات السطحية التي قد تدعو الناس الى ضرورة التطابق في سلوكهم يوجد احترام قواعد السلوك والاعتناع بأهمية الدور الذي تلعبه في حياة الجماعة. وبينما نرى هذا الاحترام وهذا الاعتناع لا يعدوان أن يكونا في حقيقة الأمر بعض مظاهر اجتماعية الأفراد حيثما وجد مجتمع انساني ، فإنهما يبدوان في أشكال جد متنوعة تختلف من زمرة لأخرى أو من ظرف لآخر : ان احترام كل فرد وولاءه لهذه القواعد ليس شيئا فطريا وانما هو نتيجة تكييف اجتماعى . انه بعيد عن أن يكون كالخضوع الغريزي الذي يبدو من النحل أو النمل ، فيما يتعلق بأسلوب العمل في ممالكها الخاصة .

**البيان التوضيحي رقم ٤**  
**قواعد السلوك والجزاءات**

| الجزاءات الخاصة                                                                                                                                                                                                                                                    | قواعد السلوك                                                                             | الأساس الاجتماعي                                                                                               |
|--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|------------------------------------------------------------------------------------------|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| التنفيذ بالقوة من طريق :<br>( أ ) الغرامة أو السجن أو الإعدام<br>( ب ) التعويض عن الأضرار ،<br>أورد الحقوق المغتصبة<br>الحرمان الكنسي والكفارة وفقدان<br>الامتيازات والخوف من غضب الله<br>فقدان العضوية والحرمان من ممارسة<br>المهنة مع مساعدة التشريعات القانونية | ( أ ) القانون الجنائي<br>( ب ) القانون المدني<br><br>المراسيم الكنسية<br><br>لوائح العمل | ١- كما يبدو في<br>الجمعيات والهيئات<br>الكبيرة<br>الدولة<br><br>الكنيسة<br><br>الجمعيات المهنية                |
| العقاب الأبوي والحرمان من<br>الميراث وفقدان الامتيازات<br>فقدان العضوية وفقدان الامتيازات<br>الإعدام ومظاهر العنف الأخرى                                                                                                                                           | تقاليد الأسرة<br><br>اللوائح والنظم<br>التعليمات السرية                                  | ٢ - الزمر الأولية<br>أو الروابط التي<br>يواجه فيها الأعضاء<br>بعضهم بعضا<br>الأسرة<br><br>النادي<br>عصبة السوء |
| التبذ من المجتمع وفقدان المكانة<br>والسخرية                                                                                                                                                                                                                        | العادة الجمعية والعادة<br>المستحدثة والتصرف المتفق                                       | ٣ - الجماعة المحلية                                                                                            |
| الشعور بالإثم وإذلال النفس                                                                                                                                                                                                                                         | القواعد الخلقية ( التي<br>يضعها الفرد نفسه )                                             | ٤ - العلاقات الاجتماعية                                                                                        |

وليس هناك دليل أكثر اقناعا بهذه الواقعة من التنوع الملحوظ للقواعد التى وضعها المجتمع لتنظيم العلاقات الجنسية . فالباحث القوى على الاتصال الجنىسى ، الذى نعتقد تماما أنه واحد فى حقيقة أمره من حيث مظاهره الجثمانية بالنسبة للمجتمعات الانسانية المختلفة ، هو مع ذلك خاضع لقواعد سلوكية أشد تنوعا وأكثر تناقضا من أية قواعد أخرى . والأغرب من ذلك أن كل قاعدة من هذه القواعد المنوعة تبدو « طبيعية » فى نظر الزمر الأخرى بشعة . وكما رأينا فيما تقدم هناك تنوع واسع المدى من زمرة لأخرى فى الآداب العامة التى تنظم الزواج والخطوبة ، أو فى طريقة تشييع المتوفين الى مثواهم الأخير والتصرف بجثثهم ، أو التدابير المتعلقة بالملكية ، أو تعليم الأطفال ، والعديد من مظاهر النظم السائدة للحياة الاجتماعية . وانا لنعجب اذ نرى حالة ومؤرخا يونانيا قديما يلخص هذه المسألة بقوله : « ان للعادة الجمعية صلة بالناس تشبه صلة الملك بالمحكومين » (١) .

والذى يهمنا هنا هو أن نفسر السبب الذى من أجله يوجد مثل هذا التنوع فى مظاهر السلوك والاختلاف بأهميتها ، وبالتالى فى قواعد السلوك المتعلقة بالشعوب المختلفة . ونحن نتناول بصفة خاصة الآن الطريقة التى تتأيد بها الآداب العامة ، وتبعاً لذلك التركيب الاجتماعى ، رغم تنوع أشكالها من عصر لعصر ومن بلد الى آخر . هناك قوى فى كل مجتمع تعمل على تشكيل هذه القواعد ، ولنبحث الآن عمليتين اطراديتين كبيرتين هما عملية غرس الفضائل المتفق عليها وتعودها .

١ - غرس الأفكار والمعتقدات : والمقصود به تكرار ذكر أساليب التفكير وأنماط المعتقدات ، والاشارة اليها من وقت لآخر . وتعتبر هذه

---

(١) Herodotus, *Histories*, III, Chap. 38 وقد ذكر هيرودوت فيما ذكر أنه لو طلب من كل شعوب العالم أن تختار العادات التى تبدو أكثر ملاءمة لها ، لاختار كل منها ، بعد البحث والتدقيق ، عاداته هو .

العملية في جميع الظروف والأحوال أخطر عملية لنقل التأثيرات التنظيمية ويجدر بنا أن نتأمل بصفة خاصة إشارة الوالدين المستمرة لابنهما الى الصواب والخطأ من الأفعال منذ ولادته . ثم يشاركهما في هذه المهمة ، بعد أن يكبر الابن قليلا ، المعلمون والرفاق . وفي هذه المرحلة التكوينية تتوحد بمنتهى الدقة والتماسك كل من الجوانب الفسيولوجية والعقلية للعادات أو طرق التصرف وطرق التفكير . وقد يقاوم الطفل تعاليم الكبار الذين يحيطون به ، ولكنه يعجز عن مقاومة النظام الذي تنبعث منه هذه التعاليم . فهو لا يعرف نظاما آخر يقارنه به . ان نظامه يملأ كل أفق تفكيره ، وهو ينتقل اليه من طريق اللغة التي يتعلمها ويسمعها ، ومن طريق تراكيب هذه اللغة واستعمالاتها وتعبيراتها المليئة بالعواطف . واذن فهو لا يستطيع أن يتكلم أو يفكر الا في حدود ما يقبله مجتمعه أو يرفضه .

وفي مناقشتنا لموضوع « الثقافة والشخصية » في الفصل الثالث أشرنا الى الكيفية التي تتسرب بها الآداب العامة الى تركيب شخصية الفرد بحيث ينجم عن ذلك خلق ميول مزاجية وأخلاق مشتركة ، وكذلك معتقدات وقيم مشتركة عند أفراد المجتمع كلهم والى حد كبير يعتبر غرس الأفكار عند الطفل ، سواء في المجتمع البدائي أو المجتمع المتحضر من عمل أهم زمرة أولية بالنسبة للانسان وهي الأسرة . واذن فاذا قيل ان من وظائف الأسرة مساندة التركيب الاجتماعي كله وتأيينه ، فمن الصعب أن يظن أن في هذا القول مبالغة .

ومع ذلك فان احترام نظم الزمرة الكبيرة يلحق كذلك بوسائل أكثر تنظيما من وسائل الأسرة . فالكنيسة أدركت منذ زمن قديم الفائدة الكبيرة من تلقين الصغار تعاليمها ومعتقداتها . وقد ظلت لمدة بضعة قرون أهم وسيلة للتعليم الرسمي المقرر لهم . وتولت الدولة بالتدريج أداء هذه الوظيفة في العصور الحديثة ، ولكن لا يزال هناك صراع في كل مكان

( حتى في الولايات المتحدة الأمريكية )<sup>(١)</sup> بين الكنيسة والدولة حول أي منهما يكون له المكان الأول في تعليم الشباب . وذلك لأن التعليم — وعلى الأخص في أولى مراحل — يقوم الى حد كبير على غرس الفضائل .

وتتضح هذه الحقيقة تمام الانضاح كلما يصل الى مراكز السلطان في أي بلد المطالبون بنظام اجتماعي جديد ومختلف عن الأنظمة التي متعقبه . فهم يدركون بسرعة أن النظام الذي يقيمون دعائمه لا يمكن أن يستقر أو أن يستمر الا بتشكيل عقول الناس حتى ينطبع فيها احترام النظام الجديد والاقتناع به ، وذلك من طريق التعليم المتصل والدعاية . ونراهم في الغالب يسعون لآخاد جميع الآراء والأفكار المعاكسة لهم ، حتى تصبح جميع العقول ، كعقول صغار الأطفال ، غير مستعدة لتقبل التأثيرات المضادة . ويهتم الحكام بصفة خاصة في هذه الحالة بأن يضمنوا غرس الفضائل الجديدة غرسا تاما في نفوس الأطفال ، وطبع كتب جديدة للمدارس وتعديل مناهج الدراسة بها ثم اختيار مدرسين جدد لتحقيق الغايات الجديدة . وقد أنشئت في الشعوب الاشتراكية منظمات خاصة خارج المدرسة لاستثارة الخيال وغرس الأفكار الجديدة في الشبان مثل « الشباب الشيوعي » في روسيا و « شباب هتلر » في أواخر عهد ألمانيا النازية وال « باليلا » و « افانجاردستي » في أوائل عهد إيطاليا الفاشية<sup>(٢)</sup> : وقد ذهبت هذه « التشكيلات الجديدة » في كل من إيطاليا وألمانيا مع الريح ، بعد هزيمتهما العسكرية على التحقيق ، ولكن الرقابة

---

(١) كما يشاهد في النزاع القائم حاليا بشأن حق المدارس الدينية المنهية في مشاركة المدارس العامة الخدمات الحكومية المحلية مثل نقل التلاميذ مجانا من وإلى مدارسهم .

(٢) من بين الكتب الكثيرة التي وصفت عمليات غرس المبادئ في الدول الدكتاتورية : H.R. Marrare, *The New Education in Italy* ( New York, 1936); F. Brennecke, *The Nazi Primer* (New York, 1938); C.F. Kneller, *The Educational Philosophy of National Socialism* ( New Haven, 1941 ); G.A. Zimmer, *Education for Death* (New York), 1941).

التربوية المحكمة في الماضي القريب أدت الى النتائج التي كانت مرغوبا فيها بدليل ما يلاحظ اليوم من التشبث بالقيم الفاشية بين الشباب الذين نشئوا في ظل هذه النظم . وكذلك غرست روسيا في شبابها لمدة ثلاثين عاما تقريبا مبادئ الحزب الاشتراكي هناك ، حتى انتهى الأمر بأن تحظى جميع القيم الحكومية بالقبول العام وأن تنعم البلاد باستقرار نسبي في تركيبها الاجتماعي بأسره .

ولا تنحصر بالطبع محاولة السيطرة على التعليم الرسمي ووسائل تلقين المبادئ الاجتماعية على البلاد ذات النظم الدكتاتورية ، ففي مجتمعنا الأمريكي هيئات مثل الجمعيات الكبرى للعمل والتجارة وغرف التجارة المحلية وجمعيات المحاربين القدماء والجمعيات الوطنية ، حاولت السعى من وقت لآخر للتأثير في اختيار المراجع الجامعة الأساسية أو أعضاء هيئات التدريس أو نفس المواد التي تدرس في المعاهد المختلفة (١) .

وبالرغم من أن هذه الاجراءات قد تبدو غير سليمة الا أنها توضح ما يضفى بوجه عام من دلالة قوية على التعليم وما يمكن أن يصنعه من تغيير فيما يقتنع الناس به من آراء ، ومن توجيه ولائهم وتعديل قيمهم الأساسية .

٢ - التعود : وترتبط عملية التعود ارتباطا وثيقا بعملية غرس الأفكار . بل انها فوق ذلك تؤيدها ، فبينما نرى أن العملية الثانية تفرض الآراء والمعتقدات بطريقة الاتصال المباشر والتعليم ، نجد أن التعود عملية اطرادية كيف الناس بها بطريقة لا شعورية أساليب تفكيرهم بحيث تلائم الأحوال الاجتماعية التي يعيشون في جوها . ان الناس يلبسون لبوس يبتئهم دون أن يفطنوا لما يفعلون . فالى جانب الاعتقاد الذي وجهوا اليه من طريق التعليم ، نلاحظ أنهم يكونون أفكارا عن الصواب والخطأ تتفق

(١) نوقشت التقارير المطولة المكتوبة عن هذا النشاط في كثير من فصول الكتاب الآتي :

Twentieth Century American Education . (P. F. Valentine, ed., New York, 1946).

مع حاجاتهم في الحياة اليومية الى مقاييس خلقية كما تتفق أيضا مع حاجتهم الى لغة تعبر عن هذه المقاييس ، فالشيء المألوف غالبا ما يبدو لازما وحقا . وأما ما هو غير مألوف فانه يبدو في أكثر الأحيان غريبا وباطلا . وان الدوافع التي صاحبت الانسان منذ مولده لتلتزم في خطوط سير تحدد اتجاهاتها أسلوب العمل اليومي . ومتى تكونت العادات عملت بدورها اما على النمو والتكاثر واما على تأكيد الأفكار المقابلة لها : وعلى ذلك فرجل الأعمال الذي تعود أسلوب العمل في السوق قد ينتهي به الأمر الى أن يعتقد أن المنافسة الاقتصادية جزء من الطبيعة الانسانية العامة ، كما أن المجرم المحترف الذي يعيش في عالم الريبة والغش والاحتيال قد يرى هذه الصفات ذات أهمية كبيرة كبواعث على العمل الانساني . والطفل اذا كان مبالغا في رعايته ويعيش في أسرة ذات موارد كافية فهو معذور اذا ظن الناس جميعا ذوى أخلاق حميدة ويقاسون وسطه مظاهر العرف الشائعة فيه . وأهم سمات التعود أنه ظاهرة دائبة العمل ، وهى تعمل بطريقة رفيقة من الصعب توضيحها ، وتستمر كذلك حتى ينطبع المعتقد أو الرأى في التركيب العقلى أو العاطفى للانسان .

وبهذه الكيفية تعين عملية التعود عملية غرس الأفكار والمعتقدات ، ويتكون عند الناس نتيجة لغرس الأفكار والتعود احساس بالتضامن وشعور بالارتباط بنظام اجتماعى معين وقواعد السلوك المنظمة له . وفى الحق ما لم تمد هاتان العمليتان الاطراديتان الناس بما يتصفون به من اخلاص وولاء ومعرفة يظنونها موثوقا بها ، لما أمكن أن تقوم على وجه الأرض تلك التجمعات الانسانية الكبرى فى صورة جماعات محلية أو طبقات اجتماعية ، أو حتى تلك الزمرة الأصغر وإن لم تكن الأقل أهمية ، وهى الأسرة . ويتقوى الارتباط بهذه الزمر بعوامل خاصة متعددة ومتصلة بالعمليات الاطرادية المتشابكة لغرس الأفكار والتعود . واذا كان هناك تركيب اجتماعى متقدم لا يمكن تصويره بدون ما يسنده من عمليات غرس الأفكار والتعود ، فان هاتين العمليتين الاطراديتين لا تستطيعان

بدورهما أداء وظيفتهما الا اذا ارتبطتا بنوع من السلطة أو الزعامة : وهنا يجدر بنا أن نفحص هاتين الظاهرتين من حيث صلتها المباشرة بموضوعنا الرئيسى ، وهو الآداب العامة والضبط الاجتماعى .

**الأساليب الشخصية للسلطة والزعامة :** نحن نميز هنا بين السلطة والزعامة الشخصية . وتقصد بالسلطة فى هذا المقام حق الحكومة المقرر فى ممارسة الضبط ، وما تنطوى عليه هذه العملية من مظاهر الاحترام والخضوع أو التوقير الموجه نحو أولئك الذين يمثلون الحكومة أو من انتقلت اليهم حقوقها . وسوف لا نتناول هنا سلطة زمرة من الزمر ، أو سلطة مبدأ أو مثل أعلى غير شخصى أو قواعد قانونية . وانما الذى يعيننا السلطة كما تضافى على شخص أو تلقى عنده ، بما له من صفة رسمية ، أو لأنه فى حدود ميدانه العلمى أو مجال تخصصه <sup>(١)</sup> . وتقصد بالزعامة القدرة على استمالة الغير وتوجيههم ، تلك القدرة التى منشؤها الصفات الشخصية التى لا علاقة لها بالحكم . وكثيرا ما يتحد هذان النوعان من الضبط بدرجات متفاوتة . ان السلطة من الطبيعى وجودها عند أولئك الذين يمثلون القوانين أو يحملونها ، مثل القسيس المحلى أو سكرتير المجلس البلدى فى المجتمع القروى ، أو قد توجد عند أصحاب الرتب أو المكانة الاجتماعية أو عند كل ذى حيثة مرجعها الوظيفة أو الثروة . وهذه السلطة تزداد قيمتها اذا سارت صفات الزعامة جنبا الى جنب مع امتيازات الوظيفة أو الحكم . وليس من الأمور النادرة أن يعمل زعيم ذو شخصية قوية على تعزيز نفوذه من طريق الحصول على وظيفة رسمية ، الا أن مصدرى النفوذ هما فى حقيقتهما متميز أحدهما عن الآخر ، فالشرطى يمثل

---

(١) وضع زيمل تصنيفا لأنواع السلطة الشخصية وسلطة الزمرة أو السلطة غير الشخصية ، أنظر :

N.J. Spykman, *Social Theory of Georg Simmel* (Chicago, 1925), pp. 97-108.

وهناك كتاب آخرون يقابلون بين سلطة الحاكم الشخصى والقانون غير الشخصى ونحن هنا نتناول أنواع السلطة الشخصية .

السلطة ، لا الزعامة ، وهكذا يفعل القاضى أو الملك ما دام نفوذه يتوقف على توقيير وحشية مبعثهما المركز الذى يشغله كل منهما . أما الزعيم ، من جهة أخرى ، فقد يكون ثائرا فى وجه النظام القائم .

١ - ما وراء السلطة المنبثقة من الحكم : السلطة أشكال متعددة وهى جزء لا يتجزأ من أى نظام اجتماعى . وهى من أبسط جوانبها وأقلها اجتماعية تبدو فى صورة مجرد قوة تفرض نفسها فرضا ، كسلطة السيد على العبد ، وسلطة الحاكم المستبد على رعيته ، أو سلطة قاضى الشرطة على المجرم . فهنا قد تتوقف السلطة على الجزاء الذى تتحكم فيه فحسب ولكن بالإضافة الى ذلك فإن من لواحق السلطة أن الشخص المحكوم يتخذ دائما موقف المتهمى لتلقى الأوامر ووضع الخاضع الذى يقبل أن يكون تابعا لصاحب السلطة . وهذه الأحوال تساعد جميعها فى خلق السلطة نفسها وتعمل على تسوين قيامها .

وتتعدد أسباب هذه التبعية الاختيارية ، فإن قبول السلطة قد يكون التقدمة التى تصدر عن الشخص احتراماً للسن أو الثروة : فالسلطة اذن وبالتأكيد عنوان الاحترام للنظام أو الوظيفة أو الطبقة الاجتماعية ، محمولاً الى أصحابها أو ممثليها . وقد تبدو السلطة كمحتويات مجردة أو غير شخصية لمركز الحاكم . وذلك بنفس الكيفية التى تشخص بها الجلالة فى أحد الملوك بالنسبة لنظام الملكية ، مع ما قد يكون لهذا الملك من صفات أخرى خاصة به . وقد تحيط التقاليد والديانات الشخص القائم على حفظها بهالة . وفى الحق إن كل نسق من نسق السلطة سواء أكان متعلقاً برب العائلة أم بكهانة دينية أم بنظام سياسى ، فانه لابد أن تمتد جذوره الى خرافة السلطة نفسها ، وهى جزء من التراث الاجتماعى عند جميع الشعوب <sup>(١)</sup> : ومما يعزز السلطة كذلك تلك البواعث المتعلقة بالمصالح الشخصية ، فالخضوع ظاهرة تدعو اليها فى أكثر الأحيان مصلحة

On "the myth of authority" see R.M. MacIver, *The Web of* (١)  
*Government* (New York, 1947), Chap. III.

شخصية تستبق الحوادث في تخيل الفوائد المرتقبة من الخضوع . أنظر مثلا الزعيم السياسى القابض على الحكم ، أو الشخص القائم برياسة حزبه السياسى ، فان فى وسع كل منهما أن يجزل المنح لأصدقائه وأتباعه .

والى حد كبير يقوم تقبل السلطة فى المجتمع الحديث على الاعتراف بأنها ضرورية اذا ما أريد لشئون الحياة اليومية أن تؤدى على وجه مرض . ويتألف عالمنا المعقد الذى نعيش فيه اليوم من تركيب ضخم يدير نواحى الاقتصاد والسياسة والخدمة الاجتماعية والتعليم ، ويستهدف أداء مهام مختلف بعضها عن بعض اختلافا كبيرا ، كما تتفاوت فيه مراكزه الادارية ومسئوليته . وفى هذا العام يؤدى كل من يتولى عملا رسميا وظيفة ما ، وفى الغالب تكون هذه الوظيفة جوهرية بالنسبة لمسائل الحياة اليومية : وكل هذه المراكز وما يصاحبها من وظائف وامتيازات تزيد فى تعقيد التركيبات البيروقراطية التى تتميز بها الهيئات الاقتصادية والسياسية والعسكرية الكبيرة فى العصر الحديث . وكل « ادارى » — سواء أكان مديرا عاما لمصلحة حكومية أم موظفا صغيرا ، أم مديرا لمصنع كبير أم رئيسا لأحد أقسامه ، أو كان قائدا بالجيش أم « جاوِشا » فيه — كل واحد من هؤلاء له مجموعة من الأفراد عليه أن يؤدى خدمات معينة لهم . ومن أجلهم وأجل خيرهم أضيفت عليه هذه السلطة التى تبدو جوهرية فى دولاب العمل اليومى . ومن أهم العلامات المميزة لزماننا ، الدقة فى توزيع السلطة بعناية وبخطة مرسومة ، على الأنظمة الاجتماعية ذات القواعد المقررة . وهذا من شأنه أن يكون ذا قوة فعالة فى صيانة السلطة ذاتها ، وفى نفس الوقت يؤيد تأييدا قويا الآداب العامة التى تساند مجموع النظم السائدة <sup>(١)</sup> .

(١) سنناقش بالتفصيل الجوانب الأخرى للبيروقراطية فى الفصل العاشر من هذا الكتاب . ويعد ما ساهم به ماكس فيبر فى دراسة هذا الموضوع جوهريا فى الكتابات السوسيولوجية . أنظر :

*From Max Weber: Essays in Sociology* (H.H. Gerth and C. Wright Mills, tr. and =

٢ - الزعامة الشخصية : تختلف الزعامة الشخصية عن سلطة الوظيفة من حيث انها تتوقف على الشجاعة والسعة والمهارة والقدرة على الخطابة وغيرها من الصفات الأخرى للزعيم . وقد يكون هذا مؤازرا للسلطة القائمة أو خصما لها ، عاملا على خلق نوع جديد من السلطة . كما أنه قد يكون مناصرا لسياسة محددة المعالم أو معضدا لمجموعة من المبادئ ، أو قد يكون انتهازيا مثل بعض رؤساء الأحزاب أو المطبلين لزعيم الأغلبية في بعض بلاد العالم حيث تسمى الأحزاب السياسية بأسماء الزعماء الذين تتبعهم ، دون أن ترمز أسماؤها الى المبادئ التي تسعى الى تحقيقها : وقد يكون الزعيم متبوعا تبعية عمياء ، أو قد يعتمد على سطوته لجمع شمل الأفراد تحت لواء قضية معينة . وربما كان شيئا أكثر قليلا من مندوب لفريق من بعض أصحاب المصالح أو من يتحدث باسمهم وإن كانت زعامته في هذه الحالة خليفة بأن تذروها الرياح .

وعندما يعمل الزعيم في نطاق النظام القائم فانه يضيف الى السلطة قوة جديدة ، انه بذلك يشرحها من جديد ويمدها بحيوية جديدة - مذكرا ايانا باندفاع « الدم الجديد » في الوظائف الحكومية والحماسة الرائعة التي اتت الموظفين في أوائل أيام تطبيق سياسة مستر روزفلت . وأما اذا أصاب الانهيار نظاما قائما فان تحلله ينسب دائما نسبة مباشرة الى زعيم استطاع أن ينظم قوى السخط وأن يعمل على توحيدها وتوجيهها الوجهة الخاصة الجديدة : ولا يسعنا والأمر كذلك أن ندهش كثيرا لما

---

ed., New York, 1946), Chap. VIII. See also R.K. Merton, "Bureaucratic = Structure and Personality.", *Social Forces*, XVIII (1940), 561-568; C.H. Page, "Bureaucracy's Other Face", *ibid.*, XXV (1946), 88-94; F.P. Selznick, "An Approach to a Theory of Bureaucracy", *American Sociological Review*, VIII (1943), 47-54.

ذهب اليه عالم الاجتماع الألماني زيمل من اعتبار العلاقة بين الزعماء وأتباعهم أهم العلاقات الاجتماعية قاطبة (١) :

وان الزعامة لتظهر بدرجة ما وفي صورة ما حيثما يتجمع عدد كبير من الناس . وكثير من رجال الحكم كما رأيناهم زعماء أو قادة في نفس الوقت ، وبذلك تنمو قوتهم وتضمحل قوة غيرهم ممن ليسوا في الحكم . ولكن « القادة الطبيعيين » — وهذا اصطلاح شائع لهم — موجودون في كل الزمر سواء منها المنظمة وغير المنظمة . فلكل عصابة من الأشرار مثلاً قائد أو أكثر ، كما أن لكل زمرة لعب أو شرذمة من الأصدقاء أو مجموعة من الجيران قائدها أو زعيمها كذلك . وكل مشرف يقظ على مدرسة أو سجن أو مصنع أو كتيبة عسكرية يعرف جيداً ، وهذا ما يحاول بعض السوسيولوجيين اثباته جاهدين ، أنه في كل مكان من هذه الهيئات تظهر « تركيبات تلقائية غير منظمة » لعلاقات اجتماعية تدفع الى الأمام أولئك القادة الطبيعيين مهما كانت مكاتتهم الرسمية ، وترد الى الوراء « العناصر المتخلفة عن التفوق » كما يتبين من سلوك أقرانهم ومواقفهم نحوهم . وفي أكثر الأحيان نجد هذه الاتجاهات غير المدبرة تؤدي وظيفة هامة هي خدمة الحاجات الحقيقية لهذه الهيئات . وبهذه الطريقة تجعلها أكثر مرونة وأكثر قابلية للتغير ، وربما ساعدت على أن يكون لها دوام لم تكن لتحصل عليه بغير هذه الكيفية . وعندما تكمل لدينا الأبحاث المتصلة بسوسيولوجية الزعامة فان دور الزعيم الطبيعي في الزمرة غير المنظمة سترداد أهميته بالنسبة لها (٢) .

Spykman, op. cit. On this subject see also F. Znaniecki, *Social Actions* (١) (New York, 1936), pp. 182 ff.

وفيما يتعلق بتحليل قيم لدور الزعيم في التغير الاجتماعي ، وهو موضوع سنتناوله في الكتاب الثالث : أنظر : F. Hook, *The Hero in History* (New York, 1941).

(٢) يعتبر دور التركيب التلقائي غير المنظم في الهيئات الصناعية من أحب موضوعات البحث عند الكتاب من أمثال :

C.I. Barnard, Elton Mays, F.J. Roethlisberger, and A.N. Whitehead. =

٣ - كلمة بشأن الزعامة الموهوبة : نحن مدينون للسوسيولوجي الألماني ماكس فيبر بما قدمه من تحليل دقيق لأحد أمثلة الزعامة الطبيعية في أعنف صورها وأهمها . وقد استخدم فيبر الكلمة اليونانية «كاريسما» ومعناها القوة الخاصة التي منحها الطبيعة لليلة المختارة ، للدلالة على أولئك الزعماء الذين يقوم تفوذهم على اعتقاد عام عند الناس بأن روحهم من روح الله ، وبأن ما يؤدونه من خدمات عامة إنما يتم بوحى من مدبر الكون جل شأنه <sup>(١)</sup> : وقد ميز بين قوة صاحب الحكم والسلطة الحكومية الكبرى التى لها ما يبررها والمتغلغلة فى دواوين الحكومة على نطاق واسع فى العصر الحديث . ثم الزعامة الكاريسمية التى تلعب دورا أهم فى الشؤون الانسانية كلما تعقبتها فى التاريخ . ان القادة الطبيعيين - فى أوقات المحن النفسية أو ثورات الطبيعة أو الأزمات الاقتصادية أو الخلقية أو الدينية أو السياسية - لم يكونوا رجال حكم ولا أصحاب مهن بالمعنى الحديث ، أى متخصصين يعملون لقاء أجر <sup>(٢)</sup> ، بل كانوا فى واقع الأمر ككثيرين من كبار الزعماء الدينيين ومثل يوليوس قيصر وكرومويل ، و نابليون ، رجالا قيضهم القدر لمجتمعاتهم ، مؤمنين بحقهم فى القيادة وقدرتهم عليها ، ومشاركين فى هذا الاعتقاد أتباعهم المخلصين ، و « المتقذين » و « الكشفيين » المتصلين بالله ، وبوجه عام أولئك الذين يعتبرون دعاة بمعنى الكلمة لمواطن الجماهير ، هذه العواطف التى

= وستفحص أبحاثهم فى الفصل العاشر \* أنظر مثلا :

• C.I. Barnard, *The Functions of the Executive* (Cambridge Mass., 1939); F.J. Roethlisberger, *Management and Morale* (Cambridge, Mass., 1941).

وإذا أراد القارئ الاطلاع على مناقشة موضوع الزعامة غير المنظمة أو التلقائية فى أحد أحياء الطبقة العاملة بالمدن فليُنظر :

• W.F. Whyte, *Street Corner Society* (Chicago, 1943)

وقد درست نفس الظاهرة فى هيئة عسكرية ، فى : Page, op. cit.

See From Max Weber: *Essays in Sociology* Chap. IX. (١)

Ibid., o. 243. (٢)

يساعد ما بينها من تشابه على التكتيل الاجتماعى الذى هو غاية ما يسمى اليه الزعيم .

وفى أيامنا هذه يدل وصول أمثال موسيلينى وهتلر الى مراكز الحكم على أن الأزمات والفرص التاريخية ما تزال تمهد الى أن يحتل مكان الصدارة فى المجتمعات زعماء من النوع الكاريسى . وربما كانت هذه الصفات الكاريسمية أقل وضوحا فى حالة ستالين الذى يرمز شخصه الى المذاهب الرسمية للشيوعية السوفييتية أكثر مما يدل على صفاته الخاصة : وفى بلادنا ( الولايات المتحدة الأمريكية ) أمثلة للقادة الكاريسمين — أنظر مثلا الى الوظيفة العامة التى كان يقوم بها طيب الذكر هيوى لونج (١) ، أو التى كانت تؤديها العلاقة بين فاذر ديفاين و « ملائكته » (٢) : وتوحى هذه الأمثلة بأن الزعيم « الطبيعى » ( سواء وصفناه أم لم نصفه بجريان الكاريسما فى عروقه ) يقوم بعمل مزدوج فيما يختص بالآداب العامة السارية فى مجتمعه . فقد يتولى الزعامة باسم حماية العادات والقيم التقليدية ويعمل بذلك على المحافظة على بعض نواحي التراث الاجتماعى

---

(١) هيوى لونج كان حاكما عاما وعضو مجلس شيوخ فى ولاية لويزيانا — والمعروف عنه أنه عمل على تماسك الولاية وجعل سكانها متحدين لا سبيل الى الفرقة بينهم .  
— المترجم

(٢) For a discussion of "Recent Types of Charismatic Leadership", see E. (٢) Manheim in Roucek's *Social Control*, Chap. XXXIX.

### — المؤلفان

وأما « فاذر ديفاين » فهو رمز لشخصية أنشأت فى الولايات المتحدة مذهبها دينيا خلاصته وجود اله مجسم فى صورة زنجى أمريكى معاصر . ولا يقتصر اعتناق هذا المذهب على الزنوج . ويظن أن الاسم الحقيقى لصاحب هذه الشخصية هو جورج بيكر . انظر :

D.W.Brogan, U.S.A., *An Outline of the Country, Its People and Institutions*, London, O.U.P., second edition, 1947, p. 62; and *Hutchinson's Twentieth Century Ency.*, p. 421.

وتقويتها . وهو من جهة أخرى كما هى الحال فيما يتعلق بلينين وهتلر ، قد يستخدم سلطات زعامته اما ليدمر الآداب العامة أو التركيب الخاص بالنظم السائدة فى عصره أو ليحدث بها تغييرات على نطاق واسع .

تماسك المجتمعات باساليب لا تعتمد على شخصية زعيم او قائد بل بالشعائر والحفلات العامة : تتناول بعد ذلك التأثيرات الأساسية غير الشخصية التى تربط الناس بالآداب العامة فنقول ان كل نظام اجتماعي مقرر وكل جماعة متفرعة من هذا النظام تدخل فى عوامل تماسكها الشعائر والحفلات العامة :

١ - الشعائر : نحن نقصد بالشعائر تصرفات أو اجراءات تنظمها قواعد مقررّة ، القصد منها ضبط تتابع بعض الأفعال أو الحركات الموجهة لتحقيق غاية معينة والتي ينبغى أن تتكرر كما هى وبلا أدنى تغيير فى شكلها كلما حلت المناسبة لاجرائها (١) .

وتتميز الشعائر عن مجرد العادات الفردية أو الروتينية من حيث انها مصحوبة دائما بحس خاص بالخيرية واللزوم . والذي يحيد عنها على أية صورة ، يؤخذ فى جميع الظروف على أنه ارتكب خطأ أو قام بعمل غير مرغوب فيه ، لا على أساس نفعي ، وانما لأن خروجه على المؤلف قد عطل نظاما جاريا ، وضائق الاستجابة العاطفية للغير أو تلك العلاقة الغامضة التى لا يمكن التقليل من أهميتها ، بين الشخص والمناسبة التى تقتضى اقامة الشعائر .

---

(١) لمتاز الشعائر بمظهرها السلوكي . فهي تقوم على حركات جماعية وكلامية مقصود بها تحقيق نتائج معينة أو التعبير عن مواقف اجتماعية خاصة . وبذا يدخل السلوك الدينى والسلوك السحرى فى الشعائر . وهناك الشعائر السلبية أو negative ritual وتقوم على الامتناع عن اتيان اعمال معينة أو التفوه بكلام معين ، مثل المحرمات taboos ونحن نختلف مع المؤلفين من حيث أن الشعائر ذات صفة جماعية دائما ولا يمكن أن تكون جماعية أحيانا وفردية أحيانا أخرى كما ذهب مما سيتضح بعد قليل .

- المترجم -

وقد تكون الشعائر شخصية خالصة ، أى فردية أو ذات صفة جماعية ؛ فهي مثلا قد تتصل بعملية ارتداء الملابس كل صباح أو ببعض مظاهر الروتين اليومي . ومع ذلك فإن هذه المظاهر الروتينية الفردية تصبح عادة قوية قوة الشعائر وذلك عندما تكون العملية المشار إليها ذات صفة عاطفية أو جبرية — مثل قولنا : « يجب أن أتناول القهوة عقب استيقاظي مباشرة » أو : « ان حشائش الحديقة يجب أن تشذب كل يوم جمعة » . ونحن نؤدى شعائر اجتماعية فى مناسبات يشترك المجموع فى معظمها — مثل الصلاة التى يشترك فيها الجمهور فى مناسبة دينية واصرار الجمع من الرفاق على أن يلعبوا لعبة معينة عندما يلتئم شملهم فى مناسبة خاصة . والاحداث الطقسية الخاصة بالتأهيل الرسمى لجمعيات الأخوة فى الكليات الجامعية بالولايات المتحدة الأمريكية ، والذى يسبقه فى العادة احتفال غير رسمى يسموه التهريج والمرح ، مثل ترديد النشيد القومى غناء فى مناسبات عامة مختلفة ، وما شابه ذلك . ويكون للشعائر تأثير قوى اذا كانت سلامة اجراءاتها مرعية بالآداب العامة للجماعة . وتقرن أغلب المجتمعات الاحداث المنتظمة الوقوع فى حياة الفرد ، كالميلاد والزواج والموت ، بشعائر منتظمة الوقوع كذلك . وبنفس الطريقة ابتدعت الشعوب البدائية والقديمة الشعائر لتحتفل خلال السنة بمناسبات هامة ذات دلالة اقتصادية كزرع المحصولات والحصاد والصيد الناجح<sup>(١)</sup> . ويأخذ أداء هذه المناسبات فى العادة مظهرا دينيا ، كما نلاحظ فيما يماثلها فى العصر الحديث مثل مناسبتى عيد ميلاد المسيح وعيد الفصح . وكل هنا اذ يذكر ما كان يفعل فى صباه عندما كان يجد فى البحث عن جوريه صباح يوم عيد الميلاد يعرف جيدا أن المعنى الشعائرى الخاص لا يزال قائما فى حياتنا الشخصية . وتضفى طقوس الشعائر على المناسبات أهمية

(١) لدراسة الطقوس والشعائر المتصلة بالزراعة عند سكان جرر  
تروبرياند فى ميلانيزيا ، انظر :

B. Malinowski, *Coral Gardens and Their Magic* (2 vols., New York, 1935).

ونوعا من المظهر الرسمى وبذلك تخليها من أن تصبح بسبب تكرارها عادية وثقيلة على النفس : وهذا ما يجعل لها مكانا خاصا فى التقاليد الدينية أو فى الحفلات العامة والخاصة التى يتطلب الاشتراك فيها مراعاة الاحترام والوقار .

وتتمثل الشعائر فى أفضل صورها فى حفلات التعمد داخل الكنيسة ، وفى الاجراءات القضائية وأعمال المحاكم . ومن أجل هذه الوظيفة الهامة التى تؤدىها الشعائر تستخدم الأخيرة للمحافظة على مستوى الوقار فى داخل المنازل التى يشغلها سكان عديدون وفى جمعيات الأخوة بالكلية وفى الأندية حيثما ينتج عن عدم استخدامها أن تذهب الألفة العادية بين الأعضاء بالأهمية الخاصة التى يعلقونها على مناسبات معينة <sup>(١)</sup> . وإن انتظام حدوث الشعائر انتظاما لا يعوقه عائق يخلق نوعا من الاستجابات العاطفية عند الأفراد . ولما كان كل عمل أو حركة من الحركات التى تتألف منها الشعائر محددة ومعروفة قبل وقوعها فإن كلا منها يذكر بالموقف العاطفى تجاه جملة الاجراءات المتعلقة بنوع معين من الشعائر . ويشعر الغريب عن الزمرة أو المجتمع الذى يؤدى شعائر معينة أنه لا يشارك أفرادها اهتمامهم بها أو معتقداتهم حولها . ومن أجل ذلك تبدو فى نظره مدعاة للسخرية ، على الأخص لأنه لا يجد من وجهة نظره الخاصة مسوغا لما تتطلبها من مظهر رسمى أو افعال نفسى .

٢ - الاحتفال العام : ان الشعائر كما نفهم أهم ما يميز الاحتفال الرسمى العام الذى يحضره جماعة من الناس . وكثيرا ما تعتبر الشعائر والاحتفال المصاحب لها شيئا واحدا . ومع ذلك فالاحتفال شئ أعم وأشمل تندرج تحته الشعائر . وهو عبارة عن اجراءات مقررة ذات طبيعة

(١) من خير ما يوضح وظيفة الشعائر ما ورد من أمثلة فى :

N.P. Gist, *Secret Societies: A Cultural Study of Fraternalism in the United States* (Columbia, Mo., 1940), Chap. VII.

تتصف بالرسمية والوقار ، الغرض منها تعيين أهمية الحادث أو المناسبة . والاحتفال لا يتضمن بالضرورة الدقة في انتظام وقوعه أو التكرار الثابت الذى نراه فى الشعائر ، وإن كانت هذه أهم عناصر الاحتفالات العامة . فنحن قد نحتفل مرة واحدة لا تتكرر ببطل استطاع أن يعبر بحر المانش أو أن يطير عبر المحيط . ولكن الاحتفال نفسه قد يشتمل على إجراءات ذات صفة شعائرية مثل تحيته بالقاء الورق عليه من نوافذ البيوت فى مانهاتان <sup>(١)</sup> مثلاً . وينظر الى الاحتفال العام منذ القدم على اعتبار كونه وسيلة فعالة لتأييد النظام الاجتماعى . ان الاحتفال هو « الرابطة التى تجمع شتات الجماهير ، وإذا انحلت هذه الرابطة تفرقت الجماهير وصارت أموراً مضطربة » <sup>(٢)</sup> ، وهو رمز لارتقاء النظام الاجتماعى وثباته ، ومن طريقه تنشأ المسافات الاجتماعية بين الأفراد وتتحدد مراتبهم حتى لا تسبب الألفة التناول بينهم والتقصير فى الاحترام ، بينما نجد الشعائر كأحد مقومات الاحتفال تؤثر برفق وبكيفية لا تكاد أن تكون مشعوراً بها فى عواطفهم بحيث تطبع فى النفوس احترام المبادئ التى تقوم وراء الشعائر .

ان الاحتفال هو اللباس الرسمى الذى تتشح به المناسبات الاجتماعية . ولهذا نلاحظ أن تأثيره على السذج والبسطاء أشد منه على المفكرين ذوى العقلية النقدية . وعلى ذلك فهو عرضة لأن يفقد سلطانه فى هذا الزمن الذى أصبح النقد فيه أمراً طبعياً . والناقد الذى يستطيع أن يميز بين المظهر الاحتفالى والحقيقة الكامنة منه ليتفق مع كارليل فى أن « المجتمع يقوم على الملابس أو المظهر » ويؤيده اذ يقول :

(١) جزيرة بالقرب من نيويورك وتعتبر أحد أقسام المدينة الادارية .

— المترجم

Sacred Books of the East, *Li Ki*, Book VIII, I, quoted by Ross, op. cit., (٢)

Chap. XXI.

« عندما أطلع في الأوقات التي أشعر فيها بالضيق والحزن على أنباء الاحتفالات الرسمية المتميزة بالروعة والفخامة ، مثل حفلات التتويج في فرنكفورت ، أو حفلات الاستقبال بالقصر الملكي ، أو المقابلات الرسمية عقب الاستيلاء <sup>(١)</sup> أو النوم : وأقرأ كيف كان الحجاب والقواصون والتوابيع واقفين للخدمة ، وكيف أن هذا الدوق كان يمثله ذاك الأرشيديوق ، أو أن الكولونيل كان ينوب عنه الجنرال ب ، وأن عددا لا يحصى من الأساقفة وأمراء البحر وغيرهم من أصحاب المراكز المختلفة كانوا يتقدمون بزهو نحو الحاضرة المقدسة ، في ذلك الوقت كنت أجهد نفسي وأنا في عزلي البعيدة عن هذه الأجواء لتكوين صورة واضحة لهذا الوقار الرسمي المصطنع — وتلك الملابس والأزياء التي ترفرف في الردهات الفسيحة . ولم ينسني ذلك كله أن لهؤلاء الدوقات والنبلاء والأساقفة والجنرالات بل والحاضرة المقدسة نفسها ، أخوة من أمهاتهم أتخيلهم واقفين وقد أذهلهم الموقف والواحد منهم في أشد الحاجة لقميص يستر به بدنه ، فلم أكن أدري أأضحك لهذا أم أبكي ؟ » <sup>(٢)</sup> .

وربما استطعنا إذا أنعمنا النظر أن نميز بين الاحتفال الرسمي الأجوف الذي يستهدف إخفاء الاحتياي والغش بين طبقاته ، وبين الاحتفال الذي يمدنا بمظهر رمزي جوهري وبشكل خارجي معبر عن تقييماتنا الاجتماعية . ومما لا شك فيه أن جميع النظم المستقرة تحتفل رسميا بأحداثها الهامة ، سواء أكان الاحتفال للترحيب بعودة الربيع كما كانت الحال عند الشعوب القديمة التي ارتبطت بالأراضي الزراعية ، أم بالرجوع إلى السلم بعد الحرب التي كانت قد نشبت بين الأمريكين . وندخل في هذه المناسبات

(١) يشير كارليل إلى مقابلات ملكات فرنسا لبعض الرجال الرسميين عقب الاستيلاء ، وكانت عادة بعد الظهر ، أنظر :

Rev. E. Cobham Brewer, *Dictionary of Phrase and Fables*, new edition, London, no date, pp. 662-663.

Thomas Carlyle, *Sartor Resartus*, Chaps. VIII and IX. (٢)

أيضا مظاهر الأبهة الرائعة التي كان يحرص عليها حكام التسار في روميا القديمة والاستعراضات الشعائرية وما يصاحبها من احتفالات وأعياد في ظل النظام السوفيتي الحاضر .

٣ - بعض العوامل المؤيدة للشعائر والاحتفالات العامة : من المسائل الدقيقة والعسيرة الحل في علم النفس الاجتماعي ذلك المبحث الخاص بالدور الهام الذي تلعبه الشعائر والاحتفالات في الشئون الانسانية . وفيما يلي بعض ما نقترحه من عوامل نراها مؤيدة لهذه الظواهر :

أولا - العامل غير الشخصي : ففي أول الأمر نلاحظ أن الاجراءات الشكلية تضى على المناسبة أو الحادث وقارا معيننا ومظهرا رسميا غير شخصي لا يضيعه أو يطفى عليه تدخل فردية المشتركين في اقامة الشعائر أو الاحتفال . وهذه المقابلة بين الجانب الشعائري والجانب الفردي تشاهد في أغلب الأحيان في الاحتفالات الدينية عندما تتوقف الشعائر غير الشخصية ويبدأ صوت الواعظ في الانطلاق ، ويتعلم المجندون في الجيش والبحرية أن يحيا الزى والرتبة ، لا الشخص . وهذا مثال واضح نرى فيه الشعائر وقد تحولت الى شيء غير شخصي بقدر الامكان . ولما كانت الشعائر والاحتفالات متغلغلة في النظام الاجتماعي كله ، فإن حيادها بالنسبة لأشخاص الأفراد يخلق منها قوة فعالة لكل من اجراءاتها والنظام الاجتماعي على السواء .

ثانيا - اعتماد الانسان على الاساطير واعتبار ذلك عاملا : ان كل نظام اجتماعي يماسك بنسق معين من الاساطير . وهذا اصطلاح نستخدمه للدلالة على معتقدات الانسان ومعارفه الخاصة التي لها عنده قيم معينة والتي رتب حياته على أن يعيش بها أو من أجلها <sup>(١)</sup> . ولا

(١) MacIver, *The Web of Government*, p. 4 . وانظر الفصل الأول من هذا المجلد حيث ناقشنا موضوع الاساطير .

يستطيع مجتمع ما أن يحتفظ بدرجة من الاستقرار الا اذا كانت الأساطير التي يركز عليها — مثل أساطير القانون والقوة والحرية وما شابهها — باقية كقيم أساسية بالنسبة لكل عضو في هذا المجتمع . وهنا تلعب الشعائر دورا هاما . وذلك لأن الشعائر المتكررة بصفة مستمرة أو تداعى الخواطر الذى يتم بلا مجهود ، من شأنه أن يوجد حسا بأن ما يتكرر حق . ولازم . وهذا الحس يجعلنا نزداد ايمانا بالأساطير وضرورتها . وان انتظام العمليات التى تقوم عليها الشعائر توحى الى الفرد بأن يتلاءم عاطفيا مع الأفكار المقابلة لها . كما أن الشعائر والاحتفالات المخصصة لها تؤثر فى الأفراد بدون تفسير ومن غير أن يتدخل العقل فى الأمر . ووظيفتها أن تنقل أحاسيس تتصل بحقائق كبيرة واقعة ، وبالعقائد ، وبوحدة الزمرة أو المجتمع ، وبالمقررات الاجتماعية وبالأساطير ، وبعبارة موجزة بكل ما يستحيل على الأفراد أن يدركوه من حيث هم أفراد . وما الكنيسة ، والدولة ، والقانون ، والله ، الا مجردات بعيدة عن الفرد . أما الطقوس الكنسية ، وتوزيع الملك ، والاحتفال برئيس الدولة ، ولوائح المحاكم ، والجنازات ، ومواكب الزفاف ، فيبدو أنها تقرب من الناس تلك المجردات الخفية ان لم تزد على ذلك تضمنها لجوهرها .

**ثالثا - عامل المنفعة :** نحن نرى الى جانب النواحي العاطفية والجبرية التى تتميز بها الشعائر والاحتفالات ، انها تقدم حلولا لكثير من مشاكل الانسان اليومية ، وذلك من طريق قواعد الشكلىة المقررة . أنظر مثلا المشكلة التى تعترض والدا اذا تزوجت ابنته ، ما هى الواجبات التى عليه أن يؤديها بهذه المناسبة ؟ أو كيف تتصرف حيال مواطن أدى لبلاده أعمالا ممتازة ؟ أو كيف يكون مسلکنا فى جنازة ( مهما كان شعورنا الداخلى نحو المتوفى أو نحو الجنازات بالذات ) ؟ الواقع أن الاحتفالات والشعائر كفيلة بأن تقدم لنا الجواب على هذه الأسئلة وعلى غيرها مما لا يحصى . ولا يعد من المناسبات والأحداث . وفى الحق أننا مهما أغضينا عن هذه العمليات الاطرادية التى تعمل على استمرار الآداب العامة ، أو مهما

تقدناها أو أظهرنا التعنت نحوها ، فانا لا نستطيع أن نستغنى عنها .  
وذلك لأن انتظامها الملح لا يقوم على المنفعة فحسب وانما على طبيعة  
الحياة الاجتماعية نفسها .

**الرموز والوحدة الاجتماعية :** اذا لم يكن عند الكائن الاجتماعى —  
وتقصد الانسان — المقدرة على خلق الرموز واستخدامها فان عملية غرس  
الأفكار والمعتقدات وعملية التعود يتعذر حدوثهما ، كما أن الزعامة  
والسلطة يصيبهما الارتباك ، وينتهى الأمر بالشعائر والاحتفالات الى أن  
تفقد معناها . والرموز تمثيل لمعنى من المعانى أو قيمة من القيم ، وهو  
علامة خارجية أو ايماءة تنقل بالتداعى فكرة أو تستثير شعورا . وأى  
اتصال يحدث بين أشخاص ، سواء أكان من طريق اللغة أم غيرها ،  
يستخدم الرموز ، ومن النادر أن يستطيع المجتمع أن يعيش بدونها .  
ويمكننا فى هذا المقام أن نتعرض بإيجاز لبعض جوانب العلاقة بين الرموز  
والمجتمع ، وان كانت هذه المشكلة متضمنة فى كل مناقشة تدور حول  
الحقيقة الاجتماعية الواقعة (١) .

ويتعين على وحدة الزمرة أو المجتمع ، ككل قيمها الثقافية ، أن تجد  
تعبيرا رمزيا تشير به الى حقيقتها . وفى كثير من المجتمعات البدائية يعتبر  
الرمز وما يرمز اليه شيئا واحدا ( وهذا نقص ظاهر فى التسمية نراعى كل  
المجتمعات الانسانية ) وهما يتحدان فى الأغلب اتحادا يبلغ درجة من الشدة .  
تجعل الرمز يصبح طوطما وينظر اليه على اعتبار أنه تجسيم موضوعى له .

---

(١) لقد كتب كثيرون حول الرموز وعلم المعانى والمجتمع . والطالب  
المهتم بهذه الموضوعات يمكنه أن يرجع الى قائمة الكتب المذكورة فى :  
Roucek's *Social Control*, Chap. XIV وهذا الفصل وعنوانه « اللغة وعلم المعانى » .  
بقلم أ . ت . آرنسون يشير الى المعنى السوسيولوجى للرموز . واذا أراد  
القارئ مناقشة مختصرة للموضوع فليطلع على :

H. Sapir, "Symbolism" in the *Encyclopaedia of the Social Sciences* (New York  
1935), XIV, 492-495.

قيمة في ذاته لا مجرد تمثيل لروح الجماعة أو تماسكها . والطوطم — سواء أكان نسرا أم ثورا أم أفعى — فإن معناه الزمرة ، وهو على هذا النحو يبين بطريقة محسوسة حقيقته غير المنظورة . ان الرمز ملتقى للاهتمام الخاص من جانب أفراد عديدين ، ووسيلة للاتصال ، وأساس مشترك للتفاهم . فالعلم رمز الأمة أجمعين . وان له لدولولا يختلف عند المتعلم عنه عند الجاهل ، وعند المحب للسلام عنه عند المحب للحرب ، وعند المحافظ عنه عند الراديكالي . ولكنه على أية حال عامل مشترك لجميع الصفوف عند كل من يتقبلونه كرمز . وهذه إحدى خواص الرمز الثقافي ، فهو في الوقت الذي يتقبل فيه عدة تفسيرات مختلفة يحظى بالولاء من الكثيرين .

وهذه الواقعة تساعد في تفسير الدور الذي تلعبه الرمزية في الديانات الأكثر غموضا . فإن شعائر الديانات المختلفة مشبعة بالرمزية ، ولما كانت معاني الرموز تتحدد بالخواطر المتجددة التي تتداعى حولها فقد ترتب على ذلك أن الرموز أصبحت تفسر بتوسع وبحرية لكى تلائم مطالب العصر المتغيرة . وربما كان هذا أحد الأسباب التي من أجلها لم يصب المذهب الكاثوليكي بالانقسام الى فرق دينية ، كما حدث بالنسبة للعقائد البروتستنتية ، وقد ساعد الكاثوليكية في ذلك ما تتميز به من مظاهر شعائرية قوية . ولعلنا نجد بنفس الكيفية تفسيرا لموقف المؤمن الكاثوليكي من مسائل العلم الحديث ، فهو بدلا من أن يعلن « عدم إيمانه ازاء هذه المسائل ، نراه يصير مجددا » (١) . وفي الواقع يعتبر تاريخ الكنيسة الكاثوليكية من الأمثلة الممتازة على مدى ما تستطيع أن تبلغه عقيدة غنية بالشعائر والرموز ، في سبيل المحافظة على وحدتها ، اذ تواجه أحوالا اجتماعية آخذة في التغير تغيرا كليا . ومن الملاحظ أن الرموز والشعائر

---

Cf. L.S. Cresman, "Ritual the Conserver", *American Journal of* (١)  
*Sociology*, XXXV (1930), 564-572.

الموضوعية للكاثوليكية هي هي في المناطق الريفية والحضرية في كل من أوروبا وأمريكا اللاتينية والقلبين . بيد أن تفسير هذه الشعائر والرموز والطريقة التي تؤدي بها خدماتها للتقاليد والقيم المحلية تختلف من بلد لآخر اختلافا كبيرا (١) .

ومن المسلم به أن الشعائر والرموز معا تمد قواعد السلوك المقررة بعناصر القوة . وكثير من الرموز في الحقيقة « رموز لتقوية الروح المعنوية توحى الى الأفراد وتنقل اليهم الحس بوحدة الزمرة أو روح الغيرة على المجموع » (٢) . وهذه هي الوظيفة الرئيسية للرموز كما تستخدم في طقوس حفلات التأهيل (٣) ، وفي قواعد السلوك داخل المساكن المشتركة ، وفي جمعيات الأخوة في الكليات وفي اتحادات العمال . وما الشارات التي تعلق بالملابس وما يتحلى به الشخص من علامات كالديبايس أو المفاتيح أو تذكارات المودة أو أعلام المراكب الصغيرة ، كذلك ما الايماءات

---

See, for example, the discussion of Catholicism in Mexico in F.S.C. (١)

Northrop, *The Meeting of East and West* (New York, 1946), Chap. II, and his more general discussion in Chap. VII.

(٢) هذه النقطة موضحة توضيحا كافيا في : Grace Coyle, *The Social*

*Process in Organized Groups* (New York, 1930), Chap. VII.

(٣) ربما كان هذا أنسب مكان لتوضيح المقصود بحفلات التأهيل بشيء من الإيجاز . كلنا نعرف اختبارات أو امتحانات التأهيل لوظائف أو مهن معينة في المجتمعات المتحضرة . هذا التأهيل في المجتمعات البدائية أكثر اتصالا بالصلاحيات للرجولة وما تتطلبه من شجاعة في الحرب والنضال ومن كياسة واستعداد في شئون البيت والزواج . ولا يكفي عند أكثر البدائيين أن ينمو الشاب بيولوجيا لكي يصبح رجلا بل لابد له من اجتياز امتحان عسير في حفلة تأهيل للرجولة بعده يصبح رجلا معترفا به كرجل له أن يمارس حقوق الرجال ووظائفهم وإذا لم يجتز هذا الامتحان بنجاح تخلف عنهم ، انظر : A.M. Hocart, "Initiation and Manhood", in *Man*, Vol. XXXV, February, 1935, pp. 20-21.

- المترجم -

والعبارات الاصطلاحية وغيرها من العلامات الا وسائل تنقل الى الاخوان أو « الرفاق » الحس بأنهم أعضاء في هيئة أو رابطة تستمد قوتها من كونها غامضة (١) . ومن أوجب واجبات الزعيم أو القائد أن يحسن استخدام هذه الرموز لكي تؤدي غرضها ، وأن يفسرها ثم يعيد تفسيرها وبذلك يجمع شمل الأفراد في ترابط وولاء قوين لخدمة الأغراض الكبرى للجماعة . وأية جماعة منظمة ، سواء أكانت عصابة أحداث أم حزبا سياسيا أم ناديا ، أم اتحادا ، أم جمعية لخريجي إحدى المدارس أو الكليات ، أم حلقة لمتأمرين ثوريين ، لا يمكن أن تصيب حظا من النجاح أو أن تحتفظ بوحدةها وقوتها الا اذا كان لها بطريقة منظمة أو غير منظمة رموزها وشعائرها الخاصة ، ثم تعمل على أن تغرس في عقول أعضائها معاني هذه الرموز وما تنطوي عليه من قوة . هذا وتلعب الرموز دورا حيويا على نطاق أوسع خلال التركيب الاجتماعي الأعم لصيانة الآداب العامة للمجتمع وحفظ التركيب الاجتماعي نفسه ، على أن هذا الدور كثيرا ما يغفل أمره بغير حق (٢) .

## القهر والنظام الاجتماعي

**معنى القهر وأشكاله :** تناولنا في القسم السابق بعض الظروف التي تؤيد النظام الاجتماعي وتقويه وتعمل في نفس الوقت على جعل أفراد المجتمع متجاوبين معه ومخلصين له . وقد لوحظ أن هذه الظروف هي أقوى العوامل الباعثة على الاخلاص للنظام الاجتماعي والثقة في حقيقة أهدافه ، وبدونها لا تحتل قواعد السلوك البقاء مهما كان نوع الجزاءات

See Gist, op. Cit., Chap. VII for excellent illustrations in secret societies, (١)

(٢) نوقش دور الرموز في الضبط الاجتماعي من بعض جوانبه في كتابات H.D. Lasswell and Thurman Arnold أنظر مثلا :

Lasswell's *Politics: Who Gets What, When, How* (New York, 1936, especially Chap. II; and Arnold's *The Symbols of Government* (New Haven, 1935) and *The Folklore of Capitalism* (New Haven, 1937).

التي تساندها . وقد يصح أن تتساءل الآن : ما الدور الذي تقوم به  
الجزئات مساهمة منها في الضبط الاجتماعى ؟

١ - تعريف القهر : الى جانب الاخلاص للنظام الاجتماعى والثقة  
فى حقيقة أهدافه وهى عوامل نفسية تحفظ هذا النظام ، توجد الجزئات  
للخارجين عليه . فالمجرم العائد لا يرى الا قوة مستخدمة ضده مباشرة .  
وتوجد فى كل المجتمعات درجات وأشكال كثيرة للقهر . ويشعر الفرد  
بالقهر اما بطريق مباشر كأن يواجه القوة الكامنة وراء قوانين بلاده . واما  
بطريق غير مباشر كأن يذكر بعض الذكرى عقابا بالضرب تلقاه من والده  
فى صباه ، وأن يفطن الى أنه من الممكن أن يوقع عليه مثل هذا العقاب اذا  
اقتضى الأمر ذلك . والناس يوصفون بأنهم خاضعون للقهر <sup>(١)</sup> حينما  
يعملون أو يمتنعون عن العمل بخلاف الطريقة التى اختاروها لأنفسهم أو  
التي يصح أن يختاروها فى ظرف معين ، لا لشيء الا لمجرد أن غيرهم قد  
تعهد أن يحد من مجال اختيارهم ، اما بطريقة مباشرة ، بفرض الضغط  
على هذا الاختيار ، واما بطريقة غير مباشرة ، بالتخويف من سوء العاقبة .

٢ - أشكال القهر : يدل تعريفنا الذى قدمناه قوا على أن هناك  
أشكالا كثيرة لكل من القهر والاقتدار . ان كل من يضع شروطا من أى  
نوع ، ثم يوقع جزاء على من لا يعمل وفقها ، يكون ممارسا للقهر . وهذه  
حال صاحب العمل الذى من سلطته توقيع الفصل من العمل ، أو مجموعة  
العمال الذين يملكون القيام بالاضراب ، أو الكنيسة التى تستطيع أن  
توقع عقوبة الحرمان الكنسى ، أو النادى الذى يمارس حق حرمان  
أعضائه من امتيازاتهم ، أو أحد طرفى الزوجية ( الرجل أو المرأة ) الذى  
يمكنه أن يحيل البيت فى وجه الطرف الآخر الى قطعة من الجحيم . وقد  
أدى كون المجتمع لا يمكن تصوره دون ممارسة أشكال مختلفة من

---

See, for example, H.M. Kallen, "Coercion", *Encyclopaedia of the Social Sciences*, III, 617-619.

«القهر» ، الى أن يتأثر بهذه الفكرة بعض الكتاب لدرجة أنهم فهموا «الاقتدار» باعتبار أنه المفتاح الرئيسى فى جميع التحليلات «السيولوجية»<sup>(١)</sup> . على أننا سنوضح فى المناقشة التالية صعوبة الأخذ بهذا الرأى .

ان أقصى ما يبلغه القهر هو استخدام القوة البدنية لضبط أداء عمل من الأعمال أو منع حدوثه . وهذا هو الارغام فى أدق أشكاله ، أو ما يسمى غالبا «الاقتدار السافر» ويؤخذ فى المجتمعات الحديثة كحق للدولة لا ينازعها فيه منازع . حتى ولو اغتصب هذا الحق من وقت لآخر . وسنفحص هنا هذا النوع من القهر محاولين أن نظهر طبيعة تأثيره الاجتماعى ومدى هذا التأثير ووظيفته . وستصدق هذه المناقشة أيضا بالنسبة لأشكال القهر الأخرى ودرجة الحدة التى تؤثر بها هذه الأشكال فى ارادة من يخضعون لها وسلوكهم ، مهما حاول الاقتدار السافر أن يخفى نفسه .

**وظيفة القوة المستخدمة للأغراض اجتماعية وقصورها :** هناك مظاهر متنوعة يبلغ تنوعها حد الغرابة لاستخدام القوة فى النظام الاجتماعى . وهذه القوة ظاهرة بوضوح فى بعض المجتمعات البدائية . وفى الأغلب لا وجود لها فى البعض الآخر . ويبدو ألقا تزداد لىوا فى المجتمعات كلما ارتقت هذه فى سلم الحضارة وبلغت المجتمعات المنظمة درجة عالية من التنظيم ، اذا كان لنا أن نحكم على هذه القوة من وجود مراتب أو طرائف

---

(١) من بين أولئك الذين اهتموا باثبات دور الاقتدار بهذه الطريقة يمكننا أن نذكر توماس هوبز ، الذى نظر الى اقتدار الحاكم السياسى كشئ أساسى بالنسبة للنظام الاجتماعى ، وكذلك ل . جاميلوفيتز وج . واتزنهاوزن الذين ينتسبان الى «مدرسة الصراع» فى علم الاجتماع وبرايتشكى الذى كتب حسب التقاليد الوطنية الألمانية وبرتراند راسل الذى يأسف على دور الاقتدار فى كتابه (Bertrand Russell, Power (New York, 1938) ولناقشة الاقتدار

الاجتماعى ، انظر : MacIver, The Web of Government, Chap. V.

اجتماعية (١) . ومع ذلك فستعرض للخطأ اذا استخلصنا أن الدور الذي تقوم به القوة ينمو بالضرورة مع نمو النظام الاجتماعى . وأن الديموقراطيات الواسعة المتقدمة التى عرفتھا العصور الحديثة قد تعرضت للضبط بالقوة أقل مما تعرضت دويلات العصور الوسطى ذات الاقتصاديات المتأخرة التى نشأت عنها ، كما ازداد نمو روسيا السوفيتية نموا معقدا يفوق ما كانت عليه فى عهد القيصرية . أما مسألة كون استخدام القوة هناك قد قص أو زاد فمسألة تحتاج الى نظر . ومن الواضح أن التجاء الحكومة الى القوة أكثر ما يكون وضوحا فى أوقات الأزمات الاجتماعية أو الأحوال المؤدية لها ، كما يعرف ذلك كل من عاصر منا إحدى الحربين العالميتين الأخيرتين أو كليهما . وفى بعض الأحيان يحتفظ هذا النوع من القوة بمظهر تعسفى كذيل لمثل هذه الأزمات . ومن الواضح كذلك أن القوة وسيلة أكثر تأثيرا للضبط الاجتماعى بين الشعوب غير المتعلمة أو المسيرة بتنظيمات الدولة ، منها بين تلك التى نشأت فى رحاب الحرية ومارست حق توجيه النقد . واذا تأملنا كل هذه المفارقات فماذا عسى أن نكتب فى الوظيفة الاجتماعية للقوة ؟

١ - لماذا تعتبر القوة جوهرية للضبط الاجتماعى : ان استخدام القوة المادية ضد الأفراد لا يمكن محوه محوا تاما من النظام الاجتماعى . فيما يذهب الفوضويون . وذلك لأن من الضرورى أن يوجد دائما نوع من القوة الداعية لمصلحة المجتمع لكبح جماح مظاهر القوة الضارة به سواء أكان مصدرها أفرادا أم جماعات منظمة . تلك القوة ضرورية للحد من مظاهر حب المصلحة الخاصة والجشع وتحدى القانون وعدم التسامح الذى لا يفتر ازاء الغير . انها ضرورية لصيانة أى نظام مقرر للحقوق والواجبات فى المجتمعات المعقدة أو الحديثة . ولا أمل فى أن تحترم قاعدة

(١) Cf. L.T. Hobhouse, G.C. Wheeler, and M. Ginsberg, *The Material Culture and Social Institutions of the Simpler Peoples*, Chap. IV, Section 2.

إذا كان من السهل أن يخرقها ، وهو آمن ، شخص مستهتر لا ضمير له ، أو معارض للنظام . انها ضرورية لفض المنازعات التي تنشأ أبدا بين الناس . ولو لم يكن من الميسور الالتجاء الى سلطة تساندها القوة لساد العنف بين الأفراد ، أو بين الجماعات . وهذه القوة ضرورية كذلك لمنع اعتداءات المنظمات القوية على الضعيفة ، أو اعتداء المنظمات الاقتصادية مثلا على أولئك الذين لو تركوا تحت رحمتها لأذلتهم بما لها من جبروت . فهناك مظاهر أساسية للنظام والأمن تتعذر المحافظة عليها الا من طريق واحد دون سواء ، وهو طريق القوانين التي يتعين على الكل طاعتها . ان الخدمة الحقيقية للقوة تنحصر في كونها أمينة على النظام (١) .

ولا تستطيع القوة وحدها أن تحمي النظام الاجتماعي ، ولا يمكن لهذا النظام أن يستمر اذا لم تتحالف القوة مع عوامل أخرى ، وبدون القوة يتعرض القانون للخطر وينزل من عليائه . هذا مع ملاحظة أن القوة وحدها تعجز تماما عن ضمان بقاء القانون محتفظا بسلطانه . وهذه الحقيقة المعروفة منذ زمن بعيد من حيث تطبيقها على قوانين أية دولة ليست أقل انطباقا على هيئة الأمم المتحدة أو على أية منظمة دولية أخرى يحاول الانسان اقامتها . واذا قدر لهيئة دولية أن تكون حكومة تتألف من أفراد وشعوب فلا بد أن تركز هذه الحكومة على قواعد بشأن السلامة الدولية يقبلها الجميع على التحقيق . غير أنه لمساندة هذه القواعد يلزم أن يتوافر لدى الدولة جزاء استخدام القوة آخر الأمر . ومهما تكن

---

(١) يتردد أحيانا على لسان أولئك الذين يروهم ما يقع من مخالفات متكررة للقانون ، ويؤيد رأيهم استخدامنا للقوة في الحياة الاجتماعية ، انه لو تعلم كل فرد طرق التحايل على القانون فان مخالفته تقف عند حد . فمثلا المحتال الذي يطلب الجزية في مقابل امتناعه عن افشاء أسرار تشوه السمعة لا يستطيع أن يواصل احتياله اذا عرف كل الناس فنه . واذا رغب الطالب في التوسع في الاجابة على هذا الاقتراح الذي يبدو منطقيا (وان كان غير عملي) فستتاح له الفرض لاختبار بصيرته السوسيولوجية أو مدى معرفته بنظريات علم الاجتماع .

أهمية الخدمات التي تؤديها القوة الداعية لتماسك الجماعة ، فإن لها مع ذلك حدودا لا تتجاوزها .

٢ - الأسباب التي من أجلها تعتبر القوة وسيلة محدودة الفائدة .  
في الضبط الاجتماعي : ان طبيعة قصور هذه القوة تبدو عندما نفحص ماهية استخدام القوة . وهنا نلاحظ أمرين كبيرى الدلالة مرتبط ببعضهما ببعض :

الأول - انكار المظهر الاجتماعي : فنرى أولا أن التدخل بالقوة يعتبر عرضا آليا للعلاقة الاجتماعية . ففيما يتعلق بالقوة المستخدمة تعتبر هذه انكارا لأمكان التعاون . وهى تعامل الانسان كما لو كان مجرد شيء مادي . والقوة في ذاتها لا تنطوى على أى تعبير عن دوافع انسانية ، وذلك من وجهة نظر أولئك الذين تستخدم ضدهم هذه القوة - والمفهوم أنه لا توجد علاقة أخذ وعطاء بين أى انسان وبين جبل جلاده الذى يعد له المشقة ، أو بينه وبين سور سجنه ، أو نبوت الجلد ، أو « الكرباج » الذى يحمله الشرطى . ان القوة هى نهاية العلاقات المتبادلة . وبالتالي تضيق الى أدنى درجة الافصاح عن طبيعة مستخدميها . فلا تكون هناك الا لغة واحدة هى لغة الضرب والعنف ، وفي هذا تحديد لوسائل الضبط الاجتماعى . وهذا التحديد مشعور به كذلك بدرجات مختلفة . من قبل جميع السلطات التى تفرض بالقوة قواعد ونظما جديدة ، مثل أى جيش احتلال فى بلد أجنبى ، ومثل مأمور السجن ومعاونيه ، وحكام الشعوب المغلوبة فى المستعمرات ، وحتى الوالد الذى يعتمد على العقاب البدنى للسيطرة على أبنائه أو لتربيتهم . ( ان عمال الجستابو أنفسهم كانوا يضيقون بذلك العالم الضيق الذى تردوا فيه بسبب الواجب الذى كان ملقى على عاتقهم ) . والحق أن الضبط الاجتماعى الذى يؤتى ثماره . يتطلب توافر عنصر التعاون فى العلاقة بين الحاكم والمحكوم كما ستبين . أمثلتنا فيما بعد . وعلى ذلك فلا بد أن يتوقع أن يكون التعاون عنصرا



« الاستعداد » للحرب يقوم على أساس قومي ووطني على حين أن الاستعداد للسلم يحتاج الى تنظيم دولي .

ويرجع سبب اخفاق الطريقة الأولى القديمة ، فيما يختص بموضوعها وهو السلام والأمن ، الى خاصة أخرى من الخصائص الغربية للقوة . ذلك أن القوة تكون مجدية ما دامت الطريق أمامها خالية ولا توجد قوة ثانية تواجهها . وبعبارة أخرى القوة مجدية اذا كانت مركزة ومحتكرة في مكان واحد . فاذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً تتكون من ثمان وأربعين ولاية مستقلة فمن الممكن أن تكون مظاهر القوة أشد وضوحاً في المنطقة مما هي عليه اليوم ، ومن الممكن كذلك أن تدل مظاهر القوة على نقص فاعليتها . وذلك لأن القوة كلما كانت أقل اندفاعاً وأقل وضوحاً ، كانت أكثر نجاحاً في تحقيق غاياتها — كما يعرف ذلك جيداً كل من الآباء العقلاء والحكام السياسيون الكيسون . ومما لا شك فيه أن هناك قوة وراء رجال الشرطة الذين ينظمون حركة المرور ولكنهم قلما شعروا بالحاجة الى استخدامها . ولو كان من الضروري أن يزود رجال المرور بمدافع المترليوز عند تقاطع الشوارع لأصاب الهرج حركة المرور . وهكذا كلما حصل التمادي في اظهار القوة زادت مظاهر عدم الاستقرار . وما دامت الأمم تستعد للسلم بالاعلان عن قوتها الذرية وغيرها فسيبقى السلام العالمي مهدداً بالخطر (١) .

٢ - حالة قوانين الدولة : هنا نتجه نحو ميدان آخر حيث أظهرت التجربة أن الاعتماد على القوة لا يوجد ما يسوغه . فمما يستقر في الإذهان .

(١) الواقع أنه لم يحدث أي تغيير في الفترتين السابقتين وهما هنا واردتان كما كتبهما يروفسور ماكيفر منذ عدة سنوات . ولم يجد المؤلفان ما يدعو الى تغييرهما اليوم . ولزيادة التفصيل في هذه المشكلة انظر :

Q. Wright, *A Study of War* (2 vols., New York, 1942); R.M. MacIver, *Towards an Abiding Peace* (New York, 1943); L.L. Bernard, *War and Its Causes* (New York, 1944).

عند الناس جميعاً أن قوانين الدولة مطاعة على الأخص بسبب القوة التي تساندها . وهذا الرأي صحيح فقط اذا سلمنا بأن هناك أسباباً أخرى لاحترام القانون أهم من الاستسلام للقوة أو الخوف من العقاب . فاذا افترضنا أن الطاعة قد زالت من الناس جميعاً فلا اجبار بالقوة يمكن أن يسود ، كما ظهر لنا في حالات ثورات عديدة . وما زالت معالجة الأمور بالقوة وبتشديد الجزاءات كطريقة للضبط الاجتماعي لم تثبت صلاحيتها بعد ، كما يكشف لنا تاريخ القانون الجنائي . وهناك أدلة كثيرة على أنه ليس من الممكن أن يفرض أحد القوانين بالقوة اذا دأبت أقلية كبيرة نسبياً على معارضته باستمرار وبصرامة ، كما رأينا في حالة السخريّة الصريحة من القوانين الفدرالية الأمريكية التي حرمت الاتجار في المشروبات الروحية في السنوات العشرينيّة ، والتي ألغيت فيما بعد ، وما نرى اليوم من مخالفات ترتكب على نطاق واسع ضد القوانين التي تحرم بيع أدوات وأجهزة معينة لمنع الحمل في بعض الولايات الأمريكية مثل كنيكتيكت وماساوستس . ومما يهمنا من الأمثلة على قصور استخدام القوة في الأعمال الادارية والتنظيمات السياسية ما يتبين لنا من النجاح الذي صادفته المقاومة الهندية غير العنيفة بزعامة غاندي ، تلك المقاومة التي وجهت نشاطها ضد قوانين الهند التي صنعها الحكام البريطانيون السابقون . وتحتم وسائل ساتيجراها وهو الاسم الذي أطلق على هذا النوع من السلوك السلمى ، الخضوع للنظام العام ، وهى ذاتها مجبرة بالقسر ، وتمثل مرة أخرى كلا من قصور « الارهاب بالقانون » واستعداد القوة السافرة الى أن تؤدى الى خلق قوة مماثلة لمقاومتها (١) .

٣ - حالة الجريمة والعقاب : وهنا تتناول دور القوة ، لا من حيث كونها وسيلة من وسائل منع الناس من مخالفة القانون ، وانما من حيث

See K. Shridharani, *War without Violence, A Study of Gandhi's* (١)  
*Method and Its Accomplishments* (New York, 1939).

كوئها عقابا للخارجين على القانون . واذا كان الخوف من العقاب كمالا يتفق علماء الاجرام فيما بينهم ، مانعا غير كاف لوقوع الجريمة ، فما رأى في العقاب كوسيلة لعلاج المجرم ؟ وحتى عهد قريب جدا كان من الأمور المسلم بها بوجه عام أن التأديب بالالتجاء الى استخدام أقصى قوة ، والذي يأخذ شكل المعاملة الفظة أو القاسية ، كان يكفي لتحقيق الأغراض المطلوبة . وكان مبدأ العقاب مشوبا بالآراء المتعلقة بالنار والانتقام والتكفير ، على حين نجد أن معظمنا اليوم قد يوافق على أن خير تسويق لما تفرضه الدولة من عقاب انما هو ما تبتغيه للمجتمع من سعادة . وذلك لأن المجتمع يتأثر بالطريقة التي يعامل بها المجرم وهو نفسه كما نعرفه . عضو بالمجتمع . ولما كان هذا المبدأ قد ازداد قبوله عن ذي قبل ، فإن الاعتماد على القوة وحدها آخذ الآن في أن يكون موضع الشك .

ومن حيث ان كون هذه القوة مجردة من أى شىء آخر ، هى العلاج الآلى للانسان كما رأينا ، فهى بهذه المثابة يساء استغلالها كوسيلة للإصلاح ، وعلى ذلك فهى تصبح آخر الأمر وسيلة لمنع الجريمة . وفي الحق أن ما يحدث في الغالب هو عكس ذلك بفضل شرائع العقاب عندنا كما تشهد بذلك أدلة كثيرة جدا على أن السجون ما هى في حقيقة أمرها الا أوكار لبعث الاجرام . وزيادة على ذلك ، فإن القوة وحدها طريقة للعلاج تتسم بكونها ذات صلابة خاصة . والمعتاد أن محاكم الجنايات اذ تنظر في قضايا مختلفة فيما بينها اختلافا كبيرا ، ليس أمامها الا أن تحكم بأحد أحكام ثلاثة : الفرامة أو السجن أو الموت . وسواء أكان المجرم حدثا أم بالغا ، أم رجلا ، أم امرأة ، ضعيف العقل أم ذكيا ، ذا عاطفة جياشة أم ذا عقل مدبر ، حساسا أم متبلدا ، وسواء أكان الجرم قد دعا اليه يأس أم كبت أم فقر أم جشع أم سوء نية في أبشع صورها — ومهما كانت ملابسات الجريمة أو بيئة المجرم ، فإن المحكمة لا تملك الا أن تطبق بعض أحكام قانون صلب لا ينثنى . وإن الحركة المتسع نطاقها للمطالبة بتطبيق الاتجاهات العلمية في الأحكام القضائية وبزيادة فهم كيفية معاملة أنواع

المجرمين المختلفة - ومنها انشاء الاصلاحيات والمؤسسات للمجرمين في أول عهدهم بالاجرام ، واخصائي الأمراض العقلية للعمل بالمحاكم والمستشفيات للمرضى السيکوباتيين والمدارس الصناعية والمهاجر الزراعية ونظم منح الثقة بالسجين اذا أعطى كلمة شرف ألا يهرب ، ومحاكم الأحداث - هذه الحركة ما هي الا أول الغيث وهي دليل على تحطيم أحد المعاقل التقليدية للايمان بفائدة استخدام القوة والعنف لأغراض الضبط الاجتماعى .

بعض الاستنتاجات الخاصة بالفردية والمجتمع : لقد سعينا الى أن نظهر أن القوة ضرورية لضمان القانون السياسى، وانه حتى عند وضوح هذه الضرورة ، فإن الخدمة التى تؤديها القوة تكون أفضل ما تكون حينما يستلزم الحال استخدامها فى أبسط صورها . ولقد رأينا أن العلاقة التى تحددها القوة انما هى ضد للعلاقة الاجتماعية ، وانه تبعاً لذلك فإن وظيفة القوة لا تستطيع أن تذهب الى أبعد من المحافظة على العلاقات الاجتماعية من خطر الميول غير الاجتماعية . وحينما يبدو من الضرورى فرض قاعدة مشتركة لحماية الصالح العام فإن بعض الاجبار يجب أن يدخل فى تقديرنا . غير أن لهذا الاجبار ثمنا ينبغى أن يحسب حسابه عندما نقرر ما اذا كانت القاعدة المشتركة ضرورية أو مفيدة .

١ - حول مبدأ عام لتحديد مدى القوة : ان المجتمع لا يحتاج لقواعد مشتركة لكل شيء . ومن حسن ؟ نجد أن القواعد المشتركة ، فيما يتعلق بجوانب السلوك الشخصية والشديدة الخصوصية، نادرا ما نحتاج اليها . فالتناس لا يستطيعون أن يديروا المصانع أو البنوك كما يشاءون وعلى طريقتهم الخاصة ، لأنهم لو فعلوا هذا لجعلوا أناسا آخرين تحت رحمتهم . ولكنهم يستطيعون أن يعتنقوا ما يشاءون من الديانات المختلفة وأن تكون لهم آراء متباينة أو يتحيزوا لأذواق مختلفة دون أن يحولوا بين الآخرين وبين أن تكون لهم نفس الحقوق . وبالرجوع بذاكرتنا الى

المناقشة التى أوردناها فى الفصل الثالث حول التفاعل بين الفردية والمجتمع ، يمكننا الآن أن نضيف أن الاجبار خطر وفى العادة يكون ضارا اذا طبق على المسائل التى يتابع فيها كل فرد طريقته الخاصة فى الحياة بحيث لا يتدخل فى فرص الآخرين المتكافئة لكى يتابعوا هم كذلك طرقهم الخاصة فى حياتهم . ولا تحل هذه النتيجة العريضة كثيرا من المشاكل العملية فيما يختص بتدخل المجتمع ، ولكنها مفيدة كمبدأ تحديدى . وهى تقدم لنا تسويغا للحريات الأكثر أساسية وفى مقدمتها حرية الفكر وحرية التعبير . وهذه حرية يمكن أن تكون لكل الناس فى نطاق نظام اجتماعى معين . والاستثناء الوحيد المعقول هو حينما نستخدم هذه الحرية ، كما هو الوضع فى حالة جمعية كوكلوكس كلان السرية وما شابهها ، للمناداة بإلغاء الحرية المماثلة بالنسبة للآخرين . ولما كانت حرية الفكر وحرية التعبير أكثر أهمية بكثير لتعزيز الفردية من تلك الحقوق التى لا يستطيع البعض استخدامها الا على حساب الآخرين ، فاننا نرى هنا مرة ثانية التوافق الأساسى للفردية والمجتمع .

٢ - نتائج الانحراف عن المبدأ : نلاحظ أنه عندما تتجه القوة الى عدم الاستقرار فى نطاق المبدأ الذى حددناه ، كما هو الحادث خلال معظم التاريخ الانسانى ، فانها فى هذه الحالة تؤذى الروابط الاجتماعية فى الصميم . وذلك لأنها تسعى حينئذ للتفريق بين الأفراد وتحويل التعاون الى نوع من الرق ، كما تجعل من أشق الأمور على الجماعة أن تشعر بأى ولاء مشترك . وحينما وقعت الحكومات تحت تأثير الديانة العقائدية وهى أحد عوامل التفريق فى الحضارة الأوربية الحديثة ، فجردت « الهرطقة » من حقوقهم الاجتماعية والسياسية ، فانها لم تعالج « الهرطقة » بهذا الاجراء ، وانما نشرت الفرقة فى المجتمع ومزقت أوصاله . وفى الأوقات التى انصرفت فيها عن الاهتمام بالفروق الدينية نراها بذلك قد جعلت من الممكن قيام التضامن بين الناس بشكل لم يكن مألوفا من قبل . ويحدثنا علم من أنصار هذه الفكرة قائلا : « ان تجربة القرن التاسع عشر التاريخية

ترينا أن للحرية قوة الرباط الذى يقرب بين الناس ويدعو الى تماسكهم  
فى جماعات يطول بقاؤها وتزداد خصوبتها كلما كانت تلقائية فى نشأتها  
ومستقلة فى تحديد أهدافها (١) .

وأخيرا فاذ اخمد الحريات الأساسية بطريق العنف يؤثر فى كل  
العمليات الاطرادية التى من شأنها أن تهب الحيوية والتجديد الى المجتمع .  
وان لنماذج الشخصية المختلفة طرقا مختلفة لمقاومة الضغط الاجتماعى  
وأى سعى لجعل أحوال الناس متطابقة . ومثل هذا الضغط الاجتماعى  
مشعور به بوضوح ويقاوم بسرعة كبيرة على يد المبدعين من أفراد المجتمع ،  
وأولئك هم الفنانون والأنبياء وطبقة المثقفين . هذه النفوس المبدعة كثيرا  
ما تكون ناقدة للأحوال الراهنة وعرضة للتحول بطريقة ما عن الآداب  
العامة السائدة بين أهل زمانهم (٢) . وهناك أدلة تاريخية كثيرة ترينا منذ  
أيام سقراط أو المسيح حتى يومنا هذا ، أن التعذيب لم يكن يحقق الا  
بالمبدعين والمجددين حينما كانت الكلمة العليا للقوة . ولسوء الحظ من  
الصعب بالنسبة للرجل العادى ، كما أنه من المستحيل بالنسبة للحاكم  
المستبد أن يميز بين الفرد المبدع وبين المجرم . ولا يستطيع الموهوبون  
أن يبدعوا ويخدموا الحريات الأساسية الا فى جو الحرية وحيثما يقتصر  
استخدام القوة على خدمة هذه الحريات فحسب . وانه لفى هذه الظروف  
وحدها يمكن أن يتحقق التوافق الكامن بين الفردية والمجتمع .

---

(١) G. De Ruggiero, History of European Liberalism (Eng. tr., London, (١)  
1927), p. 353.

(٢) أن بحث Arthur Koestler فى "The Intelligentsia" ينفعنا فى  
موضوعنا هذا .

See his *The Yogi and the Commissar* (New York, 1945), pp. 61-76. See also  
such sociological works as K. Mannheim, *Ideology and Utopia* (L. Wirth and E.  
Shils, tr., New York, 1936); and F. Znaniecki, *The Social Role of the Man of  
Knowledge* (New York, 1940).

## الضبط الاجتماعى فى الجماعات المحلية الفاضلة (أوتويا)

الجماعات المحلية الفاضلة كتجارب فى الضبط الاجتماعى : وصفنا فى الأقسام السابقة القوى المحافظة التى تعمل على حفظ التركيب الاجتماعى وصيافته . وفى هذا القسم الختامى سنتناول مثالا يبين هذه القوى فى أوج عملها . وذلك لأننا هنا مهتمون بتلك الجماعات المحلية التى تنهج نهجا خاصا متميزا فى حياتها بدرجة تفصلها فصلا تاما عن الجماعات المحلية الكبرى المحيطة بها . سنتحدث عن هذه الزمر التجريبية الصغيرة التى تقوم على مستعمرات منفصلة تعمل على تحقيق مثلها العليا ، مطلقين عليها اسم الجماعات المحلية الفاضلة (أوتويا) <sup>(١)</sup> . وهذه الجماعات تعمل على الدفاع عن آدابها العامة ضد العدوى بآداب العالم الخارجى . ومن أجل المحافظة على انفصالها عن غيرها من المجتمعات وتضامنها داخليا فى نفس الوقت يتعين عليها أن تقاوم بأعنف ما تكون المقاومة جميع قوى التغير سواء منها ما انبثق من داخلها أو ما هاجمها من الخارج . ومثل هذه الجماعات تستعين بالضرورة بنظام فى الضبط الاجتماعى يبلغ غاية التقدم وهذا الوضع ممثل فى الجماعات الفاضلة القائمة أو المستمرة قيامها فى الولايات المتحدة الأمريكية ، على أسس أغلب ما تكون متعلقة بعقيدة أو فكرة دينية ما ، وفى العادة تجرى الحياة فى داخلها على المبادئ الاشتراكية . ومن بين هذه الجماعات الفاضلة مجتمع « افراطا » وهى مستعمرة اشتراكية قديمة أسست فى القرن الثامن عشر ، وهارموني الأصلية فى بنسلفانيا ، ومستعمرات الجماعات المعروفة باسم شيكرز وهوتيرايتس ودوكوبورز وأمانيتس وما شابهها من الجماعات الدينية . والجماعة التعاونية المشهورة المعروفة باسم « برك فارم » المرتبطة باسمى

---

(١) أراد سير توماس مور بمدينته الفاضلة (١٥١٦) أن يقترح وجود جماعة محلية فاضلة كما فعل صموئيل بتلر فى كتابه Brewhon (أو « لا فى مكان » ) ( ١٨٧٢ ) ، ولكننا نستخدم الاصطلاح هنا لنشير الى جماعات حقيقة .

«مرسون وهوثورن»، وجماعة «البرفكشنستس» في أونيدا بنيويورك،  
التي جمعت بطريقة فريدة بين الاشتراكية الاقتصادية والجنسية. وهناك  
دراسات تاريخية واجتماعية كثيرة وكذلك تراجم حياة لبعض الأشخاص،  
تساعدنا في مقارنة المبادئ التي تقوم عليها مجموعة متنوعة من هذه  
الجماعات «الفاضلة» وفي الوصول الى نتائج معينة تتصل بالشروط  
اللازم توافرها لحدوث تضامن شامل كامل فيما اذا استهدفت الجماعة  
لصعوبات غير عادية (١).

وكل من هذه الجماعات تمسك بمجموعة من الآداب العامة تنبجها  
اتجاهها مختلفا عن اتجاهات الآداب الأخرى للثقافات المحيطة. وجميع  
هذه المجتمعات «الفاضلة» حاولت بطريقة أو بأخرى أن تكبح وجوه  
النشاط المختلفة التي حظيت بمزيد من الحرية في المجتمع المجاور. ونجيم  
عن ذلك أن كلا منها أدخل نظاما خاصا لطرق الضبط الاجتماعي وضع  
تصميمه بحيث يغرس في الجيل الناشئ من عادات حب العمل والفكر  
والحياة ما كان متوافقا مع النظام الاجتماعي العام. وهذه الجماعات  
المحلية الصغيرة كانت في وضع يختلف كل الاختلاف عن وضع النظام  
الاشتراكي العريض الذي تتميز به روسيا السوفيتية. ولكن يلاحظ أن  
بعض مبادئ هذه الجماعات يوجد مثيله في الاتحاد السوفيتي.

(١) من أسبق الدراسات في هذا الشأن:

C. Nordhoff, *Communitistic Societies in the United States* (New York, 1875).

ومن بين الدراسات العديدة الحديثة:

E.S. Wooster, *Communities of the Present and Past* (Newllano, La., 1924); W.A. Hinde, *American Communities and Cooperative Societies* (Chicago, 1908); and V.F. Calverton, *Where Angels Dared to Tread* (Indianapolis, 1941).

ويتضمن ما دونه بعض الأشخاص بأنفسهم من تاريخ حياتهم:

P. Noyes, *My Father's House, An Oneida Boyhood* (New York, 1937); and J.S. Duss, *The Harmonists* (Harrisburg, Pa., 1943). See also the discussion in H.F. Infield, *Cooperative Communities at Work* (New York, 1945), Chaps. I-IV.

الصفات المميزة للجماعات الفاضلة : يتضح من دراسة هذه الجماعات أنها بينما اختلفت فيما بينها في عدة أمور فإننا نراها استخدمت أساليب اجتماعية متشابهة لحفظ التضامن في داخلها . ومن بين هذه الأساليب أربعة جديرة بالذكر :

١ - العزلة والاكتفاء الذاتي : فقد سعت هذه الجماعات لضمان وحدتها الثقافية بالعزلة الجغرافية . فقد كانت في الأغلب جماعات زراعية وعلى الأخص في أيامها الأولى ، ومكتفية بذاتها كصفة جوهرية . ولذا استطاعت أن تعزل نفسها بعض العزل عن بقية العالم . وكلما هددت أمنها ومحاولات التوسع من جانب جيرانها كانت تفضل أن تنتقل الى مكان آخر بعيد . وان مجرد الاسم الذي تحمله احداها وهو « سيباراتستس » أو « الانفصاليون » يوضح لنا اتجاهها مشتركا عندها جميعا . وكانت هناك استثناءات جزئية لهذا المبدأ . مثل جماعة « البرفكشنستس » أو « الكمالين » الميالة للصناعة والتي لم تستطع أن تقطع اتصالها كلية بغيرها كما فعلت معظم الجماعات الأخرى . وكل الجماعات الفاضلة التي لا تزال قائمة حتى اليوم مثل الهوتيرايتس في جنوب داكوتا ، فقد تأثرت على نحو ما من طريق غزوات التكنولوجيا الحديثة (١) . ومن المهم أن نلاحظ أنه بالرغم من أن هذه الجماعات عملت على أن تعيش معتمدة على نفسها بعيدة عن أية اتصالات ، فإنها لم تكن أبدا بعيدة جدا لدرجة أن الساخطين على الحياة فيها لم يكن في مقدورهم تركها الى الحياة في العالم الموجود خارجها . وبهذه الكيفية كان يخرج من زمرة السكان فيها من يعتبرون مصدرا لعدم الرضا .

٢ - غرس خاص للأفكار والمعتقدات : وقد اتخذت كل جماعة من هذه الجماعات اجراءات خاصة لكي تفرس في أفرادها ، وعلى الأخص

---

(١) See, for Example, L.E. Deets, *The Hutterites: A Study in Social Cohesion* (Gettysburg, Pa., 1939), Chap. VII.

الجيل الجديد ، المبادئ التى تعلق بها الجماعة <sup>(١)</sup> . وكان التنظيم الاجتماعى تاما ومحكما . كما كان الشباب خاضعين لقيادة جادة مركزة فى يد فرد أو فى يد أقلية قوية من كبار السن ، سواء أكان تركيز هذه القيادة قد جاء بطريقة رسمية أم غير رسمية ، كذلك كانت ترى كل جماعة فاضلة فى نفسها أن أسلوب حياتها هو الأفضل ، أو أنها تضم أناسا غير عاديين ، منفصلين بمعنى من المعانى عن عالمنا هذا ، وكان الاماينتس الذين هاجروا أصلا من ألمانيا الى ايوا يسمون أنفسهم « مجمع الالهام الحق » . والبعض كانوا يظنون فى أنفسهم أنهم « شعب الله المختار » ، وآخرون أنهم أصحاب الحقيقة . وقد أدت هذه الظنون المختلفة الى ضغط اجتماعى قوى نحو ايجاد مطابقة فى المعتقدات والسلوك وآداب اللياقة وأساليب المعيشة بوجه عام . وشملت هذه المطابقة فيما شملت المظاهر الخارجية كاللباس والمسكن . ومما عمل على تقوية المطابقة تعود القيام بأعمال كثيرة بالاشتراك معا ، والالتقاء معا لمجرد التعبد والأغراض الروحية عامة ، ولكن كذلك لتناول الطعام وغير ذلك من المناسبات اليومية ولما كانت هذه الجماعات صغيرة الحجم ، فقد أدى ذلك الى أن يكون كل فرد فيها تحت رقابة جيرانه وأن يبرز بوضوح أى انحراف عن الاتجاهات العامة ، وكانت تعمل الجماعة على عدم تشجيعه . وقد ابتدع البرفكشنستس ، وهم جماعة فريدة من عدة وجوه ، نظاما « للنقد » للناية بمسألة الانحراف ففى كل يوم أحد كانوا يعقدون جلسات لنقد لخواصهم ، حيث كانت عيوبهم الخلقية والسلوكية تعالج بكل أمانة وفى العلانية <sup>(٢)</sup> . وقد رأى قادة هذه الجماعة أن هذه الطريقة أفضل الوسائل لغرس المعتقدات والأفكار المناسبة لأفرادها ولتقوية التماسك بينهم

(١) نوقشت بعض جوانب طرق التربية وأهداف الجماعات « الفاضلة »

مسواء منها الخيالية أو الحقيقية فى :

G. Masso, *Education in Utopia* (New York, 1927).

Nodhoff, op. cit., pp. 289-293; see also Calverton, op. cit., pp. 262-266. (٢)

كأعضاء مجتمع واحد — والى حد كبير كما تفعل اليوم الجماعات المماثلة ذات النشاط الدينى مثل جماعتى الحركة الأكسفوردية وكنيسة العلم المسيحى .

٣ - **الجزءات الدينية :** وكان الشعور بالمشالية التى لا تضارع فى النظم الاجتماعية مؤيدا فى معظم الجماعات الفاضلة بجزءات دينية شديدة . كما كانت الرابطة الدينية بوجه عام هى الغالبة على ما عداها من الروابط — وتتلخص فى عقيدة مشتركة بين أفراد الجماعة ، لا يقاسبهم أحد من خارجها فيها . وكانت هذه العقيدة فى بعض الأحيان تقوى بسبب ما يحيط بها من ذكريات الاضطهاد . وفوق ذلك فإن هذه العقيدة اقتضت تدنينا قويا ، كما هو الحال اليوم عند الهواتيرايئس أو الشيكركز أو المينونيتز . ومن المشكوك فيه كثيرا أن هذه الطاعة العمياء التى تطلبها هذه الجماعات من أعضائها كان يمكن أن تستمر إذا لم يكن الجزء الدينى الجامد وراءها . وأكثر من هذا فإن قواعد السلوك الدينى الشاملة التى يساندها جزء قوى من عالم ما فوق الطبيعة <sup>(١)</sup> ، كانت بمثابة مركز يلتقى عنده التوافق الاجتماعى لشخصيات الجماعة <sup>(٢)</sup> . وبعض الجماعات مثل الايكاريين الذين هاجروا من فرنسا الى الينوى <sup>(٣)</sup>

(١) أى جزء روحى الهى أو سحرى . — المترجم

(٢) Deets, op. cit., p. 21

(٣) يحتمل وجود خطأ مطبعى هنا فى الطبعة الأمريكية لان الايكاريين ليسوا فرنسيين بل يونانيين ينسبون الى جزيرة ايكاريا فى الجنوب الغربى لساموس بحر ايجة . انظر :

Ch. Dezobry et Th. Bachelet, "Dictionnaire Général de Biographie et d'Histoire, de Mythologie, de Géographie Ancienne et Moderne Comparée" Paris, Librairie

Ch. Delegrave, septième édition revue, 1876, première partie, p. 1368.

وربما كان خطأ المطبعة ناشئا عن التقارب فى الشكل وعدد الحروف بين كلمتى Greece, France الا اذا كان الايكاريون قد هاجروا أولا الى فرنسا ومنها الى الولايات المتحدة ويبدو أن هذا مستبعد ، او على الأقل ليس لدى ما يثبتته . — المترجم

وغيرها من الولايات كانوا ، على التحقيق ، بغير ديانة يعتنقونها . ولكن الزمن القصير نسبيا الذى قضوه فى أمريكا ربما كان سببه أنه لم تكن لهم عقيدة مقدسة يلتفون حولها . وقد لوحظ أن الشيوعية ذاتها كانت « أشبه بالدين » لهؤلاء الناس ، غير أنه اتضح أن المذهب الاقتصادى الذى اتبعوه غير كاف لافتقارهم الى قيادة حازمة . ومهما يكن من أمر فقد كتب البقاء لواحد فقط من كل ٣٣ نظاما اجتماعيا لا دينيا ، وذلك لمدة لم تطل عن ٢٥ عاما ، بينما ظل باقيا واحد من اثنين من المجتمعات المستندة الى نظم دينية لمدة ٢٥ عاما أو أكثر <sup>(١)</sup> .

وبهذا الخصوص تشير الى بروك فارم الأكثر تميزا من بين التجارب العقلية على الجماعات الأمريكية ، تحتل مكانا فريدا . وذلك لأن ديانتها كانت امتدادا لمذهب التوحيد وفلسفة امرسون المتحررة بشأن استحالة ادراكنا للأشياء بمجرد تجربتنا ، كما كانت اقتصادياتها على نسق تعاونى هادىء ولكنه ليس شيوعيا بأى حال من الأحوال . وكان من بين أعضاء هذه الجماعة العاملين على شد أزرها كثيرون من قادة الفكر ممن عاشوا فى منتصف القرن التاسع عشر . والآداب العامة التى سادت فيها ، بما فى ذلك مستويات الآداب المتعلقة بالسلوك الجنسى ، هى بعينها تلك المستويات الفاضلة السائدة فى اقليم نيوانجلاند . أما ما انتهت اليه بروك فارم من اخفاق منفع لزعيمها الكبير جورج ريبلى ، فمن الصعب أن يكون مرده الى ثقافتها الفريدة والمنعزلة عن غيرها من الثقافات <sup>(٢)</sup> .

٤ - ضبط العلاقات الجنسية : فيما عدا ما منيت به جماعة بروك فارم من مصير محزن ، ارتأت كل هذه الجماعات أن تحتاط أشد الاحتياط لضبط العلاقات الجنسية ، اذ فى هذه العلاقات تكمن أشد المهلك التى يصح أن تهدد نظمها الشيوعية . وقد كان من الممكن اذا لم

Ibid. pp. 23 ff. (١)

See, for example, Calverton, op. cit., Chap. XIII. (٢)

تكن العلاقات الجنسية قد خضعت للسيطرة الكاملة في هذه الجماعات ،  
أن تتسرب اليها روح الفردية نتيجة لمظاهر الغيرة والمصالح المتعارضة التي  
تسببها المسألة الجنسية . وفوق ذلك فإن الأسرة كانت خطرا على التضامن  
الشيوعي بسبب ممتلكاتها الخاصة . ولا تزال الأسرة حتى اليوم في  
جماعات فاصلة مثل الهواتيراتيس المنفذ الذي منه يمكن أن تفزو  
الرأسمالية الشيوعية (١) . وان ما يبدو من مقاومة لمظاهر سيطرة  
الجماعة ، دفاعا عن حياة أعضائها الخاصة ، ليتولد في أول الأمر في داخل  
الأسرة ، وكثيرا ما تبعث عليه مجرد علاقة المرأة بالرجل .

ويترتب على ذلك أننا نجد أحيانا احتياطات متنوعة وفي بعض الأحيان  
عجيبة قد اتخذت في هذه الجماعة . فقد كان هناك بصفة عامة نهى تام عن  
كل عادة مستحدثة . وكانت ملابس الناس في داخل الجماعة بسيطة ، وفي  
أغلب الأحيان لم تكن لتتجاوز شكلا واحدا كاللباس الرسمي . ويبدو أن  
الاتجاه في امانا وكذلك بين الشيكرز كان نحو زى موحد للنساء يخفى  
معالم جمالهن ويجعلهن أقل جاذبية لعين الرجال .. وفي أويندا تبدو  
بياتاكيد في غاية القبح ما يرتدين من ملابس قصيرة وبطلونات ومظهر  
شعرهن المخصوص وان كان هنذا كله مناسبا من الناحية العملية (٢) .  
وبعض المجتمعات مثل الرايستس والشيكرز كانت ضد الزواج بمعنى  
أن العزوبة كانت تسودها . وكان أفراد المجتمع الثاني منهما يعيشون  
معا في جماعات متحابّة بدلا من الأسر مع الفصل بين الجنسين في تناول  
المطعام وعدم الاذن لهما بالالتقاء الا تحت رقابة شديدة وبشروط قاسية .  
وأمّا عن جماعة الأمانيتس فرغم كونها أباحت الزواج نجدها اهتمت  
اهتماما كبيرا بأن تجعل الجنسين دائما في حالة انفصال تام . ففي أيام  
الأحد بعد الظهر كان الأولاد يسمح لهم بالمشي في الحقول وكذلك البنات

(١) Deets, op. cit., Chap. VII.

(٢) Nordhoff, op. cit., p. 398.

الا أنهم لم يكن يؤذن لهم الا بالسير في اتجاه مضاد لاتجاه الأولاد ..  
واذا أدت هذه النظم المشددة رغم ذلك الى وقوع زواج فان حفلته تعالج  
بدرجة من الشعائر الوقورة تحولها الى يوم من أيام الرعب بدلا من أن  
تجعل منها مناسبة للفرح الشامل (١) .

وحتى الجماعة التى بدت كأنما كانت تناقض هذا المبدأ الدقيق.  
الخاص بضبط المسألة الجنسية ، وهى جماعة البرفكشنستس فى أويدا ،  
فانها كانت فى واقع الأمر تسعى الى مسلك مضاد لتوقى الخطر الذى  
تحدد به الجنسيات التضامن الشيوعى . فان هذا المجتمع غير العادى ،  
مع ما كان يسوده من اباحية واقعية أو « شيوعية جنسية » ، كان يسعى  
الى أن يخمد بكل وسيلة ممكنة أية علاقة خاصة أو أى ولع مفرط بين  
رجل وامرأة . لقد كان البرفكشنستس ينظرون الى مثل هذه العلاقة  
نظرتهم الى « حب النفس » ، لأنها كانت ملتقى مصالح تتعارض مع فكرة  
محو الملكية الخاصة التى على أساسها أقيمت دعائم هذا المجتمع . وزيادة  
على ذلك فان الآداب الخاصة بالمسائل الجنسية كانت تساند المذاهب  
الدينية التى صاغها جون هـ . نوز زعيم هذه الجماعة (٢) .

**الجماعات الفاضلة والفردية - بعض النتائج :** ربما خطر للقارىء أن  
يتساءل عن الباعث الذى جعلنا نقوم بهذه الجولة فى هذه التجارب المتعلقة  
بالجماعات الصغيرة ، وهى كما رأينا تجارب لا تمثل بأى حال النظام  
الاجتماعى الأكبر حجما ؟ ويتلخص بالطبع أحد الأجوبة على هذا التساؤل  
بأن هذه المجتمعات الصغيرة تكشف لنا بطريقة نيرة كل ما يتصل بالضبط  
الاجتماعى من قواعد وجزاءات ووسائل . ويمكن أن نجيب كذلك بأن  
هذه الجماعات تؤكد حقيقة الصعوبات التى تنشأ عن اخضاع كل أو معظم

Ibid., p. 36. See also Hindus, op. cit., pp. 59-60. (١)

See, for example, Calverton, op. cit., pp. 267-280; and Noyes, op. cit.,  
pp. 8-11, 129-131. (٢)

النشاط الاجتماعى للتنظيم المبالغ فيه ولهذه النقطة آثار هامة بالنسبة للمجتمع الكبير .

هذه الجماعات كلها ( ربما فيما عدا بورك فارم غير العادية ) كانت تنظر الى توكيد الفردية باعتبار أنه سعى « لتوكيد النفس » أو « حب النفس » ويتميز الرباط الاجتماعى عندها بسلطة لا مرونة فيها . وكل نوع من الانحراف ذو تأثير خطر على وحدتها . أما الشروط التى ساعدت بوجه عام على تثبيت هذه الوحدة فيمكن تلخيصها فى التحمس الدينى والقيادة الحازمة وبساطة الحياة والفقر النسبى الذى أدى الى أن يكون الكفاح أو العمل الشاق هو القاعدة . غير أنه لوحظ أنه فى حالة زوال واحد أو أكثر من هذه الشروط ، كانت قوى التفكك تبدأ فى العمل بشكل ملموس ، فتتنامى الخلافات والانشقاقات وتبدو فى الأفق علامات تدل على قرب النهاية . ان النسبة العالية للجماعات الفاضلة التى تمنى بالانهيار وعجز معظمها عن أن توائم بينها وبين الأحوال المتغيرة يظهر أن أنها لا تدعو أن تكون نظما ذات جانب واحد . فقد توصلت الى التنشئة الاجتماعية على حساب التنشئة الفردية أو الشخصية — وحقت جماعة انسانية على حساب كل فرد من أفراد الانسانية . وكما رأينا ( فى الفصل الثالث ) ، يعتبر بعض التوافق بين المجتمع وبين الفردية شرطا أوليا لكل نظام اجتماعى يرجى له البقاء ، وهدفا لا سبيل الى تخلى الأفراد عن السعى اليه .

## الفصل الثامن

### قواعد السلوك الكبرى

مقدمة : في قواعد السلوك الاجتماعي ودراستها

تنوع قواعد السلوك والحكم على ثقافات غيرنا بمقاييس ثقافتنا :  
كان ولا يزال التنوع الكبير للمعايير الثقافية بين الشعوب المختلفة والزمير  
المتباينة في داخل المجتمع الواحد موضع الاهتمام الشديد عند طلاب  
الحياة الانسانية من الأزمنة القديمة حتى الوقت الحاضر . ولقد نقل الينا  
الاثنوغرافيون خلال سنوات عديدة أساليب حياة مختلف الشعوب  
البداية حتى اننا قد أصبحت لدينا اليوم كتابات مستفيضة تكشف لنا عن  
مجموعة ضخمة من قواعد السلوك الاجتماعي عرفناها من طريق مظاهر  
تصرف الأفراد في المجتمع . وقد قارن الدارسون للحياة المعاصرة بنفس  
الطريقة قواعد السلوك في داخل الطبقات الاجتماعية المختلفة وبين  
الجماعات البشرية والزمير المهنية وما على شاكلتها وكذلك قواعد سلوك  
المجتمعات المختلفة . وان تنوع مظاهر السلوك العام والآداب العامة  
وما يساندها من جزاءات ، كبير جدا لدرجة أن مجرد تصنيف هذه  
المظاهر على أى أساس من أسس التصنيف يعتبر عملا عسيرا . واذا نحن  
تأملنا طرق علم الاقتصاد ، واجراءات العدالة والعلاقات الجنسية ونظم  
الأسرة والعناية بالبدن والاعتقاد والتعبّد ، وأساليب الحكم ،  
وكيفية اعداد الطعام واستهلاكه ، والتربية واستخدام

الآلات بكل أنواعها ، ألفينا كل أولئك لا يزيد عن كونه بعض  
 كفيات سلوك الانسان التى حددتها قواعد عامة لا يستأثر بها فريق دون  
 فريق وانما هى موجودة عند معظم شعوب العالم ، ووجدنا بينها تنوعا  
 كثيرا فى هذه الأمور يجعلنا على استعداد لأن نتعلل ما يبدى الباحث  
 الاثنوغرافى من اهتمام نحو وصفها ومقارنتها<sup>(١)</sup> . وقابلية الثقافة للتنوع  
 كما تبدو آثارها فى تباين مظاهر السلوك العام وقواعد السلوك الاجتماعى  
 تعلمنا درساً هاماً ، كما رأينا فى فصل متقدم فى هذا الكتاب . ففى أحد  
 المجتمعات تحدد قواعد السلوك شكل الزواج بأن يكون مونوجامياً  
 (زواج الرجل الواحد من المرأة الواحدة) وفى مجتمع آخر تجعله أيضاً  
 يوليغامياً (الزواج المتعدد فى أحد طرفيه أى المتعدد الأزواج أو الزوجات).  
 وفى أحد المجتمعات يعطى الناس روحاً لكل شئ حتى الجباد وهذا هو  
 المذهب الحيوى ، وفى مجتمع آخر لا يعرف أعضاؤه عن عالم ما فوق  
 الطبيعة الا شيئاً يسيراً جداً . وكذلك فى أحد المجتمعات يعتبر التقدير  
 فضيلة وفى مجتمع آخر رذيلة . وكون الأثنى خلقت أنشئ يجعلها فى مجتمع ما  
 ذات مكانة وفى مجتمع آخر تابعة للرجل وهكذا . هذه الفروق جميعاً لا تؤكد

---

(١) من بين الدراسات العديدة التى أجريت على شعوب بدائية معينة  
 وأدائها العامة نورد ما يأتى :

Crow Indians by R.H. Lowie, the Eskima by K. Rasmussen and V. Stefansson,  
 the Melanesians and Polynesians by B. Malinowski and M. Mead, the Australian  
 Natives by W.L. Warner, the Andaman Islanders by A.R. Radcliffe-Brown, the  
 Alorese by Cora Du Bois, the Tanala of Madagascar by R. Linton, and the Cali-  
 fornia Indians by A.L. Kroeber.

وتوجد مادة متوافرة فى هذه الموضوعات فى دراسات عامة ، مثل :  
 W.I. Thomas, *Primitive Behavior* (New York, 1937); A.A. Goldenweiser, *An-  
 thropology, An Introduction to Primitive Culture* (New York, 1937); and G.P.  
 Murdock, *Our Primitive Contemporaries* (New York, 1926).

فقط الحاجة الى النظر الى الظواهر الاجتماعية من حيث صلتها بمحيطها الثقافي ، وانما هي تحذرننا كذلك من محاولتنا تقييم أساليب حياة غيرنا من الناس بالتقييم التي حددتها قواعدنا الاجتماعية . وهذا النوع من التقييم الذي يجعلنا نفترض أن مجتمعنا أو أساليبنا أو معتقداتنا أعلى شأنًا مما عداها يسمى في الاصطلاح العلمي اثنوسنترزم ، وهو يميز الى حد ما مواقف الشعوب المختلفة ازاء الغرباء أو غير المواطنين . ومطلوب دائما ممن يرغب في التخصص في دراسة الحياة الاجتماعية أن يتيقظ باستمرار حتى لا ينحرف بهذه الاثنوسنترزم عند تحليله أساليب الحياة في المجتمعات المختلفة وعليه أن يراعى الى هذا الحد مبدأ نسبية الثقافة في تحقيقاته السوسيولوجية . وكما سنرى الآن فان هذا العمل شاق بصفة خاصة على من يبحث في قواعد السلوك الاجتماعى .

**اختلاف السلوك وأنواعه في المجتمعات المتقدمة :** على عكس ما نرى في المجتمع المتحضر نجد أن بعض الشعوب مثل الكواكيوتل والالوريز وسكان جزيرة دوبرو أو تلك الجماعات الريفية شبه المنعزلة القائمة في داخل الصين أو كويبك الكندية لديها قواعد سلوك بسيطة تنظم الحياة الجمعية . ويحترمها كل أفراد الجماعة كما ينظرون اليها باعتبارها ملزمة وسليمة ، مهما انحرف عنها بعض الأفراد . وبينما يمكن التمييز بين الجوانب المختلفة لهذه القواعد ، مثل قواعد مقاسمة الأشياء وقواعد الاشتراك في تناول الطعام أو آداب السلوك الجنسى أو العبادة ، وبينما تختلف الجزاءات الملزمة حسب نوع السلوك فلا شيء من القواعد في هذه المجتمعات يرقى لدرجة التعقيد الذي يميز قواعد المجتمع الحديث . والرجل الحديث كما رأينا يميز بين أنواع من أنماط قواعد السلوك وأنماط الجزاءات . ويجب بعضها ولكنه لا يميل الى بعضها الآخر . ثم يعمل عامدا على تغيير ما لا يجب منها ، مختارا من بينها ما يراه أنفع .

له خلال قيامه بدوره كعضو في المجتمع . وبخلاف مهمة الاثنوغرافى الوصفية والمقارنة تقوم هنا بدور تحليلي لهدف من طريقه الى تمييز القواعد الكبرى العريضة لأنماط قواعد السلوك الاجتماعى ، وتوضيح وظائفها ( أو علاقاتها العلية بوجه عام في المجتمع المتقدم المعقد <sup>(١)</sup> ) .

ان في المجتمع الحديث قواعد سلوكية لكل تنظيم اجتماعى ابتداء من الدولة بقوانينها الجبرية ونظامها الملزم حتى أصغر الأندية المحلية وشرذمة الأصدقاء أو جماعة اللعب . وهناك قواعد سلوكية أخرى مؤيدة لا بالهيئات أو الجمعيات وانما بالمجتمع من حيث هو كذلك . وأخيرا هناك مجموعة قواعد مرتبطة بمقاييس السلوك ، وهى وان كانت أكثر ما تكون ناتجة عما أقر المجتمع من آداب عامة ، الا أنها تحتاج آخر الأمر الى أن يؤيدها الفرد بنفسه . أما كيف يواجه الفرد كعضو في المجتمع كل هذه القواعد المتضاربة فيما بينها أحيانا فسيكون هذا موضوع الفصل التالى . ان الفصل الحالى معنى بالبحث في كيفية تمييز القواعد المشار اليها بعضها عن بعض .

وستتناول خمسة نماذج لقواعد كبرى هى القواعد الدينية والخلقية ، والقانونية وقواعد العادة الجمعية والمادة المستحدثة . وبالإضافة الى هذه النماذج توجد نماذج فرعية متعددة كما سنرى . أما نماذج القواعد الكبرى فاتصالها المتبادل فيما بينها وثيق جدا اذا ما نظرنا اليها من ناحية

---

(١) نجيل القارىء الى مناقشات في هذا الموضوع حول قصور المادة الانثروبولوجية في حالة استخدامها لأغراض الدراسة السوسولوجية ، يجدها في :

A.S. Tomars, "Some problems in the Sociologist's Use of Anthropology," *American Sociological Review*, VIII (1943), 625-634; R. Bierstedt, "The Limitations of Anthropological Methods in Sociology," *American Journal of Sociology*, LIV (1948), 22-30.

تأثيرها على حياة الأفراد ، أو من ناحية الجزاءات التي تعمل على تقويتها ومن أجل ذلك يغفل التمييز بين هذه النماذج في كثير من الأحيان .  
وسنضع للدراسة جنبا الى جنب هذه القواعد السلوكية الأكثر تعرضا للمخلط فيما بينها أو الشديدة التوقف كل منها على الأخرى ، أو المتصلة فيما بينها اتصالا قويا لدرجة يصبح معها تمييز احداها عن غيرها ذا دلالة خاصة . وهذا هو السبب الذي من أجله نجمع معا الدين ومقاييس السلوك ، والعادة الجمعية والقانون ، أو العادة الجمعية والعادة المستحدثة . ويمثل البيان التوضيحي رقم ٥ أنواع قواعد السلوك كما يرمز الى العلاقة الوثيقة القائمة بين كل نوعين مما جمعنا معا من قواعد السلوك ، ثم بين قواعد السلوك والجزاءات . وهذا البيان بالضرورة تبسيط زائد لجانب شديد التعقيد من جوانب الحياة الاجتماعية ، يحتاج الى المناقشة التالية في الأقسام الباقية من هذا الفصل .

## الدين ومقاييس السلوك

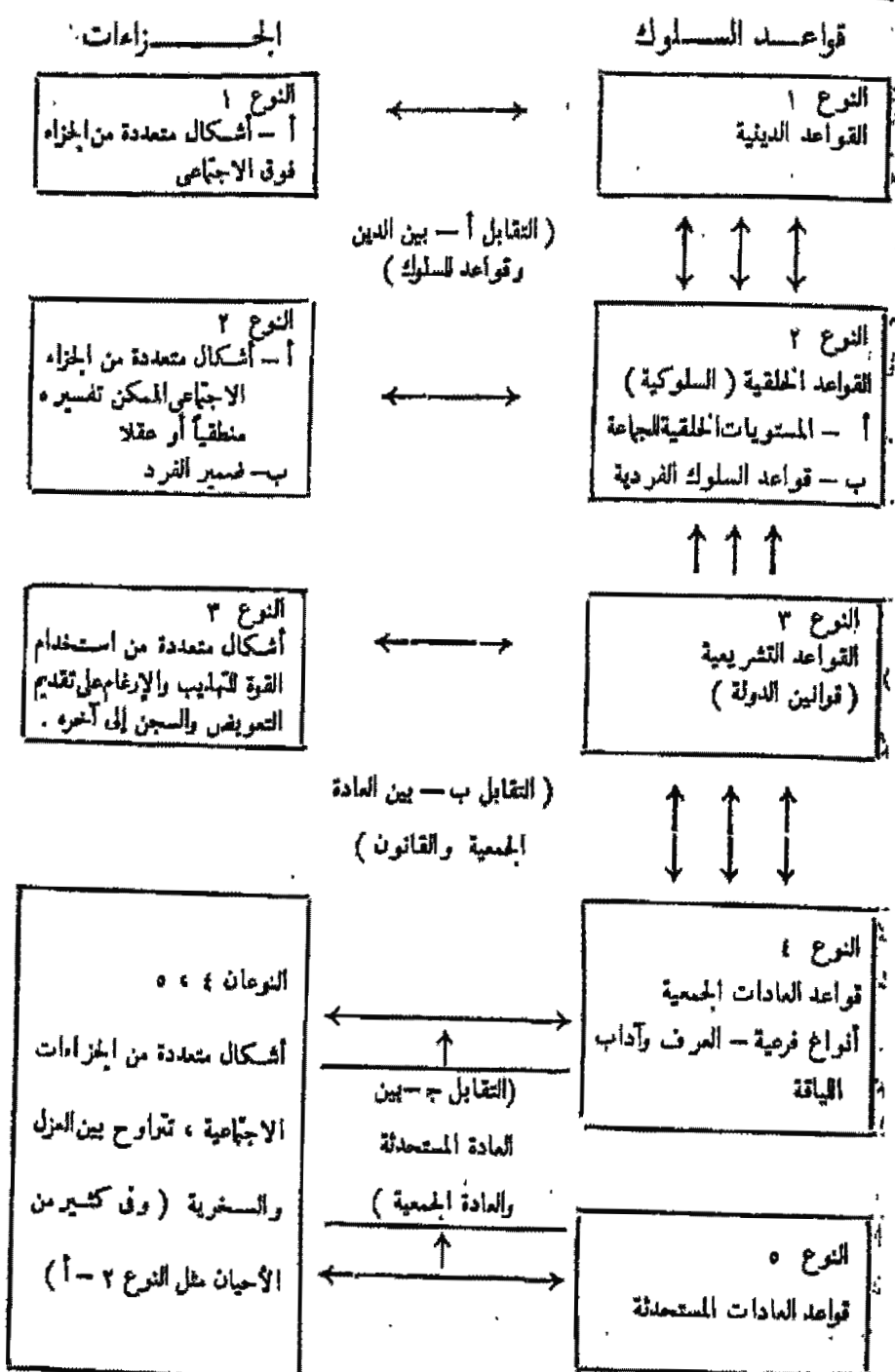
التمييز بين قواعد الدين وقواعد السلوك : لا شك أن بين الدين وقواعد السلوك اتصالا وثيقا . وإذا ما رغبنا في الفصل بينهما فلا بد أن يكون هذا الفصل من حيث السلطة والجزاء المرتبطين بمقتضيات كل منهما لا من حيث مضمون القواعد نفسها ( لاحظ التقابل المرموز اليه بحرف أ في البيان التوضيحي رقم ٥ ) فالدين يفرض قواعد للسلوك وبهذه الكيفية يتجه نحو التوحيد بينها وبين قواعد الأخلاق التي لا تخرج عن كونها قواعد سلوكية كذلك . ومن جهة أخرى فإن بعض العبادات الخلقية ، مثل عقيدة أوجست كونت بشأن «المذهب الوضعي» أو جمعية الثقافة الخلقية (وهي جمعية معاصرة) ، تدعى أنها دينية أيضا ، وإلى جانب ذلك يوجد ما يمكن أن نسميه «الديانات البديلة» حيث ترتبط الخصائص

العاطفية التي تصاحب أداء الواجبات الدينية بعناصر لا دينية بل مضادة للدين كما هي الحال في بعض تعبيرات الشيوعية أو في أي « دستور اجتماعي » غير ذلك . وأولئك الذين لا يعتقدون في أي دين لديهم قواعدهم الخلقية أو السلوكية رغم افتقارهم للدين . وفي الحق أن اللااخلاق ظاهرة نادرة الوجود . وعلى ذلك فالتمييز بين الدين وقواعد السلوك ذات الأساس الأخلاقي مسألة ضرورية .

١ - الجزء الديني فوق الاجتماعي : الدين كما نفهم هذا الاصطلاح يتضمن علاقة لا تقوم بين رجل ورجل آخر فحسب ، ولكن تقوم كذلك بين الإنسان وقوة ما أعلى منه . واذن فالدين يفرض جزاء يمكن أن نصفه بأنه فوق اجتماعي ، كأن يكون خوفاً من شبح أو عفريت بدائي أو من « غضب الله » كما نردد الآن أو من عقوبات نصطلي بها بعد الموت في نار جهنم أو الاحساس بأن نكون « على غير وفاق مع الله » إذا عصينا أحكامه . وبالمثل كل أمر أو نهى يعتبر جزءاً من قاعدة دينية سلوكية إذا صدر من سلطة تقوم على أسس دينية ، مثل شراح العقائد ووكلاء الله أو أوليائه . والدين يعين أيضاً علاقة الإنسان بالإنسان ، ولكن من حيث أن جزاء هذا التعيين أو الخروج عليه لا يعدو أن يكون جزاء فوق الاجتماعي . وبعبارة أخرى أن القواعد الدينية للسلوك دينية وليست خلقية . وغرضها تحقيق ما شاء الله للإنسان ، وهذا شيء يختلف عما يشاء الإنسان لنفسه والدين يعتبر الكنيسة وسيلة لبلوغ هذه « الغاية الإلهية » .

٢ - الجزء الاجتماعي لقواعد السلوك والدين والعلاقات الاجتماعية : لا يمكن أن توصف مجموعة من القواعد بأنها « سلوكية » أو خلقية إلا إذا كان مفهوماً أن جزاء الخروج عليها مترقب على فكرة ما سيحدث من نتائج اجتماعية سيئة فاشئة مباشرة عن السلوك الذي تمنعه هذه القواعد : وهنا نواجه تمييزاً بين فكرة « الخطيئة » في الدين وبين فكرة

**البيان التوضيحي رقم ٥ — العلاقات المتبادلة الغالبة بين القواعد الاجتماعية الكبرى للسلوك وبين الجزاءات**



« الخطأ » في الأخلاق . والفكرتان متصلتان أو مرتبطة أحدهما بالأخرى عند الكثيرين من الناس . غير أننا لا يمكننا أن نعرف الفرق بين الدين وبين قواعد السلوك إلا اذا توصلنا الى ما يميز أحدهما عن الآخر . ومع ذلك فإن أحدهما قد يلزم لتأييد الآخر ، وبعض الكتاب مثل بنيامين كد أو الفيلسوف المعاصر ك.س. ليويس يرون أن قاعدة السلوك الخلقى لا تقوى على البقاء بدون تأييد من الدين <sup>(١)</sup> . وهناك مفكرون آخرون مثل هربرت سبنسر وتوماس هكسلي وكثيرون من العلماء والمحدثين المتخصصين في « علم الحيوان » أو « علم طبيعة الانسان » يذهبون الى أن قاعدة السلوك الخلقى لا يمكن أن تكون خالصة ومستجيبة تماما لحاجات المجتمع المتغير ما لم تنفصل عن الجزاءات الخاصة بالدين <sup>(٢)</sup> .

B. Kidd, *Social Evolution* (new ed., New York, 1920), C.S. Lewis, *The Case for Christianity* (New York, 1944).

وللدراسة الشاملة لهذه المشكلة وما يتصل بها من مشكلات انظر :

J. Wach, *Sociology of Religion* (Chicago, 1944), Chap. III.

وللتوسع في التمييز بين الدين والمقاييس الخلقية للسلوك انظر المرجع

الآتى وقد وضعه باحث ممتاز في الدين : R. Otto, *Das Heilige* (Geotha, 1927).

### — المؤلفان

ويمكن أن نضيف المرجع الهام الآتى في نفس الموضوع :

H.S. Maine, *Ancient Law*, London, John Murray, new edition, with Sir Frederick Pollock's Notes, March 1930.

### — المترجم

Spencer, *Principles of Sociology*, III, Chap. XIV, Huxley, *Evolution and Ethics* (New York, 1905).

ولمناقشة آراء الممثلين المختلفين المحدثين لوجهات نظر المتخصصين

في الحيوان وطبيعة الانسان انظر : E.A. Burtt, *Types of Religious Philosophy* :

(New York, 1930), Chaps. IX and X, and for two pertinent essays by students of (naturalism, see chaps. II and XV by S.P. Lamprecht and J.H. Randall, Jr., in *Naturalism and the Human Spirit* (Y.H. Krikorian, ed., New York, 1944).

ومن المهم بهذه المناسبة أن نمثل هاتين المدرستين قد وصفوا الجزء الخلقى وصفا مضادا للجزء الدينى بقولهم انه جزء تابع من العقل .

ومهما كان مصدر اشتقاق المعايير الاجتماعية ، سواء من وحي الآلهة وهذا أكثر شيوعا ، أو حكمة الماضى الموروثة ، أو تعاليم الحاضر ، فانها تكشف عن الآراء السائدة فى المجتمع بشأن العلاقات الاجتماعية وأساليب التعايش المفضلة بين الناس . وأهم الفروق القائمة بين المعايير الدينية وغيرها من المعايير ومن بينها قواعد السلوك الخلقى بالمعنى الدقيق هو أن المعايير الدينية تعنى بالوضع الاجتماعى أكبر عناية بطريقة غير مباشرة ، وأن قاعدة السلوك المنبثقة من عقيدة دينية تعبر عن وجهة هذا السلوك والموقف الذى ينبغى أن يقفه الفرد ازاء أية حقيقة واقعة خارجة عن نطاق الحياة الانسانية وأغراضها . انها تسمى لاقامة علاقات اجتماعية وترتبط فيها الأغراض الانسانية بارادة مفترض وجودها لقوى فوق بشرية أو تخضع لها وينظر لهذه القوى باعتبار أنها رحيمة أو غير رحيمة أو غير مكترثة اطلاقا بالانسانية .

٣ - مشكلة التوفيق بين الحاجات الاجتماعية وقواعد السلوك الدينية : لما كان الانسان وعلى الأخص فى العصور والأوساط السابقة على الحركة العلمية ، قد نظر الى قوى ما فوق الطبيعة نظرة الخائف الجاهل المسىء لتفسير ظواهر الطبيعة فان بعض قواعد السلوك التى فرضها الدين عليه لم تكن أبدا انعكاسا صادقا لحاجاته الاجتماعية بل انها فى الأغلب قد انحرفت بالعلاقات الاجتماعية ورجبت أو أوجت بنوع من السلوك مقوض للمصالح الاجتماعية . وإلى جانب الأمثلة البدائية القديمة لهذه القواعد مثل النهى عن تناول بعض الأطعمة المفيدة ، والضحايا الآدمية ، والبغاء الدينى ، والتشويهات البدنية فى طقوس التأهل للرجولة ، والخرافات الداعية لوصف معتنقيها بالبلاهة ، يمكن أن نضيف النواهي

الدينية الحديثة كذلك التي تحرم تنظيم التسل بالنسبة للمتزوجين أو تحول دون الالتجاء الى العناية الطبية السليمة في حالات المرض والاصابة<sup>(١)</sup>. وغالبا ما تبرز قواعد السلوك الدينى كوسائل فعالة للضبط الاجتماعى للمحافظة على المصالح المتعلقة بالنظام العام مما قد يصيبه من عمليات التغير المطرد ، مثلما حدث عندما صارت الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية حصنا يحتمى به استبداد القياصرة الروس<sup>(٢)</sup> . ومع ذلك فإن الذى يحدث عند تفسير قواعد السلوك الدينى والتبشير بها أن تجد المثل العليا الاجتماعية بالضرورة منفذا فى هذه العملية . ولا بد أن يجرى تعديل جزئى فى القواعد لخدمة الحاجات الاجتماعية بالرغم من أن تحيز الشراح أو المطبين<sup>(٣)</sup> ، أو رجال الدين قد يعطل نمو انتشار هذه القواعد : وعلى أية حال لا يمكن أن تكون المصالحة بين قواعد السلوك الدينى والحاجات الاجتماعية كاملة ما دامت هذه القواعد تركز فى صميم اعتقاد أصحابها على مفهومات باطلة لقوانين الطبيعة والمجتمع .

والأوامر المتضمنة فى قواعد دينية مثل الوصايا العشر يصح أن تكون مستوحاة من اعتبارات اجتماعية أكثر مما يكون مبعثها دينيا ، إذ أنه فى المرحلة التكوينية للدين يكون من السهل جعل « كلمة الله » تعبيرا للشعور بحاجة اجتماعية . ولكن يبقى واضحا على الدوام الفارق بين هذين

(١) يشير المؤلفان هنا الى الحركة المسيحية المعروفة بالعلم المسيحى وترمى الى مقاومة الامراض دون الاستعانة بالطبيب وذلك بالتأثير العقلى الذى يحدثه فى نفس المريض ايمانه الحق بالمسيحية . - المترجم

(٢) انظر امثلة أخرى عديدة Wach, op. cit., Chap. VI . وسنعالج هذه المشاكل بتوسع فى الفصل العشرين فيما بعد .

(٣) الأطباء هم المشتغلون بعلاج المرض فى المجتمعات البدائية بالسحر والشعوذة ويرمز اليهم فى المراجع الانجليزية بـ Medicine men . واما الأطباء أو مساعدوهم من المؤهلين علميا لهذا العمل فهم الأطباء medical men . - المترجم

النوعين من الأوامر : فالقواعد تكون دينية — بصرف النظر عما اذا كانت الأوامر التي تتضمنها تتعلق بصلة الفرد بالله ، كما هي الحال في الوصايا الأربع الأولى ، أو بصلة الفرد بالفرد كما نرى في الوصايا الست الأخيرة — وعندما يتمثل مصدر القواعد في صورة سلطة الهية ويكون جزاؤها فوق الطبيعة ، أو عندما توقع باسم الدين العقوبة الناجمة عن مخالفتها . والقواعد تكون خلقية عندما تشيع مستويات للسلوك يقوم تعليلها الكافي مباشرة على التفسير الانساني للخير والشر .

٤ — مسألة الاولوية : ناقش كتاب كثيرون موضوع أى القواعد كان أسبق في الوجود وأيها كان مستمداً من غيره : وقد رأى البعض مثل أوجست كونت ، في بيانه عن تطور البشرية من الحالة الدينية الى الحالة الخلقية أو « الوضعية » أن الدين كان منبت مقاييس السلوك ، ورأى آخرون مثل فرديناند تونيس واميلى دوركايم أن الدين نشأ كإنطلاق أو تقديس للأفكار الاجتماعية والخلقية وكان من مذهب تونيس أن الآداب العامة في مجتمع ما أخذ تأثيرها يقوى تدريجياً بالجزاء الدينى ، ويكسب من طريق التقاليد المرعية وسلطة الكبار صفة التوقير والاحترام المشوب بالرهبة ، مما أدى من جهة الى عبادة الأسلاف ، ومن جهة أخرى الى الجزاء فوق الاجتماعى لأساليب الحياة المقررة . وقد اعتبر دوركايم الأفكار الدينية ناشئة عن أوضاع اجتماعية ، كما اعتبر الحياة الدينية « التعبير المركز للحياة الجمعية بكل مظاهرها » (١) .

ان التميز بين الدين ومقاييس السلوك نشأ في خلال التطور الاجتماعى . وكما سنرى فيما بعد لا يمكننا القول بأن أيا من القواعد الدينية أو القواعد الخلقية قد سبق الآخر في فرض سلطانه . ويضم الدين عناصر

See Tonnies, *Die Sittte*, and Durkheim, *Elementary Forms of the* (١)  
*Religious Life* (J.W. Swaine, tr., New York, 1916).

مشتقة من التفكير الاجتماعى والخلقى . والأخير بدوره قد تأثر تأثرا واضحا بالمفاهيم الدينية . وقد خفى على البدائيين الى حد كبير أن يميزوا بين هذه العناصر فى نظرتهم للحياة كما قد خفى ذلك جزئيا على من لم يلاحظوا الا بقسط قليل من التعلم فى المجتمع المتحضر . والمعروف أن هربرت سبنسر ظن أن الأشكال الأولية للدين لم تكن تشتمل على العنصر الخلقى ، بل انه أشار الى أن هذه الأشكال قصدت مضالحة الأرواح الشريرة لا الخيرة ، وأنها كانت تتصف بما كانت تفرضه من واجبات قاسية وفظيعة (١) . الا أننا نرى أن هذه الحالة ( التى لا تؤيدها دائما الشواهد فى الشعوب البدائية ) لا تثبت هذه النقطة اذ أن القواعد الخلقية نفسها قد تنحرف أيضا وتفرض علينا من المطالب ما يبدو فظيحا كذلك . ولا تزيد مقاييس السلوك فى القبيلة البدائية عن مقاييس السلوك عند سبنسر الا بقدر ما تزيد دياتها على مفهوم الدين عند هذا الفيلسوف . وقد يكون من الأصح أن نقول ان الديانات البدائية قد احتوت — كحل لهذه المشكلة التى نحن بصدددها — على عناصر دينية وخلقية وغير هذه من العناصر (٢) .

مظاهر التنازع بين الدين ومقاييس السلوك : منذ أن فرق الانسان بين قواعد السلوك الدينية والخلقية نجد أن هذه القواعد تؤثر بعضها فى بعض تأثيرا كبيرا . فان مقاييس السلوك ، مثل تعاليمها المتصلة بواجبات الخضوع والطاعة والتوقير لكبار السن ، مهدت الطريق لدوام بقاء

(١) Spencer, op. cit., III, 152

(٢) نعتقد أن هذه النقطة قد استوفيت بحثا فى :

H.S. Maine, Ancient Law (with Introduction and Notes by F. Pollock) London John Murray, new edition, March 1930).

المعتقدات الدينية . وقد قوت القواعد الدينية جزاءاتها فوق الطبيعية  
مقاييس السلوك السائدة في المجتمع . إلا أن التوازن بين ما تفرض جميعا  
من ضبط اجتماعي مشترك تعرض لكثير من الاضطراب .

١ - مبدأ الجمود الديني أو المحافظة الدينية وما سجل التاريخ من  
مظاهر الانسجام : ان القواعد الدينية - وهي أشد هذه القواعد ميلا  
الى المحافظة - أخذت تتنازع من حين لآخر مع ما فرضته الحاجات  
الاجتماعية المتغيرة من توضيحات وتبريرات خلقية . ولما كانت القاعدة  
الخلقية محمية بجزاءات تستند الى « سلطة عليا » فاننا نرى أنها قد  
هددت القدرة الذاتية على الحكم ، وهي الشرط الأساسى للأخلاقية  
المستتيرة عند كبار السن . يؤيد ذلك أن الديانات الأكثر ميلا للمحافظة  
قاومت وما تزال تقاوم كل مستحدث في التفكير الخلقى والتطبيقات  
العلمية في ميدان الحياة الاجتماعية . فهي قد عارضت مثلا البحث في  
الحقائق المتصلة بالأصول البيولوجية للانسان والتطبيقات الأولى  
لاستخدام المخدرات الطبية للمعاونة على صرف الألم والموافقة على  
الطلاق حينما يكون الزواج جحيما لا يطاق بسبب اصابة أحد الطرفين  
بضعف عقلى أو صدور قسوة عنه نحو الطرف الآخر <sup>(١)</sup> ، ومزاولة تحديد  
النسل . وفي وقت من الأوقات كانت الساحرات يحرقن باسم الدين كما  
كانت الحملات العامة على الأمراض التناسلية في أوقات أخرى تلقى من  
معارضها على نفس المبدأ - ولسنا في حاجة للاطالة في شرح مظاهر  
الجمود الديني وسجلها حافل ومعروف جيدا للجميع <sup>(٢)</sup> .

---

(١) الكلام هنا منصب على المسيحية والقسوة اذا ذكرت في هذه  
المناسبة فالمقصود بها هجران المضجع . - المترجم

See, for example, J.M. Yinger, *Religion in the Struggle for Power* (٢)  
(Durham, N.C. 1946), Chap. V.

ومع ذلك فإن هذه القطيعة بين الدين ومقاييس السلوك قد أخضت جزئيا وفي كثير من الأحيان عولجت جزئيا كذلك بما بدا من تحولات لاحقة للدين نفسه وظهور عقائد دينية جديدة لمواجهة المطالب الخلقية . وبعبارة أعم يمكن القول ان الدين يسعى لدعم الأخلاقيات المستقرة كما تسعى الأخلاقيات الجديدة لتعديل الدين . ولا بد في نهاية المطاف وعلى الأخص في المجتمعات الحديثة حيث يمنع انقسام الآراء في الدين نفسه من أن يتحكم أحد هذه الآراء في الآداب العامة وحيث قلت أهمية الجزاء فوق الطبيعي الذي كان فيما مضى أمرا محققا ، نقول لابد في هذم المجتمعات الحديثة من أن يحدث التوافق النسبي بين الدين والأخلاق . وبين الحاجات الاجتماعية .

ومن أهم الأمثلة الحية لتهيؤ الدين حتى يتم انسجابه مع التصورات الخلقية والدينية المتغيرة مثال نمو الديانة البروتستانتية . وهناك كاتب جاضر الذهن في هذا الموضوع ، هو ماكس فيبر دافع في كتابه «سوسيولوجية الدين» عن نظرة سبق أن نادى بها بعض المؤرخين . وكتاب القصة مؤداها أن أخلاقيات مذهب كلفن ، بعكس التعاليم الدينية في العصر الذي سبقه ، لم تكن متمشية مع نمو الرأسمالية فحسب ، بل كانت كذلك تمهيدا هاما لها ، وذلك لأن الأخلاق البروتستانتية اهتمت أكثر الاهتمام بفضائل الحذر من كثرة الاثاق ، وكبح جماح النفس ، والمسئولية الشخصية ، وخدمة الفرد نفسه وبنفسه ، والعمل المتصل ، وكلها أمور تصادف هوى عند الروح أو النزعة الرأسمالية . وفي الوقت الذي كانت فيه نظرية فيبر عرضة لبعض التعديلات ، نجده وغيره من الكتاب يقدمون أدلة كافية على الصلة الوثيقة بين تقدم البروتستانتية

ونمو الرأسمالية وعلى توافق قواعد السلوك الدينى مع القواعد الخلقية المتغيرة (١) .

٢ - الاتجاه «الانسانى» اليوم : حينما تغلب على الدين النزعة العقائدية كما كانت الحال فى الزمن السابق على المسيحية البروتستانتية ، تصادفنا مشكلة هامة تتعلق بالمصالحة بين قواعد السلوك الدينى وقواعد الأخلاق الأكثر عرضة للتغير . وإذا لم تكن الرفاهية الاجتماعية أمراً ثانوياً فإنه ينظر إليها فى ضوء مبدأ فوق اجتماعى . وإن التنازع يبدو واضحاً أولاً فى التمييز بين «الايان» (أو اتباع عقيدة معينة) والأعمال (أو السلوك الاجتماعى) ، وثانياً فى النقاش البروتستانتى فيما يتعلق بأهميتها النسبية . ومما هو خلى بالذكر أن المشكلة الدينية تنحصر فى أهميتها النسبية «عند الله» ومن الدلالات المفيدة لنا فى هذا الصدد «مبادئ التيسير والتسامح والتسهيل والتخلص من الآلام» ، مما سمحت به الكنيسة الكاثوليكية مع ما تتصف به من أخلاقيات رسمية فوق طبيعية ، لخدمة جمهرة أتباعها ، وبهذه الطريقة عملت على التوفيق بين القواعد الدينية المحكمة وروح العصر (٢) .

وقد ظهر فى العالم الغربى حيث تسود ديانا كبرى اهتمام كبير فى السنوات الأخيرة «بالأعمال والمشروعات» والأخلاقيات الاجتماعية من ناحية اتجاهها واضحاً نحو الانحراف عن مقتضيات ما فوق الطبيعة ، أو بعبارة أدق الدين وما قد يستتبعه من تعصب ، نحو اشاعة الأخلاقيات

---

See Weber, *The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism* (T. (١) Parsons, tr., New York, 1930). For appraisal of Weber's thesis, see R.H. Tawney's Introduction, *ibid.*, and his *Religion and the Rise of Capitalism* (New York, 1926), and Yinger, *op. cit.*, Chap. IIV.

Quoted from the Introduction to John Dewey's *Human Nature and* (٢) *Conduct* (New York, 1922).

الاجتماعية . ولهذا الاتجاه أشكال كثيرة ، في معظمها بعض عناصر « حبه الانسانية » الغالب في العصر الحديث » . ويرى المشتغلون بالدراسات الانسانية أن الأفكار الدينية الكبرى عند الانسان تتلازم في كل مكان مع حاجات الناس وقيمهم السائدة التي يستمسون بها . وبصرف النظر عن أن الله هو الذى خلق الانسان ، فإن الأخير يرى من مصلحته أن يكون الله موجودا وأن يتخيله قادرا على كل شيء كلما سعى للحصول على الخيرات التي تعمل الحياة على أن تيسرها له <sup>(١)</sup> . وبهذا المعنى ينزع « المذهب الانسانى » من حيث هو كذلك الى التخلّى عن أحكام ما فوق الطبيعة المتعلقة بالخلق ، والجنة والنار ، وما تنطوى عليه النفس من خطيئة ، وما شابه ذلك ، ثم يعمل جاهدا على أن يجمع بين الناس على أساس من قواعد الأخلاق الاجتماعية لا على أساس المذهب الدينى أو الجماعة الدينية أو المعتقدات بوجه عام . وهذا المذهب الانسانى يرحب بوجه عام بالاكشافات العلمية ، الطبيعى منها والاجتماعى .

٣ - الدين المحدد بالزمرة والاخلاقيات الاعم : من الممكن أن يحل التنازع القائم بين الدين ومقاييس السلوك اذا كان الدين مستعدا لأن يتأى عن مظاهر الأفانية الشائعة في كل من القبيلة والأمة ، ولأن يسمح للعلم بأن ينقى من تفسيراته الجامحة للحقائق الواقعة ، وكذلك اذا كان مستعدا لأن ينمو عالميا أو كونيا . وبذا يفقد تحت هذه الظروف قوته القاهرة العنيفة التى يستعين بها على تجميع المؤمنين فى روابط اجتماعية قوية ضد الكافرين الى الحرب والفتح مؤكدا لها « باسم هذه الشارة أو العلامة سوف يكون النصر فى جانبك » . ولو أن الدين أصبح عالميا

Burr, op. cit., p. 376. (١)

( فى ترجمة هذه العبارة بعض التصرف الذى اقتضاه التعبير العربى ) -

- المترجم

أو كونيا لصار العامل الداعى الى تماسك المجموع ، وكان له من العظمة والقوة ما يفوق تصور الانسان ، حتى لا يكاد يشعر هذا الا أنه قد اندمج فيه ، وأن حياته المحدودة المدى والغاية لا تعدو أن تكون لحظة في وجوده الأبدى ، وفي هذه الحالة يتوقف الدين عن أن يفصل شعبا عن شعب آخر ، أو أن يقطع الأوصال في الشعب الواحد بين الأرثوذكسين أو شديدي التدين وبين من يعبدون آلهة غريبة . كما يتخلى عن عدم التسامح البغيض الذى تفرضه عقيدة ضيقة الأفق لا تستند الى العقل .

ومن المشاهد أن الديانات الكبرى التى انتشرت <sup>(١)</sup> فى العالم الغربى وذاغت فى الأزمنة الحديثة ، مثل اليهودية والمسيحية والاسلام <sup>(٢)</sup> ، وعلى الأقل ديانة واحدة شرقية هى الديانة الشنتوية <sup>(٣)</sup> ، قلما كان لها أفق عريض أو دعت الى التسامح <sup>(٤)</sup> . وعلى العكس من ذلك نرى أنها متجهة فى أغلب الأحيان الى تحقيق المصالح القبلية أو الوطنية ، دون تسامح فى ما بينها وفى بعض الأحيان أدى الاختلاف بينها الى نزاع دموى . وربما كان علينا أن نتعلم كثيرا — كما ذهب فيلسوف حديث <sup>(٥)</sup> — من الفلسفات الدينية الشرقية المتميزة بأنها أكبر مرونة وشمولا مما عداها . والدين الذى يعمل على تنمية الوعي العالمى قديمتل فيه بحق أقرب المعانى الى أن يلتقى الناس جميعا بعضهم مع بعض بقوة مجموعة من قواعد السلوك

(١) فى الأصل « نشأت » . — المترجم

(٢) مرتبة حسب تاريخ ظهورها . — المترجم

(٣) ديانة يابانية قديمة تقوم على عبادة الأسلاف . — المترجم

(٤) من رأينا أن كلام المؤلفين أكثر انطباقا على أتباع هذه الديانات لا على المثل العليا التى نادى بها الديانات نفسها وعلى الأخص الاسلام والمسيحية . — المترجم

F.S.C. Northrop, *The Meeting of East and West* (New York, 1946), (٥) especially Chaps. IX and X.

الخلقية الخاصة . غير أن هذا الدين لا يكون له في هذه الحالة أن يملئ سلطات أخلاقية ، إذ أنه بعد أن تكون له هذه المنزلة السامية لا يجوز أن يحدد القواعد الخلقية للمناسبات المختلفة في حياة الانسان . ولا ينتظر أكثر الناس كما كانت الحال في العصور الوسطى أن تضع الكنيسة قواعد سلوكية دقيقة تمس أخلاقيات الاحتكار والربا . وإذا كنا قد لاحظنا قصورا على الديانات المحافظة في العالم الحديث فإن هذا القصور أكثر انطباقا على الديانات الأكثر انفساحا . وإذا كانت الاخلاق قد فقدت بذلك محلا لها مهما كان هذا المحل قد ربطها الى عجلة الماضي البعيد ، فهناك على الأقل تعويض بأن أخلاقية أكثر تحررا منبثقة عن ضمير الفرد وممارسة الخير والشر أصبحت من الممكن أن تقوم .

### العادة الجمعية والقانون :

معنى القانون والعادة الجمعية : أشرنا في فصول سابقة الى الصفة الخاصة التي يتمتع بها القانون الذي تسانده الدولة ، وهو القانون الذي تقف من ورائه وحده في المجتمع الحديث سلطة القوة غير المشروطة . ولجميع مقاييس السلوك الاجتماعي ، على التحقيق ، بعض صفات السلطة كما يبدو في الجزاءات التي تحييها ، ولكن جزاء القانون في هذه الناحية فريد في نوعه . وهذه الحقيقة تمكنا من أن نرسم حدا فاصلا بين القواعد القانونية العامة وقواعد الهيئات أو الروابط التي ينتمى اليها الفرد ، فقواعد هذه الهيئات تنفيذها مشروط بقيام العضوية فيها . والاخلال بها لا يؤدي الى أكثر من فقدان العضوية أو بعض الحقوق أو الامتيازات المتصلة بها . أما قوانين الدولة فقاهرة بأوسع المعاني . ولا يمكن تفادي جزاءاتها بمجرد التضحية بالعضوية ولا ينبغي أن نخلط بين القواعد التي تركز على سلطة الدولة وبين تلك

تالتى تفرضها الأندية والكليات العلمية والكنائس والمؤسسات الاقتصادية. والقانون أو الاصطلاح الذى سنستخدمه فى هذا القسم من الفصل ، نقصد به القانون الذى تحييه الدولة وسننظر اليه بسبب امكان تطبيقه تطبيقا عاما وشاملا ، باعتبار أنه حافظ للمجتمع نفسه (١) .

١ - الصفة المميزة للقانون : القانون مجموعة القواعد التى تعترف بها محاكم الدولة وتشرحها وتطبقها على الحالات الجزئية وهو مشتق من مصادر عديدة تشمل العادات الجمعية ، وقد أصبح كذلك من اللحظة التى أعدت الدولة فيها نفسها ، ممثلة فى محاكمها ، للدفاع عنه كأمر يلتزم الجميع طاعته ، مواطنون أو مقيمون .

وكثيرا ما أدت التعاريف الناقصة للقانون الى الخلط فى هذا الموضوع . فالقانون ليس مجرد أحكام وضعها المشرع كما أنه ليس النظام الذى يبين أغراض هيئة ما ووسائلها ، وليس القانون قاعدة خلقية تأمر بأداء الصواب من الأفعال وتنهى عن ارتكاب ما هو خطأ . والقانون أبعد ما يكون عن أى نوع من القواعد التى يفرض المجتمع طاعتها على الأفراد — وهذا تصور نجده أحيانا عند فقهاء القانون والأثروبولوجيين ( علماء الاجتماع المقارن ) على السواء ويرى هؤلاء الكتاب أن قواعد السلوك الاجتماعية أدت فى بعض المجتمعات العمل الذى يقوم به القانون فى الوقت الحاضر ، ولذلك فهم يعرفون القانون بحيث تدرج تحته جميع هذه القواعد . وقد أشار أحد المشتغلين بالقانون الى أن الاستخدام المشروع للقوة ظاهرة حديثة نسبيا « اذا ابتعدنا عن النظم المتقدمة كنظم الامبراطورية الرومانية الحديثة والحكومات الغريبة الحديثة فاننا لانجد القانون وحده وانما

---

See R.M. MacIver, *The Modern State* Oxford, (1926), Introduction (١) and Chap. VIII, and the same author's *The Web of Government* (New York, 1947), Chap. IV.

القانون مصحوبا بإجراءات رسمية ضخمة كان موجودا من قبل أن يكون للدولة الوسائل الكافية لفرض احترامه — بل وفي الحقيقة كان موجودا من قبل أن توجد عمليات منتظمة لاستخدام القوة» (١) . ومعنى هذا أن القانون تحت تلك الظروف لم يكن مميذا تماما عن القواعد المتضمنة في العادات الجمعية والقواعد الخلقية . ونحن لا يمكننا أن نعرف ظاهرة اجتماعية الا اذا ظهرت لنا متميزة تماما بحيث تكشف لنا عن طبيعتها الخاصة بها دون سواها . والطبيعة المميزة للقانون في المجتمع الحديث تبدو في صفة القهر والشمول المرتبطة به ، والتي تسندها قوة الهيئة المسماة الدولة (٢) .

٢ - الصفة المميزة للعادة الجمعية : للعادة الجمعية كذلك طبيعتها الخاصة المتميزة . وبينما نجد في أغلب الأحوال رغبة في أن يصنع القانون . وأن يطبق بقوة الدولة فإن العادة الجمعية تختلف من حيث كونها اجراء تتبعه الجماعة ويتصف بأنه ظهر بالتدريج دون رغبة صريحة في أن يصنع ودون سلطة رسمية لاعلانه أو تطبيقه أو حمايته . ان العادة الجمعية يساندها الميل العام نحو قبولها . فليست هناك سلطة خاصة تصدر الأوامر للناس بأن يرفعوا القبعة احتراما للسيدات أو أن يدفعوا « الاكراميات » لخدم المطاعم أو لجعل مواعيد المقابلات يوم الخميس . أو يوم الأحد أو الخروج الى الحدائق العامة يوم شم النسيم (٣) . والعادات الجمعية هي الأكثر تلقائية من بين قواعد السلوك الاجتماعية.

(١) F. Pollock, First Book of Jurisprudence (London, 1913), London, 1923).

For various definitions of law and somewhat different conclusions, see (٢) .

N. S. Timasheff, *An Introduction to the Sociology of Law* (Cambridge, Mass., 1939), Chap. XII, and G. Gurvitch, *Sociology of Law* (New York, 1942), pp. 50-60.

(٣) قدمنا هنا بعض الامثلة المستمدة من البيئة العربية بدلا من البيئة

وفي الغالب أشدها إجباراً — إلا أنها تستند الى جزاءات تختلف عن جزاءات القانون التي تتميز باستخدام القوة المنظمة . ان جزاءاتها عبارة عن مظاهر متعددة من الضغط الاجتماعي غير الرسمي (أنظر البيان التوضيحي رقم ٥) وتمتزج العادات الجمعية بنفوسنا وقلوبنا لدرجة أننا ما لم تفكر في حقيقة أمرها جدياً لا يمكن أن ندرك لأول وهلة كيفية تغلغلها في كل مناسبة من مناسبات حياتنا ، أو الطريقة التي تنظم بها العادة الجمعية أعمالنا من طلوع النهار حتى حلول الليل ومن الشباب الى أن يتقدم بنا العمر . وتتصف هذه العادات بأنها طرق للتصرف وتأخذ في الظهور بأساليب مختلفة ، منها الصدقة ، والمحاولة والخطأ والتجربة . وعندما يتم اصطناعها لا يبقى الا اتباعها وتقليدها وقبولها ببساطة ودون تعرض لأي قهر ضمن الآداب الاجتماعية العامة . وهي تضعف وتختفي بنفس الكيفية أيضاً ، أي دون الغاء رسمي ولا يلاحظ اختفاءها الا بعض كبار السن الذين يذكرون الماضي على الدوام ذكراً حسناً .

**عدم كفاية العادة الجمعية في المجتمع الحديث :** ليست الحاجة ماسة عادة الى تشريع قانوني قائم بذاته في الأحوال الاجتماعية البدائية والبسيطة . وفي مثل هذه الظروف تتولى العادة الجمعية تنظيم السلوك في حياة الأفراد . ان المجتمع البدائي يقوم على علاقات مباشرة بين أعضائه . وكل من هؤلاء يجاور جميع الآخرين في المعيشة ولا يستطيع أن يفلت من دائرة أحاديث الناس أو الرأي العام للجماعة أو من خضوعه للضبط الاجتماعي الذي يمارسه مجتمعه عليه وعلى أقرانه . ومن النادر أن ينشأ في مثل هذا المجتمع وضع جديد لا تجد له عادات الجماعة حلاً . فان العادة الجمعية بما وراءها من قوة اكتسبتها بحكم التقاليد تنظم كل مناسبة في حياة الجماعة وترسم لكل عضو من أعضائها حقوقه وواجباته ، كما تعمل على التوفيق بين مطالبه ومصالحه من جهة وبين مطالب الجماعة ومصالحها .

من جهة أخرى (١) . وكلما اتجهنا من الأحوال البدائية الى المتقدمة وجدنا من مقتضيات الحياة في المجتمع أن يضاف الى قواعد العادات الجمعية قواعد اجتماعية جديدة للسلوك وعلى الأخص تشريع قانوني .

١ - لماذا يجب أن يلحق القانون بالعادة الجمعية : هناك أسباب متعددة تدعو الى أن يلحق القانون بالعادة الجمعية في المجتمع الحديث المتحضر .

اولا - الحاجة الى وكالة خاصة : لما كانت العادة الجمعية تقتصر الى سلطة قانونية تنوب عنها في حالات النزاع أو خرق النظام المتبع ، فمن الطبيعي أن تكل الى الطرف المعتدى عليه حق الدفاع عن حقوقه بنفسه ضد الطرف الآخر . ان العادة الجمعية تسمح له أن يأخذ بالثأر ، لكي ينتقم لنفسه أو يعاقب خصمه . وهذا هو السبب الذي من أجله ترتفع نسبة الجرائم ضد الأشخاص في المجتمعات الريفية البسيطة عنها في المدن الكبيرة . ومما لا شك فيه أن الثأر الشخصي والمعارك التي تترتب عليه تسبب اضطرابات تضر بمصالح بقية أفراد الجماعة في الوقت الذي نرى فيه هذه المصالح تزداد تعقدا وتوقفا بعضها على بعض في المجتمع

---

(١) يرى مالينوسكى أن هناك « مجالا للتشريعات القانونية » في كل المجتمعات ومن بينها المجتمعات البدائية انظر :

B. Malinowski in *Crime and Custom in Savage Society* (New York, 1926),

ومع ذلك فان الأدلة التي قدمها تنصب على مستويات مختلفة من ضبط العادات الجمعية وليس من التشريعات القانونية المنفصلة

Cf. Timasheff, op. cit., pp. 275-281.

### - المؤلفان

والتوفيق بين الرايين نقرر ان مالينوسكى وغيره من الاثروبولوجيين الاجتماعيين يرون في العادات القومية تشريعات أو قوانين غير مكتوبة وكثيرا ما يتحدثون عن القوانين قبل عهد انشاء المحاكم ويستدلون على ذلك بقواعد قانونية غير العادات القومية تأخذ بها الجماعات البدائية . - المترجم

المتحضر . وفي هذه الحالة يحتاج الأمر الى قانون يوكل عنه مظاهر القوة .  
للمحافظة على هذه المصالح دون اراقة دماء (١) .

**ثانيا - الحاجة الى التوافق السريع ازاء الاحوال المتغيرة :** لا تستطيع  
العادة الجمعية أن توفق بينها وبين الاحوال المتغيرة وتتلاشى سلطتها في  
المجتمعات المعقدة حيث تأخذ العلاقات غير الشخصية مكان العلاقات  
الشخصية وحيث نجد الأفراد بعيدين عن الضغط المباشر للجماعة بوجه  
عام . والعادة الجمعية دليل واضح ومفيد فقط في الاحوال التي يمكن أن  
تفيد فيها الأساليب القديمة للجماعة في حل المشاكل الجديدة . وحينما  
تسبب الأساليب الجديدة اضطرابا في الأساليب القديمة للحياة مثل ما حدث  
في انجلترا في القرن السادس عشر عندما طبقت اقتصاديات نقدية جديدة ،  
ظهرت الحاجة الى سلطة جديدة ونوع آخر من القوانين التي لا تنمو ببطء  
وانما تصنع بصفة خاصة لسد الحاجة الناشئة عن الأوضاع الجديدة ؛  
فقد كانت قواعد « السير في الطرق » فيما مضى خاضعة للعادة ولكن  
عندما اخترعت السيارات نشأت أحوال جديدة استلزمت سن قوانين  
جديدة للمرور . كذلك في الأيام الأولى لانتشار الراديو كان استخدام  
الأثير حرا ، ولكن عندما حدث التوسع في صناعة الراديو اقتضى الأمر  
تشريعات جديدة . ولا يستطيع شيء سوى القانون أن يمشي مع  
التغيرات الجديدة التي تجيء بها الحضارة الحديثة مع أنه كثيرا ما يحدث  
تباطؤ في سن القوانين الجديدة اللازمة في مثل هذه الحالة .

**ثالثا - الحاجة الى وكالة شاملة :** نلاحظ في المجتمعات المعقدة وجود  
زمر مختلفة وطبقات اجتماعية وجماعات محلية وبشرية مختلفة لكل منها  
عادتها الجمعية . وعلى ذلك فمن الضروري في مثل هذه الحالة اذا رُئى

---

(١) See J. Dickinson, "Social Order and Political Authority", *American Political Science Review*, XXIII, (1929), 324 ff.

وضع قاعدة واحدة مرغوب في تطبيقها على الجميع مثل ضمان حرية التعبير أو تكافؤ الفرص في التعليم فلا بد من الالتجاء الى القانون .

رابعاً - الحاجة الى حاكم ذي نفوذ حيثما يجب الالتجاء الى القوة المنظمة : ان العادة الجمعية تعتبر أشد تأثيراً في الأحوال التي لا توجد فيها قوة اجتماعية منظمة يعتقد بها سواء أكانت هذه القوة عسكرية أم اقتصادية . ومثل هذه القوة تصنع قواعداً طارحة جانباً العادات الجمعية . وللعادة الجمعية وسائل دفاع ضعيفة لمواجهة القوة المنظمة والذين يأخذون بمبدأ القوة ومعهم الذين يخضعون لها يحتاجون دائماً لحاكم ذي نفوذ يتمثل في محكم أو قاض . والقاض بالرغم من أنه يبدأ عمله في قض أي نزاع بتفسير العادات الجمعية والدفاع عنها نراه ينتهي آخر الأمر الى أن يكون صانع قانون . وهذه هي قصة واضعي القوانين المشهورين في العالم القديم مثل موسى وحمورابي وصولون .

## ٢ - وظائف التشريع القانوني وقصوده : تساعدنا نفس الأحوال

التي تفسر مولد القانون في توضيح ما يطرأ عليه من نمو كبير في الدول الحديثة . ومجموعة القوانين تتعرض دائماً للزيادة والتعديل لسد الحاجة في المواقف الجديدة أو التطبيقات في الحالات الخاصة . ويتم بعض هذا بواسطة التشريع المباشر والبعض الآخر بالشروح القانونية . وقد أدت التطورات الصناعية الحديثة الى اضافة هائلة الى التشريعات ، كما أدت التطورات الأخيرة في الطاقة الذرية الى سن قوانين جديدة في بلادنا كما ستؤدي الى أكثر منها في المستقبل . وهناك عامل آخر ساهم في زيادة مجموعة القوانين وهو توكيد السلطة التي ما أن تستقر حتى تحتاج الى نفوذ يقويها والى تنظيم جديد يتلاءم مع ضغط المصالح المختلفة . وفي الحق أن نمو القوانين بهذه الدرجة الكبيرة قد أفزع المواطن العادي في

المجتمع الحديث كلما ووجه بتعقيداته وبضخامته مما يضطره الى الشعور الدائم بحاجته الى الاعتماد على المحامين أو الاختصاصيين في القانون .

وقد تعلمت الدول الحديثة بالتدريج من طريق التنازع بصفة خاصة أن هناك بعض الأمور التي لا يستطيع القانون أن يضبطها . فهو لا يقدر بوجه عام على أن يقوم مقام العادة الجمعية أو الأخلاقيات السائدة في المجتمع . فهو يعجز من غير تدمير القيم — التي يعمل على المحافظة عليها — دون خلق معتقدات دينية أو غيرها من أشكال المعتقدات وكل ما يستطيعه القانون هو أن يأمر بأداء واجبات معينة من الناحية الشكلية الخارجية، وهو على ذلك بعيد كل البعد عن قيم الأعمال في ذاتها ، تلك الأعمال التي تعتمد اعتمادا كليا في أدائها على الروح وهذه لا يقوى القانون على السيطرة عليها . وربما نجد مثالا يوضح وجهة نظرنا خيرا من ذلك المثال الذي قدمته لنا النظم السياسية التي أنكرت الروح وأهميتها ، ولقصد بذلك حكومتى ألمانيا وإيطاليا اللتين استعانتا بالقانون وتأييد سلطان الدولة على المحاولة التي لم يكتب لها الا نجاح محدود والخاصة بالسيطرة على المسائل الخاصة والداخلية عند الأفراد مثل المعتقدات الدينية وممارسة العبادات . وفي روسيا السوفيتية بالرغم من سلطتها المركزية القوية نجد أن الكنيسة مثلا قد استطاعت أن تزيح عنها أكفان النسيان التي أرادت الدولة أن تدثرها بها . ان القانون أداة حكومية وطبيعة هذه الأداة تحدد قدراتها وقصورها .

ويمكن أن نلخص الوظائف الكبرى للقانون على النحو الآتي : —

١ — صيانة النظام الأساسى الذى يجد فيه الناس الأمن والأحوال الداعية الى توزيع الفرص توزيعا عادلا .

٢ — التوفيق بين المصالح المتنازع عليها بين الأفراد أو الجماعات اذا لم يمكن أن تعض بغير القانون أو التي اذا فضت ترتب على قضائها

اعتداء على مصالح الآخرين . ويبقى بعد هذه المجالات التى ذكرناها مجالات أخرى قابلة للمناقشة مثل الصراع الاقتصادى الذى لم توضع له بعد القوانين اللازمة . ولكن فى المجتمعات الحديثة يجب أن نعتزف بأن الالتجاء للتشريع يجرى على نطاق واسع (١) .

**مظاهر الاصطدام بين القانون والعادة الجمعية :** . حينما يهاجم قانون خاص أية عادة اجتماعية شائعة فى أية جماعة محلية يضطر اضطرارا كبيرا الى أن يعتمد على الجزاء الخطر كما نعلم وهو استخدام القوة الا أن لدى العادة الجمعية موضع المهاجمة تفوقا يرجع الى أنها تطاع بطريقة أكثر تلقائية . فهى لا تبدو أنها آتية إلينا من خارج نفوسنا ومطالبة إيانا بطاعتها توا . وهى لا تبدو لنا متضمنة السلطة على رغباتنا اما من أجل الآخرين أو باسم السلطة كما يفعل القانون اذا لم يستعن بتأييد العادة الجمعية ، وعلى ذلك فالقانون الذى يهاجم عادة جمعية شائعة يتعرض ، حتى لو لقي أغلبية من المؤيدين ، الى الافتقار الى مسوغ للتأييد لا بد منه اذا أريد له أن يكون قانونا فعالا وهو على كل حال يخلق قوة مقاومة . تعرض سلطته للخطر . واذا لم يستعن هذا القانون بالأحوال الاجتماعية الملائمة لنمو عادة جمعية تؤيده فان من المحقق أن يفشل .

١ - بعض الأمثلة : أنظر مثلاً قوانين أيام الأحد (القوانين الزرقاء) التى تتميز بها كتب التشريع فى الولايات المختلفة بأمريكا وهذه القوانين لا تتفق مع العادات الجمعية القائمة فى الوقت الحاضر . وليسترجع القارئ قانون فولستيد الذى كان قد هاجم العادة الجمعية الشائعة والمستقرة . منذ زمن طريل بشأن تناول المشروبات الروحية وهذه العادة مرتبطة بصفة خاصة بكثير من التقاليد فى المناسبات الاجتماعية المختلفة ، وكلنا يعرف

(١) انظر لمناقشة وظائف القانون وقصوره بشئ من التفصيل الفصل الثامن عشر فيما بعد .

أنه في آخر الأمر انتصرت العادة الجمعية القديمة على هذا القانون .  
وبالتأكيد لا يستطيع القانون أن ينجح بصفة دائمة إذا قاومته عادات  
اجتماعية قوية تمتد جذورها الى الماضي البعيد . ومن الأمثلة التي تلتفت  
النظر مسألة الغاء «التعديل الرابع عشر» في احدى المناطق الهامة كنتيجة  
حتمية خضوعا للظروف القائمة التي تجعل للبيض موقفا خاصا ازاء الملونين  
ليس فقط في جنوبى الولايات المتحدة ولكن - الى حد كبير - في  
جميع الولايات . وحتى عهد قريب كانت الشروح القانونية الخاصة بهذا  
التعديل تحليليا قصد به احترام العادات التي كان التعديل قد أنكرها .  
وهناك أيضا التشريع الحديث جدا الخاص ببعض الولايات والمقصود به  
منع التمييز في الوظائف على أساس الجنس البشرى أو اللون أو الدين  
وبينما تؤدي مثل هذه القوانين الى الحد من التمييز العنصرى وغيره فانها  
لا تستطيع وحدها أن تسيطر سيطرة تامة على العادات الجمعية التي يأخذ  
بها أفراد الشعب الذين تستند مواقفهم المختلفة الى الجهل والتحيز الشائع  
جماعيا . هذه كلها أمثلة ذات مدلولات في الحياة المعاصرة وهى لا توضح  
الصراع بين القانون والعادة الجمعية وقصور القانون فحسب ، وانما تبين  
كذلك مسألة هامة مؤداها أن القانون الفعال يحتاج في ذاته الى تأييد  
اجتماعى من خلف شكلياته .

## ٢ - الحاجة الى كلا النوعين من القواعد في الحياة الاجتماعية :

كثيرا ما ننسى أن العادة الجمعية تعمل على خلق نظام اجتماعى خاص بها  
وذلك كلما ناقش الصراع بين العادة الجمعية والقانون . ومن المناسبات  
التي يؤسف لها وجود تعارض بين القانون والعادة الجمعية ، وذلك لأن  
الناس يفضلون دائما أن يسلكوا طريق العادة مفضلين اياها على طاعة  
القانون وليس معنى ذلك صراحة أنهم بهذا العمل يختارون بين احترام  
القانون والفوضى . ومما يتضح لنا بشكل ملموس في الحياة داخل

المجتمعات الواقعة على الحدود بين الولايات المختلفة التي لعبت دوراً كبيراً في تاريخ بلادنا . ان الناس هناك كثيراً ما يضطرون الى المفاضلة بين قوانين وقواعد هذه الولاية أو تلك ، كمادة تعذيب الزوج بالرجم أو غيره أو قانون المحاكمة . ونحن كمواطنين ملزمون باحترام القوانين والعادات معا . وبالرغم من أن للقانون المكان الأول فإن القوانين والعادات معا ضرورية لصيانة الحياة في المجتمع وأما المشكلة التي تواجه الفرد الذي يضطر الى المفاضلة بين العادات والقوانين فسنواجهها في الفصل التالي :

توقف كل من القانون والعادة الجمعية على الآخر : رأينا فيما سبق أن كلا من القانون والعادة الجمعية نشأ ونما منفصلاً عن الآخر . ولكنهما ما زالا من عدة نواح متوقف بعضهما على بعض . ويتبني أن نذكر أن العادات الجمعية تنمو تلقائياً وتظهر بالتدريج بينما القوانين تخلق وتظهر عند وضع التشريع أو الاعتراف بها . وهنا تحوط العادات القانون ذاته . والقوانين التي تعتمد بوجه عام تبعث في الناس مواقف وتدعوهم للقيام بتصرفات معينة تنشأ عنها بالضرورة عادات جديدة وهذه بدورها تساند القوانين . وفي الحقيقة اذا لم تكن العادات موجودة أو تنشأ لتقوية القوانين تعرضت الأخيرة الى الزعزعة وعدم القدرة على ضبط الجماعة .

١ - العادات الجمعية كمكملة للقوانين : لا تصبح العادة الجمعية مساندة للقانون في الظروف والأحوال العادية فحسب ولكنها كذلك تكمل القانون وتمهد الطريق لتطوره . فمثلا العادات المتعلقة بالأعمال التجارية والملتقة حول القانون تصبح في أحوال كثيرة جزءاً منه ، مثل مهلة الثلاثة الأيام لسداد الحساب المطلوب <sup>(١)</sup> ، أو بوجه عام ادخال عمليات التسعيرة

(١) J.C. Gray, *Nature and Sources of the Law* (New York, 1927), p. 282.

في القوانين . ومن جهة أخرى يضع القانون شروطا تخلق عادات جمعية جديدة . وعلى ذلك فالتشريع الصناعي ، مثل القوانين التي تنظم ساعات العمل أو تفرض استكمال الشروط الصحية أو تبين خطوات المساومة الجماعية ، تعمل على تقويض العادات القديمة وتمهد الطريق لعادات جديدة . والقوانين التي تنظم التدريب العسكري تجلب لنا عادات جديدة مرتبطة بالحياة والنظم العسكرية — كما لاحظنا في هذه البلاد (الولايات المتحدة الأمريكية) في السنوات الأخيرة — في حين عملت القوانين التي أوقفت هذا التدريب على إزالة الأحوال التي تركز عليها هذه العادات الجمعية (١) . وإذا عدنا الى مثال ذكرناه منذ لحظة بشأن تشريع عدم التمييز في الوظائف بين المتقدمين اليها أمكننا أن نخمن أن اعتماد مثل هذه القوانين والعمل على تقويتها باستمرار ربما أثر في العادات الجمعية المتعلقة بالتمييز العنصري وغيره . ومع ذلك فالقانون يكون شديد التأثير في تعديل العادة الجمعية بكيفية غير مباشرة من طريق خلق نظام جديد لا تلائمه هذه العادة ، وليس بمهاجمتها بطريق مباشر .

٢ - القانون الدستوري والعادة الجمعية : يتصل القانون الدستوري أو القانون الأساسي أكثر مما عداه من القانون الذي ناقشناه حتى الآن ، بالعادات الجمعية . ومع أن القانون الدستوري قد صيغ جزئيا في وثائق خاصة ، فانه يعيش بالعرف وتنمو حوله مجموعة من مقتضيات العرف تعمل على تقويته أو تعديله أو حتى إلغاء أجزاء من صيغته المكتوبة ، فالعادة التي تدعو بالآلا يتقدم رئيس الجمهورية لترشيح نفسه للرياسة مرة ثالثة أيدت الدستور الأمريكي — وهذه سابقة لم يعرقل أحكامها

(١) Morroe Berger, "Law and Custom in the Army" *Social Forces*, XXV. (١)

82-87, and "Cultural Enforcement in the American Army", *Journal of Legal and Political Sociology*, IV. (1946), 96-103.

الا انتخاب فرانكلين د . روزفلت مرتين أخيرا ، مما أدى الى ظهور محاولة لاصدار تشريع يمنح العادة القديمة صفة القانون ، تلك العادة التي تجعل من حق هيئة انتخاب الرئيس أن تعدل الدستور على أسس حزبية . وكذلك نجد أن العادة الجمعية في بعض الولايات ، والتي تنحو نحو التفريق بين الحقوق السياسية لكل من البيض والسود قد ألفت في الواقع بعض أحكام الدستور . ولقد أصبحت دراسة الحكومة الأمريكية في الحقيقة والى حد كبير دراسة لدور الاجراءات التقليدية التي تكمل القانون الأساسي للبلاد .

ومما هو أكثر وضوحا الدور الذي تلعبه العادة الجمعية باسم «دستور غير مكتوب» مثل الدستور الانجليزي حيث نجد أشكاله القديمة عرضة في كل موضع لنمو السلوك التقليدي ، فمن الناحية الشكلية يستطيع الملك أن يرفض اعطاء موافقته على مشروع قانون وافق عليه مجلسا البرلمان ، ويمكن لمجلس الوزراء أن يبقى في الحكم بعد أن فقد الثقة به في مجلس العموم وهكذا . ولفظ «يستطيع» أو «يمكن» الشكلي يصبح بحكم العادة الجمعية « لا يستطيع » أو « لا يمكن » ومن القروق بين القانون الدستوري والقانون العادي أو « تشريعات » البلدية أن في الحالة الأولى لا تعتبر العادة الجمعية فقط مجرد مصدر وتأيد للقانون بل جزءا لا يتجزء من النظام <sup>(١)</sup> . وهذا القول ينطبق كذلك على مجموع القواعد النامية التي نسميها القانون الدولي حيث نجد الاجراءات المألوفة في العلاقات الدولية والقواعد القانونية متوقفا بعضها على بعض توقفا شديدا .

---

(١) لمعرفة الفارق بين القانون الدستوري وقانون البلديات انظر :

MacIver, *The Modern State*, Chap. VIII, sec I.

## العادة المستحدثة والعادة الجمعية

كيف تختلف العادة المستحدثة عن العادة الجمعية : كثيرون من علماء الاجتماع جعلوا من العادة المستحدثة ضدا للعادة الجمعية . وقد اعتبر هربرت سبنسر العادة المستحدثة أداة للمحافظة على مستوى العادة الجمعية وبصفة خاصة التمييزات المتواضع عليها بين الطبقات الاجتماعية<sup>(١)</sup>. وكان من رأيه أن العادة المستحدثة تثبت حينما تضعف العادة الجمعية، وقد ربط كلا الاتجاهين بنمو التصنيع : وعرف جبريل تارد العادة المستحدثة بأنها «تقليد المعاصرين» وأقامها كضد للعادة الجمعية التي وصفها بأنها «تقليد الأسلاف أو الموتى»<sup>(٢)</sup>. ولكن لا أحد من هذه الآراء مرض ارضاء تاما من ناحية كشفه عن العلاقة بين العادة الجمعية والعادة المستحدثة ، وهي علاقة ذات أهمية في دراسة التركيب الاجتماعي والتغير الاجتماعي .

١ - معنى العادة المستحدثة : نحن نقصد بالعادة المستحدثة ما يقره المجتمع من تغير متتابع يتصل بأحد موضوعات العادات الجمعية . وتحدث تغيرات العادة المستحدثة في صورة تتابع منتظم في الغالب — أو «دورة العادة المستحدثة» كما تسمى أحيانا — ويقع تأثير العادة المستحدثة في جوانب العامل الثقافي التي يعتبرها المجتمع غير ذات أهمية نسبية فيما يتعلق بالقيم الرئيسية . وتتصل العادة المستحدثة بأمور مثل الآراء والمعتقدات والتسلية واللباس والزينة بجميع أنواعها وزخرفة المنزل والأثاث وطريقة التحدث والموسيقى الشعبية والأدب والفن . وفي جميع هذه المجالات لا تحل العادة المستحدثة محل العادة الجمعية كلية ولكنها بالأحرى تكملها ، واذن ففى كل مرحلة زمنية نمط تقليدى للملابس مثل « بنطلونات » الرجال

(١) Spencer, op. cit., II, 205 ff.

(٢) Laws of Limitation (E.C. Parsons, tr. New York, 1903), Chap. VII.

أو للتأليف الخيالى مثل القصة ، أو لكتابة الأغاني مثل الشعر القصصى ،  
ويصيبها التغيير من وقت لآخر بحكم العادات المستحدثة . وربما أثرت  
العادة المستحدثة بالطبع من طريق هذا التغيير المتصل فى تقاليد المجتمع  
ومهدت الطريق لغيرها . وزيادة على ذلك يميل موقف الأفراد المرتبط  
بالعادة المستحدثة كما سنرى الآن الى اضعاف تعلقهم بالعادات الجمعية .

## ٢ - العادة الجمعية التقليدية والعادة المستحدثة المتغيرة : تختلف

العادة الجمعية عن القانون من الناحية التلقائية فى الظهور والسرعة فى  
تطبيق الجزاء عند مخالفة أحكامها . وتختلف العادة الجمعية عن العادة  
المستحدثة من حيث قدرة الأولى على البقاء زمنا طويلا وصلاتها القوية  
بالحياة الجسدية الداخلية ومزاجها وصفتها التقليدية . وأما العادة المستحدثة  
فهي بالتأكيد غير تقليدية وضد البقاء . وهي تضبط نواحي السلوك المختلفة  
ومظاهره وبوجه عام النواحي الأكثر سطحية التى يسهل انفلاتها من سيطرة  
العادة الجمعية . ويتمثل أقوى مظاهر التغير فى العادة المستحدثة ، فى  
التحمس الأهوج وحالات الهوس التى تدعو الى تفضيل مهرج أو مطرب  
معين حركة خاصة فى لعبة رياضية أو طريقة خاصة لتحية الأصدقاء ،  
وتنسى هذه الأمور جميعا بأسرع وقت (١) .

ويوجد فى مجال اللباس نماذج عامة من الملابس حددت العادة الجمعية  
ارتدائها فى مناسبات خاصة ، مثل حفلات الزفاف والجنائز والريضة ،  
أو فى فصول معينة من السنة أو أوقات خاصة من النهار ، بينما تظل هذه  
النماذج عرضة للتغيير والتنظيم بواسطة العادات المستحدثة . وفيما  
يتعلق بالتسلية نجد أن بعض الألعاب مثل كرة القدم وكرة السلة والتنس

(١) انظر العلاقة بين العادة الجمعية والعادة المستحدثة والتحمس  
الأهوج فى المقال الآتى الممتاز : B. Sapir, "Fashion," *Encyclopaedia of the*  
*Social Sciences* (New York, 1935), VI, 139-144.

والبيزبول والبردج أصبحت في بلد مثل الولايات المتحدة الأمريكية جزءاً من عادات السكان الجمعية المتعلقة بالتسلية . غير أنه من خلال هذه اللعبات ومن حين الى حين ومن مكان لمكان تتغير العادات المستحدثة كما هو معلوم للملمين بتاريخ الألعاب الرياضية <sup>(١)</sup> . وبنفس الكيفية تحدد العادة المستحدثة في مجالات السلوك الاجتماعي الأخرى ما لم يعد متبعاً من المظاهر العامة للعادات الجمعية .

ومع ذلك ففي بعض الأحيان تصر العادة المستحدثة على المضي باستمرار في نفس الاتجاه . وفي هذه الحالة تتكشف بعض العوامل الخفية المفسرة لهذا الأمر . ويترتب على ذلك أن تدمر العادة المستحدثة في النهاية العادة الجمعية التي لم تكن في البداية الا مجرد مستقبلة لمظهر جديد أو لثوب جديد . فمثلاً قد أدى تعود المرأة أن ترتدى ملابس بأزياء معينة وقتاً طويلاً الى أن تختفى ملابس أخرى كن يلبسها بحكم العادة الجمعية في الماضي وأن تصبح قديمة مخالفة لاتجاه الذوق العام والى أن يحصل تكبير في تغيرات كبرى في مركز المرأة ومقاييس السلوك الجنسى وغير هذا من العوامل الثقافية في المجتمع . وكذلك عملت نفس المؤثرات في تحديد اتجاه العادات المستحدثة في ملابس اللعب للرياضيين من ناحية . تعليلها بوجه عام باستمرار ، مما ساعد على الانتقال من الاستحمام الى رياضة السباحة ومن «تنس الحديقة» الى اللعبة الحديثة العنيفة . وبنفس الطريقة قد تؤدي العادة المستحدثة الى اختفاء بعض الاتجاهات التقليدية في الفن والأدب والموسيقى ، ثم تخلق بدلاً منها اتجاهات جديدة وعادات جمعية جديدة .

---

(١) هنا تصرف في الترجمة اقتضى حذف بعض اللعبات الأمريكية غير المعروفة للقارئ العربي .  
- المترجم

**العادة المستحدثة والمصطلح الأخلاقي وآداب اللياقة : لقد أدى كون**

العادة المستحدثة قد اتخذت موضوعا لها المظاهر المتغيرة للعادات الجمعية التقليدية يساعدنا في أن نميز العادة المستحدثة عن الظواهر الاجتماعية الأخرى التي كثيرا ما يحدث الخلط بينها جميعا ، أن العادة المستحدثة فيما نرى عرضة لأن تختلط بصفة خاصة مع أشكال العادة الجمعية التي نسميها المصطلح الأخلاقي وآداب اللياقة (أنظر البيان التوضيحي رقم ٥) .

**المصطلح الأخلاقي وآداب اللياقة كجوانب من العادات الجمعية :**

يحدد المصطلح الأخلاقي مظاهر العرف الواجبة التي تقوم على أساس من الاتفاق الاجتماعي الخالص وليس من مغزى العلاقة بين العرف والمعنى المرتبط به . وللمصطلح الأخلاقي أشكال متعددة ، مثل الاتفاق الحدي على تجاهل أحد المواقف الذي قد يؤدي عدم تجاهله ثم التعليق عليه علنا الى خلق صعوبات ، ومثل الميل لحفظ العلاقات مع الآخرين في مستوى سطحي أو بشيء من التصنع وكذلك مثل قبولنا الافتراض أن شخصا يعمل بوحى من بواعث مثالية حينما نعتقد أنه قد استنفد كل ما لديه من أنانية ولم يعد عنده منها مزيد أو أن تصرفه يمكن أن ينطوي على مظاهر تبل أقل مما صدر عنه . وعندما يتأدب أستاذ أثناء حفلة في الجامعة مع زميل له وهو لا يحبه ، أو عندما يجلس الطالب هادئا بينما يقرعه أستاذه أو ينقد ذكاءه ويتحدى صبره فإن كلا منهما في هذه الحالة يكون عاملا بمقتضيات المصطلح الخلقى . وهذا النوع من القواعد السلوكية من شأنه أن يحفظ نوعا من التضامن نرى أنه وإن كان سطحيا إلا أنه لا يخلو من فائدة .

وأما آداب اللياقة فتمدنا بتفاصيل ما ينبغي أن يصدر عنا من أقوال أو أفعال في مناسبات الحفلات . وبينما يقوم المصطلح الأخلاقي بتغطية موقف اجتماعي منحرف نجد في آداب اللياقة مجموعة من القواعد

محددة تحديدا دقيقا بشأن طرق التصرف المباشر ازاء الأفراد الآخرين. وهي الطرق التي تميز سطوحا الطبقات الاجتماعية والجماعات المهنية. وغير المهنية وكثيرا ما تتخذ كعلامة أو دليل على مؤهلات الشخص وعمله . وفي الواقع أن كل جماعة ذات تقاليد قديمة مهما كان قدمها لابد أن يكون عندها بروتوكول لتنظيم آدابها ، ووضع معايير السلوك الواجب الاتباع في الأحداث والمناسبات المعينة . ونستطيع إذن أن نلاحظ عمليات التنظيم التي تقوم بها آداب اللياقة في مدينة « يانكي سيتي » حيث نجدتها على غرار ماتفل في مختلف المجتمعات البدائية من فصل زمر المحاربين ومجموعات الأعمار، قد فصلت هنا الطبقة العليا التي تقطن « هلستريت » أو مجموعة أعضاء النادي الريفي في كثير من الجماعات الأمريكية أو اذا أردنا أن نذكر حالة واضحة تمام الوضوح ضباط الجيش والبحرية الأمريكية وزوجاتهم الذين أصبحوا مجموعة متجانسة بسبب الأفكار التي غرست بعناية في عقولهم . ولا تخدم آداب اللياقة الأغراض العملية فحسب بوضع مقتضيات السلوك في ظروف معينة ولكنها الى جانب ذلك تضي من الرموز على الفروق الاجتماعية ما يحرص بعض أعضاء المجتمع لأسباب أساسية عندهم على أن يستبقوها .

٢ - المصطلح الاخلاقي وآداب اللياقة ومدى تفشي العادة المستحدثة : يتجه كل من المصطلح الأخلاقي وآداب اللياقة الى استخدام احدى الوسائل المتكافئة في الامكانية لتمثيل الموقف الاجتماعي أو الرمز له وهما يستبعدان الوسائل الأخرى بطريقة تبدو تعسفية . ومن أمثلة ذلك تفضيل النحية بتقابل اليمين والتقبل ، مادامت هناك وسائل أخرى للنحية واطهار الود مثل حك الأتفين الذي يمكن أن يؤدي نفس الأغراض تماما في بعض الثقافات . وأي شكل جديد لممارسة النحية المألوفة مثل هز اليمين بكيفية خاصة يمكن أن يسمى عادة مستحدثة.

ولكن التغيير من هز اليدين الى التحية من بعيد أو الانتقال من التقبيل الى حاك الأتفين يصح أن يسمى تغييرا في المصطلح الأخلاقي التقليدي . وهذا الفاصل بين الطريقتين غالبا ما يكون من الصعب تحديده بالطبع ، غير أننا نستطيع أن نتبين طبيعة العادة المستحدثة اذا نظرنا اليها باعتبار أنها تهتم بالأساليب المؤقتة في حدود العادة الجمعية أو المصطلح الأخلاقي أو شكل من أشكال الثقافة . وحينما لا يسمح بأى تغيير أو تعديل في النموذج كما هي الحال في الملابس العسكرية ، و«البنطلون» و«البلوزمرز» النسائي المخصص للألعاب الرياضية في عهد سابق ، فلا يكون في هذه الحالة مكان للتحدث عن العادات المستحدثة .

ويمكننا هذا التمييز كذلك من أن تفهم معنى العادة المستحدثة كما تطبق على التعيرات الفنية والثقافية . وذلك لأن كل فنان حق يرى أن أسلوبه ملك له . ولكن عندما يأخذ به الناس على نطاق عام فإن عنصر العادة المستحدثة يدخل فيه . ومن أمثلة ذلك في بعض المجالات الثقافية نذكر مضيف « ليتل هيمينجويز » ، وفي موسيقى الجاز مقلدى لويس ارمسترونج ، وفي فن السينما الأخذ بطرق هتشكوك وفي نظر المقلدين أو منتهجى المادة المستحدثة يعتبر الأسلوب مسألة غير هامة من الناحية الثقافية . وبايجاز لا يعدو مدى تفشى العادة المستحدثة الحدود التي يسمح فيها بالتغيير نتيجة لعدم الاكتراث الخلقى . وينبغي أن نذكر أن العادة المستحدثة ليست التيار الثقافي في مرحلة زمنية — انها ليست الاتجاهات المتعمقة الجذور في أى عصر — وانما هي المظاهر والاصطناعات الأكثر استعدادا للانفصال عن الأشكال الثقافية الأخرى ، والتي يسهل تقليدها . وبالتالي انتشارها . والعادة المستحدثة لا تفسر بالمحاكاة ، لأسباب ستظهر فيما يلى ، الا أن جزءا من طبيعة العادة المستحدثة ماهو الا شكل خارجي يترسه الناس ويمكن تقليده بسهولة .

الدور الاجتماعى للعادة المستحدثة : بالرغم من أن العادة المستحدثة تظهر من لحظة لأخرى على السطح الخارجى للحياة الاجتماعية فإن فيما وراء تغيراتها التى تبدو متقطعة توجد فى أغلب الأحيان قوى خفية تعمل باستمرار وتتصل العادة المستحدثة بما هو ليس من صميم الحياة الاجتماعية أو بعبارة أدق بما هو على حافتها أو بما هو زائد عليها أو غير ضرورى لها مما يمكن أن يطرأ عليه التغير دون أن يؤثر فى التصرفات والقيم العزيزة علينا . ان العادة المستحدثة لا ترمى لسد حاجة نفسية . ولا تؤثر فى عقولنا أى تأثير مباشر . ومع كل ذلك فهى تستبد بنا استبدادا شديدا . فما عسى أن يكون سبب هذا ؟

١ - الحاجة للتطابق والى الجديد من الأشياء : تنظم العادة المستحدثة تلکم الجوانب من حياتنا ، التى نقف ازاءها موقفا فرديا ، متصنعا بعدم الاكتراث وعلى ذلك فالاحاساس بها لا بد أن يكون مرجعه جماعيا - وفى هذا المجال تعمل على التوفيق بين ارضاء مطلبين قوين للانسان الاجتماعى كثيرا مايقوم التنازع بينهما فى المجالات الأخرى . وهذان المطلبان هما الحاجة الى الجديد من الأشياء والتطابق أو التمشى مع المجموع عندما يكون بوجه عام متمسكا بالقديم . ومن الوجهة السيكولوجية تتمشى هاتان الحاجتان المتعارضتان منطقيا جنبا الى جنب . وتسدهما معا العادة المستحدثة (١) . وذلك لأن العادة المستحدثة تحول الرغبة فى الجديد من الأشياء الى فعل اجتماعى أنها تجعل هذا الفعل الأمر الصائب والسديد بالنسبة للمجموع . « ان التغيرات البسيطة التى يدخلها الفرد على ملابسه المألوفة أو على أية أشكال أخرى من أشكال السلوك تبدو مؤقتا كما لو كانت انتصارا له . بينما تمده ثورة أقرانه

See R.S. Lynd, *Knowledge for What* (Princeton, 1938), pp. 195-197, (١)

for a discussion of the needs for conformity and for novelty.

عليه بسبب هذا التجديد بشيء من الشعور بأنه أقدم على مخاطرة مع  
اطمئنانه لعدم استفحال الأمر» (١) .

وقد تحدد العادة المستحدثة من مدى التجديد وقتنا ما ولكنها تعوض  
ذلك بزيادتها من سرعة التجديد في المجتمع (٢) . ويرتبط بالرغبة في التجديد  
الرغبة في التميز كما تنجح العادة المستحدثة كذلك في التوفيق بين هذه  
الرغبة وبين قاعدة التطابق أو التمشي مع المجموع . وفوق ذلك فالعادة  
المستحدثة تطرح على الناس نموذجا أو أسلوبا لا زيا موحدا (٣) . وفي  
نطاق الأسلوب أو النموذج يوجد متسع لتغيرات هامة صغيرة يقصد بها  
التميز الفردي والناس يستطيعون أن يمشوا مع العادة المستحدثة  
« مع الفارق » (٤) .

٢ - العادة المستحدثة والطبقة الاجتماعية : تنبثق العادة المستحدثة  
بوجه عام ، وليس دائما ، من الطبقة الراقية أو زمر ذوى الحيثية وتميل  
بصفة خاصة الطبقة المترفة ، غير العاملة لما لديها من فراغ ووسائل الى أن  
تفرض الأسلوب الجديد في اللباس ودقائق آداب اللياقة والأساليب الراقية  
في مجال الرياضة والتسلية بوجه عام ، وما شابه ذلك . وحتى عندما

(١) Sapir, loc. cit.

(٢) وذلك اذا تعود المجتمع التجديد من طريق العادات المستحدثة .

- المترجم

(٣) وهناك فارق بين الاثنين فالأسلوب أو النموذج تغلب عليه الغرابة  
والتجديد أو الرغبة في الخروج من دائرة التقاليد في أمر لا يسبب ضررا  
أما الزى الموحد فيبدو أن الذي يغلب عليه هو الرغبة في المساواة في الزى .  
أو الأغراض العملية كرخص ثمن الزى أو الدلالة على صناعة معينة .

- المترجم

For the social psychology of fashion, see K. Young, *Social Psychology* (٤)

(New York, 1944), Chap. XVII, T.R. LaPierre, *Collective Behaviour* (New York,  
1938), Chap. IX.

تظهر عادة مستحدثة معينة في زمر أخرى كما هي الحال في موسيقى الجاز الحديثة التي ظهرت أول الأمر بين زنوج نيو أورليانز ، أو نموذج « قميص العمل » الذي أصبح من ملابس الرياضيين وكان أصلاً لباساً للعامل اليدوى ، فانه يؤخذ بواسطة الطبقة العالية ويدخل حياتها كعادة مستحدثة قبل أن ينتشر بهذه الصفة بين سائر السكان . وفي المجتمع الحديث تنتشر العادة المستحدثة من طبقة الى طبقة حتى أن « الفستان » المصمم في باريس مثلاً يصبح في الحال النموذج الذي يحتل اسمه ورسمه معظم مذكرات الجيب ، ويختلف ثمنه تبعاً لمستوى حياكته والمادة التي يصنع منها . وقد ذهب فبلن في تحليله التهامكي للطبقة المترفة <sup>(١)</sup> ، عندما تناول وظيفة هذه الزمرة في تقديم نماذج العادة المستحدثة ، لكي تقلد تقليداً عاماً ، الى أن للعادة المستحدثة خاصيتين : هما ارتفاع الثمن الذي يدفع في سبيل الأخذ بها ، وما تنطوى عليه من غباء أو قبح . وقد كان فبلن مهتماً بأن يبرز الاتفاق الذي يدعو اليه الفراغ « والأشياء الثمينة » التي يتحلى بها أفراد الطبقة الراقية ومن يقلدونهم في المجتمعات البدائية مثل الكواكيوتل <sup>(٢)</sup> وفي مجتمعنا المتحضر على السواء ، بقصد صيانة مركزهم الاجتماعي . وسنفحص آراء فبلن في الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب بمزيد من العناية ، كما سنبحث مسألة العلاقة بين الطبقة الاجتماعية والعادة المستحدثة .

ونظراً لأن العادة المستحدثة تميل الى أن تؤثر في جميع الزمر الداخلية في نطاق الجماعة المحلية فهي تدخل دائماً كبند من بنود ثقافات المعيشة .

*The Theory of the Leisure Class* (New York, 1922), Chap. I. For Veblen's (١) comments on fashion, see also Chaps. III, IV and VII of this Volume.

(٢) جماعات بدائية في شمال غربي أمريكا الشمالية درسها الأنثروبولوجيون الأمريكيون دراسة وافية .  
- الترجمة -

وبعض أشكال العادة المستحدثة مثل لعب البولو أو التردد على الأندية الليلية أو زيارة مواطن عرض المستحدثات والأماكن التي انبثقت منها ، لا يقدر على السير في مضارها الا الأغنياء وفي الواقع قليلون ممن عداهم يستطيعون أن يحدوا حذوهم <sup>(١)</sup> وان كان هناك كثيرون يتورطون في الاتفاق بسبب محاولة التقليد بما لا تتحملة ميزانياتهم . والذين لا يستطيعون أن يجاروهم لا يسعهم الا أن يستمتعوا بتجربة لطيفة هدفها النقد والاصلاح وقوامها القراءة والتحدث عن نشاط الطبقة الراقية التي يفيض منها الرقى الى سائر الطبقات . وهذه الحالة تميز بصفة خاصة المجتمعات الديموقراطية الكبيرة الحجم التي تشيع فيها أساليب العادات المستحدثة والتي تحدث فيها فروق في نماذج العادات المستحدثة تعبر عن مستويات الدخل والذوق . ومن جهة أخرى تميل المجتمعات العريقة في الأرستقراطية الى خلق نماذج أو أساليب مميزة لعاداتها المستحدثة تناسب طبقاتها الاجتماعية المختلفة .

**انتشار العادة المستحدثة في العصور الحديثة :** ان المدى الذي يصل

اليه حكم العادة المستحدثة والسرعة التي تضع بها قوانينها أو تنسخها قد زادا في ثانيا حضارتنا الحديثة . ولنبحث بإيجاز أحوال زماننا التي ساعدت العادة المستحدثة على أن تتغلغل في حياتنا أكثر مما كانت تفعل في حياة أجدادنا .

**١ - العوامل الاقتصادية والطبقية :** من أهم ما يستحق الاعتبار

في هذا الصدد التغير الذي طرأ على البنيان الطبقي . ان ازدياد امكانية تحرك الأفراد من طبقة الى أخرى ، الذي صاحب — كما سنرى فيما بعد — نمو الرأسمالية قد حطم أحد الحواجز الاجتماعية الهامة التي

— المترجم

(١) هنا تصرف في الترجمة .

تعرض طريق العادة المستحدثة . وربما كان سببها على حق عندما ربط نمو العادة المستحدثة بالانتقال من المجتمع العسكرى الى المجتمع الصناعى<sup>(١)</sup> ، فالأول يقوم على تأكيد الرتبة والمراسم والمكانة الاجتماعية مع نظام لا يلين يوضح حدود الرئيس والمرؤوس من شأنه أن يصد تيار العادة المستحدثة التى تسعى الى الوصول الى جميع الطبقات . ومن العوامل التى أفسحت مدى انتشار العادة المستحدثة ازدياد الرخاء والفراغ ولا يرجع هذا فقط الى أن عددا كبيرا من الناس يستطيع أن يحاكي أسلوب الارستوقراطيين فى المعيشة ، وانما لأن العادة المستحدثة ، كما أوضحنا ، تهتم أولا وقبل كل شئ بتوافه الحياة ، أو بالتحسينات الثانوية فى ضرورياتها . ونحن لا تفكر فى اجراء استحداث فى الأوفول ( اللباس الفوقى ) حتى نأخذ به أولا « كبذلة » للعب أو نقره كلباس وجيه . ان هناك استحداثا فى الشكل الخارجى للسيارة أكثر مما فى عددها وأجهزتها الداخلية . ان ما يحدث من وقت لآخر فى الآلات البخارية وغيرها هو تغييرات لا تأخذ بأية حال مظهر العادات المستحدثة . وليس لهذه الآلات من وظيفة الا مجرد أنها آلات . وكلما ارتفع مستوى المعيشة وكثر تبعها لذلك ارتداء ملابس اللعب واستخدام السيارات وغيرها اتسع المجال للعادة المستحدثة لكى تظهر وتنتشر .

## ٢ - عوامل المواصلات والاختراع : ان انتشار العادة المستحدثة

فى العصر الحديث يرجع جزئيا الى النمو المطرد فى وسائل المواصلات التى قربت المسافة والزمن وما يتصل بذلك من سرعة فى الاختراع . ولقد تضاءلت المساحات التى تسود فيها العادات الجمعية ، أى فى مواطن الاحتكاك الشديد المتعددة المظاهر، التى أوجدتها حضارتنا ، وعلى الأخص

(١) Spencer, op. cit. II, 213-214.

في الجهات المعروفة بكثافة السكان . وذلك لأن العادة الجمعية لا تقوى وتكون شديدة التأثير في حياة الناس الا في المناطق النائية البعيدة عن المواصلات . ومن شأن الاحتكاك والاتصال أن يقربا بين العادات الجمعية المتباعد بعضها عن بعض وأن يحطم قدسية الكثير من مناهج الحياة المقررة . وبالإضافة الى ذلك فإن الاختراعات المتتالية التي يتميز بها العصر الصناعي الحديث والتي تتناول أساليب العمل والحياة ، وانما هي عامل مقاومة شديد الأثر في وجه العادات الجمعية القديمة ، من طبيعته أن يؤدي الى عمليات تغير اجتماعي مطرد يحد بالتالي من تكوين عادات جمعية جديدة . وعلى ذلك فهناك زيادة كبيرة في المساحة التي يسود فيها عدم التقيد بالعادات الجمعية نتيجة لسيطرة العادات المستحدثة . ومعنى هذا أنه حيثما تفقد العادة الجمعية سلطانها تكسب العادة المستحدثة أرضا جديدة . وهذه الزيادة في ثبات مركزها اليوم ، والتي يرى بعض نقاد عصرنا أنها نذير بالانحلال الاجتماعي يمكن ارجاعها ، اذن ، الى التقدم الحضارى الذى زاد من اتصال الناس بعضهم ببعض .

٣ - العادة المستحدثة في المجتمع المتباين : من الممكن أن ينظر الى العادة المستحدثة في المجتمع المعقد من ناحيتين متقابلتين . فمن جهة يمكن أن تصبح العادة المستحدثة المرشد الأول للحياة سواء في مجتمعات الحمقى أو العقلاء . ويجوز أن تغتصب مكان مقاييس السلوك في الحضارات المنحلة وهكذا نجد تاسيتوس الكاتب الرومانى ، اذ يأسف على انحلال المستويات الأخلاقية في روما في أيامه ، صرح بالعبارة الآتية : « ان العادة المستحدثة اليوم هي أن تشيع الفساد أو تدع غيرك يفسدك » (١) . وفي كثير من العصور التالية، بما في ذلك حضارتنا ، كان الاخلاص لنزوات

العادات المستحدثة وعدم المبالاة بالجوانب الأساسية للحياة سواء من جهة الأرستقراطية الإيطالية، في أواخر عصر النهضة أو في السنوات الأخيرة من جهة لابسى بعض الأزياء المستحدثة الآخذين في الاختفاء ، فقد نظر الى هذه الأمور نظرة ترحيب كأدلة يقينية على الانحلال الاجتماعي . ويصح أن نسجل أن كثيرا من مظاهر التقدم الانتقالية والسطحية ليست بأى حال «أدلة» ذات مغزى . أما المهم حقا فهو أن الفرد أو الجماعة حينما يقتصر اهتمامها على مقتضيات العادات المستحدثة ، مهما كان هذا الاقتصار مؤقتا فانه في هذه الحالة يكون الفرد أو الجماعة في مرحلة انحلال .

ومن جهة أخرى فان العادة المستحدثة تؤدي في داخل اطارها وظيفة اجتماعية مفيدة ، فهي تدخل نمطا عاما مشتركا من خلال ما تفرضه من احساس بعدم الاكتراث ، وفي ذلك مظهر أو احساس بالتشابه يدعو الناس من مختلف المصالح والمشارب للالتقاء معا ، ويجعل من السهل عليهم أن يحتفظوا بالصفات الفردية والجماعية وأن يعملوا على التوفيق بينها . ويكون للعادة المستحدثة لهذا السبب دلالة خاصة في المدى العريض الذي يميز الحضارة الديمقراطية المتباينة العناصر . ولكن حينما يتجاوز سلطانها الأمور السطحية في الحياة حتى يصبح « المستحدثات الشائعة » أن يغير الرجال زوجاتهم من وقت لآخر أو أحزابهم السياسية أو أصدقائهم فانها تكون في هذه الحالة بديلا هزيلا للجزاءات الأكثر استقرارا التي يمكن أن تعالج بها أمور الزوجات والأوضاع السياسية ومشاكل الأصدقاء . ان حكم العادة المستحدثة لا يتصف بالعمق ولا بالمنطق ، اذ أنه مجرد نزوة لا تستند الى مقدمات وهو يهتم بالمظهر الخارجى للحياة لا بجوهرها ، كما أنه أبعد ما يكون عن الاقناع أو الاستقرار .

تخطيط العادة المستحدثة : لقد اقترحنا عدة أسباب لتحكم العادة المستحدثة وتأثيرها في تميل عقول الناس. وربما كان الشيء الأقل وضوحا هو المكان الذي تهب منه ريحها أول ما تهب أو تنبثق منه تعاليمها أول ما تنبثق . وبعبارة أخرى من هم القادة الذين يتولون عمليات التخطيط الأولى ؟ ومن أين جاءتهم هذه السلطة التحكيمية التي تجعلهم يفرضون العادة المستحدثة على الناس ؟ ونحن لا يكفيننا هذا التفسير القائل : بأن العادة المستحدثة ما هي الا « محاكاة المعاصرين » . وذلك لأنها يتحتم أن توجد أولا وأن تحصل على الاعتراف بها قبل أن يقلدها الناس . انها تتبع لأنها عادة مستحدثة . ولها قادة كما أن لها معجبين — والقادة كما رأينا هم أصحاب الحيثية أو الراغبون في الاحتفاظ بالهيبة من أفراد الطبقات العليا . ولا بد أن تكون لديهم القدرة على استجلاء الاتجاه العام أو المزاج الذي يميز زمانهم سواء أكان ذلك في أمور الملبس أم الفنون أم مسائل اللغة أم الفكر . وهذه القدرة ليست سهلة فان أشهر القادة قد يعجزهم أحيانا أن يتنبأوا بهذا الاتجاه العام فيفقدون الهيبة بعض الوقت . كما حدث للاخصائين الباريسيين في شئون العادة المستحدثة (الموضة) أكثر من مرة . كذلك لا يمكن أن تفسر العادة المستحدثة ببساطة بالمصالح الاقتصادية . انها قادرة على أن تبطش بأية مصالح اقتصادية معينة لا تخدم أغراضها ، كما حدث لبعض صناعات الصوف والنسيج مما كبدها خسائر كبيرة . نعم ان هناك وكالات اقتصادية هامة تعمل على إثارة نمو العادات المستحدثة وفوق كل ذلك تعجل من ادخال التغييرات عليها . والمشاهد أن البدعة « الموضة » الجديدة بمجرد أن يستشعرها الناس تأخذ هذه الوكالات في الدعاية لها لاقتناع الجماعة المحلية بأن بدعة « موضة » جديدة قد وصلت ، وتستحث الأفراد على الاقبال عليها . وان الزعم بأن كتابا ما سريع النفاد من السوق أو أن أغنية ما موضع هوس الناس ، أو أن تمثيلية جديدة هي قبلة الموسم ، أو أن لونا ما لبعض الأقمشة هو المفضل عند « أرقى البيئات »

يمكن أن يكون ذا معنى حقيقى اذا استند الى شىء من الحقيقة . أما  
المصالح الاقتصادية فلا تخلق الرغبة فى اتباع « الموضة » وانما تقويها  
مفقط .

ومع ذلك « فالموضة » ليست مجرد ظاهرة متحركة ومستعدة للسير  
فى الطريق الذى يرسمه لها مبتدعوها . انها يمكن أن ينتهى بها الأمر الى  
أن ترتبط بالأشكال العميقة للضبط الاجتماعى . وأن تعمل على التوفيق  
بين أحكامها وظاهر التغير فى ميادين الأخلاق والدين والاقتصاد . بينما  
تتحرك الى الأمام وإلى الوراء من موسم لآخر فانها بوجه عام تشق  
طريقها فى اتجاهات واضحة (١) . وهذه الاتجاهات تدل أحيانا على  
تغيرات أكثر أهمية فى داخل الجماعة المحلية وليس من قبيل المصادفة —  
كما رأينا — أن يلزم التغير الاقتصادى والاجتماعى لمركز المرأة بعض  
التعديلات الدائمة بطريقة تدريجية فى شكل ملابسها . ( وفى الحقيقة أن  
« النسائين » الطويلة التى نادى بها البعض فى أمريكا سنة ١٩٤٧ أدت  
إلى مظاهرات احتجاج فى جهات مثل دالاس وتكساس على أساس  
« تحرر » المرأة الحديثة ) . ولم يكن من قبيل المصادفة أن تقترب ملابس  
السيدات فى زمن الحرب وبعده من ملابس الرجال ، من حيث الشكل .

واذ تطفو العادة المستحدثة على سطح الحياة الاجتماعية ، مستجيبة  
لنزوات الساعة فانها تكتشف عند الأفراد رغبة فى البحث عما يعوضهم عن  
الارهاق الذى يتحملونه من جراء خضوعهم زمنا طويلا للعادات الجمعية  
والفردية وأسلوب الحياة اليومية الرتيب وهى تساعد من طريق محاولة  
الأخذ بها وانتشار التطابق العام الذى تدعو اليه فى تخطى مراحل الانتقال  
التي تمرضها عملية التغير الاجتماعى . وغالبا ما تخلق سلسلة من الخطوات

---

See A.L. Kroeber, "On the Principle of Order in Civilization as (١)  
Exemplified by Changes of Fashion", *American Anthropologist*, N.S. XXI,  
No. 3 (1919), 235-263.

التي قد تبدو غير متتابعة منطقيا ممهدة لعادات اجتماعية الواحدة تلو الأخرى . وبهذا تؤدي دورا معيناً في صيانة التركيب الاجتماعي وتغير شكله .

قدمنا في هذا الفصل صورة للأنواع الرئيسية لقواعد السلوك الاجتماعي ، اذ عقدنا تقابلاً فيما بين الدين ومقاييس السلوك وفيما بين العادة الجمعية والقانون وفيما بين العادة الجمعية والعادة المستحدثة . وناقشنا كلا من هذه الظواهر مع الإشارة بصفة خاصة الى وظائفها ومدلولاتها وما يبدو عليها من قصور عن ادراك غاياتها في المجتمع الحديث . وفي خلال الجزء الثاني من الكتاب الثاني (١) ، وأثناء معالجتنا أنواع الزمر المختلفة في التركيب الاجتماعي ، وأيضا خلال الكتاب الثالث في تحليلنا للتغير الاجتماعي سوف نعرض من حين لآخر لمناقشتنا الحالية لقواعد السلوك . ومع ذلك يبقى أمامنا عمل أخير هام ، وهو أن ننظر في قواعد السلوك من حيث صلتها بحياة الفرد الخاصة .

هذا ما سنواجهه في الفصل التالي .

---

(١) انظر تقسيمات الكتاب كما وصفها المؤلفان في الصفحات الاولى .

## الفصل التاسع

### قواعد السلوك والحياة الفردية

العادة الجمعية والعادة الفردية :

المشكلة التي تواجهنا : مرة ثانية ندعونا دراستنا لقواعد السلوك للرجوع الى مسألة أساسية سبق أن ناقشناها في الفصلين الثالى والسادس وفقرات أخرى هنا وهناك . وسنناقش الموضوع فى هذا الفصل من وجهة نظر الفرد ومن ناحية مواجهته لقواعد السلوك المتنوعة والمتضاربة فيما بينها أحيانا ، وما تتطوى عليه من مطالب وجزاءات . وستظهر طبيعة هذه المشكلة بكيفية أكثر وضوحا اذا بحثنا أولا كيف يمكن وصل المبدأ الاجتماعى الخاص بالعادة الجمعية بالمبدأ الفردى الخاص بالعادة الفردية .

العادة الجمعية وطبيعة العادة الفردية : قليل من التمييزات تلقى ضوءا قويا على صفة المجتمع فيما عدا التمييز بين العادة الجمعية والعادة الفردية ، هذا التمييز الذى كثيرا ما تحوطه مظاهر الغموض . وفى الحق أن العادة الجمعية ظاهرة اجتماعية وأن العادة الفردية ظاهرة فردية ، ولكن هذا التمييز يحتاج الى تفسير . ولا يكفى أن ننظر الى العادات الجمعية باعتبارها عادات الزمرة أو « تطابق عام للعادة الفردية » (١) . وبالطبع

(١) هكذا عرفها جون ديوى فى كتابه :

John Dewey in Human Nature and Conduct (New York, 1922), Chap. IV.

ونحن نختلف مع جون ديوى فى هذه النقطة بشأن العادة الجمعية والعادة الفردية كما وردت فى بيانه الذى قدمه فى الفصل الرابع من الكتاب المذكور بالرغم من أن هذا البيان يقوم على تحليل عميق وإبحاء بأفكار جديدة بالنظر .

أن أية عادة فردية معينة نشأت عن ظروف مشتركة بين أفراد كثيرين. ويؤديها كثيرون من أعضاء الجماعة، من الممكن أن تصبح عادة جمعية. وفي هذه الحالة تتكون العادة الجمعية على أساس من العادة الفردية وتكسب من الجزاءات والتأثير والمعنى الاجتماعي ما يقربها من العادة الجمعية، وحيثما وجدت عادة فردية منتشرة فمن المحتمل أن تقابلها عادة جمعية في نفس الوقت. واذن فالعادات الفردية تخلق عادات جمعية والعكس صحيح. ولكن العادتين، بالرغم من هذه العلاقة الدقيقة بينهما، متميزة أحدهما عن الأخرى. ولا تستطيع العادات الجمعية أن تعيش إلا إذا غرست العادات الفردية المقابلة لها في نفوس الأجيال الناشئة ولكن العادات الفردية يمكنها أن تنشأ دون تأييد من العادات الجمعية ويتحتم على الأشخاص الذين أجريت عليهم تجارب العزل الاجتماعي القاسية مثل كاسبار هاووزر أو « الأطفال الذئاب » أن يعيشوا بلا عادات جمعية ولكنهم لا يستطيعون أن يعيشوا بدون عادات فردية.

**العادات الفردية أساليب للسلوك اكتسبت بالتكرار صفة الثبات :** ان ميل الانسان للاستجابة بنفس الطريقة الى نفس الظروف يتأيد ويتحدد — بالمسلك الثابت الذي لا يحد عنه — في شكل تصرفات فيزيقية (جسمانية) وتقسية. فمثلا يجعل اكتساب العادة الفردية القيام بعمل معين مثل تنظيف الأسنان أو اطعام الطفل الرضيع أو الذهاب الى الكنيسة أمرا سهلا وعاديا يتصف بخلوه النسبي من أى مجهود وبملاءمته لمن يقوم به. ان العادة الفردية معناها احساس سهولة مكتسبة للتصرف بطريقة معينة دون الالتجاء الى مداولات في الأمر أو التفكير فيه قبل الاقدام على تنفيذه.

ونحن عندما نكون عادة فردية نجتهد أن نسهل على أنفسنا من الناحيتين النفسية والجسمانية طريقة أدائها بكيفية معينة، وأكثر أو أصعب من ذلك تؤديها بكيفيات أخرى جديدة اذا لزم الأمر ومخالفة للكيفية التي اعتدناها. وبهذا المعنى تعتبر العادة الفردية « طبيعة ثانية » أو

بعبارة أدق طبيعتنا الواقعية وأسلوبنا للاستجابة الثابتة والعميقة الجذور،  
التي غالبا ما تبدو كالمتأصلة في أعماق نفوسنا . انها تحل محل استعداداتنا  
الوراثية أو القوى الكامنة في تكويننا الوراثي . ولما كانت الطبيعة  
الانسانية قابلة تمام القابلية للتكيف ، وغنية كل الغنى بقواها الكامنة ،  
وعلى أتم استعداد لاجداث أى تغيير يتفق ومصلحتنا ، كذلك لما كان من  
الممكن أن ندرّب الشخص وهو فى سن مبكرة على ما نختار له من  
أساليب الحياة الكثيرة والمنوعة ، وأن نفرس فى نفسه حب أية صناعة أو  
قدرة من القدرات ، فان تكوين العادة الفردية يصبح ذا أهمية قصوى فى  
عملية التربية التى تتميز بأنها عملية اطرادية . وذلك لأن العادة واقعة فانها  
تسند الطريق على الوسائل الأخرى لاشباع نفس رغباتنا . وبإغلاقها عدداً  
لا يحصى من مسالك الحياة تيسر لنا أن نشق طريقنا فى العدد القليل من  
المسالك التى اختارتها لنا . ونحن لا نستطيع أن ننتج أى شئ الا من  
طريق العادات الفردية . والنقطة الهامة التى تواجهنا هنا هى أى هذه  
العادات يلائمنا وكيف تتكون .

**العادات الفردية الأوتوماتيكية والمحكومة :** ان الطريقة التى نكون  
بها عاداتنا الفردية تحدد ما اذا كانت هذه العادة ستستبد بنا ، أو ستكون  
أداة مفيدة نستعين بها على الحياة . ومما لا شك فيه أن قصور الوراثة  
والحدود التى تقف عندها تلعب دورا فى هذا التحديد . ولا ينبغى أن  
نفعل الأهمية الخاصة التى نعلقها على تربيتنا فى هذا الشأن .

**١ - التعلم والعادة الفردية الأوتوماتيكية :** الى حد ما تنطوى  
عملية التعلم — ونقصد أى تعلم مهما كانت طبيعة الشئ الذى نتعلمه —  
على اكتساب عادات فردية . ونحن قد نتعلم أن نؤدى أعمالا بحكم  
ما يفرض الروتين علينا من ضغط . وفى هذه الحالة لا يكون لعملية التعلم أى  
معنى مباشر وتتضاءل حتى تؤدي الى نتائج ميكانيكية . وتميز طريقة  
التعلم المشار اليها كثيرا من مظاهر الروتين التى تنفذ الى صغار السن فى

جميع المجتمعات والتي نراها ممثلة في النشاط الأساسي المتصل بالرضاعة والفظام وإبعاد الطفل عن حجر أمه والنوم والمشى . والمعلوم أن التنوع الثقافي في هذه الأمور كبير جدا . وفي كل مجتمع تلعب أساليب التربية الخاصة المؤدية الى عادات فردية أوتوماتيكية دورا واضحا في تحديد النماذج العامة للشخصية — وهذه حالة يعنى بتقصيها الأثروبولوجيون . ( علماء الاجتماع المقارن ) وعلماء النفس ، كما أشرنا قبلا في الفصل الثالث .

هذا النوع من تكوين العادات الفردية مقتصر على تعليم الصغار . ويحضرنا مثال آخر عن تكوين العادة الفردية الأوتوماتيكية وأبعد ما تصل اليه ، هو طريقة «صول» التدريب في الجيش أو طريقة السلاح البحري في تدريب المجندين <sup>(١)</sup> ، وهي مبنية على نظرية تربوية قابلة للمناقشة ، مؤداها أن غرس الطاعة الأوتوماتيكية في نوع من النشاط ينتقل بالضرورة الى أنواع أخرى . ومما يؤسف له أن طريقة عدم مناقشة المعلم تجد من وقت لآخر منفذا الى الفصول الدراسية بالمدارس وذلك عندما يتحول التعليم الى املاء ، وينتهى الأمر بالمعرفة الى عملية حفظه عن ظهر قلب ، بدلا من أن تهتم بارتداد المجهول في عالم مليء بما يستحق النظر والتأمل .

وهناك نوع آخر من العادة الفردية الأوتوماتيكية تفرضه التكنولوجيا ( الآلات والأدوات ) وعملية التحضر في المجتمع الحديث . فمثلا الآلة التي تدور عدة دورات لا حصر لعددتها على وتيرة واحدة ، تدعو الى تعرض الشخص الذي يتعهداها أو يقوم بتسييرها الى روتين مشابه — وهذا الموضوع محجب الى رسامي الصور الكاريكاتورية ، وقد صورته ببراعة شارلي شابلن فسمى فيلمه المشهور العصر الحديث ، الا أن هذا النوع من الروتين محدود جدا ومقصور على ناحية التخصص

---

(١) هنا تصرف بسيط في الترجمة . — المترجم

والعمل ، وهو ، ما لم تصحبه ظروف أخرى تنتزع من الحياة طرافتها وكرامتها ، لا ينشب أظفاره في نفسية الفرد مثلما تستعبده العادات الفردية وتفرض سيطرتها عليه باسم السلطة . وكذلك لا وجود لعنصر السلطة هذا في العادات الفردية الأوتوماتيكية التي يدفعنا نحوها الزحام الشديد ووسائل تنظيم الحركة وتسهيلها في الحياة داخل المدن ، مثل عادة دفع الغير لافساح الطريق في باب النفق الأرضي في المدن الكبيرة ، والتزام السير على الجانب الأيمن من الطريق ، والاعتماد على نفس محل المأكولات المتنوعة الواقع في ركن معين من الشارع ، وهكذا . هذه جميعا هي العادات الفردية الضرورية التي تخلق على التحقيق كثيرا من سلوكنا الروتيني ، ولكنها جوهرية اذا كان لابد لنا أن نوفق بين أنفسنا وبين ظروف الحياة الحديثة .

٢ - الوظيفة الإيجابية للعادة الفردية المحكومة : من خصائص العادة الفردية أنها تدعو الى أن يقتصد الفرد في استخدام طاقته وتقل مما قد يكون في العمل من كآبة وتوفر ما يمكن أن نستغنى عنه من اطالة التفكير . وكلما كانت هناك أعمال متكررة تقوم بأدائها مثل حلقة الذقن في الصباح ، أو التوجه الى العمل سيرا على القدمين أو كتابة رسائل على الآلة الكتابة ، أو عمل ثقوب في الصلب كجزء من عملنا اليومي في أحد المصانع فمن الكسب لنا أن نعهد بهذه العملية الاطراذية الى اجراءات العادة الفردية التي لا يلازمنا أثناءها كل شعورنا . اننا لا نستطيع اطلاقا أن نتعلم عمل أشياء بسهولة وبطريقة حسنة اذا كان علينا أن نفكر من جديد في كل مرحلة من مراحل العملية الاطراذية . وهذا لا ينطبق على الأعمال الميكانيكية فحسب ، بل وعلى أدق الأعمال الفنية وأكثرها اتجاها نحو الخلق والابداع ، ففي الأعمال الميكانيكية ينبغي الحيلولة دون تفكير العامل في أية مسألة لا تمت بصلة الى السيطرة الواعية على العملية التي بين يديه ، حيث لا يوجد مجال للتفكير الحر في هذه المناسبة . وفي الفنون الابتكارية يسعى الفنان الى التعبير عن شيء في نفسه بتطبيق

أسلوب يتحكم فيه عادة فردية ويجعل هذا الأسلوب تابعا للشيء الذى يسعى الى التعبير عنه ، وبذلك يمنعه من التحول الى مجرد حالة ميكانيكية إن رضاه وإنتاجه لا يتمتعان بإتتهائه من عملية الخلق وإنما هما يدوان فى الخطوات التى يخطوها نحو الغاية . وعندما يجد الموسيقى نفسه مثلاً قادراً على أن يحول الى حكم العادة الفردية المنهج الذى يمكن وراءه فنه فانه يكون فى هذه الحالة حراً فى أن يتفرع الى تفسير موسيقاه ، وبهذه الكيفية يستطيع أن يستمتع بها هو نفسه وأن ينقل الى الآخرين فى نفس الوقت معنى هذه الموسيقى عنده .

هذا المثال من الفنون يسمح لنا أن نستعرض جانباً آخر من الجوانب الهامة للعادة الفردية إذا كان هناك عمل يؤدي لمجرد الوصول الى الغاية منه ، ولم يكن فى أدائه مصلحة للقائم بالعمل أثناء قيامه به ، فإن العادة الفردية تصبح ميكانيكية وأقرب الى العمل الكتيب الذى لا يهدف الا الى أن يستبد بصاحبه . والعادة الميكانيكية فى أغلب الأحوال نتيجة لضرورة اقتصادية ، وكانت تميز عصر ما قبل الصناعة كما تميز نظام العمل فى المجتمع الحديث . ويسعى الأفراد ليرفها عن أنفسهم من عبء العادة الميكانيكية بالرياضة أو المرح أو الهوايات أو استخدام وقت الفراغ استخداماً حسناً أو ربما بالمشروبات الكحولية والمخدرات أو بمجرد الاسترسال فى أحلام اليقظة . وعلى كل حال لا ينبغى لهذا السبب أن ننظر الى العادات الفردية الجانحة باعتبار أنها ظواهر تؤدي بطبيعتها وظيفة جوهرية قوامها انقاذ طاقة الأفراد وتحريرها من استعباد الآلة .

#### العادة الفردية كأحد عوامل المحافظة فى الحياة الاجتماعية : كثيراً ما يحلو

لمعظمنا أن ينقد عادات الآخرين الفردية أو ينقدوا عاداتهم هم بحجة أن هذه العادات قد حالت بينهم وبين انتهاج أساليب جديدة فى الحياة . وبعبارة أخرى لقد شكونا وما زلنا نشكو من دور العادة الفردية فى إبقاء الأحوال الراهنة لبعض أوضاع حياتنا على ما هى عليه ، أو من العادة الفردية كأحد

عوامل المحافظة في الحياة الاجتماعية . ولهذه الوظيفة التي نسبها للعادة .  
جوانب متعددة .

١ - « سلطان » العادة ومظاهر قصورها : تجرى على ألسنتنا كثيرا  
عبارة « سلطان » العادة . وفيما يلي وصف بليغ للمقصود بذلك ، يقدمه  
لنا وليم جيمس :

« العادة الفردية هي عجلة المجتمع الكبرى التي تحفظ نظام سرعته (١) ،  
وأهم من ينوب عنه لتأمين سلامة أوضاعه المحافظة ، وهي وحدها التي  
تطوقنا جميعا داخل حدود النظام وتجنب أبناء السعداء المحظوظين ثورات  
الحقد من جانب الفقراء . انها دون سواها هي التي تمنع الناس من أن  
يهجروا الصناعات والحرف الدنيا التي نشأوا في أحضانها . وهي التي  
تطلب من الصياد والعامل على ظهر السفينة أن يستمرا في ممارسة عملهما  
في البحر أثناء فصل الشتاء . وهي وراء العامل في المنجم تحضه على البقاء  
في الظلام حيث يعمل في أعماق الأرض . ووراء القروي تسمره في كشكه  
الخشبي ومزرعته المنعزلة خلال جميع شهور الجليد . وهي التي تحمي  
من غزوات بدو الصحاري وسكان المنطقة المتجمدة ، انها تقضى علينا بما  
توجهنا اليه من كفاح في الحياة مستوحين تربيئتنا الأولى واختيارنا المبكر .  
وقد يترتب على ذلك أن نمضي في سبيل لا تلائمنا تماما ، لأنها علمتنا أننا  
لا نصلح لشيء الا ما ألفنا في الصغر ، وهي تذكرنا دائما أنه قد فات أوان  
البدء من جديد . وهي التي تحول دون تداخل الطبقات الاجتماعية بعضها  
في بعض . تأمل هذا الشاب البالغ من العمر خمسا وعشرين سنة  
وما يبدو عليه من علامات صناعية رغم أنه لم يتقدم في السن نتيجة أسفاره .  
كمشتغل بالتجارة المتنقلة ، أو العلامات المماثلة التي تميز الطبيب الناشئ »

---

(١) يتحدث وليم جيمس هنا عن عجلة المجتمع الكبرى على فرار العجلة  
الكبيرة الثقيلة المركبة على الآلات الضخمة في المصانع لحفظ نظام سرعتها .  
- الترجمة

أو القسيس الشاب ، أو المحامي الصغير . وانك لتجد في الناس جميعا دلائل على ما تقول ، مثل تجاعيد الوجه ، والمكر والدهاء ، ومظاهر التحيز ، وأسلوب التجارة . وبايجاز لا يستطيع أن يفلت الفرد من هذه العلامات المميزة فاذا حاول ذلك تعثر في مشاكل عديدة . وبوجه عام من الأفضل له ألا يفلت . ومن مصلحة الانسانية أن تتحدد في سن الثلاثين الأخلاق والصفات في أكثر الناس وأن تتجسس تماما بحيث لا تلين بعد ذلك البتة (١) .

ونحن لا نعرف اذا كان جمود الأخلاق وصلابتها على هذا النحو الجبرى مفيدا للانسانية أم غير مفيد . ان المسألة على كل حال قابلة للمناقشة . والعادة الفردية في الأمثلة التي قدمناها هنا ينبغي أن ينظر اليها من حيث كونها أداة تجعل نشاط الناس المتواصل سهلا ومقبولا ، لا كسلطة مستبدة . وهى تجعل الضرورة محتملة ولكنها لا تتسبب في خلق الضرورة ومن طبعها أنها تجعلنا نألفها لدرجة أنها لا تبدو لنا أنها ضرورة ملحة . وعلى ذلك فبمجرد أن نكون عادة فردية لنا نجدها قد تنزع من خيالنا أية تجارب أو أهداف كانت تبدو وقتا ما أكثر جاذبية .

ان الصفة المحافظة التى تتميز بها وظيفة العادة من ناحية تسييرها سبل الحياة تتضح أشد الاتضاح فى أولئك الناس الذين فكروا عدة سنوات فى تغيير مسكنهم والجيرة التى يعيشون فيها واتهاج أسلوب جديد لحياتهم وحتى اذا ما استقر بهم المقام فى المسكن الجديد أو مارسوا فعلا الأسلوب الذى كانوا يحلمون به هزهم الشوق الى القديم من المسكن والجيرة وطريقة العيش . وهذه حالة كثيرا ما قرأ عنها فى القصص أو نراها فى الأفلام السينمائية . والأغرب من ذلك أن حياة الفقر والهوان تصبح بحكم العادة الفردية ذات قيمة ذاتية تجعل الناس يتمسكون بها ، اذا أتيت

---

William James, *Principles of Psychology* (New York, 1890), I, 121. (١)

Reprinted by permission of the publishers, Henry Holt and Company.

الفرصة لهم للتمتع بمزايا التغيير ، وحتى السجين قد يجب سلاسله بمضى الزمن لنفس السبب . ولكن هناك جانباً آخر لهذه الصورة . فإن الطاقات التي ادخرتها العادة الفردية اذا لم تجد مخرجاً تتجاوز به حدود نشاطها فإن القوى الكامنة التي لم تستخدمها العادة أو تفسح لها الطريق ، قد تحطم سدود العادة ومسالكها للحصول على ما حرمت منه من رضا . وهذه هي الظاهرة التي تسمى في بعض أشكالها الدينية التحول من دين الى دين . ونرى نوعاً آخر منها في التغلب على الشهوات الملازمة مثل الشهوة التي يخلقها تعاطى المخدرات ، اذ ينظر لهذا التغلب باعتبار أنه تحول تام عن العادات « السيئة » ولكنه في بعض الأحوال يحدث نتيجة لنبذ مفاجيء « لعادات حسنة » فرضتها سلطة معينة في الماضي أو أدى اليها ضغط اجتماعي يقوم على توهم لزومها للحياة في المجتمع . مثل هذه الثورات على العادات المتواضع عليها تحظى من وقت لآخر بالتصوير الكاريكاتوري كما يتناولها مؤلفو القصص في قصصهم . والأمثلة على ذلك عديدة . وهذا التغير المفاجيء المتحدى للعادات الخاصة المقصود به تقل الحياة الشخصية الى مستوى مضاد يشبه ظاهرة الثورة الاجتماعية ، التي تقوم على رفض العادات الجمعية والنظم السائدة الداعية بما لا يحتمل الى التأخر والجمود ، وان كنا نرى أن هذه الموازنة ليست كاملة ، بما أن العادة الجمعية التي ثور ضدها نشعر أنها خارجة عنا وغريبة علينا بينما العادة الفردية الخاصة أصبحت مندمجة في شخصياتنا وجزءاً من كياناتنا .

واذن فنحن عندما نتحدث عن سلطان العادة الفردية أو استعبادها للأفراد ينبغي أن نذكر أنها ليست حاكماً ذا سلطة مطلقة علينا يعمل ضد ارادتنا . ولهذا التصور ، على التحقيق ، تطبيق محدود على مجموعة الأفراد الشواذ الذين وقعوا فريسة لعادة تعاطى المخدرات ولهم نفسية خاصة . وان كان لا بد لنا هنا أن نشير الى أن الواحد من هؤلاء يطلب شيئين : المخدر ، والتخلص منه . ولكن بوجه عام ما العادة الفردية الا

الوسيلة التي يستعين بها الانسان على تنظيم حياته الخاصة في الظروف التي يتعين عليه أن يقبلها وأن يعيش فيها . وهو بحكم تكوينه الطبيعي يستطيع أن يعيش في البلاد المغطاة بالجليد وفي المناطق الاستوائية الحارة وفي المدينة أو الريف ، وبايجاز في جميع البيئات الاجتماعية والطبيعية . ويمكنه أن يختار صناعة من ألف صناعة يصلح لها . كما أن هناك مصالح وأنواعا من التسلية يمكن أن تتزاحم عليه في أوقات فراغه . ومنها يتحتم عليه أن يختار . وهذا الاختيار يحدث تحت تأثيرات من أقرب البيئات اليه ، ومن تعليمه وخبرته . ومن مزاجه واستعداداته والفرص الاقتصادية المتاحة له . وبمجرد أن تتكون العادة الفردية تقرر الاختيار أو تعالج مضاره ومضايقاته لمنع أى اختيار آخر . وفي المراحل الأولى للتكوين تكون العادات الفردية أكثر عرضة للمراجعة وإعادة التكيف . ولكنها عندما تستقر نهائيا ، وعلى الأخص أثناء مصاحبته لنا في نمونا ، تنسج نفسها في شخصياتنا فتتصل العادة بعادة أخرى ويتألف من هذا النسيج نمط حياتنا . ولا يصبح الا للتأثيرات العنيفة كالاتقال من الحياة المدنية الى الحياة العسكرية أو من المعيشة في مجتمع حر الى حياة السجن أو معسكرات الاعتقال ، أن تقدر على مقاومة العادة الفردية (١) .

٢ - حالة العادات الفردية المتأصلة في العواطف : يمكننا أن نرى بوضوح وظيفة العادة الفردية ومزاياها والتضحيات التي يقوم بها الفرد في سبيلها في حالة العادات التي تختلف عن تلك المتصلة بالقدرات الفنية ، ونعني العادات القرية المرتبطة بعواطفنا ارتباطا وثيقا . وأهم الأمثلة على ذلك عاداتنا الفردية الخلقية والدينية التي تشمل كذلك طرق تفكيرنا وتصرفاتنا في المسائل السياسية والاقتصادية التي تؤثر في مصالحنا أبلغ

---

(١) انظر على سبيل المثال شرحا لهذه النقطة في بحث ممتاز قام به اثنان من الاخصائيين في فن العلاج النفسي بالجيش الأمريكى ، وفيما يلي عنوان البحث : R.R. Grinker and J.F. Spiegel, *Man under Stress* (Philadelphia, 1945), especially Chap. XIX and XX.



الاتجاهات ، بدليل وجود الانحرافات الجنسية المتعددة عن المعايير القائمة في كل المجتمعات الانسانية على وجه التقريب (١) .

وهناك اعتبارات مشابهة يمكن تطبيقها على العادات الفردية الأخرى الخاصة بالعمل والصناعة في مجتمعنا الحديث ، أصبحت مرتبطة بالقيم الدينية والخلقية ، وبالعادات الفردية المتعلقة بالسلوك السياسى مما دخل جميعا في تقاليد الأسر وغيرها من الزمر . وكذلك بالعادات الفردية الخاصة بالمصطلحات الأخلاقية اللازمة للحياة اليومية . ويسبب الاثلاث منها أحيانا اضطراب شخصى وعام في المجتمع . وفيما يتعلق بها جميعا يكمن الخطر في أن الضرورة التي فرضتها تهدف نحو حزمها في ثقافة من العاطفة العمياء وبذا تمهد لامكان نموها والى جعلها مرنة ، ثم الى التحكم في اعادة توجيهها توجيها ذكيا . وفي هذا المجال كما هي الحال في غيره من المجالات وربما هنا أكثر من أى مكان آخر نجد أن التأمين ضد الفائدة المحدودة وضد الركود أو ضد الثورة العمياء أيضا يقوم على ربط العادة الفردية بالتفكير . وعندما تنمو العادة الفردية أو العادة الجمعية في جو من التوقير والقداسة وخارج حدود الاختبار والتفكير النقدى تتعرض سعادة الفرد ورفاهية الجماعة للخطر .

**النظام الاجتماعى وعلاقته بالعادات الجمعية والفردية :** يمكننا الآن أن نستخلص بعض النتائج المتعلقة بالتمييز بين العادة الفردية والعادة الجمعية كما اقترحنا في أول هذه المناقشة . واذا طاب لنا أن نعتبر العادات

---

(١) للأدلة الأنثروبولوجية في هذه الناحية انظر :

B. Malinowski, *Sex and Repression in Savage Society* (New York, 1927); M. Mead, *Sex and Temperament in Three Primitive Societies* (New York, 1935); and for the United States, A.C. Kinsey, W.B. Pomeroy, and C.E. Martin, *Sexual Behaviour in the Human Male* (Philadelphia, 1948).

نشك في ان الادلة الأنثروبولوجية ( مالينوسكى ومارجريت ميد ) التى ساقها المؤلفان تؤيد وجهة نظرهما تمام التأييد .  
— المترجم

الجمعية و « العادات الفردية للجماعة » شيئا واحدا كما درج الكثيرون على ذلك ، فسيترقب على ذلك اما أن نستغنى عن التمييز بين المفهومين كلية ، واما أن نميز بينهما تمييزا عدديا . وفي هذه الحالة لا يختلف اهتمام اخصائي فن العلاج النفسى بعادات الفرد الخاصة عن اهتمام السوسيولوجى بعادات الجماعة وأساليبها . وبالضرورة يتصل عمل كل منهما اذن بعمل الآخر ، بل ويتوقف عليه كما سنرى . ولكن ما يقومان به ليس شيئا واحدا على كل حال .

١ - الصفة الاجتماعية للعادة الجمعية : تتجاهل التسوية بين العادة الجمعية والعادة الفردية الصفة والجزاء الاجتماعيين للأولى ، وهذه من الخصائص التى لا تعتبر بأى معنى من المعانى جزءا من معنى العادة الفردية . ان العادات الفردية التى تتكون فى حالات العزلة مثل عادات الناسك فى صومعته والعادات الغريبة ان هى الا عادات فردية كغيرها من التى تتكون تحت تأثير المجتمع متمشية مع قواعد سلوكه سواء بسواء وبالعكس من ذلك لا تقوم العادة الجمعية الا كعلاقة اجتماعية ، فاذا كنت أذهب الى الكنيسة لأن هذا واجب ، ولأن الجماعة التى أتنسب اليها تفعل ذلك ، وأننى اذا تخلفت عن أداء هذا الواجب تعرضت الى عدم ترحيبها بذلك ، أو اذا كان ذهابى الى الكنيسة بمهد لى السبيل لانجاز بعض الأعمال النافعة أو يمكننى من بعض اتصالات اجتماعية ، ففى جميع هذه الحالات يكون سلوكى مطابقا لعادة جمعية . واذا كنت بعيدا عن مجتمعى أو عن زمرة أتنسب اليها وأحسست برغبة فى عدم الذهاب الى الكنيسة فيكون سلوكى السابق من المؤكد منبثقا من عادة جمعية حتى ولو أدبته مقتنعا بأنه عادة فردية .

وللعادة الجمعية بالنسبة للفرد جزاء خارجى . انها أسلوب من سلوك الجماعة نفسها من حيث كونها جماعة . وكل عادة من هذا النوع تعمل بالتالى على الانسجام مع مثيلاتها مما يرمى المجتمع تنفيذه . انها جزء من

مركب يتألف من علاقات محددة تؤيدها الجماعة وتحميها . وكل فرد يساندها وان استخدم في ذلك السبيل عادته الفردية لاحتياسه بعضويته في المجتمع . ونحن لا نستحسن اعطاء اسم العادة الجمعية للعادات الفردية المتصلة بالقدرة التكنولوجية التي نكتسبها أثناء تعلمنا صناعة أو مهنة . نعم اننا مدينون بمثل هذه القدرات كذلك الى تراثنا الاجتماعي ، ولكنها لا تحتاج الى جزاء اجتماعي ازاء مخالفتها لأنها وسائل موضوعية مباشرة للغايات التي نستهدفها . وعلى ذلك فمهاراة الجراح المهنية عادة فردية لا اجتماعية ، ولكن آداب اللياقة التي يتبعها في مهنته عادة اجتماعية وإن كان يحدث أحيانا أن تكون فردية كذلك .

وتكشف لنا الصفة الخاصة للعادة الجمعية من طريق دراسة مجموعة كبيرة من العادات الجمعية التي لا يمكن أدائها الا بطريقة جماعية . وعلى وجه التقريب جميع الاحتفالات والشعائر والحفلات العامة من أى نوع تدخل في هذه المجموعة . وهي تستمد مدلولاتها من أن الناس يلتقون معا وباشتراكهم في مناسبة تهم الجميع يستحث كل منهم الوعي الاجتماعي للآخر . وهناك افعالات كثيرة لا بد لا رضائها من اجتماع عام واشتراك الآخرين ، ويسد هذه الحاجة مقدار كبير من العادات الجمعية مثل شعائر الدين والرقص والتقاء البعيدين والألعاب الاجتماعية ، الى آخره . ومثل هذه العادات الجمعية ليست بأى حال من الأحوال عادات فردية متشابهة وكثير منها في الواقع يشتمل على وظائف متباينة للقائمين بها .

٢ - العلاقة العلية بين العادة الفردية والعادة الجمعية : اذا كانت العادتان الجمعية والفردية متميزة احدهما عن الأخرى فهما في نفس الوقت مرتبطتان عليا في الحياة الاجتماعية . واذا تنقش الجماعة عاداتها في طبائع الصغار القابلة للتشكيل ، تعمل على أن تكسبها الشكل الذي تريده وتوجه قواهم الكامنة كما تحد منها كيفما تشاء . وتظل القوة الكامنة التي لم يصل اليها التوجيه مبشرة تحتاج الى عون . وخوفا من أن تتقاذف



ان العملية الاطراذية التى وصفناها آنفا — أى دور العادات الجمعية فى تحديد الاتجاه العام للعادات الفردية ودور هذه فى تأييد الأولى وتعديلها أحيانا — هى جانب هام فى كل نظام اجتماعى . وعندما تتوغل فى الفصول القادمة من هذا الكتاب لاستكشاف خصائص التركيب الاجتماعى ينبغى ألا ننسى أن فهم العادتين الفردية والجمعية وما بينهما من علاقة متبادلة ، يعلمنا أن جميع الظواهر الاجتماعية تدلنا آخر الأمر على أن موضوعها فى وقت واحد هو آمال الأفراد واستعداداتهم ومواقفهم والعادات الجمعية والنظم السائدة وغير ذلك من أساليب حياة المجتمعات الانسانية .

### الفرد فى مواجهة الآداب العامة

**الجوانب المتعارضة للآداب العامة والفرد :** للآداب العامة من وجهة نظر الفرد جانبان : أولا ، كما رأينا فى عملية غرس الأفكار والآراء وعملية التعود ، تعتبر الآداب العامة جزءا من طبيعته . وثانيا ، أنها تواجهه كمطالب ذات جزاءات اجتماعية ، ضاغطة عليه لتوجيه الميول التى ولد بها والتدخل فى رغباته الشخصية وتقديراته الخاصة . واذن فمن طبيعتها أن تبعث المقاومة وأن تخلق التنازع بينه وبين نفسه .

١ - **حمة المشكلة فى المجتمع الحديث :** يتضح التنازع بين رغبات الفرد وبين الآداب العامة أشد اتضاح فى المجتمعات المعقدة أكثر مما يبدو فى المجتمعات البسيطة وفى جميع المجتمعات يميل الطفل أثناء عملية غرس الأفكار فى رأسه خلال نموه ، بناء على حث المجتمع اياه ، الى أن يحاول الوصول الى تعليل عقلى للأفكار التى يتقبلها بلا تفكير ، وتظهر له قواعد الآداب العامة كما لو كانت أبدية ومقدسة ، لأنها جاءت من ممن يكبرونه أو من الله . ولكن حينما يتصل الطفل أو اليافع بجماعات جديدة ويمر بظروف غير تلك التى نشأ فيها ، أو يدخل عالما لا تسرى فيه سلطة أسرته أو نظام مدرسته أو تقاليد جماعته المحلية فان مسألة ما سبق أن تقبله من

تعاليم تتعرض للتحقيق . ان وجود آداب عامة جديدة يثير مسائل تتعلق بالأساس الذى تقبل بناء عليه آدابه العامة القديمة . وقد يؤدى التنازع بين الآداب العامة القديمة والقواعد الجديدة الى زعزعة شعوره بخيرية آدابه القديمة ، كما أنه قد يحدث اضطرابا فى الأمن النفسى للعالم الاجتماعى الضيق الذى يعيش فيه الطفل (١) .

هذا التحدى وذلك النوع من الاضطراب أكثر حدوثا وأشد خطورة فى المجتمع الحديث المعقد . أما فى المجتمع البدائى فالمرآة معناها بوجه عام التأهيل للأخذ بالأساليب القديمة للقبيلة . ان معناه فى المجتمع عكس ذلك ، ان معناه فى الغالب التأهيل للأخذ بالأساليب الجديدة ، التى كثيرا ما تكون غير مفهومة لدى الكبار ، والى حد ما تنطوى على تحرر مما غرس فى الأفكار منذ الصغر . وان ما يتبع ذلك من شكوك عامة وتنازع يمثل ظاهرة تختص بها الحياة الحديثة ويوجد بصورة مخففة كثيرا فى الحياة البدائية . وهذه الحالة تزداد حدة بما فى النظام الاجتماعى الحديث . من تعقيد وما يغمره من قواعد سلوكية أكثر ما تكون تضاربا .

٢ - مشكلة الفرد بشأن اختيار قواعد السلوك : يصطدم الفرد فى المجتمع الحديث بعدد منوع من قواعد السلوك تعرضه لضغط اجتماعى شديد كثيرا ما يكون مرهقا له . وهذه القواعد متضاربة فى الوقت الذى تسعى فيه لتحقيق التوافق فى المجتمع . والمشكلة التى يواجهها الفرد هى كيف يشق طريقه فى الحياة ، وهو مقيد بمقتضيات تقاليد أسرته ونظم العمل المختلفة والواجبات السياسية والمستويات الجنسية والتعاليم الدينية والاعتبارات الانسانية مثلا ، ثم أخيرا بضميره هو . وهذه الحالة التى فرضتها تعقيدات الحياة المعاصرة ومظاهر التضارب فيها ، قد شغلت

---

(١) لقد كشف بياجيه عن هذه العملية بطريقة تستحق الإعجاب فى :

J. Piaget, *The Moral Judgment of the Child* (New York, 1927). See also the analysis of G.H. Mead, *Mind, Self and Society* (Chicago, 1934), Part III.

انتباه المتخصصين في فن العلاج النفسى والمحللين النفسين في السنوات الأخيرة . وذلك لأن كثيرا من مشاكل توافق الشخصية والأمراض العصبية وبعض الأمراض العقلية وأمراض جشمانية كثيرة كذلك ، كما يدلنا علم الطب النفسى أو بعبارة أدق طب الأمراض الجشمانية الراجعة لأسباب عاطفية ، لا يمكن فهمها دون اعتبار الخاصة الاجتماعية المميزة للعصر الذى نعيش فيه <sup>(١)</sup> . وهذه مشكلة سنعود إليها مرة أخرى .

ومع ذلك فإن غالبية الأفراد في المجتمع يتصرفون وفق القواعد السلوكية . وبالرغم من أن كل فرد يشعر أحيانا بمقاومته في داخل نفسه لبعض أحكام هذه القواعد إلا أن معظمنا يقبل جميع القواعد معظم الوقت ، ويرى أن الآخرين يتمشون معها تماما في جميع الأوقات . وحينما يواجه الفرد بضرورة اختيار قاعدة السلوك من بين عدة قواعد ، فإنه يختار قاعدة بمحض ارادته ، تتألف من عدة عناصر مختارة في حدود القانون والعادات الجمعية ، ومستجيبة في نفس الوقت للمؤثرات التربوية والبيئة الاجتماعية ولكنها مع كل ذلك معبرة عن مجموع شخصيته الخاصة . وهناك أمور هامة تتدخل في اختيار الفرد قواعد سلوكه ، فمن جهة تعتبر حرية الاختيار ، أو احساس الشخص البالغ بنفسه ، علامة جوهرية تميز ثقافتنا الحديثة . إن هذه العملية المتعددة المراحل تقتضى بالضرورة التهوين من شأن الجزاءات الخارجية القاسية كجزاءات دين يوحى الخشية والرغبة ، كما كان ينظر إليها في مرحلة مبكرة في المجتمع الغربى .

---

See, for example, T. Burrow, *The Social Basis of Consciousness* (New York, 1927); K. Horney, *The Neurotic Personality of Our Time* (New York, 1937), especially Chap. XV, and *New Ways in Psychoanalysis* (New York, 1939), especially Chap. X; A. Kardiner, *The Psychological Frontiers of Society* (New York, 1945), Chap. XIV; and the articles by F. Alexander, T. Burrow, E. Mayo, P. Schilder, H.S. Sullivan, and B. Sapir in *The American Journal of Sociology* Vol XLII, No. 6 (1937). The problem is well stated by K. Mannheim in *Diagnosis of Our Time* (London, 1943), Chap. II and V.

ولا يمكن تطبيق هذه العملية في بيئات الأمم الاشتراكية حيث نجد السلطة الحاكمة تسد جميع مسالك الاختيار الا طريقا واحدة . ومن جهة أخرى ان حرية الفرد في أن يختار قواعد سلوكه الخاص يصح أن تمارس في ظروف اجتماعية لا تيسر ضمان حصول الفرد على حاجاته المادية ، ولا تهيم له الا عددا قليلا ، أو لا شيء على الاطلاق من القيم الاجتماعية القوية اللازمة لتحقيق أمنه النفسى . وهذا الوضع ، كما يرى بعض الكتاب ، يطابق الى حد كبير الأوضاع التى قامت في المجتمع الغربى أثناء المرحلة السابقة على الديكتاتوريات الأوربية الحديثة ، تلك الديكتاتوريات التى كان قيامها ينسب جزئيا الى شوق الفرد في العصر الحديث ، وإن كان هذا الشوق لا شعوريا ، الى « الهرب من الحرية » <sup>(١)</sup> . وعلى كل حال اذا كان للفرد أن يحتفظ بهذه العلامة الجليلة للنمو الثقافى ، وهى القدرة على اختيار قواعد سلوكه والرغبة في تحقيق ذلك الهدف ، فإن عليه في نفس الوقت أن يعمل على أن يخلق وأن يصون النظام الاجتماعى الذى يحمى حرية الاختيار ويضمنها .

٣ - **التقابل بين القواعد الاجتماعية والفردية للسلوك :** تمثل القواعد الاجتماعية مستويات معينة ، ولكنها ليست مثلا عليا للسلوك بمعنى الكلمة . وهى في حقيقتها قواعد للحياة اليومية العاملة ، مستمدة جزئيا من التقاليد وجزئيا من ضرورات الحياة في المجتمع . وكما سنرى في فصل لاحق ، تكشف كذلك القواعد الاجتماعية للسلوك عن المصالح السائدة لأصحاب النفوذ في جميع المجتمعات . وهذه القواعد ترجمة مجملّة الى صيغ وتعايير للتجربة المحدودة وتفكير متوسط العقلية العامة للمجتمع . ويقابل ذلك أن تعبر قواعد السلوك الاختيارية للفرد ، تعبيرا يتناسب مع قوة خلقه ووضوح ذهنه ، عن مجموع تقييماته الخاصة بما يبدو عليها من صراحة وتمييز . وهذه القواعد الفردية لا يمكن أن تضمن

(١) أنظر : E. Fromm, *Escape from Freedom* (New York, 1941).

بقاؤها بلا تأييد من القواعد الاجتماعية ، ولكنها تفوق هذه في المادة والحيوية والتفاصيل . والواقع أن ينبوع الرئيسى لحياة الفرد هو مجموعة التقييمات التى ينزلها من نفسه منزلة الاعزاز . ويحدث كثيرا فى داخل هذه التقييمات تنازع وتناقض يسببان فى الأحوال العادية توافقا مؤلما نوعا ما مع ما يعرض للفرد من تجارب جديدة . أما فى الأحوال العسيرة فقد يسببان تفككا فى الشخصية . وفى نفس الوقت يوجد أيضا بعض التنازع بين القواعد الفردية وبعض القواعد الاجتماعية السائدة للسلوك ، كثيرا ما يظهر أثره فى السلوك الجنىسى أو الاقتصادى ، وفى كثير من المجتمعات يتصل بالسلوك الدينى للجماعة التى ينتسب إليها الفرد .

**نوعان عامان من التنازع بين الفرد وقواعد السلوك :** عرفنا الآن أن هناك نوعين من التنازع : (١) ذلك الذى تكون فيه المصلحة الشخصية والتقييم الشخصى متعارضان مع قواعد سلوكية سائدة . (٢) ذلك الذى يكون فيه الفرد مشدودا من جهتين متعارضتين وفقا لأحكام قواعد مختلفة ، أى عندما يمكن تطبيق قاعدتين أو أكثر فى موقف واحد . ويوجد النوعان معا أحيانا فى حياة الفرد . ومن الأمثلة المليئة بالمعانى عن النوع الأول ذلك المثال الذى ينكر فيه الضمير الفردى صواب القاعدة السلوكية أو صحتها كموقف المواطن الذى يستقظع الحرب من أمر استدعائه من قبل الدولة للتدريب العسكرى أو القتال <sup>(١)</sup> . ويتصل بهذا النوع من التنازع اتصالا وثيقا بالحالة الآتية ، وهى مثال من النوع الثانى كانت حوادثه كثيرة الوقوع فى الماضى ولا يمكن القول بأنها لا تقع الآن .

---

On the general subject, see R.M. MacIver, *Community* (New York, (١) 1920), Book III, Chap. V. For various aspects of the problem, see K. Young, *Social Psychology* (New York, 1944), Chap. XV.

وذلك عندما تأمر تعاليم الدين الفرد بأن يسلك مسلكا يتعارض مع أحكام الدولة .

١ - أمثلة من الدراما : نظرا لأهمية هذين النوعين من التنازع في ذاتهما ، ولما يترتب عليهما من آثار ، نجد أنهما أصبحتا المادة الأولى للكتابة في الموضوعات الأدبية ، وعلى الأخص في القصص والتمثيلات . ومن أشهر التمثيلات التي تصور الاصطدام بين قاعدتين من قواعد السلوك الاجتماعي رواية أنتيجون لسوفوكليس حيث نجد البطلة مضطرة الى أن تختار بين تعاليم الدين فيما يتعلق بواجبها المقدس نحو أخيها المتوفى ، وبين تنفيذ أوامر الملك . والدراما ، كالحياة نفسها ، كثيرا ما تجمع بين هذين النوعين من التنازع كما في رواية هملت . ونلاحظ أن في جملة اقتاج الدراما منذ تمثيلات أورست الثلاث الى روايات المحدثين مثل إيسن ، شو ، جالسوورثي ، أونيل ، أندرسون واودتس ، يدور الموضوع الرئيسي حول المأزق الحرج الذي يقع فيه « البطل » وهو مضطر للأخذ بقاعدة سلوكية اجتماعية أو شخصية ، في الوقت الذي تحوطة فيه جزاءات من قاعدة أخرى متعارضة . ومما يعتبر ذا قيمة عملية ( سوسيولوجية ) أنه عندما تنتصر الجزاءات الاجتماعية على « البطل » كما في تمثيلات اغا مهنون ، ماكبت ، هملت ، والامبراطور جونز تتحول الرواية الى تراجيديا . وفي الغالب ، كما هي الحال في تمثيلات شكسبير عن فولستاف وبيرجنت وغيرها من التمثيلات التي تختتم فصولها بنهاية سعيدة نجد « البطل » يتخلص ببراعة وينتصر على قواعد السلوك الاجتماعية أو يصل الى حل وسط ، وتنتهي الرواية من الناحية الفنية الى أن تكون كوميديا . ويستهدف المؤلف الروائي الحضيف أن يقدر وأن يفيد الى أبعد حد من هذه القيمة الجليلة التي نعطيها بوجه عام الى ما يختار الفرد من قواعد سلوكية .

## البيان التوضيحي ٦ توافق الفرد مع القواعد الاجتماعية للسلوك

### قواعد السلوك

|                                                                |                |                           |                    |                                                                       |
|----------------------------------------------------------------|----------------|---------------------------|--------------------|-----------------------------------------------------------------------|
| قواعد قانونية                                                  | قواعد دينية    | قواعد روابط أخرى<br>رسمية | قواعد زمر<br>أولية | قواعد العادات<br>الجمعية                                              |
| جزاءات رسمية ←                                                 | ←              | ←                         | جزاءات غير رسمية ← | ←                                                                     |
| ↓                                                              | ↓              | ↓                         | ↓                  | ↓                                                                     |
| منطقة الاستجابة الشخصية                                        |                |                           |                    |                                                                       |
| أنواع التوافق                                                  |                |                           |                    |                                                                       |
| التنازع - نموذج ١<br>تنازع بين التقييم الشخصي<br>وقاعدة السلوك | التوازن النسبي |                           |                    | التنازع - نموذج ٢<br>اصطدام بين مظاهر الإخلاص<br>لقواعد سلوكية مختلفة |
| → اصطدام أو تنازع                                              |                |                           |                    | ← اصطدام أو تنازع                                                     |

٢ - التنازع في الحياة المعاصرة : أنظر الآن الى المشاكل التي تواجهنا في حياتنا اليومية . هل أمتنع صوتي للمرشح الذي يبدو أكثر كفاية من غيره للتربع على كرسى النيابة ، أو أتبع حزب أسرتي أو حزبه صاحب العمل الذي أعمل عنده ، أو حزب أقرب أصدقائي ؟ هل أسعى لوظيفة في محل تجاري أو مؤسسة من نوع المحال أو المؤسسات التي يعمل فيها أهلي بطريقة تقليدية ، أو أبحث عن عمل يناسب طبيعتي ؟ هل أخضع للقواعد القانونية وأستخدم عمالا على أساس مؤهلاتهم واستعدادهم لأداء العمل ، أو هل أتمشى مع عادات الجماعة مفضلا توظيفه البيض على الزنوج أو غير اليهود على اليهود ؟ وهل أتزوج الشخص الذي

أحبه وقد يكون يهوديا أو كاثوليكيًا أو من أتباع أية ملة أخرى ، أو الزوج الفتاة « اللطيفة » التي تتناسب مكاتبتها الاجتماعية مع ما تقره الجماعة التي أتسبب إليها ؟ ( كذلك تتساءل الفتاة عن الرجل الذي يتقدم لطلب يدها ) . هل أظل وفية لزوجي ، أو وفيا لزوجتي ، جنسيا ، أو هل أبحث عن علاقة أخرى لأشبع رغباتي الخاصة الحبيسة في أعماق نفسي ؟ وهكذا .

هذه ضروب من التساؤل تواجه كلا منا عندما نفاضل فيما بين القواعد الاجتماعية للسلوك أو بين هذه القواعد وبين قواعدنا الفردية . ويدور في البيان التوضيحي ٦ مدى الضغط الذي يتعرض له الفرد ومدى توافقه مع جهات الضغط . ويمكن أن تأخذ مظاهر التوافق أشكالا كثيرة كما رأينا ، منها ما نشاهده في الأفراد الذين تصفهم ثقافتنا بأنهم «عصيون» أو « غير متوافقين » ، وهؤلاء بعض مظاهر محاولات التوافق الشخصي . ولو كان من الممكن أن نبين في أسفل البيان التوضيحي المذكور جميع أنواع التوافق مع القواعد السلوكية لأظهرنا أقساما فرعية من الكثرة بحيث تتفق وعدد الشخصيات الفردية نفسها .

**أشكال أخرى للتنازع بين الفرد والمجتمع :** ليس من السهل دائما أن نفرق بين تنازع الفرد مع القواعد السلوكية وبين صراعه مع الظروف التي تعارض نشاطه أو تحد منه ثم تمنحه ما تسمح به ، إذ هو قد يعتبر هذه الظروف كما لو كانت مفروضة عليه من النظام الاجتماعي . ويصدق هذا بصفة خاصة على الصراع الاقتصادي من حيث أن ما يحاربه الفرد من حرمان وقيود في هذا الميدان يتوقف إلى حد ما على القوانين المنظمة للملكية والميراث وجمع الثروة وتوزيعها . أن الظروف السائدة في المجتمع شديدة الارتباط بقواعدها السلوكية لدرجة أن هذه القواعد تتنازع في عدة مناسبات مع رغبات الفرد وحوافزه ، وعلى الأخص مع أقوى الحوافز ، ونعني بذلك ما يتصل منها بالملكبة وبالغريزة الجنسية .





بطريقة واحدة ويسلكون سلوكا واحدا يقتضى أن تعطل فيهم ملكة التفكير . والتاريخ مليء بحوادث كتب العقول صاحبة الاصاله والأقل انصياعا لتفكير الجماعة لتفوقهم عليها .

٢ - متى يكون التنازع حتميا : فيما عدا الصعوبات التى ذكرناها توجد صعوبة أخرى تكمن فى طبيعة المجتمع بالذات . ففى كل موقف أو بيئة اجتماعية بما فى ذلك الدائرة الضيقة جدا المتعلقة بحياة الفرد الخاصة لا يحيا الانسان وحده ، بل مع الآخرين ، وكل من يوجد فى موقف معين عليه ألا يتوافق مع الآخرين فحسب ، بل أيضا مع هذا الموقف المشترك . واذن فبعض المطابقات فى السلوك مطلوبة منه كذلك . فاذا عرفنا أن هناك موقفا مشتركا وشخصا آخر أو أشخاصا آخرين ، وموقفا يقتضى قواعد سلوك متطابقة ، وفردا يحاول أن يهتدى الى نفسه — أدركنا أنه لا بد أن تنشأ عن كل هذه الأمور مظاهر تنازع لا حصر لها .

وأعنف صور هذا التنازع هى ، من جهة ، ما تلجأ اليه السلطة من أساليب لا تشفق ولا ترحم للعصف بالفرديه باسم السلامة الاجتماعية ، ومن جهة أخرى ، الخوف والتلهي والثورة وانعدام الاستقرار النفسى ، وهى ظواهر تعتبر فى نظر القانون صادرة عن أشخاص « شواذ » ، وهم فى أعين السلطة « ضد الحياة فى المجتمع » . وهذا الصراع بين التطابق مع المجموع وبين الفرديه قد تستبين بوضوح تام فيما يبدو من احتجاج وقد ذكى من « رجال الفكر » أو من أفراد « الطبقة المستنيرة » الذين يصفهم البعض بسبب تقدمهم المتواصل بأنهم « غريبو الطبع » أو « مرضى بأعصابهم » <sup>(١)</sup> . والسلطة سواء انبثقت عن حزب سياسى دكتاتورى ، أو عن جمعية من الجمعيات صاحبة النفوذ ، فهى عندما ترغب الفنان مثلا على الخضوع لقواعد سلوكية معينة ، يفقد الأخير ، على التحقيق ، حالة

Gf. A. Koestler. "The Intelligentsia", *The Yogi and the Commissar* (New York, 1945), pp. 61-76.



الغرض (١) . وقليل من الأفراد يخلقون مدنا فاضلة في صياغة أدبية ، ولكن « العقلية الأوتوبية » القدرة على تخيل نظام اجتماعي آخر أفضل من النظم المعروفة ظاهرة شائعة . وأولئك الذين يملكون هذه العقلية يسمون في أغلب الأحيان « الحالمون » ، ويطلق عليهم هذه التسمية المدافعون عن الأوضاع الراهنة . على أن هؤلاء يحلمون أيضا اذا فاتهم أن يلاحظوا أن أحلام المدن الفاضلة وما يقدسون هم من قواعد سلوكية وسلطات انما تكون معا جزءا هاما من الحقيقة الاجتماعية الواقعة والدائمة التغير (٢) .

وأفضل القواعد الاجتماعية للسلوك ما تضمنت المستويات التي تتقبلها الجماعة بوجه عام . وهذه القواعد لا يمكن أن تسد مطالب كل موقف على حدة ، ولا أن تنظم تنظيما تاما موقف الفرد وسلوكه ازاء مجتمعه . وهذه النقطة تنتهي بنا الى المسألة الأخيرة في هذا المبحث ، وهي المصالحة بين شيئين كل منهما ضروري للحياة ، الأول مجموعة القواعد الاجتماعية للسلوك والثاني رأى الفرد أو حكمه .

### قواعد السلوك والحكم الفردي — مشكلة الحرية الخلقية :

القواعد الاجتماعية للسلوك والموقف ( الظرف ) الخاص : بقى أن تتساءل في هذا القسم الأخير من الفصل عن موضوع سبق أن حير الفلاسفة وغيرهم عدة قرون . وهو موضوع الحرية الخلقية بالنسبة للفرد الذي هو عضو في المجتمع . انها مسألة « فلسفية » ، على التحقيق ، ولكن الاجابة عنها ، كما سنرى ، ترتكز على فهم سوسيولوجي كاف .

---

L. Mjmford, *The Story of Utopias* ( New York, 1922 ), Chap. I. In (١) addition to this excellent analysis, see also J.O. Hertzler, *The History of Utopian Thought* (New York, 1926), especially Part Two.

For an analysis of the utopian mentality, various in its forms, and its (٢) social functions, see K. Mannheim, *Ideology and Utopia* ( New York, 1936 ), Part IV.

١ - حدود القواعد السلوكية : تحدث واحد من أهل العلم  
 «القدماء ذات مرة عن القانون والعدالة كشيئين متضادين ووصف الأول  
 بأنه يشبه قضيا صلبا لا يستطيع أن يقيس الا السطوح المستوية ،  
 ووصف الثانية بأنها مسطرة مرنة يمكن أن تلتوى لتقيس الأركان  
 والكرائش في المباني القائمة فعلا (١) . ويمكن أن نحتذى مثل هذا  
 التمييز بين المعايير الاجتماعية والعوامل الموجهة لسلوك الفرد في كل  
 موقف أو ظرف واقعى . ان المعايير الاجتماعية لا تستطيع أن تلم في كل  
 موقف بجميع ملابساته الموجهة للسلوك . انها لا تنزل من عليائها وتتجاوز  
 الكليات لتعطينا تفصيلا عن خط السير الملائم لكل ظرف خاص . وفي  
 هذا النسيج الذى يتألف من أحداث الحياة ويتنوع الى غير حد لا نجد  
 مناسبتين متشابهتين من كل وجه . ان هذه المعايير الاجتماعية مبادئ  
 لتحديد السلوك تعمل في داخل منطقته الواسعة . ولا يستطيع أرق  
 الأفراد وأكثرهم وداعة أن ينظم حياته بهذه المعايير وحدها . فهى ليست  
 كمعلمى المدارس الذين يخصصون لكل وقت عمله . وهى من النادر أن  
 تقول مثلا : أفعل هذا ، هنا ، والآن — وحتى اذا ذهبت الى هذا الحد  
 كما يفعل القانون السياسى الى درجة ما ، فإن المقصود فى هذه الحالة ألا  
 يتجاوز الأمر المظهر الخارجى للسلوك .

ولنتأمل عددا من المواقف المختلفة . ان قواعدنا الخلقية تأمرنا بصدق  
 القول ، ولكن من الحماسة أن نفهم من هذا أنه بمقتضى هذه القواعد  
 ينبغى أن نقول كل الحق فى كل شيء لكل انسان فى كل مناسبة . فهل  
 يجب مثلا أن أقول الحق لرجل مجنون يسألنى عن صديق لى لكى يقتله ؟  
 وهل يجب على الطبيب أن يقول الحق لأحد مرضى الأعصاب وبذلك  
 يجعل حالته تزداد سوءا ؟ ونقول القواعد الخلقية أيضا بوجوب أن يكون  
 المرء عادلا فى معاملاته مع الغير ، ولكن من من الناس من غير المتعاملين معا

Aristotle, Ethics, II37c. (١)

يمكنه أن يقرر حقيقة العدل أو معناه ساعة التعامل ؟ ومن يستطيع أن يقرر أى قواعد السلوك المختلفة وأى أوامرها المتعددة أكثرها ملاءمة لموقف معين ؟ ويتحتم فى التحليل الأخير أن يتخذ القرار الفرد الموجود داخل الموقف ، وهو الذى عليه أن يفسر بطريقة ما الموقف والقواعد السلوكية معا .

٢ - كيف تطبق القواعد السلوكية على الموقف أو الظرف الخاص ::  
هناك طريقتان مرتبطتان أحدهما بالأخرى كل الارتباط تؤثر بهما القواعد الاجتماعية على السلوك الإنسانى ، وبالتالى على الموقف أو الظرف الخاص نفسه . وكلتا الطريقتين ذات أهمية كبيرة فى الحياة الاجتماعية ، غير أنه لا تسعفنا أى منهما بتفسير العلاقة بين قواعد السلوك وبين العمل أو السلوك نفسه .

أولاً - غرس الأفكار والمعتقدات : تكون قواعد السلوك أساس العادات الفردية وذلك من طريق غرس الأفكار والمعتقدات . وفى أثناء عمليات التربية تترجم قواعد السلوك للصغار دائماً فى صورة أوامر .. فينشأ هؤلاء بالتدريج ناظرين الى أى موقف أو ظرف خاص يمرون به نظرة العارف لنوع السلوك ينبغى اقتفاؤه للتغلب على الموقف . فإذا تكرر الموقف وتكررت معالجته بنفس الكيفية نشأت عادة فردية توافق هذه المناسبة . والشباب الذين يمرنون على الذهاب الى الكنيسة مثلاً صباح الأحد من كل أسبوع مع ما يصاحب ذلك من تغيير فى نظام البيت فى هذا اليوم ، وتوقف للعمل اليومى ، وخلع الملابس العادية وقرع الأجراس فى الكنائس الى آخره ، يتكون لديهم من وراء ذلك كله حافظ شامل يستحثهم على الذهاب للكنيسة من طريق تكوين عادات فردية على هذا الأساس . وهكذا بتداخل المواقف بعضها فى بعض تدخل عملية غرس الأفكار ، وبهذه الطريقة تتجه عادات الفرد نحو المطابقة مع أساليب الجماعة .



ما يعبر عن موقف جماعى ازاء من ليسوا منها ، حينما يجرى الشعار على هذا النحو — « يقولون . ماذا يقولون ؟ دعهم يقولوا » : ولكن لا أحد فى الواقع يمكن أن يظل غير مكترث ، أو غير متأثر بأراء جيرانه ، وكما رأينا تقوم الجزاءات الرئيسية لقواعد العادات الجمعية والعادات المستحدثة على ضغط الرأى العام ، بينما أن هذا الضغط نفسه يؤلف جزاء اضافيا لقواعد أخرى مثل قواعد الدين والقانون . وإن احساسنا الدائم بما عسى أن يقول الناس فينا ، يعبر عن نفسه من جهة برضائه الايجابى عن مطابقة سلوكنا لسلوك الآخرين ، ومن جهة أخرى بكراهيتنا لكل ما يترتب على عدم المطابقة سواء بطريق مباشر أو غير مباشر . وهو يؤيد قواعد السلوك العامة ويساعد على استمرارها ضد كثير من مظاهر الاغراء بالثورة الفردية عليها . ومن دلائل قوة الرأى العام أننا لا نكون فى موقف سهل اذا عجزنا عن عمل ما يتوقع أقراننا أن نعمله . وهذا الحرج الذى نستشعره بسبب مخالفتنا لاتجاهات الجماعة يوزع فى الحال بدلالة أخلاقية .

### ٣ - الموقف أو الظرف الخاص ومسألة مقاييس السلوك : توجهنا

كل من عملية غرس الأفكار والمعتقدات واتجاه الرأى العام أن نختار فى كل موقف أو ظرف ملموس هذه النواحي المشتركة أو العامة التى تحظى بقيمة خاصة عند الجماعة ثم نسير بمقتضاها ونجعلها خطة سلوكنا . ومع ذلك فإن تعقد الموقف الخاص لا يمكن أن نغفله ولا أن نجعل حل هذا الموقف مشروطا بما نتوقع أن تقدمه لنا الجماعة من قواعد عامة مشتركة لأن هذه القواعد تقرر سلوكا موحدا . وهناك فوق ذلك مواقف كثيرة الحدوث تتدخل فيها تعاليم كثيرة وقواعد سلوكية متعددة تفرض نفسها فرضا . فكيف مثلا تحل قواعد السلوك مشكلة الشاب الذى عليه أن يختار بين عدم الاخلاص فى أداء صلاة لا يؤمن بالعقيدة الدافعة لها ، وبين التسبب فى حزن عميق لوالده العاجز ، أو مشكلة الفتاة التى عليها أن تختار بين حبسها ودينها ، أو الكاتب الذى عليه أن يضحي بمثله العليا

الأدبية ليضمن حياة رغدة ، أو صاحب العمل الذى يجب أن يختار أحد أمرين : اما اعلان افلاسه واما الأخذ بأساليب جديدة فى المنافسة التجارية لا يرضى بها ، أو العامل الذى طلب منه أن يشترك فى اضراب يعتد أن هناك ما يسوغه ، لكنه قد يعرض أسرته بذلك للفاقة والعوز ؟ هذه أمثلة قليلة واضحة عن مشاكل السلوك وهى تقوم دائما فى أشكال أكثر تعقيدا مما صورنا فى الحياة اليومية .

ومن الجلى أن كلا من هذه الأمثلة يشتمل على مشكلة خلقية للفرد ، هى بالنسبة له تفوق أحكام قواعد السلوك الجمعية ذات النمط الواحد . وعلى ذلك فعندما يزعم البعض أنه « للأغراض العملية يمكن أن يقال ان مقاييس السلوك معناها العادات الجمعية » <sup>(١)</sup> ، فإن هذا يكون تبسيطا للمشكلة زائدا عن اللازم . ويمكن للأخلاقيات بالطبع أن تستمد جذورها من العلاقات الاجتماعية تاريخيا بالنسبة للجماعة ، وسيكولوجيا بالنسبة للفرد . ولكن تطور البحث فى المسائل الخلقية ، على الأخص فى المجتمع المعقد وما به من قواعد سلوكية وفيرة العدد ومتضاربة فيما بينها ، يستلزم من كل فرد أن يشارك فيه بحكمه وأن يتخذ فيه قرارا . وبهذا المعنى تقوم الحرية الخلقية للفرد كاحدى وقائع الحياة الاجتماعية <sup>(٢)</sup> .

عدم كفاية قواعد السلوك وضرورتها فى الحياة الاجتماعية : عرفنا أن لمسألة الحرية الخلقية جوانب سوسيولوجية هامة . وفى الواقع إن مدلولها الحقيقى لا يمكن فهمه الا اذا أدركنا أن القواعد الاجتماعية للسلوك جوهرية جدا ، وفى نفس الوقت غير كافية لتوجيه حياة الأفراد .

---

Dewey, *op. cit.*, Part One, V. See also Part Four, IV. (١)

For A pertinent discussion of this problem in somewhat different (٢) language but with a similar conclusion, see P.W. Bridgman, "Freedom and the Individual," in *Freedom, Its Meaning* (R. N. Anshen, ed., New York, 1946), pp. 523-537.



٢ - ضرورة القواعد الجمعية للسلوك : وإذا كنا نذكر كفاية القواعد الجمعية للسلوك فقيم اذن اصرارنا على القول بأنها ضرورية ؟ نحن نرى أن الفرد بدونها يصبح مشتتا وبائسا . تشربها منذ الصغر خلال عملية غرس الأفكار والمعتقدات وتكون العادات الفردية ، كما أطبقت عليه من بيئته الاجتماعية ، وأصبحت بذلك قادرة على أن توجه الحكم الفردي في نطاق الاجراءات الميسورة عمليا . وبدون هذه القواعد يكون عبء الوصول الى قرار أمرا لا يحتمل ، ويتخبط الفرد في سلوكه ويدخل مع الضالين . ولن يكون ليله أهون من نهاره ، فستلاحقه الأحلام المزعجة في منامه . إن القواعد الجمعية للسلوك تيسر للانسان أساسا قويا يمكنه من أن يقيم علاقات مع أخيه الانسان . انها تكشف له عن وجوه الشبه بينه وبين أقرانه ومظاهر الوحدة التي تربطه بهم وتربطهم به . وكذلك تمنحه عضوية المجتمع ، وتدعوه للمشاركة في وصل ماضي البشرية بمستقبلها ، وأخيرا ترشده الى النصيب الذي ينبغي أن يسهم به في حياة المجتمع الانساني .

المشكلة الاخيرة : التوفيق أو المصالحة بين القاعدة الجمعية للسلوك والحكم الفردي : ناقشنا في فصول سابقة بعض الأضداد المنطقية مثل : الفرد ضد المجتمع ، والتنازع ضد التعاون ، والوراثة ضد البيئة ، ولاحظنا أن جميع هذه الأضداد لا تتعارض تعارضا أساسيا في الحياة الاجتماعية نفسها . ولدينا هنا حالة مماثلة ، تتلخص في : الى أي حد وبأية كيفية اذن يمكن التوفيق بين ضرورة القاعدة الجمعية للسلوك والضرورة المقابلة لها وهي حكم الفرد ؟

من المؤكد أن في استطاعتنا الوصول الى مصالحة جزئية تتناسب من حيث درجة كفايتها مع شخصية الفرد وطبيعة النظام الاجتماعي . لقد رأينا في الفصل الثالث أن الفردية لا تستطيع أن تنمو بعيدة عن المجتمع وأن المجتمع يحمده اذا أطاق بالفردية . ولنذكر أن الفرد من خلال مصالحه



المحكمة ، وربما كانت لا تدري أنها تغرس في نفوس أتباعها ما ستبين.  
آخر الأمر أنه أضعف الوفاء للجماعة لا أقواه (١) .

وفي الواقع لا يوجد انسان يمكن أن يكون حيوانا آليا ، يعكس في سلوكه أحكام قواعد مجتمعه ولا شيء غير ذلك . وقد كان الرجل البدائي يصور هكذا فيما مضى بأقلام كتاب كثيرين حتى أثبتت الأثروبولوجيا الاجتماعية ( علم الاجتماع المقارن ) بطلان « الزعم بأن في المجتمعات البدائية ، يعيش الفرد خاضعا تماما لسيطرة الجماعة أو الزمرة ممثلة في تجمعات متنقلة أو عشائر أو قبائل — وأنه يطيع أوامر الجماعة التي ينتسب إليها وتقاليدها ورأيها العام وأحكامها طاعة عمياء مقترنة بالاستلام » (٢) . والذي يجدر بنا أن نلاحظه أن روح الطاعة العمياء التي نجد أمثلة تقرب منها في كل المجتمعات المتحضرة والبدائية على السواء ، وعلى الأخص في مسائل المعتقدات هي أبسط وليست أرقى مظاهر التعبير عن العقلية الاجتماعية . فلكي يكون المرء اجتماعيا بكامل المعاني ينبغي أن يكون مسئولاً اجتماعيا ، وأن ينقل الموقف الاجتماعي اذ يؤثر فيه ويتأثر به ، مركز وعيه ، وأن يتصرف على هذا الأساس . ومع ذلك فهذا بيان عن المثل الأعلى نجده في الواقع بدرجات مختلفة من الكمال والنقصان في الحياة الواقعية .

بهذا الفصل ينتهي الجزء الأول من هذا الكتاب . وقد أوضحنا فيه كيف تتأثر العلاقات بين الناس بالنمط الذي عليه الآداب العامة ، والقواعد الاجتماعية للسلوك ثم بالجزءات . وقد ميزنا بين الأنواع الكبرى لقواعد السلوك والجزءات ، كما ناقشنا مدلولهما الوظيفي

---

For a scathing evaluation of the ruling regime of Soviet Russia in the (١) form of a fable, which incorporates the point made above, see G. Orwell, *Animal Farm* (New York), 1946).

Cf. B. Malinowski, *Crime and Custom in Savage Society* (New (٢) York, 1926).

بوجه عام من حيث صلته بالحياة الاجتماعية . كذلك تناولنا العمليات  
الاطرادية المختلفة التى تستهدف جعل الفرد جزءا من تركيب يتألف من  
علاقات اجتماعية . وفى نفس الوقت ، رأينا ، مرة ثالثة ، أن الحياة  
الاجتماعية لا يمكن أن تفهم تماما الا اذا أدخلنا فى الاعتبار دور الفرد  
فيها — مواقفه وأحكامه وتصميماته . ويبقى أمامنا الآن العمل الأكبر  
المتعلق ببحث الأشكال الرئيسية للتركيبات الاجتماعية التى ولدنا ونشأنا  
فى بعضها لنمارس العمل وننعم بالمرح والأجر الحسن والمعرفة المتبادلة  
تارة ، وللصراع والعقاب تارة أخرى ...

---



## المشتركون في هذا الكتاب

المؤلف : — روبرت موريسون ماكيفر

— ولد في ستورنوي باسكتلندا في ١٧ أبريل ١٨٨٢ .

— حصل على الماجستير من أدنبرة عام ١٩٠٣ وعلى بكالوريوس الآداب من اكسفورد عام ١٩٠٧ وعلى الدكتوراه عام ١٩١٥ ونال عدة درجات علمية رفيعة من جامعات كولومبيا وهارفارد وپرستون وييل . وشغل كراسى علم السياسة وعلم الاجتماع والفلسفة السياسية في عدة جامعات أمريكية وزميل بالجمعية الملكية البريطانية .

— أستاذ كرسى الفلسفة السياسية والاجتماعية بجامعة كولومبيا .

— من مؤلفاته بالانجليزية : الجماعة المحلية ، ومبادئ العلم الاجتماعى ، والدولة الحديثة ، والمجتمع تركيبي وتغيراته ، والعلية الاجتماعية ، المجتمع والعمال في عالم متغير ، وحرية الفكر الاكاديمى في زماننا .

المؤلف : — تشالز هنط يدج .

— ولد في توناواندا بنيويورك في ١٢ أبريل سنة ١٩٠٩ .

— حصل على درجة بكالوريوس الآداب من الينوى عام ١٩٣١ ودكتوراه الاجتماع من جامعة كولومبيا عام ١٩٣٩ وشغل كرسى الاجتماع والانثروبولوجيا في بعض الجامعات الأمريكية ويربط في تدريسه بين علم الاجتماع والانثروبولوجيا .

ISBN 978-9933-407-05-6



9 789933 407056